تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ISBN : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أوضح ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلّامة الشّيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلّد الثّامن

تفسير سورة نوح إلى نهاية سورة النّاس

وتليه الفهارس العامّة لكامل التّفسير

اعتنى به وقدّم له

محمد أحمد مكّي

أروقة

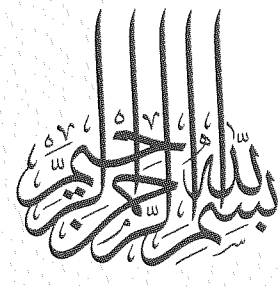
بسم الله الرحمن الرحيم



مكيَّة، وهي ثمان وعشرون آية

والغَرَضُ منها:

إنذارُ المشركين بالعذاب، كما وقع لقوم نوح.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ فدعاهم إلى الإيمان، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ[1] ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ[2] وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لا ينالكم فيه عذاب،

---

(١) قال نوح: يا قومي إنِّي لكم نذيرٌ ظاهر واضح، مُبيِّن مُوضِّح لحقائق الدين وشرائعه.

(٢) أي: إن تعبدوا الله وتتقوه وتطيعوني فيما أدعوكم إليه، يَستر لكم بعضَ ذنوبكم، وهي حقوق الله عليكم، فلا يؤاخذكم عليها، ولا يُجازيكم بعذاب على اقترافها، ويُبْقي عليكم حقوق العباد، فهذه إمَّا أن تؤدُّوها، أو تؤدُّوا تعويضاً عنها، أو يُسامحكم أصحابها.

وهي الآجال المقدَّرة لهم في الدنيا، فلا يَتعدَّى كلُّ واحد أجلَه؛ ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾، وفي هذا إغراءٌ لهم بالإيمان، وتحذير من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

ولا زال يدعوهم إلى الإيمان وحُسْن الأعمال، ويُنذِرُهم عاقبةَ كُفرهم، ويُحذِّرهم بَطْشَ ربِّهم، حتى ضاقت عليه الحِيَل، وبلغ منتهى الجهد والعمل، وهم مُصرُّون على الكفر والعصيان، دائبون على العناد والطغيان، فيئس من إيمانهم، و﴿قَالَ﴾ يتأسَّف ويتحزَّن ويشكو إلى الله: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ ممَّا دعوتُهم إليه، ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان؛ ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذنوبَهم، ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾[1] أي: غطُّوا بها وجوهَهم.

ويجوز أن يكون الكلامُ ليس على الحقيقة، وإنما هو مُجَرَّد تمثيل لِمَا يُراد به من المعنى، وهو الإعراض والإصرار الشديد. وعلى كلٍّ، فالمراد به: أنهم أعرضوا إعراضاً شديداً، ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على كفرهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾.

قال قتادة: إنَّ الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح، فيقول له: احذر هذا لا يُغوِيَنَّك، فإنَّ أبي قد ذهب بي إليه، وأنا مثلُك، فحَذَّرني مِثلَ ما حذَّرتُك[2].

---

(١) أي: وإني كلَّما دعوتهم ليؤمنوا بك؛ ليكون سبباً في غفرانِك ما كان منهم من ضَلالات، جعلوا أطراف أصابعِهم في آذانهم، ولو استطاعوا لأدخلوا أصابعَهم كلها؛ لئلّا يسمعوا دعوتي، وليُشعروني بأنَّ أقوالي صارت محفوظة لديهم، ونفوسهم تشمئزُّ منها، وتتقزَّز من سماعها، وغطُّوا وجوهَهم بثيابهم؛ لئلّا يروني، وليشعروني بأني صرتُ ثقيل الظلِّ كريهاً لديهم، ولزموا بعنادٍ ما هم عليه من كفر، واستكبروا عن الإيمان بك تكبُّراً مُسْرفاً شنيعاً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٥٥٣ و٥٥٤).

ثم بيَّن نوحٌ عليه السلام أنه بلغ أقصى جهده في دعوتهم إلى الإيمان، فقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾[1] أي: إني سَلَكتُ معهم في الدعوة كُلَّ مَسْلَك، سرّاً وجهراً، وحاولتُ إقناعَهُم بشتَّى الوجوه أن يُؤمنوا بالله، فلم يُجيبوا.

ويجوز أن يكون الجهر في الصورة الفرديَّة، والإعلان في الصورة العموميَّة، والإسرار إذا اقتضاه التَّحفُّظ أو عندما يلزم ذلك من الظروف.

ثم ذكر صورة الدعوة، وكيف كانت مقرونةً بالمرغِّبات، فلم تُجْدِ نفعاً، وقال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ وكانت أراضيهم قاحلة.

قال الرازي: ولا شك أن الاشتغال بالطاعة سببٌ لانفتاح الخير[2]. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

---

(١) أي: ثمَّ إني بعدَ اليأس من استخدامِ أسلوب العرض العادي على أفرادِهم وجماعاتهم، دعوتُهم في مجامعهم خطيباً مُعلناً بأعلى صوتي، ثم بعد اليأس من دعوتهم جهاراً، اتَّخذت أسلوب الإعلان والإسرار، فدعوتُ بعضهم علانية بالمحادثة والحوار والمجادلة، ودعوتُ أفراداً منهم بأسلوب الحديث السرّي، ولم أنشره وأحدِّث الناس به؛ ليكون أدعى للتأثير بهم.

(٢) «تفسير الرازي» (٣٠: ٦٥١).

أقول: لأنَّ في إقامة شرائع الله إصلاحاً للنفوس، وتهذيباً للعقول، وتنظيماً للأحوال، ونشاطاً في الأعمال، واتِّباعاً لسُنن الكون ونظام الحياة الصحيح؛ لأن الشرائع الإلهيَّة منطبقة على السنن الكونيَّة، ولا شك أنه ينبعث عن ذلك كلُّ الخير والرفاه في أحوال أفراد الإنسان الاجتماعيَّة وتدبير شؤونهم الشخصيَّة.

وعن الحسن: أنَّ رجلاً شكى إليه الجدب، فقال: استَغفِر الله، وشكى إليه آخر الفقر، وآخر قِلَّة النسل، وآخر قِلَّة رَيْع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا هذه الآية[١].

وعن عمر رضي الله عنه: أنه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استَسْقيت؟ فقال: لقد استسقيتُ بمجاديح السماء[٢]. والمجدح: ثلاثة كواكب، ونَوْؤُه يكون غزيراً، فشبَّه عمر رضي الله عنه الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ، واستعارها له بحسب عُرف التخاطب الجاري بينهم منذ مدة الجاهلية، ولا يقدح في ذلك بطلان تأثير الأنواء؛ لأنَّ الجمل ذات المعاني العرفية قد لا يُرادُ بها معانيها الحقيقية.

أقول: وتدلُّنا هذه الآية على ما كان عليه البشر في الدهور الماضية قبل أن يتكامل إدراكُه، وهو أنَّ دعوته إلى الدين إنما كانت من طريقة التأليف والتأثير بالعاطفيات والماديات، لا بطريقة المنطق الوجداني والتحليل العلمي والبرهان الصحيح[٣]، فلم

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٦١٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٠٢).

(٣) في كلام المؤلف نظر، فالحجج التي أقامها الأنبياء في دعوتِهم أقوامَهم تقوم على البرهان الصحيح، وما جاء في القرآن هو جمع لهدايات الأنبياء الذين اهتدى خاتم الرسل بهدايتهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

يأت ذلك إلا في القرآن، بعد أن تكاملت نشأة العقول البشرية، واتَّسع أُفق النظر بالثقافات الفكرية. وعلى هذا الأساس اقترنت دعوة سائر الأديان بالمعجزات العاطفية، إلا الديانة الإسلامية، فقد اعتمدت في الإقناع على المنطق الوجدانيّ والبرهان العقليّ، الذي جاء به القرآن العظيم في إثبات الأسس الثلاثة: التوحيد، والبعث، وأثر الأعمال الصالحة في معاش الإنسان ومعاده.

وبعد أن رغَّبهم بذلك، رهَّبهم بقدرة الله القويَّة، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ والوقار: العَظَمةُ التي منها القدرة، وقد ضمَّن ﴿تَرْجُونَ﴾ معنى الاعتقاد؛ ليدلَّ على المعنيين معاً، على نهج القرآن في مثله. والمراد: مالكم لا تعتقدون عَظَمةَ الله وقدرتَه البالغة في حشركم وحسابكم، وله فيكم آثار عظيمة، وكيف لا تُوحِّدونه وتُعظِّمونه لتنالوا رحمتَه وثوابه، كما قال ابن عباس ومجاهد: المعنى: ما لكم لا تُعَظِّمونَ الله حقَّ عَظَمتِهِ فتوحِّدوه وتطيعوه، وقد خلقكم نُطفاً ثم عَلَقاً ثم مُضْغةً ثم عظاماً[1]، يعني ـ والله أعلم ـ أن الموت والحياة الثانية طَوْران من تلك الأطوار.

ثم تابع دليل القدرة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ المراد بها ـ والله أعلم ـ طبقات النجوم، فإن كلَّ طبقة منها في مستوى واحد، وبينها وبين التي تليها بُعْدٌ شاسع. وقد مرَّ الكلام على طبقات السماوات والأرض في آخر سورة الطلاق، فارجع إليه[2]. ويجوز أن يكون ﴿طِبَاقًا﴾ مصدراً؛ يُرادُ به المطابَقة والمشابهة فيما بين الأجرام السماوية.

---

(١) ينظر «تفسير الطبري» (٢٣: ٦٣٤-٦٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨: ٣٠٣).

(٢) وارجع في التعليق هناك وفي مواضع سابقة أيضاً إلى تعقب المؤلف رحمه الله في هذا المعنى، وبيان أن طبقات النجوم كلها ما هي إلا جزء من السماء الدنيا فحسب ينظر (٧: ٤٢٣، ٤٤٤).

ثم تابع الكلام بقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ ويُفهَمُ من هذا حقيقة الشمس والقمر، وهي أنَّ الشمس جِرْمٌ مشتعل مضيء، والقمر مادة جامدة غير مشتعلة، وإنما تنعكس عليها أشعَّة الشمس فتنيرها، كما تفعل بالأرض نهاراً. ويُفهَمُ أيضاً أنَّ الضياء يُطلق على الأشعة الفائضة من الجِرم المشتعل، والنور يطلق معكس تلك الأشعّة، ومعلوم أن الأجرام السماوية قسمان: مشتعلة وهي الأقل، وغير مشتعلة تأخذ النور من المشتعلة، وهي الأكثر.

ثم تابع البيان عن قدرته تعالى، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ أي: أنشأكم منها إنشاءً. وهذا إما أن يُراد به خِلقةُ آدم من التراب، فيكون فيه نسبةُ ما للأصل إلى الفرع، لأنَّ عناصر الأصل فيه، وإما أن يُرادَ به إنشاءُ جميع البشر، لأن النطفة تتكوَّن من الأطعمة، وهي مولَّدة من الأرض بالذات أو بالواسطة كاللحوم، ويجوز أن يُراد به المعنيان معاً، كما يجوز أن يُراد به مطلق الإيجاد، واستُعير له الإنبات؛ لأنه أدلّ على التكوُّن من الأرض. والنبات: اسم مصدر لـ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ مؤكِّد له.

ويجوز أن يكون الأصل: أنبتكم من الأرض إنباتاً، فنبتُّم نباتاً. فحذف من الجملة الأولى المصدر، ومن الثاني الفعل، اكتفاءً في كلٍّ منهما بما ذكر في الأخرى، والاكتفاء من أساليب القرآن، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

وقد جاءت هذه الجملة مساوقةً لِـمَا قبلها، مُـمهِّدة لِـمَا بعدها، وهو قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أمواتاً بفَصْل الأرواح عن الأبدان، ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ منها ﴿إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ دفعةً واحدةً من عجم الذنب، ويتم ذلك بتزويج الأرواح مع الأبدان بالبعث والنُّشور، فهذه دورة لتطوُّرات الإنسان شبيهةٌ بالدورة الدموية التي تصدر من القلب إلى الشرايين، ثم تعود في الأوردة إلى القلب، وشبيهةٌ بالدورة المائية التي تصدر

من البحر إلى مَتَائِهِ الجو، ثم إلى ينابيع الأرض، ثم تعودُ أنهاراً إلى البحر. وهكذا تَتَشابه مخلوقات الله في كثير من الأوضاع والأطوار، وفي ذلك دلالة على أنَّ الخالق واحد.

وقد عبَّر عن التكوين الأول بالإنبات، وعن الثاني بالإعادة والإخراج، إيذاناً بالفرق بينهما، والله أعلم، وأنَّ الحالة الثانية أهوَنُ من الأولى حسب العرف والعادة، ولله المثل الأعلى.

ثم تابع الكلام في دليل القدرة والمنَّة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ أي: مبسوطة مستوية، ولم يجعلها كلَّها جبالاً وَعِرة، فقال: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: طُرقاً واسعة مفتوحة لكم، واكتفى بهذه المنفعة عن بقية المنافع والاستفادات منها؛ لأنَّ سلوك الطرق واسطة لجميع ذلك.

قال ابن أبي الحديد[1] من علماء القرن السادس: فإن قلت: قد ثبت أن الأرض كروية، فكيف تكون بسيطة، والبسيط المُسطَّح، والكروي لا يكون مسطحاً؟ قلت: الأرض بجملتها شكلُ كرة، وذلك لا يمنع أن تكون كلُّ قطعة منها مبسوطة تصلح لأن تكون مستقَراً ومجالاً للبشر وغيرهم من الحيوان.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر أنواعاً من دلائل قدرته ومُنَّته الدالة على استحقاقه للعبادة،

---

(١) هو عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد (٥٨٦-٦٥٦هـ)، عالم بالأدب، من أعيان المعتزلة، له: «شرح نهج البلاغة»، و«نظم فصيح ثعلب». «الأعلام» للزركلي (٣: ٢٨٩).

واختصاصه بالألوهية[١]، وقدرته على البعث، عاد إلى البحث، وهو شكوى نوح من قومه، حاكياً ذلك بقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ يعني: الأغنياء والرؤساء، وفي هذا الوصف إيماءٌ أيضاً إلى أنَّ هؤلاء الأغنياء والرؤساء لم يُراعُوا حقَّ النعمة، ولم يقفوا في ذلك عند ضلالهم، حتى أضلُّوا غيرهم.

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ في ذلك الإضلال ﴿مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: شديدَ الكِبَر والعِظَم. وهذه الصيغة تدلُّ على أشدّ مما تدل عليه صيغة (كبير)، وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنَّ الإفراد في الضمائر الأُوَلِ باعتبار لفظها، ومثل هذا التنويع من أساليب القرآن.

ثم ذكر شيئاً من ذلك المكر، بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركُنَّ عبادتها، ثم خصُّوا بعضَها بالذِّكر لتميُّزها عندهم، وقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[٢] قال ابن عباس وقتادة: وهذه أسماءُ أصنامٍ لهم كانوا يعبدونها، ثم عَبَدَتها العربُ فيما بعد[٣].

---

(١) تكرَّرت عند المصنف وغيره هذه اللفظة، والصواب: الإلهيّة، لأنه مصدر صناعي.

(٢) كان أصل عبادة الأوثان تشبيهات مجازية للتقريب بين فهم العامة وبين حقائق الديانات، فقد كانت عبادة الله الواحد الأحد هي الديانات الفطرية، والتي جاء بها آدم ثم الأنبياء من بعده، وفي خلال ذلك أخذ بعض أهل العصور يجعلون النُّصب والتماثيل كرموز للحقيقة أو للتعظيم والتذكار، وكذلك اعتبر بعضهم الشمس والكواكب وبعض قوى الطبيعة رمزاً للإله غير المنظور، وقد دبَّر بعضَ عقائدِ الشِّركِ التحايلُ البشريُّ لمقاصدَ دنيويةٍ ومآرب استعبادية، على أنك لو سألتَ بعض المعتقدين لتلك الديانات: كيف تعبدون هذه الأشياء؟ لأجابوك بأنهم يؤمنون بإلهٍ عظيم غير منظور، هو الرئيس الأعلى لآلهتهم ومعبوديهم. (المؤلف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٤٠) عن قتادة، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨: ٣٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعَبَدة الأوثان يُرجعونها في وجهة ضلالهم إلى مراجع مختلفة؛ فمنهم مَنْ يتَّخذون لهم صنماً أكبر يرمزون به للخالق الأعظم، وأصناماً أُخرى كثيرة يرمزون بها للملائكة المقرَّبين عنده، ينفِّذون أوامره.

ومنهم مَنْ يعتقدون أنَّ الإله الأعظم خلق هذه الكواكب وفوَّض إليها تدبير العالم السفلي، فالبشر عبيدُ هذه الكواكب، وهي عبيد الإله الأعظم، فالبشر يجب عليهم عبادة الكواكب، لا حَدَّ لهم فوق ذلك، ويرمزون إلى هذه الكواكب بصور وتماثيل بعضُها صُور إنسان رجالاً ونساءً، وبعضُها صورُ حيوانات. وغَرَضُهم من ذلك: عبادةُ الكواكب.

ومنهم مَنْ كان يموت فيهم الرجل الصالح، فيتَّخذون مثالاً على صُورته، ويشتغلون بتعظيمه، وغرضُهم تعظيم أُولئك الأقوام الصالحين، والتقرُّب إليهم، حتى يكونوا شفعاءَ لهم عند الله، وهو المراد من قولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ومنهم من يعتقد الحلول، بمعنى: أنَّ الإله يحلُّ في شخص إنسان جليل، أو أجرام عظيمة، أو أصنام.

هذه وأمثالها هي وَجْهُ نظر عَبَدة الأوثان في ضلالهم، خابوا وخسروا. وفينا الآن ـ معشرَ المسلمين ـ من يعبد القبور ويعتقد أن صاحبها واسطةٌ له عند الله[1]، وذلك

---

(١) تشبيهُ المُوحِّدين من جهلة المسلمين بمشركي الأمم السابقة، ووصَفْهُم بعبدة القبور، لا يُوافقُ عليه المؤلف رحمه الله، ففرقٌ بين من يعبد صنماً أو نجماً معتقداً أنه ينفع ويضر، وبين مسلم قد يقع في الخطأ نتيجة جهله، فينادي صاحب القبر ويستغيث به، إلا أنه متيقِّن في قلبه بأن النفع والضر بيد الله. والواجب تعليم الجهَّال لا تكفيرُهم.

الضلال البعيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والشرك له صور كثيرة ظاهرة وخفيَّة، ومنها الرياء، فلا يقبل الله عملاً فيه مثقالُ ذرّة من رياء. اللهم إني أعوذ بك أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم. قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وقد عطف على قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾ قولَه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾، قال مقاتل وأبو مسلم: أي: قد أضلَّ كبراؤهم كثيراً من الناس(١).

ثم قال نوح عليه السلام في تتميم شكواه إلى الله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ قال في «مجمع البيان»: أي: هلاكاً، على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧].

وقال البيضاوي: لعل المطلوب هو الضلال في ترويج مكرِهم، بأن يفشلوا في ذلك، لا في أمر دينهم(٢).

أقول: ويجوز أن يكون الكلام بياناً لحالهم أُخْرج مَخرَجَ الدعاء عليهم، على أُسلوب القرآن في نسبة الفعل إلى الله، في مثل: «أضلَّهم الله»، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، والمراد: أنهم لرسوخ الظلم فيهم أصبحوا لا يزدادون إلا ضلالاً وكفراً.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا

(١) ذكره عن مقاتل الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٥٩).
(٢) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥: ٢٥٠).

﴿كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه مصيرَهم بنتيجة أمرهم هذا، فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ و(مِنْ) للتعليل و(ما) صلةٌ للتأكيد، أي: من أجل خطيئاتهم ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطُّوفان في الدنيا، ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ في الآخرة(١)، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ يعرِّض بأنَّ آلهتهم غير قادرة على نَصْرهم، وقد خاب ظنُّهم فيها وانعكست الآمال.

ثم عاد بالكلام إلى حكاية شكوى نوح بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: نازلَ دار؛ يريد: لا تَدَعْ منهم أحداً إلا أهلكتَه. قال المُبرِّد: وكلمة ﴿دَيَّارًا﴾ لا تستعمل إلا في النفي العام، يقال: ما بالدار ديَّار، ولا تستعمل في الإثبات.

وقال قتادة: ما دَعا بهذا عليهم إلا بعد أن نزل عليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ

---

(١) وهذه الآية تدلُّ على عذاب القبر، وذلك أن الفاء تقتضي التعقيب، فقوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ يدل على أنه إنما حصل دخول النار عقب الإغراق.

وقد قال البخاري (٣: ٢٣١) في كتاب الجنائز، باب (٨٦): باب ما جاء في عذاب القبر، قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله جلَّ ذكره: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

ثم أورد البخاري تحت هذا الباب ستة أحاديث في عذاب القبر.

قال الحافظ في «الفتح» (٣: ٢٣٣): «وكأنَّ المصنِّف قدّم ذِكرَ هذه الآيات للتنبيه على ثبوت ذكره في القرآن، خلافاً لمن أنكره وزعم أنه لم يرد ذِكرُه إلا من أخبار الآحاد».

﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦][(١)]، فلذلك قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[(٢)]، وذلك ما سَبَق بيانُه عن قتادة من أنَّ الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح عليه السلام فيقول له: احذر هذا لا يُغوِيَنَّك، فإن أبي قد ذهب بي إليه وأنا مِثلُك، فحَذَّرني مِثلَ ما حذَّرتُك.

ثم دعا نوح عليه السلام لنفسه ولوالدَيْه وللمؤمنين من أهل بيته، ثم لعموم المؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾[(٣)].

❊ ❊ ❊

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٣٠٨).

(٢) أي: إنك ـ يا رب ـ إنْ تتركُهم دونَ إهلاك واستئصال، يُضِلُّوا عبادك في أماكن من الأرض لم يَغمُرها الطُّوفان، وإنْ توالدوا فإنهم لا يَلدوا إلا مولوداً يَؤولُ أمرُه إلى أن يكون بعدَ بلوغِه فاجراً مُنْبعثاً بقـوَّةٍ لارتكاب الجرائم والآثام، مُبالغاً في كفره، جُحُوداً للحقِّ وتغطيةً لأدلّتِه بالأكاذيب والمغالطات المزيَّنة بزُخْرف القول.

(٣) أي: لا تَزِدِ الظالمين لأنفسِهم بالكفر إلا عذاباً مرافقاً لإهلاكهم.



مكيَّة، وهي ثمان وعشرون آية

والغَرَضُ منها:

ذِكرُ قصة إيمان الجن، عِظةً للمشركين المُعرِضين المعارضين، وتأنيباً لهم بأنَّ الجنَّ آمنوا وأنتم لم تؤمنوا.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ هذا القرآن، فكان من أمرهم ما قصَّه الله فيما يأتي، والنفر: ما بين الثلاثة إلى العشرة، والجنّ: أجسام خفيفة خفيَّة عاقلة. والمَلَكُ مخلوق من النور، والإنس من الطين، والجن من النار.

وقال ابن عباس: إنَّ هذا الاستماع كان ببطن نَخْلة عامداً إلى عكاظ، وكان ﷺ يُصلِّي الفجر، فاستمع له الجنُّ كيف يقرأ، ونظروا كيف يُصلِّي[1]. وبطن نخلة: موضع بين مكة والطائف، وقد مرَّ به عند عودته من الطائف، بعد أن عَرَض نفسَه على أهل الطائف، ولم يُجيبوه.

أقول: والذي يظهر من مفاهيم السورة وبياناتها أنَّ مبدأ هذا الاستماع كان في بطن نخلة، ثم أعقَبَه استماعاتٌ كثيرة، وصحبةٌ للنبي ﷺ في مجالسه الإرشادية واجتماعاته العلمية والعملية، حتى تكامل لهم هذا الوعي والإيمان، والاتباع له في العبادات الحسان. فبَثُّوا ذلك بين أقوامهم، وحكاه الله سبحانه عنهم، والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه (٧: ٥٤).

وفي هذه الآيات أمَرَ سبحانه نبيَّه ﷺ أن يُخبر قومَه بما لم يكن لهم به علم، من إيمان الجن وهدايتهم عند سماعهم هذا القرآن، وإرشاد قومهم بالإيمان به.

والغَرَضُ من هذا البيان: تقريعُ المشركين بأنَّ الجنَّ لـمّا سمعوا القرآن آمنوا به واهتَدَوا بهديه. أما المشركون فهم مع أنَّ الرسول من جنسهم، والقرآن نزل بلغتهم، فهم مع ذلك كله لا يؤمنون.

وقال البيضاوي: إنَّ في قوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ دلالةً على أنه ﷺ ما رآهم، ولم يقرأ عليهم قصداً، وإنما اتفق حضورُهم في بعض أوقاتِ قراءتِه فسمعوها، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لـمّا رجعوا إلى قومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ وهذا مصدر وُصف به للمبالغة[1]. أي: كثير العَجَب في عظمته وطرق هدايته، ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي: إلى الحق والصَّواب، وقد اهتَدَينا ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، ولوضوح ما فيه من دلائل التوحيد أقرَرْنا بوحدانية الله الخالصة، ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾.

ثم نزَّهوه عن الصاحبة والولد أيضاً، كما حكى عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: جلالُه وعَظَمتُه ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾.

ثم سفَّهوا رأيَ سفهائهم في ذلك، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا[2] عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ أي: قَوْلاً بعيداً عن الحقِّ كلَّ البُعد. وفيه إلماعٌ إلى أنهم كانوا يَدينون بدين النصارى ويقولون بقولهم.

ثم اعتذروا عن متابعتهم لسفهائهم في ذلك القول، قبل سماع هذا القرآن وما فيه من دلائل التوحيد، فقالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾[3]

---

(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥: ٢٥١).

(٢) ﴿سَفِيهُنَا﴾: أرادوا من السفيه: جنسَه، فيشملُ إبليسَ وجنودَه. والسَّفَهُ هو الطَّيش.

(٣) والمعنى: أنَّا كنَّا نظنُّ ظناً توهمياً أنَّ الإنس والجنَّ صادقون في قولهم: إنَّ لله صاحبةً وولداً، =

أي: ظننّا أنْ لا أحد يَجرُؤُ أن يكذب على الله، ولذلك اتَّبعنا قولهم وظننَّاه صدقاً حتى سمعنا هذا القرآن.

ثم نبَّهوا قومهم إلى كَذِب الإنس والجن، وبرهنوا لهم بما يعلمونه ولا ينكرونه، فذكروا أولاً صورةً من صور كذب الإنس على الله وشركهم به الذي فَطِنوا له الآن، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ﴾ منهم خوفاً ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وغشيانهم، لاعتقادهم أنَّ هؤلاء الرجال لهم سيطرة على الكون وسلطان على الجن، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ أي: زادهم أولئك الرجال الذين يعتقدون فيهم هذه العقيدة غيّاً وضلالاً.

ويجوز أن يكون المعنى: فزادهم الجنُّ غشياناً، ولم ينفع الإنسَ عَوْذُها برجالها المُدجِّلين. وعلى كلٍّ، فمحصَّل الآية: تكذيبُ الجنِّ عقيدةَ المشركين بأن شركاءهم مسيطرون على الجن، ولذلك يعوذون بهم منهم.

وبعد أن برهنوا بما يعلمه الجنُّ من كذب الإنس على الله في هذا الأمر، دَرَجوا إلى المقصود، وذكروا صورةً مشتركة من صور كذب الإنس والجن على الله وكفرهم برسله وبالبعث، يؤنِّبون قومهم بذلك، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي: الإنس ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ من الرسل، أو لا يحشر أحداً بعد الموت. وإسنادُ هذا الإنكار إلى الجنّ والإنس باعتبار الكفار من النوعين لتحقُّق النوع في بعض أفراده، وذلك من خصائص اللغة.

وقيل: إن هذه الآية مع ما قبلها اعتراض بين كلام الجن، من إخبار الله تعالى، فهو يقول: إنَّ الجن ظنُّوا كما ظننتُم ـ معاشرَ الإنس ـ أنَّ الله لا يحشر أحداً يوم القيامة ولا يحاسبه، أي: لا حَشْرَ ولا حساب. فتكون تقريعاً منه تعالى على إنكار الحشر.

= وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك، فلمَّا سمعنا القرآن علمنا أنا كنَّا مخدوعين بأقوالهم الكفريَّة الكاذبة الباطلة.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾.

ثم تابع الكلام عمَّا أُوحي إلى الرسول ﷺ من البيان عن الجنّ، وأنهم شعروا من أحوال الطبيعة بحدوث أمر لمن في الأرض غريب، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ على عادتنا، ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾[1] قال الـجُبّائي: معناه: طلبنا الصُّعود إليها، فعبَّر عن ذلك باللمس. وقال أبو مسلم: المعنى: التَمَسْنا قُرْبَ السماء لاستراق السمع على عادتنا، فوجدناها مُلِئَت حَرَساً شديداً وشُهُباً.

وقال مَعْمَر: «قلت للزهري: أكان يُرمى بالنجوم قبل هذا؟ قال: نعم. قلت: أفرأيتَ قولـه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾[2] أفما يدلُّ قوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ على حدوث ذلك؟ قال: لا، وإنما غُلِّظَ أمرُها وشُدِّد حين بُعث النبي ﷺ».

قال الرازي: وهذا القول أشبَهُ بالصواب، ويُؤيِّده قولُه: ﴿مُلِئَتْ﴾، فإنه يدلُّ على أن الحادث هو الـمَلْءُ والكثرة[3].

---

(١) طُبعت الجن على قـوَّة خارقة في الحركة والعمل والصُّعود والهبوط، وعلى الاستقرار في الجو والهواء، وكان من عادتهم أن يصعدوا إلى السماء، ويستمعوا في مقاعد خاصَّة إلى أحاديث الملائكة عن بعض ما يجري من أمر الله، سماعاً نادراً مشوَّهاً، ويضيف إليه كفارهم الطغاة ما شاؤوا من كذب، وينقلونه إلى كَهَنة العرب، فيضيف إليه الكَهَنة ما شاؤوا من افتراء، ويُبلِّغونه للناس. فلما بعث رسول الله ﷺ، قضى سبحانه بحكمته أن يصونَ رسالته، فزاد سبحانه في حراسة السماء بمضاعفة عدد الرجوم وقوتها طول زمن البعثة، مبالغةً في الصيانة، والله أعلم. (المؤلف).

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٦٥).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٦٧٠).

ثم ذكروا في إتمام البيان: أنهم علموا من حدوث هذا الحادث في الطبيعة حدوثَ أمر من أُمور الله، ولكنهم لا يدرونه خيراً أم شراً؟ فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ بذلك؟

ومن البلاغة العالية: حذفُ الفاعل في المُعادِل الأول وبناء الفعل للمجهول، فقال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، وذِكرُه في الثاني فقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾، وذلك لتُنسَبَ إرادة الخير إلى الله دون الشر[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، حيث نسب المرض لنفسه، ونسب الشفاء لله؛ لأنَّ الشرَّ ـ سواءٌ كان مرضاً أو غيره ـ إنما يكون بصنع الإنسان وانحرافه عن قوانين الطبيعة، أو إعراضه عن أحكام الشريعة[2]. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. فإذا تعرَّض الإنسان مثلاً للبرد القارس الذي لا تتحمله طبيعتُه، يحدث فيه مَرَضٌ من جرَّاء ذلك.

وبعبارة أخرى: إنَّ ذلك يحدث من معاكسة قوانين الطبيعة الكونية التي وضعها الله سبحانه وتعالى، وطبعها في هذا الكون. ومنها ما يتعلق بإصلاح الإنسان أو كماله بدناً وصحةً وخَلْقاً وروحاً، فإذا عاكس الفرد أو الجماعة قوانينَ الصحة مَرِضَ، أو قوانينَ الاجتماع شَقِيَ في الدنيا، أو قوانينَ الروح التي تُبيِّنها الشريعة على لسان الرسل شَقِيَ في الأخرى، فإنَّ كلَّ شر يحدث للفرد أو الجماعة إنما يكون من معاكسة هذه الأنظمة والقوانين، والله أعلم.

---

(١) أدباً معه تعالى، لا لكونه لم يُقدِّره ولم يُرِد وقوعه.

(٢) صنع الإنسان وانحرافه وإعراضه أسباب أناط الله عزَّ وجلَّ بها وبأمثالها فِعلَه في إنزال المصائب والمرض والبلاء ونحوها بعباده، فهي واقعة بإرادة الله وتقديره، بسبب من العبد، لذلك لا يوصف فِعلُ الله عزَّ وجلَّ بالشرِّ، لأن لهذا الشرَّ سبباً من العبد نفسه.

وقد جاءَ في الأثر عنه ﷺ قوله: «لَبَّيكَ وسَعدَيْكَ، والخيرُ كلُّه في يَدَيكَ، والشرُّ ليس إليك»[١].

أقول: فلا يُنسب الشرُّ إلى الله سبحانه إلا بنوع من التجوُّز، والله أعلم، وذلك لأنه يحدث من معاكسة سنن الله الكونية.

ثم تابعوا الكلام عن اختلاف أحوالهم كالإنس، فقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ويشمل الشقُّ الثاني غيرَ كاملي الصلاح والفاسقين والكافرين، كما يُعْرِبُ عنه قولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: فِرَقاً شتَّى.

ويظهر من فحوى الآيات السابقة واللاحقة أنَّ الجنَّ تابعةٌ للإنس في الدين، لذلك تتأثَّر بالبيئة والمحيط، فكلُّ أُمة منهم تَتْبع إنسَ إقليمها، لذلك كان منهم المُلحِد، ومنهم المشرك، والقائل بالصاحبة والولد، والمنكر للبعث، والمنكر للنبوَّة، والمتدينون بالأديان الصحيحة زمن صحَّتها، والمنحرفون فيها زمن انحرافها، ومنهم المسلمون بعد ظهور الإسلام، مثل الإنس سواءً بسواءٍ. والله أعلم.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تُعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم تابع الكلام والبيان عن عقيدتهم بعد استماع القرآن، فقالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا أراد بنا أمراً.

والظنُّ في مثل هذه المواضع يُراد به أقوى الاعتقاد، فقد قال الرازي: إنَّ من خصائص اللغة: إذا أُريد المبالغة في التكثير يُقرَنُ الكلامُ بلفظ يدلُّ على التقليل، وإذا أُريد المبالغةُ في اليقين يُقرَنُ الكلامُ بلفظ وُضع للشكِّ[1].

فمعنى الآية: أنّا تيقَّنَّا كلَّ التيقُّن بقدرة الله القويّة وسلطانه القاهر، كما يُعْرِبُ عن ذلك قولهم: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾[2].

وكان أثر هذه العقيدة ما ذكروه بقولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ في هذا القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ من غير تردُّد، ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾[3] والبَخْس: النقص في الثواب، والرَّهَق: لحوق الذُّلّ.

قال في «مجمع البيان»: وفي هذا دلالة على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الإنس والجنّ، وعلى أنَّ الجن عقلاء مخاطبون، وبلغات العرب عارفون.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١٩: ١١٧).

(٢) الراجحُ في معنى الظنِّ هنا الظنُّ القوي الراجح؛ كما يدلُّ عليه سياق الآيات. ومعنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين»: وأنَّا ظنَنّا ظنّاً راجحاً قبل سماع القرآن ومعرفة سببِ امتلاءِ السماء بالحرس الشديد والشُّهب؛ أنَّ الله قادر علينا، وأننا في قبضتِه وسلطانه، فلن نفوتُه إنْ أراد بنا أمراً أينما كنّا، ولن نستطيع أن نُفلِتَ من عقابه هَرَباً، إنْ طَلَبنا.

(٣) أي: وأنَّا لـمّا سمعنا القرآن، وما اشتمل عليه من الـهدى، صدَّقـنا به وبمحمدٍ ﷺ تصديقاً جازماً، فقد تدرَّجنا في الاقتناع حتى بلغنا إلى اليقين، فآمِنوا ـ أيُّها الجنُّ ـ بالربِّ إيماناً كاملاً، واسْتَسْلموا له، فَمَنْ يؤمن بربِّه إيماناً صحيحاً، فلا يخاف نقصاناً من عمله وثوابه، ولا يخاف أن يُحمَّل ما لا يُطيق.

أقول: ويجوز أن يكون ذلك بواسطة الاختلاط معهم، وإن لم يشعروا بهم، أو أنهم مخلوقون ومنطبعون على الفهم عن الإنسي، بأيِّ لغة تكلّم. والله أعلم.

ثم عادوا إلى الكلام عن عموم الجنس واختلاف أحواله في الهدى والضلال، فقال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي: الجائرون عن طريق الحق كالأناسي، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ أي: فقد توخَّوا الرَّشاد، وأخذوا بأسباب الهدى والسَّداد، ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ[1] فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ إما معطوف على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ ..﴾ [الجن: ١]، والمعنى: وأُوحي إليَّ أنه لو استقاموا على الطريقة. أو هو استئناف حكم من الله سبحانه وتعالى.

والماء الغَدَق: الكثير. والمراد به: سَعَة الرزق المُسبَّبة عنه؛ لأن المطر سببٌ لها. أي: لو استقام الإنسُ والجنُّ على الطريقة الـمُثْلى التي نرسُمها لهم، ولوسَّعنا عليهم الرزق. فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وذلك لأنَّ في إقامة شرائع الله إصلاحاً للنفوس، وتهذيباً للعقول، وتنظيماً للأحوال، ونشاطاً في الأعمال، واتِّباعاً لسُنن الكون ونظام الحياة الصحيح. وفي ذلك كلُّ الخير والسعادة والرَّفاه في اجتماع أفراد الإنسان وتدبير شؤونهم.

ومعنى ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: لنختبرهم؛ يشكرون ويدومون على الاستقامة أم ينحرفون؟

---

(١) ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ من قسط الرجل: إذا جار ولم يَعدِل. والمراد: الجائرون على أنفسهم بالكفر والمعاصي. وأما العدل فيقال فيه: أقسط الرجل. أي: عَدَل، فهو مقسط.

لأن الامتحان يكون في السَّرَّاء كما يكون في الضرَّاء، وذلك بالثبات على الصَّلاح وعدم الأَشَرِ والبَطَر.

وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾[1] مقابلٌ لما قبله، ومعنى ﴿يَسْلُكْهُ﴾: يُدخِله. والعذاب الصَّعَد: الشاق.

ثم عطف على قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، قولَه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ أي: وأُوحِيَ إليّ أنَّ العبادة خاصَّةٌ بالله تعالى، ففيه مجازٌ مُرسَلٌ من ذِكرِ المحلِّ وإرادة الحالِّ. ويجوز أن يكون لفظ ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ جمعاً للمصدر الميمي، بمعنى: أنَّ السجود لا يكون إلا لله.

ثم تابع القصة وعطف عليه قولَه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي: أُوحي إلي أنه لـمّا قام النبيُّ ﷺ يصلِّي لله ويدعوه، ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾[2] والمعنى: أن الجن قاموا يزدحمون عليه ﷺ، حرصاً منهم على استماع القرآن، عندما يقوم يصلِّي.

والمرويُّ عن ابن عباس والضحّاك: أنَّ هذا القول من جملة المُوحَى به أيضاً[3].

وقال سعيد بن جبير: بل إنَّ هذا من قول الجنِّ لأصحابهم حين رجعوا إليهم[4].

---

(١) أي: ومَنْ يُعرضْ عن كتاب ربِّه المُنزَّل على نبيِّه ﷺ؛ بعدم التوجُّه لتلقِّيه وتدبُّر معانيه، ويأْتِه أجلُهُ وهو على إعراضه؛ يُدخلْه ـ مُذيقاً إيَّاه عذاباً شديداً شاقّاً ـ في مكان ضيِّق لا يتَّسع لأكثر منه، لا يزداد إلا شدَّة، كما يُدْخَل السِّلك في الثَّقْب الضيِّق؛ ليذوق جزاء إعراضه عن دعوة ربِّه، وعدم استجابتِه لدين الله، واتّباعِ كتابه.

(٢) ﴿لِبَدًا﴾: جمع لِبْدة ـ بكسر فسكون ـ بوزن نعمة. واللبدة هي الصوفُ أو الشعرُ الملتصِقُ بعضُه ببعضٍ التصاقاً شديداً. والمراد: جماعات متزاحمة متلاصقة، تعجُّباً ممَّا سمعوا.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٦٦).

(٤) المصدر السابق (٢٣: ٦٦٧).

ومرادهم: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ يزدحمون عليه لاستماع القرآن منه. ويجوز أن يريدوا ازدحام الصفوف وراءَه في الصَّلاة.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد إتمام الكلام عن الجنِّ وإيمانهم ـ ذلك الكلام الذي كان فيه تعريضٌ بالمشركين من الإنس ـ التفت إلى تقريعهم وإرشادهم وتهديدهم بأبلغ الوجوه على لسان رسوله، مُلْمِعاً إلى أنه يريد لهم ما يريده لنفسه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أي: أعبدُه، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾[1] أي: لا أقدر أن أدفَعَ عنكم ضرّاً ولا أسوق لكم رَشَداً، ولا يملك ناصيةَ ذلك إلا الله. وفي الكلام بيانٌ لهم عن حدود النُّبوَّة، وأنها لا تَتجاوز البشريَّة وحدودها، في العلم والعمل والقدرة في التصرُّف.

وقد أردَفَ ذلك بيان عَظَمة الله وسلطانه القاهر، وأنه يخشاه خشيةً لا مزيد عليها، وجعله تَتْميماً لما قبله وتمهيداً لما بعده، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾[2] أي: ملتجأً ألتجئ إليه.

---

(١) أي: قل ـ يا رسول الله ـ لهم: إني لا أقدر على مقارعتِكم بوسيلةٍ ماديَّة أضرُّكم بها، لأمنع تألُّبكم عليَّ وعلى الذين آمنوا بي، ولا أملك وسيلةً أُلزِمُكم بها إلزاماً إكراهياً لتكونوا راشدين مسلمين، فأنتم مسؤولون عن اختياركم الحرِّ أمام ربِّكم.

(٢) أي: قل ـ يا رسول الله ـ: لن يمنعني من عذاب الله أحدٌ إنْ لم أَقُمْ بوظائف رسالتي التي أرسلني للقيام بها، ولن أجدَ من دونه ملجأً ألجأ إليه.

ثم استثنى من قولِه: ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾ قولَه: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي: لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات التي أرسلني الله بها إليكم. وفي تأخير هذا عمَّا قبله توثيقٌ بصدقه في تبليغاته، وأنه لا يزيد فيها ولا يُنقص؛ لأنه ـ إن فعل ذلك ـ فمن يُجيرُه من الله، مِصْداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧]. وهذا وأمثاله لونٌ من ألوان الكلام البليغ في التوثيق بصدق الرسالة وتبليغها على وجهها.

ثم ختم السياق بهذا التذييل المؤيِّد لـمّا قبله والمُمَهِّد لـمّا بعده، فقال: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: في أمر التوحيد؛ لأن الكلام فيه، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿مَنۡ﴾، والإفراد باعتبار لفظها، على نهج القرآن في مثله.

ثم بالغ في التهديد، وأدمَجَ فيه التـفنيد، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ به من العذاب ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينـئذ ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾، وفي صورة الوعيد تلميحٌ إلى ما كان يفتخر به هؤلاء المشركون على النَّبيِّ ﷺ بكثرة جموعهم وقوَّة عَصَبيَّتهم. وقد تحقَّق هذا الوعيد في وقعة بدر.

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾.

وبعد أنَ تَوعَّدهم إثْرَ إرشادهم مبالغةً في الحَمْل عليه، بيّن أنه لا يعلم شيئاً من موعد إنجاز ذلك الوعيد، تَـفْويضاً للأمر إلى الله، فقال: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ به من العذاب ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ بعيداً؟ والمراد: أنَّ العذاب واقعٌ

لا مَحالة، ولكن لا أعلم متى يكون؛ لأن ذلك من غيب الله، والله سبحانه هو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ بسائر أنواعه ﴿أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا﴾ نوعاً واحداً وهو غَيْبُ الرسالة[1] فيُطْلع عليه ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ لرسالته ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ يُعْلِمه بشريعته، وكتابه المُنزل عن مصير الإنسان في اليوم الآخر، وما يكون سبباً للسعادة فيه أو الشقاء. وهذا النوع من الغيب هو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

فإن ارتضى سبحانه من خَلْقِه رسولاً، وأوحى إليه أن يُبلِّغ غيبه عن اليوم الآخر وما يتبع ذلك ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧﴾[2]، وهذا لونٌ آخر من ألوان التوثيق برسالة الرسل وتبليغاتهم، ومفادُه: أنَّ الله سبحانه يُراقبُ رُسُلَه في تبليغاتهم، حتى تُؤدَّى على أكمل وجوهها.

ويجوز أن يكون الكلام على التمثيل، يُمَثِّلهم بمن يَبُثُّ عليهم الأرصاد والرُّصَداء؛ ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ قد ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ فلا تخفى عليه من أمرهم خافية. ثم ذيَّل الكلام بهذا التذييل العام المؤكِّد له بعمومه، فقال: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾.

---

(١) هذا التقييد لا دليل عليه، فمن الجائز أن يُطلع الله تعالى مَنْ شاء من رسله على أيِّ غيب من غيوبه، سواء كان متعلقاً بالرسالة أو لا، وفيما ثبت في صحيح الأحاديث من إخبار النبي ﷺ عن غيبيات شتى؛ دليلٌ على بطلان هذا القيد.

(٢) معنى الآيتين: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ ـ كما في تفسيري «المعين» ـ: «هو سبحانه عالم ما غابَ عن العباد، فلا يُطلِع على الغيب الذي يعلمُه أحداً من الناس، إلا مَنْ يَصطفيه لرسالتِه ونبوَّته، فيُظهره على ما يشاء من الغَيْب؛ حتى يكون ما يُخبر به من المغيَّبات معجزة دالَّةً على نبوَّته، فإذا أراد سبحانَه إظهارَه على ما يَشاء من غيبِه، فإنَّه يُدخل مِن أمامِ الرسول ومِن خلفِه حَفَظةً من الملائكة يحفظونه من الجنِّ؛ لئلّا يَسمعوا الوحي».

قال في «المنار» عند الكلام على الغيب في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، قال ما مُلخَّصه: إنَّ الغيب قسمان: حقيقي، وإضافي. فالحقيقي: هو ما غاب عِلمُه عن جميع المخلوقين، حتى الملائكة المقرَّبين. والإضافي: ما غاب عِلمُه عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي تعلمه الملائكة من أمر عالمهم ولا يعلمه البشر، وكذلك ما يعلمه الرسل، فإنَّ غيرهم من البشر ليس لهم الاستعدادُ لعلمه من الوحي. وأما ما يعلمه بعضُ البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهله بتلك الأسباب أو عَجْزه عن استعمالها، فلا يدخل في عموم معنى الغيب الوارد في كتاب الله[1].

أقول: والقرآن يُثبِتُ أنَّ العالم قسمان: عالم الغيب، وعالم الشهادة. ومن عالم الغيب: اليوم الآخر، والمَلَك، والجنّ. ولا يُعرَفُ شيءٌ عن عالم الغيب إلا بالوحي، والله أعلم.

* * *

(١) انظر تفسير «المنار» (٧: ٣٥٣، ٣٨١)، (١١: ١٨٤).



مكيَّة، وهي عشرون آية

والغرض منها:

تهيئة النبيِّ ﷺ للقيام بالدعوة بجِدٍّ وثبات.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾ وأصله: الـمُتزمِّل، من قولهم: تزمَّل بثيابه؛ إذا تلفَّف بها، فأُدغمت التاء في الزاي. وفي النداء بهذا الوصف وبوَصْف (المدَّثِّر) تأنيسٌ له وملاطفة، على عادة العرف في اشتقاق اسم للمُخاطَب من صفته التي هو عليها، كقوله ﷺ لعليٍّ حين رآه نائم وقد لصق بجنبه التراب: «قم يا أبا تراب»[1].

قال قتادة: المعنى: يا أيها المتزمِّل بثيابه المتلفِّف بها. وقال عكرمة: المعنى: يا أيها المتزمِّل بأعباء النبوة، المتحمِّل لأثقالها. فيكون مجازاً. وقال السُّدّيّ: معناه: يا أيها النائم. وكان قد تزمَّل النوم[2].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٧٦) قولَ قتادة وعكرمة، وذكر قولَ السديِّ القرطبيُّ في «تفسيره» (٤: ٣٧١).

وقيل: كان يتزمَّل بالثياب في أوَّل ما جاءَه جبريل لِـمَا يعتريه من أثر الرهبة حتى أنس به، كما رهب موسى عليه السلام من العَصا عندما رآها في أول مرَّة تنقلبُ حيَّة.

وإنما خُوطب بهذا الوصف في بَدْء الوحي، إذ لم يكن بلَّغ شيئاً بعد، ثم خوطب بعد ذلك بالنبيِّ والرسول.

وقيل: إنما خوطب به لأنه تلميح للنقد والتنشيط، مهَّد به لقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ وهذا تخييرٌ له ﷺ في أن يقوم نصفَ الليل أو أقلَّ من النصف أو أكثر، تمريناً له على تحمُّل المشاق، وإعداداً لِـمَا سيقوم به من أعباء الرسالة.

قال المفسِّرون في تفسير الآية: أو انقُصْ من النِّصف إلى الثلث، أو زِدْ على النِّصف إلى الثلثين.

وروي عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ الله تعالى افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبيُّ الله وأصحابُه، وأمسك اللهُ خاتمتَها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة[1]. فصار قيام الليل تطوُّعاً بعد أن كان فريضة.

وأمره بترتيل القرآن في هذه الصلاة، فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ وذلك بأن يقرأه على تُؤَدة وتبيُّن حروف وكلمات، بحيث يتمكَّن السامع من عدِّها، وذلك ليتمكَّن التدبُّر والشعور بالمعنى وتكمل المناجاة.

وقال ابن عباس: المعنى: بيِّنه بياناً[2]، واقرأه على هَيْئتِك؛ ثلاثَ آيات، وأربعاً وخمساً.

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٨١).

وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال: إنَّ المعنى: بيِّنه بياناً ولا تَهُذَّهُ[١] هذَّ الشِّعر، ولا تَنثُرْه نَثْرَ الرمل، ولكن اقرَعْ به القلوب القاسية، ولا يكونَنَّ همُّ أحدكم آخرَ السورة.

وروي عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُقطِّعُ قراءَته آية آية[٢].

أقول: وبالجملة يكون المعنى: اقرأه بتُؤَدة وتبيُّن، مع حضور القلب، وكمال المعرفة، والشعور بما يفيده من المعاني والمقاصد، والفهم لِـمَا يريده من التدريب والتوجيه.

ثم علَّل الأمر بقيام الليل بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ أي: فقيام الليل يُـؤَهِّلك للقيام به والاستعداد له؛ لأنه يؤهِّل النفس لإشراق جلال الله فيها، فتستعدُّ لكلِّ عمل عظيم مثل هذا.

والمرادُ من القول الثقيل: الأمرُ الجليل الخطير العظيم القَدْر والأثر، وهي النبوَّة وأعباؤها. وقيل: بل المراد به القرآن.

أما ثِقَلُه عليه ﷺ، فلِمَا فيه من تبليغ الرسالة، وردِّ الضَّالِّ إلى الهدى، وهو عِبْءٌ ثقيل؛ إذ يَلحقُه من جَرَّاء ذلك أذىً كبير يجب أن يستعدَّ لِتَحَمُّله، ففُرض عليه قيام الليل ومجاهدة النفس وترك الراحة والدَّعَة ليستَعِدَّ لذلك.

وأما ثِقَلُه على أُمته، فلِمَا فيه من الأمر والنهي والحدود. وهذا معنى قول قتادة ومقاتل والحسن[٣].

---

(١) الهذُّ: سرعة القطع وسرعة القراءة؛ هذَّ القرآن يهذُّه هذّاً، أي: يسرده. «لسان العرب» (هذذ).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٣) وقال: حسن صحيح غريب، وأحمد (٢٦٥٨٣) وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره.

(٣) ينظر «تفسير الطبري» (٢٣: ٦٨١).

وقيل: بل معنى ﴿ثَقِيلًا﴾: أنه لا يحمله إلا قلبٌ مؤيَّد بالتوفيق، ونفسٌ مؤيدة بالتوحيد.

ثم أكمل التعليل بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال مجاهد: أي: ساعات التهجُّد من الليل[1] ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي: أبلغ مشقة، فإذا تدرَّبت عليها تدرَّبت على تحمُّل المشاقِّ واستِسهالها؛ إذ هي أشدُّ وَطْئاً من غيرها، ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي: أعدل مقالاً وأسدُّها، بمعنى: أنها ـ وإن كانت شاقَّة على النفوس ـ فإنها أكثر موافقةً للقراءة والفهم والتدبُّر، لفراغ البال، وانقطاع القلب عن الأشغال، فهي أنسب وأبلغ في ترويض النفس وتهيئتها.

وهذا هو مُؤَدَّى قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ أي: إن مشاغلك في النهار ومذاهبك كثيرة، فإنك تشتغل فيه بتبليغ الرسالة ودعوة الخلق وتعليم الدين وإصلاح المعيشة لنفسك وعيالك، وفي الليل يَفرُغُ قلبك للتذكُّر والتدبُّر والقراءة، فاجعل ناشئةَ الليل لعبادتك؛ لتأخذ بحَظِّك من خير الدنيا والآخرة، ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ قال ابن زيد: أي: تَفَرَّغ لعبادته. وقال ابن عباس: أي: أخلِصْ له إخلاصاً[2].

وقد أشار بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ إلى إبداع النظام الشمسي ودلالته على عَظَمة الخالق واختصاصه بالألوهيَّة، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ أي: كِلْ إليه أُمورَكَ وتوكَّل عليه، فهو الذي يُعينك على أعباءِ مهمتك، ويساعدك على أعدائك، ويَخْذلهم عنك، فاصمُد لهم.

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٨٢).

(٢) المصدر السابق (٢٣: ٦٨٨-٦٨٩).

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب، ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ لا قطيعةَ فيه ولا شدَّة. وقيل: المراد به: إظهار المَوْجِدة عليهم من غير تَرْك دعوتهم إلى الحق. وقيل: بل المعنى: لا تقابلهم بمثل إساءتهم.

ثم توعَّدهم بهذا الوعيد الرهيب، فقال: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اتركني وإيَّاهم، وقد وصفهم بقوله: ﴿أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾[1] تبكيتاً لهم على كفرهم بنِعَمِ الله عليهم، ومقابلتها بالتكذيب، إذ هم صناديد قريش ثروةً وجاهاً.

ثم طلب إليه أن يتحمَّل منهم، ويتريَّث في أمرهم، فقال: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾[2].

وقد مهَّد بهذه الجملة لهذا التهديد، فقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ والنِّكْل: القيد الثقيل، ﴿وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ أي: ناراً حامية، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ كالضَّريع والزَّقُّوم، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ اللهمَّ جنِّبناه يا أرحم الراحمين، ويكون ذلك كلُّه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ وهو يوم القيامة. ثم أكمل الوصف بقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ قال ابن عباس: تكون رَمْلاً سائلاً[3].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن هدَّدهم بأهوال القيامة، توعَّدهم بعذاب الدنيا، كما جرى على أمثالهم من الأُمم، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بما يكون من

---

(١) أي: أصحاب التنعُّم بالأموال والأولاد.

(٢) أي: اتركهم برفق وعدم مبالاةٍ زمناً قليلاً.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٣٨٦).

أمركم، ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ أي: شديداً ثقيلاً. فحذَّرهم سبحانه أن ينالهم مِثلُ ما نال فرعون وقومه.

ثم عاد إلى تخويفهم بأهوال القيامة مُفرِّعاً على ما تَـقَدَّم بقوله: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ أي: كيف تَأمنون إن كفرتُم بربكم عذابَ يوم تَشيبُ منه الأطفال؟ وهو يوم القيامة.

ثم زاد سبحانه في وصف شـدَّة ذلك اليوم، فـقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾[1] للصَّدْمة الهائلة التي تكون بين الأجرام. والله أعلم.

ثم ذيَّل ذلك بما يؤكِّده ويقرِّره، فقال: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾.

ثم خَتَم السياق بما يَحُثُّ على الاهتمام بشأنه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الآياتِ المنطوية على القوارع الـمُفْزِعة ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ لـمن أراد أن يذَّكَّر، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ وذلك بالاتِّعاظ بهذه المواعظ، والتقرُّب إليه بالإيمـان والطاعة، فإنها المنهاج المُوصِلُ إلى مرضاته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾.

---

(١) ﴿مُنفَطِرُۢ﴾ أي: متشقِّق ﴿بِهِۦ﴾ أي: بسببِ هولِ هذا اليوم، وإنما جاء بصيغة المذكّر، ولم يَقُل: (منفطرة) لأنَّ السمـاء تُـذكَّر باعتبارِها سقفاً، كمـا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ثم عاد إلى الكلام عن قيام الليل الذي بدأ به السورة، على نهج القرآن في العودة إلى الموضوع إذا أراد أن يُتمَّه، أو يبحث فيه بحثاً مشبعاً، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولى من المقدمة الثانية)، وخاطب به نبيَّه ﷺ مُخفِّفاً حكم قيام الليل عن الصُّورة التي أوجَبَها في أول السورة، مُسْتَبدلاً الوجوب بالندب، وأدمَجَ فيه الباعث على ذلك التخفيف، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ من أصحابك يقومون كذلك.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ قال عطاء: أي: لا يفوتُه عِلمُ ما تفعلونه[1]، وقد ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ قال مقاتل: كان الرجلُ يُصلِّي الليلَ كلَّه مخافة أن لا يصيبَ ما أُمِرَ به من القيام. وقال غيره: بل المراد: لن تُطيقوا المداومة على قيام الليل، ويقع منكم التقصير فيه، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[2] قال الجُبّائي: بأن جعله تطوُّعاً ولم يجعله فرضاً. وقيل: بل المعنى: فخفَّف عنكم، ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: فصلُّوا ما تيسَّر من صلاة الليل، مِن ذِكرِ الجزء وإرادةِ الكُلِّ؛ لأن القراءة هي الجزء المهمُّ في الصلاة.

ثم عَلَّل ذلك التيسير بعلل داعيةٍ للتخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ فهذه علّة، ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسافرون فيها للتجارة ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الربح، وهذه علّة ثانية، ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهذه علّة ثالثة. وكلُّها يَصعُبُ معها قيام الليل على الصُّورة المذكورة، وتقتضي التخفيف عنكم، ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ فأعاد الآية للتأكيد، وليقرن بها الأحكامَ المعوِّضة عن هذا

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٧٧).

(٢) تضمَّنت الآية تقسيم مَنْ معه إلى طائفتين: طائفة تحتاط لتكميل الواجب كلَّ الاحتياط، وطائفة ليست بهذه المثابة، وربما فاتها شيء من الحد المعيَّن. وقد نظر إلى هذه في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾. والله أعلم. (المؤلف).

التخفيف. أي: صَلُّوا ما تَـتَمكَّنون من صلاة الليل من غير تحمُّل مشقَّة، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ عليكم التي بُدِّلت صلاةُ الليل بها، وهي الصلوات الخمس، أو أقيموا جنس الصلاة أياً كانت؛ بأن تصلُّوها بحضور قلب وشعور بما تقولون وما تفعلون، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة، ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ في صَدَقـات التـطوُّع والإنفاق في سبيل الخيرات. وقد مرَّ الكلام عن هذا القَرْض في سورة الحديد وسورة التغابن[1]، فارجع إليه.

ثم ذيَّـل السياق بقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ مما ذُكِـرَ في السياق وما لم يُذكَر، ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ قال ابن عباس: أي: هو أعظم أجراً من الذي تؤخِّره إلى وصيَّـتك عند الموت[2]. وقال الزجَّاج: هو خيرٌ لكم من متـاع الدنيا[3]. ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ في كافَّة أحوالكم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ لمن استغفرَ وتاب.

* * *

(١) في الآية ١١ من سورة الحديد، وفي الآية ١٧ من سورة التغابن.
(٢) «تفسير الرازي» (٣٠: ٦٩٥).
(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٤٤).



مكيَّة، وهي ست وخمسون آية

وهي من أوَّليات القرآن نزولاً.

والغرض منها:

ـ استِنهاض النبيِّ ﷺ للدعوة.

ـ وإنذار المشركين بما ينتظرهم من العذاب إن لم يُجيبوا ما يُدعَوْنَ إليه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾[1] أصله: المُتدثِّر، أُدغمت التاءُ في الدال، وهو المتغطِّي

---

(١) ندبه إلى القيام بهذا الأمر، مستنهضاً له، ثم ذكر نموذجاً متفرقاً من هذا الإنذار، ليكون براعة استهلال عن طبيعة الشريعة التي أُرسِلَ بها، ثم ذكر الغاية من ذلك، وهي اتقاء عُسْر يوم القيامة وملابساته ومتابعاته.

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ جملة أُريد بها الاستنهاض والحض على التهيُّؤ لما قرن به من الدعوة إلى الدين الجديد ونشره بين الناس، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ عبَّر عن الدعوة بالإنذار اهتماماً به وشدة عناية بالتحذير، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ إجمال لناحية العقائد من الشريعة، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ إجمال لناحية الأعمال منها؛ لأن العرب تكنِّي بطهارة الثياب عن طهارة الأخلاق وزكاة النفوس، وذلك هو الغرض من نظام الشريعة الغرّاء، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ إنّ رسول الله لم يعبد صنماً، ولكن الكلام تشريع عام، ولا يلزم من النهي عن الشيء التلبُّس به، ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ بيان خصلة عظيمة من هذه الشريعة، وهي أن يكون الإحسان بين الناس مجرَّداً عن شعور الترفُّع والاستعلاء، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ في نشر هذه الشريعة وتحمُّل هذا العبء الثقيل، حتى تأمن أنت ومَنْ معك =

بالثياب عند النوم، يخاطب به النبيَّ ﷺ، وهو بمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، فما قيل هناك يقال هنا.

وقيل: بل المراد به الحثُّ على الجِدِّ في الأمر، والقيام بما أُرسل به، وترك الهُوينا فيه، مأخوذ مما تقوله العرب: فلان لا ينام في أمره؛ إذا وصف بالجد. فناداه سبحانه بهذا الوصف استنهاضاً لهمَّته، بصورة من النقد اللطيف، وتمهيداً لقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

ثم أردَفَ الأمر بالإنذار، وأتبَعَه بأخصِّ ما يشتمل عليه، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ والتكبير إنما يكون في عبادته، والمراد به: الشعور بعظَمَته وجلاله واستحقاقه لأن يُعبَدَ وحده، والتطهير من كل شرك جليٍّ أو خفيّ، وهو من أهم المبادئ التي أرادها سبحانه في هذا الإنذار.

ثم تابع البيان عنها، وأردَفَ التطهيرَ للقلب بالتطهير للبدن والثوب، أو التطهيرَ المعنويَّ بالتطهيرِ الماديِّ، فقال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قيل: وذلك بتقصيرها، وهذا أول ما أُمر به من ترك العادات المذمومة؛ لأنهم كانوا يلبسون الثياب طويلة تُعفي آثارهم إذا مشوا، كما هي عادة بعض البدويين اليوم، فأمره بترك هذه العادة. وقيل: بل المراد: التنظيف مطلقاً؛ لأنَّ المروءة الظاهرة في الثياب النظيفة الطاهرة، وكان ﷺ يعتني

= يوم الفزع الأكبر الذي عبَّر عنه بقوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

ثم توعَّد المعارضين، وخصَّ الوليد بن المغيرة بالذكر، فقال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: جعلته ممتازاً حتى لُقِّبَ بهذا اللقب [وهو «الوحيد»]، وأنعمتُ عليه بجليل النعم؛ فكفر بأنعم الله، ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ بأن أُنعم عليه في الآخرة أيضاً، ظناً بأن إنعام الله عليه في الدنيا لرضائه عنه، ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ فليس له في الآخرة إلا النار، والإنعام في الدنيا ليس دليلاً على الرضا، ولا محظوراً على الكافرين. (المؤلف).

وما بين حاصرتين إضافة مني للتوضيح.

بنظافة الظاهر، كما يعتني بنظافة الباطن. وقيل: بل المعنى: وعَمَلَك فأصلِح. قال السُّدِّيّ: يقال للرجل إذا كان صالحاً: إنه لطاهر الثياب[١].

وبعد أن أمره بتكبير الله وتوحيده، أمره بهَجْر الأصنام، على نهج القرآن في تقرير الأمر بالشيء، بالنَّهي عن ضدِّه، فقال: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والزهري: المراد بالرُّجْز: الأصنام والأوثان. وقال الكسائي: الرِّجز؛ بالكسر: العذاب، وبالضم: الصنم[٢].

أقول: وإنه ﷺ وإن لم يكن سَحَبَ ثوباً، ولا عبد وثناً؛ لأنَّ النهي عن الشيء لا يستلزم التلبُّس به، وإنما أمره بهذا الأمر ليكون حكماً من الأحكام التي أُرسِلَ بها إلى قومه، فهو خطابٌ للأمة في شخص النَّبيِّ ﷺ، من خطاب الخاصِّ والمراد به العموم، جارٍ على عُرْف التخاطب، حيث يُخاطَب الرئيس بما هو مطلوب من المرؤوسين.

ثم تابع الهدي والتأديب بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ أي: لا تَمْنُنْ بعطائك على الناس مُسْتكثراً بها أعطيتَه، فأبطل ما كانوا عليه من الديانات والعادات. وكانوا يتفاخرون بالعطاء وإطعام الطعام، ويَتَباهَوْن ويَتَمدَّحون بذلك، فأمرهم أن يجعلوه لله لا للتباهي، فلا يَتَمدَّحون به، ولكنهم سيُمدحون عليه، وإن فعلوه لوجه الله فيحصلون على الأمرين معاً وبصورة أجمل.

ثم أمره بالثبات تجاه ما يناله من جرَّاءِ الدعوة للتوحيد والدين الجديد، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ أي: اصبِر على ما ينالك من المشقَّة، ومن أذى المشركين، في سبيل نَشْر ما عُهِدَ به إليك من الإنذار، ومن الدعوة إلى الله، واصبر على طاعة الله تعالى.

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٨٠).

(٢) روى هذه الأقوال مع القراءة الطبري في «تفسيره» (٢٣: ١٢-١٣).

ثم علَّل الأمر بالإنذار بما تَضَمَّنه قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ فنفىٰ يُسْرَه تأكيداً لعُسْره عليهم، وإشعاراً بيُسره على المؤمنين، أو تمكيناً لما قبله، مُشْعِراً بأنَّ شدَّة ذلك اليوم عامة، ولا سيما على الكافرين. ومحصَّل الكلام: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه.

والناقور: ما يُنقَرُ به للتصوير والإيذان، بمعنى: إذا ضُرِبَ الجرس للإيذان بالقيامة، فيجوز أن يكون الكلام على الحقيقة، ولا يَعلَمُ صورة ذلك الناقور إلا الله؛ لأنه من عالم الغيب الذي لا يقبل القياس على ما في عالم الشهود[1]. ويجوز أن يكون الكلام على المجاز والتمثيل، يكنَّى به عن حدوث واقعة القيامة وما يتبعها، فيكون تمثيلاً مُنتَزعاً من حالة المُخاطَبين، وهي ضَرْبُ الجرس للتجمُّع والسَّعي له، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة).

ثم تابع الوعيد للكافر المعارض، فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة ـ أبي خالد بن الوليد ـ من عظماء قريش. قال ابن عباس: وكان الوليد يُسمَّى (الوحيد) في قومه[2]، أي: لامتيازه. فيكون المعنى: جَعَلتُ له جاهاً عريضاً بين قومه، ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان له ما بين مكة والطائف صنوفٌ من الأموال، أعطاه الله إيّاها، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ لا يغيبون عنه لِغِناهُم عن ركوب الأسفار البعيدة للتجارة كما هو شأن أهل مكة، وقد

---

(١) وهذا القول هو المعتمد الذي لا ينبغي أن يُعدَلَ عنه إلى غيره، أما القول الثاني فلا حاجة إليه مع إمكان الحقيقة، ولا قرينة تدلُّ عليه حتى يقوى على مزاحمة هذا القول.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ١٩).

أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة، ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ أي: سَهَّلتُ وبَسَطتُ له الرِّياسةَ والجاه العريض، حتى لُقِّب: ريحانة قريش والوحيد.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ﴾ وهذا تيئيسٌ وقَطْعُ أملٍ من تكميل الخير له، متضمِّناً للوعيد بسلب مالِه. وقد علَّله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ قال ابن عباس وقتادة، أي: جَحُوداً[1]، فقد بدَّل نعمة الله كفراً. قالوا: وما زال الوليد بعد هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ...﴾ ردّاً لِـمَا كانوا يعتقدونه من أنَّ حظوظ الآخرة تَبَعٌ لحظوظ الدنيا، فمن كان ذا حظٍّ في الدنيا، فهو في حظٍّ في الآخرة. فردَّ عليه ذلك مُبيِّناً أنَّ حظوظ الآخرة تَبَعٌ لتعليم هذه الآيات والعمل بها، فمن كان مُعارِضاً لها ومُعانداً فلا حَظَّ له في نعيم الآخرة وسعادتها.

ثم تَوَعَّده سبحانه بقوله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ أي: في الآخرة. والإرهاق: الـحَمْلُ على الشيء بالعنف. والصَّعود: العَـقَبة الكؤود التي يَصعُبُ الصعود عليها، استعارها للعذاب الشديد. وعنه ﷺ: أنه «جبلٌ من نار يتصعَّد فيه الكافر سبعين خريفاً، ثم يهوي كذلك فيه أبداً»[2].

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٢٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٧٦) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: حديث غريب.

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

ثم بيَّن صورةً من مُشاغَباته وعناده، فقال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ ماذا يقول في شأن القرآن والمُشاغَبة فيه والصدِّ عنه، ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ وهذا تعجيبٌ من تقديره وإصابته في غَرَضِه الذي يَنتَحيه في المشاغبة.

ويجوز أن يكون استهزاءً به وتهكُّماً بقوله الآتي، وقد كرَّر الجملة للمبالغة في ذلك، فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾، والمقصود من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ المبالغةُ في الدعاء عليه في الكرّة الثانية.

وقد روي في قصته هذه: أنه مرَّ بالنبيِّ ﷺ وهو يقرأُ «حمّ السجدة»، فقال: «إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لَـمُثمِر، وإنَّ أسفله لَـمُغدِق، وإنه ليعلو ولا يُعْلى عليه»[1]. ثم غلبه عناده، فطلب ما يدفع عنه هذا الهاجس، والتَمَسَ ما يُوهي هذا النظر، كما حكى ذلك عنه سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ قال الرازي: المعنى: أنه أولاً فكَّر، وثانياً قدَّر، وثالثاً نَظَر في ذلك المقدَّر، وهذه المراتب الثلاث متعلقة بأحوال قلبه[2].

ثم إنه تعالى وَصَفَ بعد ذلك أحوالَ وجهه المُنبئة عن حالته النفسية، فقال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ يقال: عبس؛ إذا قَطَّب ما بين عينيه، فإن اهتم لذلك وفكَّر فيه قيل: بَسَر.

---

(١) والطلاوة: اللطافة والجمال. والمغدق: الريان. (المؤلف). والقصة رواها الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٢٤).

(٢) «تفسير الرازي» (٣٠: ٧٠٦).

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ قال الرازي: هذا يدل على أنه كان عارفاً في قلبه صِدْقَ محمد ﷺ، إلا أنه كان يكفر به عناداً وكِبْراً[1]، ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ أي: تُؤْثره النفوس وتختاره لحلاوته، فهو شيءٌ خادع، يُشبِّه بذلك على نفسه وعلى الناس، ويقول: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ وليس من الله؛ يريد أنَّ محمداً ﷺ رجل ساحر البيان، وأنَّ ما يقوله سحرٌ في بلاغته، قويُّ التأثير، يفرِّق بين المرء وزوجِه، وبين المرء وعشيرته. واحتجَّ على ذلك بما أصاب أهل مكة من فرقةٍ وتَخَاذُلٍ وتَنَاحُر، بعد أن كانوا مَضرِبَ المثل في العصبيَّة وقوَّة الرابطة.

وذُكر في قصَّته وَجْهٌ آخر، وهو أنه لـمّا شاعَت الدعوة، واقترب موسم الحج على أثر ذلك، عَلِمَت قريش أنَّ الوفود من الحجَّاج لا بدَّ أن تسأل عن الأمر، وخشيت أن تَـتأثَّر بالدعوة، فاجتمع نفرٌ منهم، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة هذا، فدَبَّروا أن ينشروا بين الوافدين والقرشيين ما ذكر من التدبير، وهو أنَّ هذا الذي جاءَ به محمد هو من قوله، وقد وضعه بقوَّة ذَلاقةِ لسانه، حتى كان له تأثيرٌ على النفوس، فسَحَرَ به الناس وأدخَلَهم في زمرته. وقد قال الوليد لأتباعه: إنَّ لهذا القرآن لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإذا قلتُم فيه غيرَ ذلك فشلتُم، وانطلقت قريش في المواسم تُحذِّر الحاجَّ من الاستماع إلى هذا الرجل وسِحْرِ بيانه، حتى لا يصيبهم ما أصابَ مكة، فتكون فتنةً تَصْلى حَرَّها جزيرةُ العرب جمعاء.

فتوعَّده سبحانه على ذلك بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾، ثم هوَّل شأن سقر، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ والتلويح: تغييرُ اللون إلى

---

(١) «تفسير الرازي» (٣٠: ٧٠٦).

الحمرة والسواد، والبَشَر: جمع بَشَرة، أي: تجعل بشرة الإنسان سوداءَ حمراءَ من شدَّة الاحتراق. اللهمَّ عافِنا مما ابتليتَه يا أرحم الراحمين.

ثم ذكر الموكَّلين بها، فقال: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾، وقد احترس عمَّا يَرِدُ على هذا العدد القليل في الظاهر، من أنهم كيف يقدرون على تعذيب العدد العظيم من الخلائق، أو ما هو شأن تعذيب هذا العدد القليل لهذا الخلق العظيم، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ والمَلَكُ له قدرةٌ عظيمة ليست كقدرة البشر، ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ هذا العَدَدَ ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيهزؤون بحسب عُرْفهم من تولية هذا العدد القليل لتعذيب أكثر الثقلين. وفي هذا الجَعْل للفتنة إسناد الفعل إلى الله مُجَرَّداً عن السبب، مثل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، لأنَّ الضلال صادرٌ بحسب سُنَّة الله العامَّة في أخلاق البشر؛ إذا فسدت بمفاسد التربية وحِطَّة التفكير وسوء القدوة، (كما جاءَ في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، فليس هذا الجَعْل مقصوداً ذاتياً من الله تعالى[1]، ولكنه ناتج بسنة الطبيعة وبمقتضى السنن الكونية، نتاج المسبَّب عن السبب.

ثم علَّل الجَعْل بقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾، وقد ذكروا لهذا الاستيقان وازدياد الإيمان وجهين:

الأول: أن هذا العدد لو كان من محمد ﷺ لَـمَا قاله، بل كان يذكر عدداً ضخماً دفعاً عن ورود مثل هذا الاعتراض واحتراساً له، فذِكرُ هذا العدد يدلُّ على أنه من الله.

---

(١) هو مقصود لله تعالى، لأنه لا يقع أمرٌ في الوجود إلا وقد أراده الله تعالى أن يقع، لكن من غير إجبار العباد عليه، لأن الله جعل لهذه الأمور أسباباً من اختيار العباد أنفسهم وميولهم، رتَّب سبحانه وتعالى إرادته على هذه الأسباب بحسب علمه الأزلي، فالله عز وجل يُريدُ فتنة الكافر إذا عَلِمَ أنه يميلُ إليه ويختارها، ويعدل عن طريق الهداية إليها.

والثاني: أنَّ هذا العدد قد جاءَ في التوراة، فلما ذُكِرَ في القرآن استَيقَنَ أهل الكتاب صِدْقَه، وازداد إيمانُ المؤمنين بتصديق أهل الكتاب له.

ثم أكَّد الاستيقانَ وازديادَ الإيمان بما ينفي كلَّ ما يعتري ذلك من شبهة، فقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال أبو السعود: وإنما لم يَنْظُمِ المؤمنين في سلك أهل الكتاب في نفي الارتياب، فلم يقل فيهما معاً: «ولا يرتابوا»، للتنبيه على تباين النفيين حالاً؛ فإن انتفاءَ الارتياب من أهل الكتاب مقارِنٌ لِمَا ينافيه من الجحود، ومن المؤمنين مُقارِنٌ لِمَا يقتضيه من الإيمان[1]. أي: فلا يجحده أهل الكتاب، ويقوى به إيمان المؤمنين.

ثم عطف على قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ قولَه: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكّ ونفاق، فيكون هذا إخباراً بما سيكون في المدينة بعد الهجرة من ظهورِ المنافقين وقولِهم فيه هم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المُصِرُّون على التكذيب: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ وهذا القول هو المراد من الافتتان السابق.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ مصدر هذا الافتتان فيهم، إنما هو ضلالهم الناشئ من إفسادهم لطبيعتهم بمفاسد التربية وسُوءِ القدوة وحطّة التفكير، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي آثر التمسُّك بأسباب الضلال لإفساده لطبيعته، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي آثر التمسُّك بأسباب الهدى لمحافظته على سلامة فطرته.

ثم ردَّ على هؤلاء الضَّالِّين المفتونين استهزاءَهم بهذا العدد واستخفافَهم به، فقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: فلم يجعل خَزَنةَ النار تسعةَ عشرَ لقلَّة الجنود، ولكنَّ الحكمة اقتضت ذلك.

---

(١) «إرشاد العقل السليم» (٩: ٦٠).

وقال عطاء: معناه: وما يعلم عدَّةَ الملائكة الذين خَلَقهم الله لتعذيب أهل النار إلا الله[١]. وهذا القول منه مبنيٌّ على أنَّ العدد السابق إنما هو للتكثير لا للتحديد، أو هو للخَزَنة لا للمُعذِّبين؛ لأنَّ النار نفسَها بما فيها من أنواع العذاب التي لا تُحصى؛ كلها من جنود الله.

وبعد أن استطرد للكلام عن هذا العدد، تابَعَ الكلام عن سَقَرَ، فقال: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ أي: وما سَقَرَ إلا تذكرة وموعظة لهم، ليَتَجنَّبوا ما يستوجبون به ذلك.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم أقسم سبحانه على إنجاز ما ذكره من الوعيد بسَقَر، فقال: ﴿كَلَّا﴾، وهذه الكلمة رَدْعٌ لمن أنكر، أو معناها: حقاً، ﴿وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ[٢] ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ والمعنى: إن البلايا الكبرى كثيرة، وسَقَرُ واحدة منها. وقوله: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ إما تمييز لـ﴿إِحْدَى الْكُبَرِ﴾ تأويلاً للوصف بالمصدر، أو حال منها. أي: فقد كبرت إنذاراً، أو كبرت مُنذِرة.

ووجه المناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه: أنَّ الذي جعل الليل والنهار خِلْفةً، وجَعَل لهما هذا النظام البديع المُحْكَم، الذي لا خَلَل فيه ولا اختلاف، كيف لا يجعل

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٨٥).

(٢) على قراءة: (إذا دَبَرَ)، بمعنى: أدبر، كـ: قَبَلَ، بمعنى: أقبل، وقرأ كثيرٌ من القرّاء: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ بإسكان الذال وفتح الهمزة، وبها نقرأ. (المؤلف).

وقراءة: (إذا أدبر) هي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كما في «الحجة للقراء السبعة» (٧: ٨٠).

سَقَرَ وخَزَنَتَها على أحكم نظام وأتقنه، حافلة بما يستوعب تعذيب المستحقِّين أجمعين وإن كَثُروا؟!

ثم أبدل من قوله: ﴿لِلْبَشَرِ﴾ قولَـه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: إنها نذير لمن شاءَ منكم أنْ يتقدَّم إلى الخير باختيارِه أسبابَ الهدى، أو يتأخَّر عن ذلك بانحرافه عن تلك الأسباب واختياره أسبابَ الضلال. وقيل: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ خبر مقدَّم، و﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ مبتدأ مؤخَّر، وهو وعيد بصورة تخيير؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وأقول: أما يدلُّ هذا التفويض على أن الإنسان مختار في تصرُّفاته؟!

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم قرَّر ما تضمَّنه الكلام من أنَّ الجزاء بالخير والشر مُرتَّبٌ على ما يعمله الإنسان من أسبابهما باختياره ومَحْض إرادته، وأجمَلَه فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ وهذا هو الناموس العام الذي يمشي عليه مصير الإنسان في الآخرة من السعادة أو الشقاء، بل وفي الدنيا أيضاً فـ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، والرهينة: بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم.

ثم استثنى من أعمِّ الأحوال، أو من مضمون ما تقدَّم قوله: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لا ينجو أحد إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكُّوا رقابهم من هذا الرهن بما أحسنوا من أعمالهم، فهم ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ متنعِّمين، ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ تباهياً بحالهم ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾، ويقولون لهم تبكيتاً وتنديماً: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾؟

فأجابوهم بجواب مِلْؤُه الأسف والندم و﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ في الباطل ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ قال قتادة: معناه: كلَّما غوى غاوٍ بالدخول في الباطل غَوَيْنا معه[1].

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ وهو الموت، وانكشف لنا الأمر، فعرفنا الحق من الباطل، بعد فوات الفرصة وانقضاء المدة، وشاهدنا الأمر بأعيننا، ونلنا جزاءَنا جزاءً وفاقاً.

وفي هذا الإسهاب في الجواب اتِّساق مع قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وتفصيلٌ لأحد قسمَيْها، وكان مما يتناسب في تتمة كلامهم هذا أن يقولوا: وقد ضللنا بما كنا نعتقد من شفاعة الشركاء، ولكنهم لا يصرِّحون بذلك تخفِّياً من الفضاحة. فيذكره لهم سبحانه وتعالى بصيغة تهكُّم بهم وتقديم لهم، ويقول: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم ليكونوا شفعاء عند الله.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

وبعد أن شَرَحَ حالهم في الآخرة، عادَ إلى توبيخهم إرشاداً لهم، وقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: فما لهم مُعرِضين عن التذكرة بما يكون من أمرهم في الآخرة.

ثم صَوَّر إعراضَهُم هذا بأشدِّ الصُّور وأهجَنها، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٣٧).

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ قال ابن عباس: القَسْوَرة: الأسد[١]. وقال الزهري: القَسْوَرة: جماعة الرُّماة[٢]. وعلى كلٍّ، فقد شُبِّهوا في إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ والنذر وشِرادِهم عنه بحُمُر جَدَّت في نِفارِها مما أفزَعَها. وفي هذا المَثَل من ذمِّهم وتَهْجينِ حالهم ما لا يخفى.

ثم عطف على ما تَضَمَّنه الكلام من إنكارهم لنُبوَّة محمد، وما جاءَ من التبشير والإنذار، قولَه: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾ ومحصَّل المعطوف عليه والمعطوف: أنهم لا يكتفون بتلك التذكرة، بل يُريد كلُّ واحد منهم أن ينزل كتاب باسمه، يأمره أن يؤمن بمحمد ﷺ. وبعبارة أخرى: أنهم لا يرضون بهذا الكتاب العام، بل يُريدُ كلُّ امرئ منهم أن يُؤْتى بكتاب خاصٍّ يدعوه لذلك. وهذا المعنى هو المرويُّ عن الحسن وقتادة[٣]، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقد ردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿كَلَّا﴾، ثم أعرَضَ عن حكاية تعلُّلاتهم إلى بيان حقيقة حالهم، فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٥٣﴾.

ثم رَدَعهم عن حالهم هذا، وكرّر الإنذار، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾ أي: إنَّ القرآن تذكرة لمن أراد أن يذَّكَّر، والأمر مَنُوط بالاختيار، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ وحاز سعادة الدارين. ومحصَّل الكلام: أنْ ليس من سُنَّة الله أن يُلزِمَ الدينَ إلزاماً، ولكن يوحيه وحياً، فيبلِّغه الرسول تبليغاً، فمَنْ شاءَ فليؤمن به، ومَنْ شاءَ فليكفر.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٤: ٤٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» عن ابن عباس وأبي موسى ومجاهد وعكرمة (٢٤: ٤٠).

(٣) المصدر السابق (٢٤: ٤٣) عن قتادة.

ثم أردَفَ هذا ببيان الحقيقة العامة في الإنسان، التي نَهَجَ عليها القرآن في بيان مثل هذه المواضيع، تحقيقاً لـمنشأ الضلال في المكذِّبين، وإيذاناً بأنه لم يكن عن قَسْر للإرادة، ولكن بمقتضى ما خَلَق الله الإنسان عليه من الاستعداد للنَّجْدَين واختياره فيهما، فقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يُمكنهم يذكرون إلا أن يطبِّقوا القانون الذي شاءَه الله في ذلك، وهو أن لا يفسدوا طبيعتهم بمفاسد التربية وسُوءِ القدوة والتقليد الأعمى، فعَبَّر بهذا عمَّا شاءَ سبحانه أن يخلق الإنسان عليه، وهو استعداده لأن ينطبع بأعماله الاختيارية وعقائده التقليدية التي يجري عليها، فإذا انطبع بذلك على الانقياد لأمر أو عقيدة، فَقَدَ استعداد النظر والبحث عن الصحة أو الفساد فيها، فهو لا يستمع إلى متكلِّم يخالفه، ولا إلى داعٍ يدعوه للتمييز بين الحقِّ والباطل، وإذا وَصَل إلى سَمْعه قولٌ مخالف لعقيدته لا يتدبَّره ولا يراه جديراً بالنظر والاعتبار.

وتحرير ذلك: أنَّ الله سبحانه قد شاءَ في خِلْقةِ الإنسان أن لا يبصر الخير من الشرِّ بمنظار صحيح، إلا إذا لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية والتقليد الأعمى، ولما كان هؤلاء قد أفسدوا فِطَرَهم أصبحوا لا يتذكَّرون بهذا القرآن ولا يُصْغُون إليه.

ثم ساوَقَ السياق، فذكر سبحانه نفسَه بهذين الوصفين، إيذاناً بمدلولهما، وخَتَم السورة بهما، فقال: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هو سبحانه وتعالى أهلٌ لأن يُتَّقى، وأهلٌ لأن يَغفِرَ للمُتَّقين. أي: حقيقٌ بأن يُتَّقى وحقيقٌ بأن يغفر للمتَّقين الذي يذكرون فيؤمنون ويتَّقون؛ يغفر لهم جميع ما سلف منهم، كما يغفر للمتَّقين من عباده المؤمنين، إذا صَدَر عنهم من الهفوات ما لا يَسلَمُ منها أمثالهم. والله أعلم.

* * *



مكيَّة، وهي أربعون آية

والغرض منها:

إثبات البعث وما يَتْبعه من حساب ثم ثواب أو عقاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾[1] وإدخال (لا) النافية على فعل القَسَم شائع في كلام العرب، وفائدتها توكيد المُقْسَم عليه، أو الإيذان بأنه أوضَحُ من أن يحتاج إلى القَسَم، كما سيأتي عن أبي مسلم.

وفي القَسَم بيوم القيامة تحقيقٌ له، وتقريرٌ لوقوعه.

وفي القَسَم بالنفس اللوّامة تنبيهٌ إلى ما سيكون من نَدَم مُنكِره ولَوْم نفسه له عندما يرى وقوعَه ويبصره.

---

(١) الراجح في معنى القَسَمِ المنفيّ في الآيتين: أُقسم بيوم القيامة الذي يُبعث فيه الخَلْق للجزاء، ولكنه أمرٌ غيبيٌّ لا يُدرِكُ عظمَتَهُ منكرو البعث. وأُقْسِمُ بالنفس المؤمنة التقيَّة الناصحة التي تلومُ صاحبَها على تقصيره، وإن اجتهدت في الطاعة، ولكن هذه النفس اللوَّامة ضامرة هزيلة داخل الإنسان المنكر للبعث.

والذي أراه: أنَّ المراد بالنفس اللوامة: عموم أفراد النفس؛ لأنَّ النفس مطبوعة بخِلْقتها على لَوْم صاحبها عند إساءته أو تقصيره، وذلك هو المعبَّر عنه في علم النفس بتأنيب الضمير، ولا سيما إن كان قد بقي في الإنسان بقية من نور البصيرة والشعور باليوم الآخر، فاللومُ وصفٌ طبيعي للنفس.

أما المفسِّرون فقد اختلفوا في المراد من النفس اللوَّامة، وفي صورة لَوْمها؛ فقالت فرقة: هي نفس المؤمن، واللوم خاصٌّ بها، وهو من صفاتها المحمودة. وقال الحسن: المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسَه دائماً[1]، يقول: ما أردتُ بهذا؟ لمَ فعلتُ هذا، فإن غيره أَوْلى؟

وقال فرقة: هذا اللومُ يوم القيامة، كلُّ أحدٍ يلوم نفسه، إن كان محُسناً لامَها على عدم الازدياد من الإحسان، ليكون قد نال أعلى مما هو فيه من المنزلة، وإن كان مُسيئاً لامها على ما فعلت. وهي في ذلك نوعان: لوَّامة مَلُومة، وهي النفس الظالمة الجاهلة، يلومُها الله تعالى وملائكته. ولوَّامة غير مَلُومة، وهي التي لا تزال تلومُ صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذل جهده. وأشرفُ النفوس مَنْ لامت نفسَها في طاعة الله، واحتملت مَلامَ اللائمين في مرضاته تعالى.

وعلى كلِّ وجهٍ، فالمناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه ـ وهو الحشر والحساب ـ هي أنه سبحانه يحذِّر من لَوْمها لصاحبها يوم القيامة على إنكار البعث والنشور. والمُقْسَم عليه محذوف، أقام الجملةَ الآتية مقامَه، على نهج القرآن في مثله. والتقدير: إن البعث واقعٌ، والمُنكِر له سيلوم نفسه إذ ذاك.

وقال أبو مسلم في كلمة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾: إنَّ (لا) هاهنا لنفي القسم البتة، كأنه قال: لا أُقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس، ولكنِّي أسأل غير مُقْسِم: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٩٥٩).

﴿أَلَن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ أي: أنْ لن نُعيدَه إلى ما كان عليه، خَلْقاً جديداً، بعد أن صار رُفاتاً. فكنَّى عن البعث بجَمْع العظام، وقد أراد بلفظ الإنسان: الإنسان الكافر بالبعث بقرينة الحال، ولتحقّق الجنس ببعض أفراده، وذلك من خصائص اللغة.

ثم قال رداً لهذا الحُسْبان: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ على ما كانت عليه. قال الزجَّاج والجُبّائي وأبو مسلم: أي: ومَنْ قدر على جمع صغار العظام، فهو على جمع كبارها أقدر[1].

أقول: وقد ظهر اليوم بنتيجة البحث العلمي أنَّ كل بَنانٍ في إبهام اليسرى لا يُشبهُ آخر بخطوطه، فلذلك خصَّه بالذكر؛ لأنَّ إعادته على ما كان عليه أدقُّ وأدلُّ على كمال القدرة. والله أعلم.

ثم أردَفَ الاستفهام الإنكاري على هذا الحسبان بالبيان عمَّا يريده ويبغيه من وراء هذا الإنكار، فقال: ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾ هذا ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافرُ المُنكِرُ لجمع العظام، يريد بهذا الإنكار ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾[2].

قال مجاهد والحسن وعكرمة والسُّدِّيّ: وهذا إخبارٌ منه تعالى أنه يريد أن يمضي قُدُماً في المعاصي[3]، راكباً رأسه، لا ينزع منها ولا يتوب، فيعلِّل نفسَه بأنه لا حشر وحساب، فلِمَ يحرمُ نفسَه من ملاذِّ الفجور؟ أي: فهذا التحلُّل من القيود هو الذي

---

(١) ينظر «معاني القرآن» للزجاج (٥: ٢٥١).

(٢) قد يأتي (فَجَرَ) بمعنى: كذّب، من التكذيب، فيكون المعنى: يريد الإنسان الكافر بجمع العظام أن يُكذِّب مستقبله، وهو الحياة الثانية، فيسأل سؤال إنكار وتكذيب: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ فيُجيبُه سبحانه بما يُقرِّر يوم القيامة من ذِكرِ وقائعه وأحواله، وحينئذ يجزع هذا المكذب جَزَعَه الآيس البئيس. (المؤلف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٥٣).

يحمله على الإعراض عن مقرَّرات ربِّه، ويكفر بها، ولا يقرُّ بالبعث، ولا يذكر النشور، و﴿يَسْـَٔلُ﴾ استبعاداً واستهزاءً وإنكاراً ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾[1]؟

يُكذِّب بذلك ليستسيغ المعاصي والميوعة في السلوك والأخلاق، ولكنه سيندم حين يشاهده عياناً، ويندهش ويتحيَّر، كما حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ أي: اندهَشَ وتحيَّر مما يشاهد من أحوال القيامة، وأكثر الشخوص إلى تلك المشاهد خَوْفاً وهَلَعاً، ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾ أي: ذهب ضوؤه، ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ أي: جُمِعَ بين الكواكب المتباعدة وفيها الشمس والقمر، وذلك كلُّه نتيجة لاختلال النظام الشمسيِّ ضمن اصطِدام الأجرام السماويَّة وانحياز بعضها إلى بعض، فتكون كتلةً متجاذبة بحكم القُرب، ثم يكون بها ما يشاء سبحانه. والله أعلم.

فإذا كان ذلك ﴿يَقُولُ﴾ هذا ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ يأساً واستِسلاماً: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾؟ فيُجيبُه سبحانه بقوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ والوَزَر: ما يُتَحصَّنُ به أو يُستوزَرُ ويُستنصَر، بمعنى: لا ملجأ من الله، بل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾[2] و﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾[3] وما قدَّم: هو الأعمال، وما أخَّر: هو آثار الأعمال الباقية بعده، فيجازى على الإحسان حُسْناً، وعلى الإساءة سوءاً.

---

(١) الظاهر أن المجرم كالكافر يرى الحقَّ عند الموت، ولكنه سبحانه أراد به المبالغة في الإلزام والتهويل. (المؤلف).

(٢) أي: زَجْراً وردعاً، لا مَلْجأ لك ـ أيها الكافر ـ تلتجىء إليه، ولا شيء يعصمك من عذاب الله تعالى، إنَّ الحكم يوم القيامة بمكانِ استقرارِك في جهنم الذي سوف تستقرُّ فيه خالداً مُخلَّداً هو إلى ربِّك، لا مُعقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه.

(٣) أي: يُخبَّر الإنسان يوم القيامة بكلِّ ما قدَّم قبلَ موتِه من عمل قد عمله، خيراً كان أو شرّاً، وبكلِّ ما لم يَعمَلْه من أعمال كان يجب عليه أن يعملَها، فأخَّرها وراءه في الحياة الدنيا، حتى وافته منيَّتُه، وانتهت ظروف امتحانه، وأقبلت مرحلة حسابه ومجازاته.

ثم أضرب عن ذلك إلى بيان أنه لا يحتاج أن يُنبِّئه غيرُه ويُثبِتَ عليه أفعاله؛ لأنَّ نفسَه عالمةٌ شاهدة على فعله، فقال: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يومئذٍ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ أي: حُجَّة بيِّنة. والجمع: بصائر، وهي الحجج التي يُتبصَّر بها على الأمور.

قال ابن عباس وعكرمة ومقاتل: إنَّ جوارحَه تشهد عليه بما عمل، فهو شاهدٌ على نفسه بشهادة جوارحه عليه[١].

وقال الأخفش: هذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فإنَّ نفسه شاهدة عليه.

ومحصَّل ذلك ـ والله أعلم ـ أنه يشعر بكلِّ ما صَدَر عنه من خير أو شر، ويعلم بنفسه درجةَ استحقاقه للثواب أو للعقاب. وهذا هو معنى ما جاء في الأثر من أنَّ الحساب يكون في لمح البصر[٢]، فيدرك الكافر استِحقاقَه للعقاب[٣]، ولكنه يتشبَّث بالتنصُّل والاعتذار أو محاولة الإنكار، فلا يُجْديهِ ذلك نفعاً، ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾[٤] وجادَلَ وأدْلى بكُلِّ حُجَّةٍ يعتذر بها.

---

(١) أقول: لما كانت النفس تتكيَّف بأعمال الخير فتزكَّى، وبأعمال الشر فتدسَّى، كانت كيفيَّتها شاهدة عليها، والله أعلم، كحال من ضيَّع نفسه في الدنيا، ومن اعتنى بها في التربية والتثقيف، فإن الفرق بين النفسين ظاهر، حال كلٍّ منهما شاهدة على صاحبها بما فعل وسلك. (المؤلف).
وقول ابن عباس رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٦٢).

(٢) سبق تخريجه (١: ٦٠٩).

(٣) ليس الحساب هو إدراك العبد لعمله وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب، بل هذا الإدراك جزء منه، والحساب أعمُّ من ذلك، لأنه يتضمن الملامة والتقريع أو الستر أو العفو، كما يتضمن مناقشة ومحاورة، مع بيان الأعذار من عدمها، ونحو ذلك.

(٤) ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: جمع مَعذِرة على غير قياس؛ لأن مَعذِرة تجمع على: مَعاذِر، بدون ياء، فزيادة الياء =

فإذا فعل ذلك محاولاً إنكار بعضه قيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي: علينا بحكم الوعد أن نُحصيَه ونجمعَه ونقرأه عليك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ أي: فتَتبَّع قراءتَه عليك فعلاً فعلاً، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ وإثباتَه إنْ زعمتَ أنك لم تفعله، كلَّه أو بعضَه. وهذا ملخَّص ما قاله القفَّال والبلخي.

وقيل: بل المعنى أنه يؤتى كتابَه، فيَتلجلَجُ لسانُه من سُرعته في قراءته خوفاً، فيقال له: ﴿لَا تُحَرِّكْ....﴾.

وقيل: بل هذا الكلام اعتراضٌ وانتقالٌ خُوطِبَ به النَّبيُّ ﷺ، حيث كان يتعجَّل على الوحي في القراءة حرصاً منه عليه.

والمعنى الأول أكثر ملاءمةً للسياق، والثاني لا يخالف أساليب القرآن؛ لأنه بينما يكون مُجْرياً الكلام في أمر، يلتفت فيُجريه على آخر يقتضيه الموضوع أو الحال، فيكون المراد به تطميناً للرسول ﷺ بأنه سبحانه كفيلٌ أن يلقي في حفظ الرسول هذا القرآن، لا يفوته منه شيء، على حدِّ قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياقَ المتضمِّن لإثبات الحشر ودقَّة المناقشة في الحساب، أردَفَه

= خروج على القياس للمبالغة. أي: لو أحضرَ وبسطَ أعذارَه وحُجَجَه لتسويغ ما كان من التقصير أو العصيان. ومعنى الآية: بل الإنسان كثير البصر والمعرفة بمرادات نفسِه وأهوائها وشهواتها ونيّاتها، وسائر ما يصدر عنها، ولو ألقى حُجَجَه الكاذبة، وأقواله التي يحاول بها تبرئةَ نفسِه، وستر ذنوبه.

برَدْع البشر عن اهتمامهم كلَّ الاهتمام بالدنيا، وإهمالهم لأمر الآخرة، فقال: ﴿كَلَّا﴾ لم يكن الأمر كافياً، ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ أي: الدنيا. وهذا معطوف على ما تضمَّنه الكلام السابق، على نهج القرآن في مثله. أي: حقاً إنكم لا تهتمُّون لِـمَا هو أمامكم من دقَّـة المناقشة والحساب، بل تُحبُّون الدارَ العاجلة، وتخلدون إليها، ﴿وَتَذَرُونَ﴾ الدار ﴿ٱلْآخِرَةَ ۝٢١﴾ على ما فيها من شأن مهمّ ووعيد، بيَّنه بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ قال ابن عباس والحسن: ناعمةٌ بهيجة[1]، وقال مجاهد: مسرورة. و﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾.

وقد اختلف في هذا النظر على وجهين:

أحدهما: أن معناه نظر العين حقيقةً أو مجازاً؛ أي: إلى نعيم ربِّها.

والثاني: أن المراد به: الانتظار لثواب ربِّها الجزيل، فيكون معناه: التوقُّع والرجاء، وهو المرويُّ عن أكثر الصحابة والتابعين، كما تقول: أنا أنظر إلى فلان، أي: أُؤمِّـل إحسانَه وعطاياه[2].

---

(١) رواه عن ابن عباس ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠: ٣٣٨٧).

(٢) ليس بصحيح أنَّ التفسيرَ الذي نقلَه مَرويٌّ عن أكثر الصحابة، بل لا يصحُّ ذلك عن أحدٍ منهم، بل لا يصحُّ عن أحدٍ من التابعين فيما قيل إلا عن مجاهد، كما ذكر ذلك الشوكاني في «فتح القدير» قال: ... وقيل: لا يصح هذا (أي: التفسير المذكور) إلا عن مجاهد وحده. انتهى.

وإنما معنى الآية هو الرؤية التي يُنكِرها المعتزلة ومَن وافقهم.

قال الإمام ابن كثير: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري، رحمه الله، في صحيحه: «إنكم سترَون ربكم عياناً».

وقد ثبتَت رؤية المؤمنين لله عزَّ وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عندَ أئمّة الحديث، لا يمكن دَفعُها ولا منعها... ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطُرقِها وألفاظِها من الصحاح والحِسان والمسانيدِ والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مُفرّقاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمدِ الله مُجمَعٌ عليه بين الصحابة والتابعين وسلف =

= هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهُداة الأنام. ومَن تأوَّلَ ذلك بأنَّ المراد بـ﴿إِلَىٰ﴾ مفرد الآلاء، وهي النِّعم، كما قال الثوريّ عن منصور عن مجاهد: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فقال: تنتظر الثواب من ربِّها. رواه ابنُ جرير من غيرِ وجهٍ عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضاً ـ فقد أبعدَ هذا القائل النجعة، وأبطلَ فيما ذهب إليه.

وأين هو مِن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قال الشافعي رحمه الله: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل. ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. اهـ.

وقال ابن عبد البر في «التمهيد»: قول مجاهد هذا مردودٌ بالسنة الثابتة عن النبي ﷺ وأقاويل الصحابة وجمهور السلف، وهو قولٌ عندَ أهل السنة مهجور، والذي عليه جماعتهم ما ثبت في ذلك عن نبيهم ﷺ، وليس من العلماء أحد إلا وهو يُؤخَذ من قولِه ويُترك إلا رسول الله ﷺ، ومجاهد وإن كان أحد المقدَّمين في العلمِ بتأويلِ القرآن فإن له قولين في تأويله اثنين هما مهجوران عند العلماء مرغوب عنهما، أحدهما هذا، والآخر قولُه في قول الله عز وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال: يوسَّعُ له على العرش فيُجلسه معه. وهذا قولٌ مُخالِفٌ للجماعةِ من الصحابة ومَن بعدَهم، فالذي عليه العلماءُ في تأويل هذه الآية أنَّ المقامَ المحمودَ الشفاعة. اهـ.

وقال ابنُ حجر في «فتح الباري»: قال البيهقي: وجهُ الدليل من الآية أنَّ لفظ: «ناضرة» الأول بالضادِ المعجمة الساقطة من النضرة بمعنى السرور، ولفظ: «ناظرة» بالظاء المعجمة المُشالة؛ يحتمل في كلام العرب أربعة أشياء: نظر التفكر والاعتبار؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، ونظر الانتظار؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]، ونظر التعطف والرحمة؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]، ونظر الرؤية؛ كقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، والثلاثة الأُوَلُ غيرُ مُرادة؛ أما الأول: فلأنَّ الآخرةَ ليست بدار استدلال، وأما الثاني: فلأن في الانتظار تنغيصاً وتكديراً، والآيةُ خرجت مخرج الامتنان والبشارة، وأهلُ الجنة لا ينتظرون شيئاً لأنه مهما خطرَ لهم أتوا به، وأما الثالث: فلا يجوز لأن المخلوق لا يتعطَّف على خالقه، فلم يبق إلا نظر الرؤية، وانضمَّ إلى ذلك أن النظر إذا ذُكِرَ مع الوجه انصرفَ للعينَين اللّتَين في الوجه؛ ولأنه هو الذي=

والبعض يرىٰ أن رؤية الله سبحانه ممكنة في الآخرة. وهذا رأيٌ ضعيف[١]؛ لأن قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] نصٌّ في عدم الرؤية، ويُؤيِّده قوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فهو نصٌّ بنفي الاستغراق[٢].

= يتعدّى بـ «إلى»؛ كقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ٢٠]. وإذا ثبت أنّ: «ناظرة» هنا بمعنى «رائية» اندفعَ قولُ مَن زعم أنَّ المعنى: ناظرة إلى ثواب ربها؛ لأن الأصل عدم التقدير. وأيَّد منطوق الآية في حقِّ المؤمنين بمفهوم الآية الأخرى في حق الكافرين: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وقيَّدها بالقيامة في الآيتَين إشارةً إلى أن الرؤية تحصلُ للمؤمنين في الآخرة دون الدنيا. انتهى ملخصاً موضحاً.

وقد أخرج أبو العباس السرّاج في «تاريخه» عن الحسنِ بن عبدِ العزيز الجروي ـ وهو من شيوخ البخاري ـ: سمعتُ عمرو بن أبي سلمة يقول: سمعت مالك بن أنس، وقيل: له يا أبا عبد الله؛ قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول قوم: إلى ثوابه؟ فقال: كذبوا؛ فأين هم عن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾. اهـ. والله أعلم.

(١) بل هو رأي قوي، لثبوتها في عدّة أدلة من الكتاب والسنة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

(٢) رؤية الله تعالى ثابتة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما الإحاطة والإدراك فهما مَنفيّان عن الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قال ابن تيمية: نفيُ الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء، ولم يَنفِ مجرَّدَ الرؤية، لأن المعدوم لا يُرى وليس في كونه لا يُرى مدح، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً، وإنما المدح في كونِه لا يُحاط به ـ وإن رُئي ـ كما أنه لا يحاط به ـ وإن عُلِم ـ فكما أنه إذا عُلِمَ لا يُحاط به علماً، فكذلك إذا رُئيَ لا يُحاط به رؤية، فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحاً وصفة كمال، وكان ذلك دليلاً على إثبات الرؤية لا على نفيها، لكنه دليل على إثباتِ الرؤية مع عدمِ الإحاطة، وهذا هو الحقُّ الذي اتفقَ عليه سلفُ الأمّةِ وأئمّتها». انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: «نفيُ الإدراك لا يَستلزِم نفيَ الرؤية لإمكانِ رؤيةِ الشيء من غير إحاطة بحقيقته». انتهى. =

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُحتَمِلٌ لعدَّة معانٍ، وفي أصول الفقه: إذا تعارض النصُّ والمُحتَمِلُ يُحمَلُ الثاني على الأول. والله أعلم.

ويقول المنكرون للرؤية: إنَّ الأخبار المرويَّة فيها إنما يُريد بها العلم الضروري الذي لا يشوبُه شبهة[1]. والرؤية بهذا المعنى مشهورة في اللغة.

= وأما الاستدلالُ بقولِ الله تعالى لموسى: [﴿لَن تَرَىٰنِي﴾]، أي: في هذه الدنيا.

وقد تقدَّم قول الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال أهل التفسير: يقول موسى: أنا أوّلُ مَن آمن بك أنه لا يراكَ أحدٌ من خلقِك إلى يوم القيامة.

وروى الحاكمُ في «مستدرَكِه» ـ وصحَّحَه ووافقَه الذهبيّ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ موسى بن عمران لَـمّا كلّمَه ربُّه أحبَّ أنْ ينظرَ إليه، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾.

فحفَّ حول الجبل الملائكة، وحفَّ حولَ الملائكة بنار، وحفَّ حولَ النار بملائكة، وحفَّ حولَ الملائكة بنار، ثمَّ تجلى ربك للجبل، ثم تجلى منه مثل الخنصر، فجعلَ الجبل دكّـاً، وخرَّ موسى صَعِقاً ما شاء الله، ثم إنّه أفاق، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني: أولَ مَن آمن مِن بني إسرائيل.

فرؤيةُ الله تعالى لا تكونُ في الدنيا ولا تصحّ لأحد، وإنما تكون في الآخرة للمؤمنين خاصّةً دون الكافرين.

قال الحافظ في «الفتح»: «لأنَّ أبصارَ المؤمنين في الآخرة باقية؛ فلا استحالةَ أنْ يُرى الباقي ـ وهو الله تعالى ـ بالباقي أعين المؤمنين؛ بخلافِ حالةِ الدنيا؛ فإنَّ أبصارَهم فيها فانية؛ فلا يُرى الباقي بالفاني». والله تعالى أعلم.

(١) أحاديث الرؤية قد بلغَتْ حدَّ التواتر، مع ما جاءَ في ذلكَ من أدلّة القرآن المجيد، وقد اتفق أهل السنة عليها. =

ثم ذكر الصنف الثاني، فقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: شديدة العبوس والخوف؛ لأنها ﴿تَظُنُّ﴾ أي: تَعلَم وتتوقَّع ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي: داهية تَكسِرُ فَقَارَ الظهر، يكني بذلك عن شدَّتها. ومن خصائص اللغة: التعبير بالظنِّ في موضع العلم اليقيني[1].

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾

= قال الإمام ابنُ كثير عندَ تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]: «قد ثبَتَتْ رؤيةُ المؤمنين لله عزَّ وجلَّ في الدارِ الآخرة في الأحاديث الصِّحاحِ من طُرُقٍ متواترة عندَ أئمّةِ الحديث، لا يُمكِنُ دفعُها ولا مَنعُها. ـ وذكر طرَفاً منها، ثم قال: ولولا خشية الإطالة لأورَدنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصِّحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرَّقا في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مُجمَعٌ عليه بين الصحابة والتابعين وسلفِ هذه الأمة، كما هو متّفَقٌ عليه بين أئمة الإسلام وهُداة الأنام» اهـ.

وقال الإمام النووي: «اعلم أن مذهبَ أهل السنة بأجمَعِهم أنَّ رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضاً على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرَون الله تعالى دون الكافرين، وزعمَتْ طائفة من أهلِ البِدَع؛ المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة أنَّ الله تعالى لا يراه أحدٌ من خلقه، وأنَّ رُؤيتَه مستحيلة عقلاً، وهذا الذي قالوه خطأٌ صريحٌ وجهلٌ قبيح، وقد تظاهرَت أدلةُ الكتابِ والسنّةِ وإجماع الصحابة فمَن بعدَهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحوٌ من عشرينَ صحابياً عن رسول الله ﷺ، وآياتُ القرآن فيها مشهورة، واعتراضاتُ المبتدعةِ عليها لها أجوبةٌ مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة، وكذلك باقي شُبَههم، وهي مُستقصاةٌ في كتب الكلام، وليس بنا ضرورة إلى ذِكْرِها هنا» اهـ.

(١) الأرجحُ إبقاءُ الظنِّ في الآية على معناه الأصلي. ومعنى الآية: تظُنُّ ـ وهي في موقف الحشر ـ أن يُفعل بها أمرٌ عظيم، وشرٌّ كبير من العذاب؛ لبقاءِ أملٍ ضعيف بأن يَجعلَ الله لهم مَخْرَجاً من العذاب، باستئناف رحلةِ امتحانهم، أو يجعلَهم تراباً.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم أكمل السياق ببيان حالهم عند النَّزْع، فقال: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ارتَدِعوا عن إنكاركم للحَشْر والحساب، أو حسبانكم أنكم على أمانٍ في كل باب، والمعنى: ارتَدِعوا عن إيثار العاجلة على الآخرة، وتَنبَّهوا لِمَا بين أيديكم من الموت الذي ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة، ويكون ذلك ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروح ﴿ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: العِظامَ المكتنفة بالحلق؛ يكنّي بهذا عن الإشفاء على الموت، ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾؟ قال أبو قلابة والضحّاك وقتادة: أي: قال مَنْ حَضَره من أهله: هل مِنْ رَاقٍ؟ أي: طبيبٍ شافٍ يرقيه ويداويه، فلا يجدونه[1].

وقد استعمل الرقية على عرف العرب إذ ذاك؛ لأنهم يفعلونها للمريض ويعتقدون بها، فالآية تصويرٌ لليأس منه، أكمَلَه بقوله: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وتَيقَّن أنه الموت لا مَحالة، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ قال قتادة: أي: فلا يزال يمدُّ إحدى رجلَيْه ويُرسِلُ الأخرى من شدَّة الاضطراب[2]، وهي حالةٌ لبعض الأموات. أو المراد: تعطيل حركة الساقين بالموت وتقاربهما. وقيل: هو تمثيل لبلوغ الشدَّة أقصاها[3].

ثم تَـمَّمَ البيان بهذا الوعيد، فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾[4] فيَرى حسابَهُ وجزاءَه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٧٥).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٧٩).

(٣) وهو الراجح ـ والله أعلم ـ أي: اجتمعت شدَّةُ مفارقةِ الدنيا مع شدَّة إقبال الآخرة.

(٤) أي: إلى حكم ربِّك ـ وحده ـ يوم القيامة مرجع العباد، يُساقون إليه؛ ليفصل بينهم.

ثم ذكر شيئاً من حال هذا الكافر التي استَحَقَّ بها عذابَ الآخرة، فقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بالدين، ﴿وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ عمَّا جاء به الرسول، ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ مُتكبِّراً زاهِياً مُختالاً على هذا الإعراض والتكذيب، كأنه فاز بالفلاح.

فتوعَّده سبحانه بقوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾، وهي في اللغة كلمةُ تهديد ووعيد، ومعناه: وَلِيُّكَ المكروهُ، وَلِيُّكَ المكروه. وصيغة التعبير تُؤذِنُ بالتهويل. وقال قتادة: هذا وعيدٌ على وعيد[1]. ومعناه: وَلِيُّكَ الشرُّ في الدنيا وَلِيُّكَ، ثم وَلِيُّكَ الشرُّ في الآخرة وَلِيُّك.

ثم أعاد الإنكار على إنكارهم البعث، وقرَّر إثباتَه بدليل آخر، على نهج القرآن في إعادة الكرَّة عندما يريد إشباعَ البحث عن شيء، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ أي: مُهمَلاً لا يُؤمَرُ ولا يُنْهى، ولا يُكلَّف في الدنيا، ولا يُحاسَب بعملِهِ في الأخرى. وقد ألـمع بالكلام على إثبات ذلك وتحقيقه، ومرماه: أنَّ الله تعالى قد خلق الإنسان على أحسن الصُّور، وأعطاه عقلاً وروحاً ميَّزه بها عن سائر الحيوانات، أفيكون ذلك بدون تكليف في الأعمال، ولا غاية جليلة تنتهي إليها الفعال، ويكون مصيرُه مصيرَ الحيوان الأعجم؟! ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

ثم لما كان هذا الحُسْبان منطوياً على إنكار البعث، تَصَدَّى لإثباته، ودلَّل بأطوار الخِلقة على ثبوت الإعادة والقدرة عليها، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾[2] والنطفة واحدة، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٨٢).

(٢) أثبت العلم أن من المعتاد أن يُفرِزَ مبيضا الأنثى بويضةً واحدة كل شهر، وتُفرز خلايا السائل المنوي كـلَّ مرة عند معظم الرجال كميات هائـلة تبلغ ملايـين الخلايا المنوية، وشكلها يشبه =

عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾؟ أي: أليس مَنْ قدر على هذا التطوير في الابتداء، قادراً على البعث والإحياء؟ بلى ونحن على ذلك من الشاهدين.

وفي هذا السياق إيذانٌ بأن الحياة الثانية امتداد للأولى وتتمة، وقال ﷺ: «لتَموتُنَّ كما تَنَامون، ولتُبعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتُجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً، وبالسُّوء سوءاً»[1].

❊ ❊ ❊

= شكل العلق، وأحد هذه إذا استطاع الوصول إلى بُويضة الأنثى، يندمج فيها، ويُكوِّنان خليةً كاملة، ولا تزال تنقسم حتى تصبح ملايين ملايين الخلايا. وهذه هي الخطوة الأولى لتكوين الجنين. والسائل المنوي الذي يصدر من الرجل يحمل صبغيات أنثوية وذكرية معاً، بنسبة متساوية فيما يبدو. فإذا كان الحيوان المنويّ الواحد الذي يخصب البويضة يحوي صبغيات أنثوية كان الجنين أنثى، وإذا كان يحوي صبغيات ذكرية كان الجنين ذكراً. جلَّت قدرة العلي القدير. (المؤلف).

(١) سبق تخريجه (٣: ٣٢٠).



وتُسمَّى أيضاً: سورة الدهر

مكيَّـة، وهي إحدى وثلاثون آية

والغرض منها:

بيان أثر الشرائع في رِفْعةِ الإنسان وكماله، وما يناله من السعادة.

وقد اقتضى هذا الغرض الترغيب والترهيب بأحوال الآخرة وتفصيل النِّعَم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾[1] وهذا الاستفهام للتقرير، ولذلك فُسِّر بـ«قد»، وعلَّق البخاري فقال: و(هل) تكون جَحْداً وتكون خبراً، وهذا من الخبر[2].

ومفاد الآية يظهر مما قاله علماء الجيولوجيا من أنَّ عمر الشمس يقدَّر بنحو خمسة ملايين مليون سنة، وبأن عمر الأرض يقدَّر بنحو ألفي مليون سنة، وعمر الحياة

---

(١) ذكر سبحانه خِلْقةَ الإنسان الابتدائية وما فيها من إيجاد بعد عَدَم، ثم ذكر الخِلْقة التناسليَّة وما فيها من إبداع وحكم، مُلْمعاً بذلك إلى أنَّ الإعادة خلقة أخرى لها من النظام ما هو به أعلم، ينكر بهذا كلِّه على المنكرين. وقد سبك بيان الخلقة الثانية على ما هو الغرض منها في الإنسان من الكمال والسعادة إذا تمسَّك بالتعاليم الإلهية، ومن التَّسفُّل والشقاء إذا تنكَّب عنها واتَّبع هواه وكان أمره فرطاً. ثم ذكر صوراً رائعة من سعادة المؤمنين في الحياة الأخرى، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. ثم ختم ذلك الوعد الجليل بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. (المؤلف).

(٢) «صحيح البخاري» (٦: ١٦٤).

عليها يقدَّر بنحو ثلاثمئة مليون سنة، وعمر الإنسان عليها يقدَّر بنحو ثلاثمئة ألف سنة، فوجود الإنسان متأخِّر جداً بنسبة تلك المخلوقات، لأن الإنسان آخر مخلوق على وَجْه الأرض بعد سائر أنواع الحيوان، عندما أخذت الأرضُ كمالَها من أدوار التكوُّن وقابلية الحياة عليها، واستكملت مواهبُها وخصائصُها، وصَلَحَت لوجود هذا المخلوق. والله أعلم.

وبعد أن ذكر تأخيره في الإيجاد، ذكر تكميله في الإبداع، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط، بمعنى: مختلفة المواد المركبة منها؛ لأنَّ كلَّ نوع يمُتُّ إلى عضو أو فرع منه بصلة. والله أعلم.

وإنَّ جسم الحيوان المنوي يحمل الصفات الذاتيَّة من الأبوين والأجداد القريبين أو البعيدين، وينقلها إلى الولد، كلون البشرة، وتقاسيم الوجه، ولون العينين، والصوت، وطريقة المشي، والذكاء، مثلاً. فهو يَنْزع إلى أحد الأجداد وإن بَعُدَ، فيُشبهه بشيءٍ لا يُشبهُ فيه أُمَّه أو أباه، وبذلك تختلف الأولاد مُختَلَفَ صفات.

أما قوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ فقد قال ابن عباس: المراد به: تصريفه في بطن أُمه نطفةً ثم علقة... إلخ[(١)]، وقال بعض المفسِّرين: المراد به معناه الحقيقي، والكلمة حال، بمعنى: مريدين ابتلاءَه واختباره[(٢)]، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾[(٣)] أي: بليغاً في سمعه

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٩٠).

(٢) وهو القول الصحيح، ويدلُّ عليه قوله تعالى في أوَّلِ سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. فالحكمة من خلق الإنسان: الابتلاء والامتحان، وقد منحه الله سبحانه الإرادة الحرة؛ ليمتحنَه في الحياة الدنيا بالإيمان والإسلام والعبادة.

(٣) أي: من أجل تحقيق الابتلاء والامتحان في الحياة الدنيا منحناه وسائلَ المعرفة، وهي: السمع =

وبصره، يُدرك بها الأشياء إدراكاً دقيقاً، إذا رُوِّضا ودُرِّبا على ذلك، ليحصلَ على المراد، وليتمكَّن من تلقِّي الإرشاد؛ لأنَّ مصيرَه غيرُ مصير الحيوان الأعجم بعد الممات.

و﴿إِنَّا﴾ قد ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ إلى الـهُدى والرَّشاد بفطرته، وبإرسال الرسل لهدايته، وهو مختار في الأخذ لهذه الهداية، ﴿إِمَّا﴾ أن يأخذ بها فيكون ﴿شَاكِرًا وَإِمَّا﴾ أن يُعرِضَ عنها فيكون ﴿كَفُورًا ۝٣﴾. وهذا التصريح بأن الإنسان مختار في تصرُّفاته؛ لأنه فوَّض الأمر إليه بعد أن هداه السبيل.

وتوضيح البيان: أنَّ الله سبحانه خَلَقَ للإنسان عقلاً يتصرَّف في أنواع شعوره ومختلف حاجاته البدنيَّة والنفسيَّة، وجَعَل ارتقاءَه في إدراكه وأفكاره كَسْبياً؛ ينشأ ضعيفاً، فيَقْوى بالتدريج، ويتطوَّر حسب لون التربية التي يتربَّاها، والتعليم الذي يتلقَّاه، ونوع الخُلطاء الذين يتهيَّئون له. وجَعَل سبحانه ـ بحسب حكمته ـ هدايةَ الدين واهتداءَه به أمراً اختيارياً، لا وَضْعاً اضطرارياً. فالهدايةُ معروضةٌ أمامه، يأخذ منها أو يُعرِضُ عنها، وذلك بحسب نوع التهذيب والتثقيف الذي يصادفه، وبقدر ذلك التوجيه يزداد وينقص كَسْبُه من الهداية أو الضلال، كما هو شأنه في الأَخْذ بسائر أنواع الاستفادة من منافع الكون أو مضارِّه، ومعاطاة المصالح أو المفاسد.

وقد قال قتادة والزجَّاج: معنى الآية: بيَّنّا له طريقَ الخير والشر ليختار إما السعادة وإما الشقاء[1].

= والبصر؛ ليستكملَ شروطَ الامتحان الأمثل، وذلك حتى يتعرَّف بهذه الوسائل على الأدلة التي بثَّها الله في كونه، وحتى يستطيع إدراك وصايا الشرائع والتعاليم الربَّانيَّة التي ينزلها الله للناس.

(١) ينظر «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٥٧).

وقالوا أيضاً: المراد: إما أنْ يختار بحُسْن اختياره الشكرَ لله تعالى والاعترافَ بنِعَمِه، فيُصيبَ الحظّ، وإما أن يكفر نِعَمَ الله ويَجحَدَ إحسانه، فيكون ضالاً عن الصَّواب، فأيَّهما اختار جُوزِيَ عليه.

ومُحصَّل الآية: أنَّ الله سبحانه قد هَدى الإنسان بهدايتَيْن؛ بفطرته وبرسله، فهو مُسْتَعِدٌّ للهداية إذا لم يُفسِد غريزتَه بمفاسد التربية وسوءِ القدوة، وللضلال إذا أفسدها.

ثم بيّن سبحانه ما أعدَّه لمن أفسد فطرتَه فمالَ إلى الكفر والضلال، تحذيراً من ذلك، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

ثم بيّن سبحانه ما أعدّه للمحافظين على فطرتهم المستعدَّة لهدايتهم، والعاملين بمقتضى طبيعتهم وإيمانهم، والقائمين بواجب شكرهم، بيّنه ترغيباً لهم بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾[1] وقد ذكرنا غيرَ مرة ما يقوله ابن عباس رضي الله عنهما في كلِّ ما يُذكَرُ في القرآن من البيان عن أحوال الجنَّة وما فيها؛ من أنها لا تشبه شيئاً من أُمور الدنيا وأحوالها، ولكنَّ الله سبحانه سَمَّاه وتكلَّم عنه بما يعرفه الإنسان.

ولذلك فسَّر سبحانه هذا الكافور أو الكأس بقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا[2] عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ المؤمنون ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ والتفجير: إجراء الجداول للماء، إلا أنَّ أنهار الجنة تجري بغير جداول ـ والله أعلم ـ فيقودونها حيثُ شاؤوا من منازلهم.

---

(١) أي: إنَّ المؤمنين الصادقينَ في إيمانهم، المطيعين لربِّهم، المتوسِّعين في أعمال الخير، يَشربون من كأسٍ فيها خمرٌ ممزوجةٌ بالكافور، وهو طيبٌ معروفٌ فيه بياضٌ وبرودة، وله رائحة طيِّبة.

(٢) المراد: يشربون ليرتووا بها.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

ثم ذكر صفاتِ هؤلاء الأبرار وأحوالَـهم التي استحقُّوا بها هذا المصير، فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فإذا كانوا يُوفونَ بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف يكون وفاؤهم بما أوجَبه الله عليهم؟ ﴿وَ﴾ هم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ لا يَسْلَمُ منه إلا القليل.

ثم قال في إتمام الوصف: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[1]، وقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ تكميل بليغ، أي: فهم يُؤْثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة، ويقولون لهم بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ لأنَّ الله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما خَلُصَ له، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ أي: ضائقاً صعباً شديداً.

فبيَّن سبحانه في وصفهم أنهم أحسَنُوا العمل وأخلصوا النية لله، فسجَّل لهم

---

(١) ﴿مِسْكِينًا﴾: لا مالَ له ولا يَقدِرُ على الكسب. ﴿وَيَتِيمًا﴾: صغيراً لا أبَ له يكتسب له ويُنفق عليه. ﴿وَأَسِيرًا﴾: مسجوناً بِيَدِ الأعداء، أو مسجوناً بما يَستوجِبُ العقاب من المسلمين وغيرهم.

بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ ـ اللهمَّ اجعَلنا منهم يا أرحم الراحمين ـ أي: أعطاهم مقابلَ عبوس الفُجّار وحزنهم بهجةً في الوجوه، وسُروراً في القلوب.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ على مَشَاقِّ الطاعات ومهاجرةِ هوى النفس في اجتناب المحرَّمات ﴿جَنَّةً﴾ يَتنعَّمون فيها، ﴿وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ يَرفُلون[1] به.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ قال الزجَّاج: كل ما يتَّكأ عليه فهو أريكة[2]، وهم ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ أي: لا حراً ولا برداً، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ وهذا تـمثيلٌ لكثافة الأشجار ولَطَافة ظلِّها، وهو بعض تفصيل للفقرة السابقة، وكذلك قوله: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ قال مجاهد: أي: سَهُل أخذُ ثمارها كثيراً[3]. اللهُمَّ اجعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أي: في تلك الجنة ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ[4] كَانَتْ قَوَارِيرَا۠[5] ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: جامعة بين صفاء الزجاج وبياض الفضة، وقد ﴿قَدَّرُوهَا﴾ لهم ﴿تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ على قَدْر الريّ. وقيل: بل المعنى: يجدونها على حَسَب ما قدَّروها في أنفسهم وتمنَّوها من أنواع المشروبات. وقال ابن عباس: قواريرُ كلِّ أرض من تربتها، وأرض الجنة من فضة، وإنها مقدَّرة لهم على قَدْر الريّ[6].

---

(١) أي: يجرُّون ذيولهم ويتبخترون في مشيتهم.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٥٩).

(٣) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ١٠٣).

(٤) ﴿وَأَكْوَابٍ﴾: جمعُ كوب، وهو إناء لا عُروةَ له ولا خرطوم. وما له عروة وخرطوم، يسمَّى إبريقاً.

(٥) ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ القوارير: جمعُ قارورة، وهي إناء من الزجاج. والمراد: وجدتُ تلك الأكواب حال كونها رقيقة.

(٦) تفسير «النكت والعيون» للماوردي (٦: ١٧٠).

ثم تابع البيان فقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ وكانت العرب تَسْتَلذُّ الشرابَ الممزوج بالزنجبيل، ولكَوْن ما في الجنة لا يشبه ما في الدنيا من كلِّ الوجوه فسَّره بقوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾[1] فهو لا يُصنَعُ صُنعاً، ولكن يَنْبع نَبْعاً، كسائر مشروبات الجنة، والله أعلم. وقد أشار بهذا الاسم إلى أنَّ هذا الزنجبيل ليس فيه لَذْعة كما في زنجبيل الدنيا، وإنما هو سائغ، لأن السلاسة هي نقيض اللذع.

قال ابن عباس: لم أسمع «السَّلْسَبيل» إلا في القرآن[2]. فعلى هذا لا يُعرَفُ له اشتقاق. وقال الأكثرون: يقال: شرابٌ سَلْسَلٌ وسَلْسالٌ وسَلسَبيل، أي: عَذْبٌ سَهلُ المساغ. وقد زيدت الباء والياء في التركيب حتى صارت الكلمة سداسية، ودلَّت على غاية السَّلاسة؛ لأنَّ الزيادة في المبنى تدلُّ على الزيادة في المعنى. وقال الزجَّاج: السلسبيل في اللغة: صفة لما كان في غاية السَّلاسة[3]. والفائدة من ذكر السلسبيل هو أنَّ ذلك الشراب يكون في طَعْم الزنجبيل، وليس فيه لَذْعته؛ لأنَّ السلاسة هي نقيض اللذع.

ثم تابع الوصف لذلك النعيم ـ مُفَصِّلاً ومتمِّماً قولَه السابق: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ [الإنسان: ١٥] ـ فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخِدمة ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: غلمان دائمون على ما هم عليه من المواظبة على تلك الخدمة، ولا يفعل فيهم الزمن، ولا يؤثِّر عليهم السنّ، فهم دائماً في نَضَارة وجمال، و﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ لانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند الاشتغال بأنواع الخدمة، فهم كاللؤلؤ المنثور في الكثرة وحُسْنِ المَنظَر.

---

(١) أي: يشرب المقرَّبون من عينٍ في الجنة، ويرتوون بها ريَّاً كاملاً، تُسمّى هذه العين سَلْسَبيلاً؛ لأنها سَلِسَةٌ مُنقادةٌ لهم، تسيل عليهم في طرقهم ومنازلهم.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٧٥٢) عن ابن الأعرابي.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٦١).

ثم أتى بهذه الجملة العالية البيان، والجامعة لكلِّ شأن، يُجمِلُ بها ذلك الهناء العظيم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾، وهذه الجملة في منتهى بلاغة الإيجاز لوَصْف العِظَم والجلال.

ثم تابع البيان، وذكر حالاً آخر من أحوالهم التي جزاهم الله بها في الجنة، فقال: ﴿عَالِيَهُمْ[1] ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ والسُّندس: ما رقَّ من الحرير، والإستبرق: ما غَلُظ منه، ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾[2] وفضة الجنة فيها خصائص الدّرّ، وهذه الأساور كأوسمة التقدير، والله أعلم.

ثم أكمَلَ النعيم بما حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ قال

---

(١) أي: مستعلياً عليهم.

(٢) يجوز أن يعود هذا على النساء فقط؛ لأنَّ من خصائص اللغة وأساليب القرآن إدماج النساء في تعابير الرجال إذا كان الحديث عنهما، ومن خصائص اللغة وأساليب القرآن إسناد الفعل إلى أمرين يصح في أحدهما، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، فالمنُّ شيء ينزل، والسلوى طير من الطيور يأتي ولا ينزل، وقد أسند الإنزال إليهما، وكقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٢]، فالمراد من البحرين: العذب والمالح، واللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من المالح. هذا رأي أراه، والله أعلم.

ولكن جاء في كلام رسول الله ﷺ لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ تاج كسرى وسوارَيْه»، ويدل على أنَّ الأسورة من شارة الملوك. (المؤلف).

قلت: وكذا أحاديث أخرى كثيرة تدلُّ دلالةً صريحةً على أن التحلي بالذهب والفضة ولبس الحرير في الجنة يشمل الرجال والنساء جميعاً، ومنها قوله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» رواه البخاري (٥٨٣٣) ومسلم (٢٠٦٩).

أبو السعود: وهذا نوعٌ آخر من أنواع الأشربة، يفوق النوعين السالفين[١]، يُرشد إلى ذلك إسنادُ سَقْيه إلى ربِّ العالمين، ووصفُه بالطهور[٢].

ويقال لهم بعد نَيْل تلك المنزلة الجليلة: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ فما أعظَمَ هذه التهنئة والكرامة، وما أسعَدَ مَنْ نالها بسلامة. اللهُمَّ اجعَلْنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياق بما يقرِّر ما جاءَ فيه، وسَبَك الكلام على تثبيته ﷺ، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: فكلُّ ما جاءَ فيه ممَّا سبق بيانه حقٌّ لا شك فيه، ونحن حافظوه ومُؤيِّدوه، ومُؤيِّدوكَ معه، ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ قال الحسن: الآثم: هو المنافق، والكفور: هو المشرك. ووضع الظاهر موضع الضمير للتنديد بالوصف.

وللاستعانة على الثبات والصبر أمره بالصلاة؛ لأنَّ تذكُّر الله على الدوام يُربِّي تَقْويةَ العَزْم، فأمره بالصَّلاة، وعبَّر عنها بذكر اسم الربِّ جلَّ جلاله؛ لأنه هو المقصود منها، وجعلها في الأسباب الموجبة بالتقدُّم من الهناء، فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾[٣].

---

(١) المذكورَين في آيتي ٥ و١٧.

(٢) «إرشاد العقل السليم» (٩: ٧٥).

(٣) أي: داوِم على ذِكْرِ اسم خالقِك ومالكِك ومُمدِّك بعطاءات ربوبيَّته في أول النهار وآخره، وصلِّ لربِّك أولَ النهار صلاة الصُّبح، وبعدَ الزوال صلاةَ الظهر والعصر، ومنْ بعض الليل =

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

ثم ندَّد بهؤلاء المشركين المتمرِّدين وفَنَّد حالهم، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ أي: يُؤْثرونَ اللذّات والمنافع في دار الدنيا، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ لا يؤمنون به ولا يعملون له، لأنهم ينكرونه. ولذلك أتى بما يتضمَّن القدرة عليه، والتأنيب على إنكاره وكفرهم به، والوعيد لهم، فقال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ أي: أحكَمنا رَبْطَ مفاصلهم. يُشير بذلك إلى أنَّ إتقان خِلْقتهم تُشعِرهُم بقدرتنا على كلِّ شيء، وتُوجبُ عليهم طاعةَ الله الذي أنعَمَ عليهم بهذه الأعضاء السليمة المُتقَنة الربط، القديرة على العمل، وأن لا يَعبُدوا سواه، ولكنَّهم يُسْرِفون بها في تلك اللذّات العاجلة، ويُهمِلون ما يؤدِّي إلى نعيم الآجلة العظيم، ويحفظ من شقائها الأليم.

وقد عطف على قُدرته في إتقان خِلْقَتِهم قُدرتَه في تحقيق البعث، وطَوَاه على الوعيد، فقال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾، فهذا وعيدٌ لهم بالبعث والحساب والجزاء، بقرينة كلمة ﴿إِذَا ﴾ الدالة على تحقُّق الوقوع. فالمراد بها: الوقت الذي سيُعيدهم فيه ويُجازيهم على أعمالهم جَزاءً وِفاقاً.

= فَصَلِّ لربِّك صلاة المغرب والعشاء، وتهجَّد بالليل صلاةَ التطوُّع بعد المكتوبة زمناً طويلاً من الليل، وسبِّحه مدَّةً طويلة في صلاة قيام الليل أو خارجها، فلهذا التسبيح أثر فعَّال في علاج الهموم العظيمة، والأعباء الجسيمة.

ويجوز أن يكون وعيداً بإهلاكهم في الدنيا، واستبدال غيرهم بهم، ثم لا يكونون أمثالهم. وعلى هذا المعنى تكون صيغة التعبير تُؤْذِنُ بأنَّ صَبْره عليهم رأفةٌ منه ورحمةٌ من رحمته الشاملة.

وبعد أن شرح سبحانه أحوال السُّعداء وأحوال الأشقياء، خَتَم ذلك بما فيه زيادة تحسيسٍ وتنبيه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾، وفي هذه الآية ـ كما في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ...﴾ [الإنسان: ٣] ـ دلالة على أن اندفاع الإنسان إلى الخير والهداية بيد الإنسان نفسه واختياره، وقد أوضَحْنا هذه الآية في سورة التكوير الآتية عند قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، فانظر ذلك.

ثم ألمع سبحانه إلى أنَّ الإنسان ـ بحكم اختياره في أعماله ـ لا يُمكنُه أن يشاء الاستقامة في الله إلا إذا حافظ على سلامة فطرته ونور بصيرته، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] أي: لا يُمكِنكم أن تشاؤوا ذلك إلا أن تُطبِّقوا القانون الذي شاءه الله في ذلك، وهو أن لا تُفْسِدوا طبيعتكم بمفاسد التربية والتقليد الأعمى، أي: لا تجري مشيئتكم إلا بجَرَيان مشيئة الله سبحانه، وهي أنه لا يهتدي إلى الصِّراط المستقيم إلا مَنْ حافظ على سلامة فطرته التي شاءها بحكمته، فإنَّ تلك الفطرة إذا بَقِيَتْ سالمةً لم يُفسِدها صاحبُها بمفاسد التربية وسوء التقليد الأعمى، هي التي يُمكِنُها أن تُطبِّقَ ما شاء الله تطبيقَه من هذه الهداية بحكمته تعالى؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

(١) أي: لستم تشاؤون شيئاً إلا إذا منحكم الله المشيئة الحرَّة، ومكَّنكم من استخدامها؛ لتشاؤوا بها طريق نجاتكم وسعادتكم، أو طريق هلاككم وشقائكم، لكنَّ الله ما وضعكم مَوْضع الامتحان والابتلاء في الحياة الدنيا إلا بعد أن منحكم الإرادة الحرَّة، وسائر شروط التكليف، فأنتم مسؤولون مسؤوليَّةً تامَّة عن مشيئاتكم وأعمالكم.

حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾[1] ومن علمه وحكمته: أنه لم يشأ أن يخلقَ البشر مؤمنين طائعين بالفطرة قَسْراً، كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ولكنه تعالى شاءَ أن يكونوا عاملين مختارين ليكونوا ذوي علم واسع، وإيجاد عظيم.

---

(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ﴾ تذكَّر و﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، ﴿و﴾ لكنكم ﴿مَا تَشَآءُونَ﴾ ذلك الاتخاذ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا أن يتحقّق النظام العام الذي شاءه سبحانه في إمكان الاهتداء للحقِّ والصواب، وهو محافظتكم على سلامة فطركم التي خلقها مستعدَّة لذلك؛ لأنه قد شاء سبحانه في طبيعة الإنسان أنَّ من حافظ على سلامة فطرته وزكّاها اهتدى إلى الصراط المستقيم، ومَنْ أفسدها ودسَّاها ضلَّ عن سَوَاء السبيل، وهكذا طبع سبحانه الإنسان بحكمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ واقتضى علمه وحكمته أن يكون الإنسان مختاراً في تصرُّفاته خيراً أو شراً، وإنه سبحانه ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي حافظ على سلامة فطرته ونور بصيرته، وتصرَّف بهدي الله وإرشاده تصرفاً مرضياً، يدخله ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: في نعيمه وجنَّته، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بإفسادهم لـها وضلالهم بها عن الهدى ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بمقتضى حكمته.

وفي مقابلة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة على أن المراد بـ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إدخالَه في رحمته: هم من حافظوا على سلامة فطرهم، واهتدوا بهدي ربهم الكريم، ولم يظلموا أنفسهم بخلاف ذلك، فقد شاء سبحانه إدخال هذا الصنف في رحمته، وأعد للظالمين عذاباً أليماً.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية: أن لله سبحانه سُنناً لا تتبدَّل، ولا يُمكننا أن نشاء ونحاول خلافها. ومن ذلك: أنَّ كلَّ مخلوق لله سبحانه ـ إذا فسدت طبيعته ـ لا يأتي بما خُلِقَ له من مقاصد، فالحَبُّ مثلاً إذا أفسَدَه السُّوس لا يمكننا أن نشاء إنباته، والعين إذا أصابها العمى والعَمَه لا يمكننا أن نشاء الإبصار بها، ضدَّ ما شاءه سبحانه فيها ـ حسب السنة الكونية ـ من تعطيل. وكذلك الإنسان إذا أفسد طبيعته بالغَواية والضلال، لا يمكنه أن يشاء الهداية أبداً، ولا يدركها ويُبصرها بعد ذلك، اللهم إلا أن يبقى فيه بقيّة من نور الفطرة لم يدركها الإفساد، فكلُّ من حافظ على سَلامة فطرته فقد شاء الله له أن يستقيم، وكلُّ من شاء الله أن يستقيم يَقدِر أن يستقيم، وكلُّ من أفسد فطرته لا يُمكِنُه أن يستقيم. (المؤلف).

وهذا الاختيار يجعلهم مستعدّين للإيمان والكفر، والطاعة والفسق، وإنَّ هذا الاستعداد هو تحت تأثير كَسْبهم وما يحيط بهم من أنواع التربية وحوادث الزمان والمكان، كما هو شأنهم في الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون، أو انحرافهم عنها، بمقتضى لون التهذيب والتثقيف والمخالطة التي صادفتهم وأُحيطوا بها، فغرائزهم وفِطَرُهم كلُّها خير، وتصرُّفاتهم وكَسْبهم للعلوم والأعمال فيها الخير والشر بحكم اختيارهم، أما الخير ففي موافقتهم لِسُنَنِ الله في هذا الكون وتعاليم شرائعه التي ينزلها على رُسله إلى البشر، وكلُّها موافقة للسنن الكونيَّة، وأما الشر ففي انحرافهم عن تلك السُّنن والشرائع.

لذلك قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذي حافظوا على سلامة غرائزهم، فمشوا على سُنن الله وتعاليمه في شرائعه، يُدخِلُهم ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ التي أعدَّها الله في جنَّته للصالحين من عباده، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ منهم لأنفسهم بالانحراف عن تلك السُّنن والشرائع ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ في جحيمه ودار عذابه. أعاذنا الله وجعلنا من أهل رحمته ورضاه. والدخولان يَتَرتَّبان على الأعمال في الدنيا ترتيباً طبيعياً[1]، والله أعلم.

وفي مقابلة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة على أنَّ المراد بهم: مَنْ لم يظلموا أنفسهم بإفسادها وتَدْسيتها كما بيَّنّا.

ومن مباحث اللفظ: أنه نَصَب ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الاشتغال؛ للمبالغة في التبصرة والتنبيه، وقُرئ أيضاً بالرفع على الابتداء[2].

---

(١) بل ترتباً شرعياً، كما تقدَّم بيانه تعليقاً في مواضع. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدِّم أول الكتاب (١: ٤٣١).

(٢) وهي قراءة عبد الله بن الزبير وأبان بن عثمان كما في «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢: ٣٤٤).

وقال في «مجمع البيان» في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] ليس المراد بهذه الآية أنه سبحانه يشاء كلَّ ما يشاء العبد من المعاصي والمباحات وغيرها؛ لأنَّ الدلائل الواضحة قد دلَّت على أنه سبحانه لا يجوز أن يريد القبائح[١]، ويتعالى عن ذلك، قال سبحانه: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

أقول: وإنما المراد مُحَصَّل ما قد سبق من أن مشيئتكم تابعة لمشيئة الله فيكم، فقد شاءَ سبحانه في خِلْقة الإنسان أن لا يُبصِرَ الخير من الشر بمنظار صحيح، إلا إذا لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية والتقليد الأعمى؛ لأن الطبيعة المحفوظة تُبصِر، والمحروفة لا تُبصِر، فمَنْ حافظ على سلامة فطرته شاءَ أن يتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً، ومَنْ أفسدها لم يشأ ذلك. والله أعلم.

فمفاد الآية: أنكم لا تقدرون أن تشاؤوا الـمَيْلَ إلى الحقِّ والخير ما لم تحافظوا على ما شاء الله لكم من سلامة طبيعتكم وصحَّة ميولكم، فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

ولا يقال: كيف تَتَخلَّف إرادة الله من الإنسان؟ لأن الإرادة نوعان: تكوينيَّة، وهي لا تتخلَّف، كإرادته أن يكون الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، ليكون ذا علم واسع وإيجاد عظيم عجيب. وإرادة تكليفيَّة، كإرادته من الإنسان أن يكون مهتدياً بشرائعه[٢]،

---

(١) الله تعالى لا يأمر بالقبيح ولا يرضى به، لكنه مكَّن الإنسان من اختياره، بعد أنْ بيَّن له الخير والشر، والهداية والضلال، فإذا اختاره الإنسان وتوجَّه إليه أراد الله وقوعه منه، لأنه لا يخرج شيء في هذا الوجود عن أن يكون واقعاً بإرادة الله تعالى.

(٢) جَعْلُ القسم الثاني نوعاً من الإرادة فيه نظر، لأنه في حقيقته أمرٌ وطلبٌ لا إرادة، والفعل «أراد» =

وهو يعلم أنه لا يتمسَّك بذلك إلا واحد من عشرة في الألف؛ كما جاء في الحديث: أن المؤمنين من بني الإنسان «كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»[١].

* * *

= بمعناه الاصطلاحي يتعدَّى بنفسه، تقول: أراد الله رحمةَ فلان، فإذا استُعمل بمعناه الثاني تعدّى بـ«مِن»، تقول: أراد الله منّا عبادتَه، وتعديته بـ«مِن» دليل على تضمينه معنى الفعل «طلب»، فلا يكون هذا المعنى ـ إذن ـ من معاني الإرادة الاصطلاحية.

(١) سلف تخريجه (٥: ١٩٧).



مكيَّة، وهي خمسون آية

والغرض منها:

إثبات وقوع ما يوعدون من العذاب.

وبهذا جاءَ سياقها في الإنذار والترهيب والترغيب، وانتَسَقَت مع السور السابقة واللاحقة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾[1] وقد اختلفوا في هذا القَسَم على وجوه:

فقيل: هي أقسام بالرياح وآثارها؛ فـ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ هي الرياح الطليقة؛

---

(١) أقسم سبحانه في بعض السور بالأمور الكونيَّة وما فيها من أدلة عقليَّة على قدرته البالغة التي لا يكون الحشر والإعادة في جانبها إلا أمراً يسيراً، يردُّ بذلك على المنكرين. وأقسم هنا ـ والله أعلم ـ بآيات القرآن، وما فيها من أدلة نقلية على ذلك، ووعد ووعيد، فقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ والعرف: ضد النكر، أي: الآيات المرسلة بما هو معروف لدى العقل السليم ومقبول عنده، لا نكر فيه ولا جهالة، ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ أي: الآيات المنذرة للمنكرين والمعارضين، والمتوعِّدة لهم بالوعيد الرهيب الذي يعصف القلوب، ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ أي: الآيات الناشرة للنور المبين من الهدى واليقين، ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ آيات القرآن التي تفرق بين الحق والباطل، وبها سُمِّي فرقاناً، ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ آيات القرآن وما فيها من وعد ووعيد، والعذر: النُّجْح، والمراد: ما به الفوز والفلاح من تعاليم القرآن. هذا ما ظهر لي. والله أعلم. (المؤلف).

لأن العُرْف: التتابع مع الاكتظاظ، ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾ هي الرياح الشديدة الهبوب، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ هي الرياح تُثير ذرَّاتِ أبخرة الماء فتنشرها في الفضاء، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ هي الرياح تُفرِّق بين قطع السحاب، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ هي الرياح المخيفة، ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾[1] والعذر: الشدَّة، من قولهم: عذر الفرسَ بالعذار؛ إذا شَدَّه به. والنُّذر: التحذير. والله أعلم.

وقيل: هي أقسام القرآن وآياته؛ ومعنى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾: آيات القرآن المتتابعة في النزول على محمد ﷺ، بكلِّ عُرف وخير، ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾: آيات القرآن تَعصِفُ القلوب بذكر الوعيد، حتى تجعلها كالعصف، وهو النبات اليابس المسحوق، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ آيات القرآن تنشر أنوار الهدى والعرفان في قلوب أهل الإيمان، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾: آيات القرآن تُفرِّقُ بين الحق والباطل، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾: آيات القرآن، فإنها الذكر الحكيم، عُذراً للمؤمنين، ونُذراً للكافرين.

أما المُقسَمُ عليه فقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ أي: إنَّ الذي تُوعَدون به من البعث والحساب أمرٌ واقعٌ لا مَحالة.

والمناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه على الوجه الأول: أنَّ عظمة قدرة الله في

---

(١) معنى قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ الرياح ذوات الصفات المختلفات التي تُلقي في أفكار أُولي الألباب ذكراً بالله، وبصفاته الجليلة، وبأسمائه الحُسنى، وهو سبحانه بتصاريفه المتنوِّعة في الرياح يُلقي العُذْر قبل تنفيذِ العقاب فيمَن يستحقُّونه، فإذا أنزل بهم عقابَه بعد ذلك على كفرهم فلا يلوموا إلا أنفسهم، وهو سبحانه بما أجرى من عقاب بالريح المُدمِّرة للأمم السابقة يُنذِر بأنه سيُجري نظيرَ عقوباتِه السابقاتِ على المجرمين الذين يَصلونَ إلى مثل ما وَصَل إليه المجرمون السابقون الذين أهلكهم الله بالريح المُدمِّرة.

الرياح وملابساتها دالَّةٌ على قدرته على البعث، ويضاف إلى ذلك: ما تضمَّنه أمرُ تلك الرياح المُثيرة للسحاب من الإشارة إلى الدورة المائيَّة، والمشابهة بينها وبين بعث الإنسان، لأنَّ قطرات الماء بعد أن تتفرَّق ذرَّاتٍ وتتبعثر في مَتَائِهِ الفضاء والأجواء، ترجع إلى سيرتها الأولى من جديد، حيث تُسلك في الأرض، ثم تخرج ينابيع تجري في الأنهار إلى مقرِّها الأول، وهو البحار، وكذلك حال الإنسان ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وعلى الوجه الثاني: الإشارة إلى ما في هذا القرآن من حُجَجٍ واضحة، ودلائلَ قاطعة، بصحَّة البعث والنشور.

ثم ذكر سبحانه وقت وقوع ما يُوعَدونَ به، ذكرَه بصورة شَرْطٍ محذوف الجواب، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ أي: أُزيلَ ضوؤها لانتشارها وانكدارها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ أي: صُدِعَت فكانت أبواباً، وذلك لانحياز النجوم عن أماكنها وتجمُّعها كتلاً كتلاً. والله أعلم.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ فكانت سراباً، أو انحتت فكانت تراباً، وكلُّ ذلك بتأثير الاصطدام، نتيجةَ اختلال النظام المعبَّر عنه بالقيامة.

وبعد ذلك ذكر الحساب، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١﴾ أي: عُيِّن وقتُها الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم(١).

ثم هوَّل الوقت الذي أُجِّلت إليه تلك الأمور، فقال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣﴾ أي: يومَ يَفصِلُ الرحمنُ بين الخلائق.

---

(١) أو المعنى: وإذا الرُّسل من الملائكة حُدِّدت أوقات قيامها بوظائفها المأمورة بقيامها يوم القيامة.

ثم بالغ في هَـوْل ذلك اليوم، فـقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾[1] فتوعَّدهم عند حلوله بعبارة أدلَّ على عِظَم الجزاء.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه ما فعله بالمكذِّبين أمثالهم في الدنيا؛ ليجمع في البيان بين وعيد العذابَـيْن، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ كقوم نوح وعاد وثمود وإخوان لوط وقوم شعيب وفرعون وقومه حين كذَّبوا رسلهم، ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ من نُظرائهم السالكين مَسْلَـكهم في الكفر والتكذيب، يتوعَّد بذلك كفّارَ مكة، وقد كان ذلك في بدر وسِنِي المَجاعة.

ثم ذيَّل الوعيد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ من أيِّ أُمةٍ ومن أيِّ جيل كانوا، أي: هذه سُنَّتنا فيهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ثم أردَفَ هذا البيانَ بتهويل التهديد، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾، وقد تكرَّر الوعيد بهذه الجملة في هذه السورة؛ مبالغةً فيه وزيادةَ بيانٍ لِـمَا فيه من الهول الشديد، والتكرارُ لغَرَض من الأغراض معروف في أساليب العرب، وقد عَقَدَ ابن رشيق[2] في

---

(١) أي: هلاكٌ عظيمٌ في ذلك اليوم للمُكذِّبين بالتوحيد والنبوَّة والبعث والحساب، ومكان سحيق لتعذيبهم في جهنم. وقد تكرَّرت هذه الآية في هذه السورة عشرَ مرّات، عقب كل آية كذَّب بها الجاحدون، إنذاراً للمكذِّبين بيوم الدين، وترهيباً من عذاب جهنَّم الذي سيُلاقونه إذا أصرُّوا على كفرِهم وتكذيبهم وماتوا على ذلك دون توبة.

(٢) هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، (٣٩٠-٤٦٣هـ)، أديب نقَّاد باحث، له: «العمدة في صناعة الشعر ونقده»، و«الشذوذ في اللغة». «الأعلام» للزركلي (٢: ١٩١).

«العمدة» باباً خاصاً للتكرار في أشعار العرب ومخاطباتهم، وذكر كثيراً منها في مختلف الأغراض وأنواع التقرير[١].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

وبعد أن توعَّدهم سبحانه بهذا الوعيد، أردَفَه بدلائل قدرته تحقيقاً لإنجازه، وتقريراً لقدرته البالغة التي ليس البَعْثُ عندها إلا أمراً يسيراً، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: حقير، وهو النطفة، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ وهو الرَّحِم، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ من الوقت، وهو انتهاءُ مدَّة الحمل، ﴿فَقَدَرْنَا﴾ كيفيَّة خِلْقتِه وهيئته وذكراً أو أُنثى إلى غير ذلك؛ إذ كلُّها بقوانين طبيعية، وسنن كونية لا تتبدَّل، أو المعنى: فَقَدَرْنا المدَّة التي تتم بها الولادة، ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ نحن على كلِّ شيء، أي: فكيف لا نقدر على أن نبعثكم ونعيدكم، وننجز هذا الوعيد؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وقد سَبَك هذا البيان على القدرة والحكمة والمنَّة والاستهجان لهذا الإنسان المُعارِض لله، على ضعفه ومهانة أصله.

ثم تابع دليل القدرةِ المطويَّ على أطوار الإنسان المتشابهة، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ والكِفات: اسمٌ لِمَا يُكفت فيه. قيل: خرج الشعبي[٢] يوماً في جنازة رجل، فقال: هذه كفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت، فقال: هذه

---

(١) انظر «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» (٢: ٧٣).

(٢) هو أبو عمرو، عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحِمْيَري، (١٩-١٠٣هـ)، من التابعين، يضرب به المثل بحفظه. «الأعلام» للزركلي (٣: ٢٥١).

كفات الأحياء. فالمعنى: نكفتكم بعد الموت في القبور، كما كنا نكفتكم في بيوتكم عند النوم. وفيه إشارةٌ ـ والله أعلم ـ إلى أنه لا فرق فيكم بين حالة الموت والحياة، يُنبِّههم إلى هذين الطَّورَيْن المُتباينَيْن تبايناً عظيماً، والمتشابهَيْن تشابهاً بسيطاً، فلِمَ ينكرون الطورَ الثالث الذي هو في عالم أعلى من عالمهم؟ وهو طَوْرُ البعث والنشور، والله أعلم.

ثم جمع سبحانه بين دليل القدرة ودليل المنَّة، بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي: جبالاً شواهِقَ حِفظاً من أن تميلَ بكم وتَضْطربَ في دورانها. فالذي يُراعي الدقّة والسَّداد في مثل هذا لِـمَ لا يراعي ذلك في أسباب البعث والإعادة! كذلك قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: أخرَجْناه منها ينابيعَ وأنهاراً عِذاباً.

ويجوز أن يُراد به مجرَّد ماء الأمطار، وإنما قَرَنَ بها ذِكرَ الجبال للإشارة إلى العلاقة بينهما أيضاً؛ لأنَّ الجبال الشامخة لها تأثيرٌ على تكوين الأمطار.

ثم أردَفَ هذا البيان بتهويل الوعيد للمنكرين، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ الذين قابلوا هذه النِّعَمَ بالتكذيب والعصيان، وأنكروا على هذه القدرةِ البعثَ والإعادة للإنسان.

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه حُكمَه في هؤلاء المكذِّبين، وهو البعثُ بهم إلى النار، جَزاءَ تكذيبهم بها، وسَبَك ذلك في تأنيبهم، فقال: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في الدنيا من البعث والعذاب.

ثم فصَّل ذلك وبيّن ما فيه من هَوْلٍ بقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ يعني دخان جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]، وهو دخان النار العظيم، والمراد بقوله: ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾: الكناية عن كون ذلك الدخان عظيماً؛ لأنَّ الدخان العظيم يتشعَّب.

ويجوز أن يكون المراد أنه ظلّ متفكِّك رديء، ولذلك أردَفَه بقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾.

وقال أبو مسلم: يحتمل أن يكون المراد بالشُّعب الثلاث: ما ذكره بقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ فهذه شُعَبٌ ثلاث[1].

وقال ابن مسعود ومجاهد: القَصْر: واحد القصور من البنيان[2].

ثم عَدَلَ عن هذا التشبيه المبيِّن للعِظَم، إلى تشبيه آخر جمع فيه بين هَوْل الشكل

---

(١) معنى الآيات: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ كما في تفسيري «المعين» ص٥٨١: «تقول خزنة جهنم للكافرين بعد الحساب وفصل القضاء: اذهبوا سريعاً ـ أيُّها المُكذِّبون ـ إلى ما كُنتم تكذِّبون به في الدنيا من العذاب. انطلقوا إلى مكانِ ظلٍّ من دخان جهنَّم أسود، يُلقي ظلُّه على أسفل وادٍ من وديانها، في مكانٍ واسع تُحيط به ثلاثة جبال غير متلاصقة، فيها مخارج ضيِّقة، واللهب محيط بالوادي وبجباله وبشُعبه، ولا مَخْرج لأهل النار إلا بأن يَصعدوا على جبل من هذه الجبال يتحمَّلون به عذاباً أشد، يقتربون فيه من مصادر اللهب، أو بأن يدخلوا هذه المضايق التي هي أشدُّ حرّاً وعذاباً، فهم في مكان مُظلِم يُعْطي ظلاً من دخان لهب النَّار الموقدة، ولا يحجب عنهم حرارة اللهب. إنَّ جهنَّم تَقْذف من أعالي الجبال المحيطة بوادي «ويل» بشررٍ جَمْريٍّ مُتَوهِّج، كالبناء العظيم العالي».

(٢) ذكره عن ابن مسعود الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٦٨٠).

للشَّرر وهَوْل العِظَم له على طريقة التَّرقِّي؛ ليكون أبلغ في الهول، فقال: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾[١] قال الحسن وقتادة: كأنه أَيْنُقٌ سُود[٢]. وقال الفرَّاء: لا ترى أسوَدَ من الإبل إلا وهو مُشْرَبٌ بصفرة، ولذلك سَمَّت العرب سُودَ الإبل: صفراء[٣].

ثم كرَّر جملة الوعيد، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم تابع البيان عن ذلك اليوم الرهيب، فقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لوضوح الحجة عليهم، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ قال قتادة: لأنَّ معاذيرَهم واهية. وقد جاء في الحديث: «ما بعد الموتِ من مُستَعْتَب»[٤]، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال رجل لعكرمة: أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]؟ فقال: إنها مواقف، فأما موقف منها فيتكلّمون ويختصمون، ثم يُختَمُ على أفواههم وتَكَلَّمُ أيديهم وأرجلُهم، فحينئذٍ لا ينطقون[٥].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص في الجواب عن هذا: إنَّ يوم القيامة له حالات وتارات، ففي حالةٍ لا ينطقون، وفي حالةٍ ينطقون[٦]. وعن قتادة أيضاً: إنه يوم ذو ألوان[٧].

---

(١) ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ جمع جَمل. كحِجارة جمع حَجر. ﴿صُفْرٌ﴾: جمع أصفر. ويُطلقُه العرب غالباً على ما يُخالطُ صفارَه سواد. أي: كأنَّ شرر جهنَّم المُتطاير منها، طائفة من الجمال الصُّفر المجتمعة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ١٣٩). والأينق الناقة. «لسان العرب» (مسد).

(٣) «معاني القرآن» للفراء (٣: ٢٢٥).

(٤) سبق تخريجه (٦: ٣٨٨).

(٥) ذكرها الواحدي في «الوسيط» (٤: ٤١٠).

(٦) «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي (٨: ٣٨٦).

(٧) «فتح الباري» لابن حجر (٨: ٦٨٦).

أقول: ويجوز أن النُّطقَ في الخِصام بين صِنفَي المُضِلِّين والمُضلَّلين فقط، أو بين الأتباع والرؤساء، فقد ذكر القرآن محاورتَهما في غير موضع، والله أعلم. وهذا غيرُ موقف الاعتذار والاسترحام الذي عبَّر عنه بقوله: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾. والله أعلم.

ثم تابع الكلام عن ذلك اليوم، فقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاءُ بين الخلق ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ فيه ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ من الأمم.

ثم تهكَّم بهم، فقال: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إن كان لكم قدرةٌ أو حيلةٌ فاحتالوا لأنفسكم. وقيل: إنه توبيخٌ لهم وتقريعٌ على كَيْدِهم للمؤمنين في الدنيا. وعلى كلٍّ، فهو تندُّرواستهزاء، على نهج القرآن في مثله.

ثم أعاد جملة التهويل، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه المؤمنين ومصيرَهم السعيد، زيادةً في شقاء الكافرين وإيلامهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ[1] وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ويُقالُ لهم في

---

(١) ﴿ظِلَٰلٍ﴾: جمع ظلّ؛ وهو جوّ المكان الذي لا شمس فيه، سواء أكانت تطلع عليه الشمس في بعض الأوقات أم لا. ويعبِّر العرب بالظلِّ أيضاً عن الحفظِ والعزِّ والرفاهية، فيقولون: فلان في ظلِّ فلان. أي: في كنَفِه وعزِّه. وفلان في ظلِّ النعمة، أي: في رفاهية النعمة. وما في هذه الآية من هذا الأخير.

التهنئة والتكريم وتقرير العيون: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ولما كانت كرامةُ المؤمنين هذه تزيدُ في شقاء الكافرين، وما فيهم من العذاب المُهين، وتـتزايد بها همومُهم وغمومُهم يوم الدين؛ قَـرَنها بتهويل الوعيد لهم، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم تابع الكلام في تأنيبهم، فقال: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ في دار الدنيا واستَوفوا طيِّباتِكم فيها، ولا شيءَ لكم في الآخرة، ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ومكذِّبون، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم بيَّـن شيئـاً من أسبـاب مصيـرهم هذا، فـقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فذكر الصَّلاة وأراد الدخول في الدين؛ لأنها أعظمُ مَظهَرٍ له، أي: كانوا إذا أُمروا بالصَّلاة أعرضوا وكفروا وكـذَّبوا، فكرَّر لهم الوعيد بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ بما جاءهم من الحق وأمرِ يوم الدين في هذا القرآن المبين.

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: فبأيِّ كتاب يُصَدِّقون إن لم يُصدِّقوا بهذا القرآن وبهذا البيان؟!

ما أعظم هذه الخيبة! وما أشدَّ هذا الخسران! اللهمَّ جنِّبناها يا أرحم الراحمين.

* * *



مكيَّة، وهي أربعون آية

والغرض منها:

إثبات البعث والحساب، وتهديد المشركين على إنكارهم لذلك، وترغيبهم في الإيمان، مُحذِّراً إيَّاهم من ذلك اليوم المَهُول.

ولما كان هدفي في هذا التفسير تَـتَبُّع أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل، وكان الأستاذ الإمام[1] قد فسرَّ جزء ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، عوَّلت عليه في تفسير هذا الجزء، فجاء مختصراً منه بتصرُّف، وأضَفْتُ كثيراً من فهمي وآرائي، مُستعيناً بالله العليم الحكيم المُعين.

* * *

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

﴿عَمَّ[١] يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ وهو أمرُ البعث والحساب[٢]، ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ بين مُنكِر ومُستبعِد وشاكّ.

قال البيضاوي: الجملة الأولى لتفخيم شأن ما يتساءلون عنه، والجملة الثانية بيانٌ لشأن المُفخَّم، أو صلةُ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾[٣].

وقال الأستاذ الإمام[٤]: كان غير المؤمنين يسأل بعضهم بعضاً عن رسالة النبيِّ ﷺ، ويسألون غيرهم من أهل الكتاب: هل هو رسول حقاً؟ وما هذا الخبر الذي جاءَ به من أنه مُرسَل من قِبَل الله، يدعو إلى توحيده، وإلى الاعتقاد باليوم الآخر، وهو يوم القيامة.

فبكَّتهم الله سبحانه، ثم ردَّ عليهم الإنكار والتردُّد بقوله: ﴿كَلَّا[٥] سَيَعْلَمُونَ[٦] ۝٤

---

(١) ﴿عَمَّ﴾ أي: عن أيِّ شيء. وأصله: (عمَّا) فحُذِفت ألف (ما) الاستفهامية تخفيفاً.

(٢) أو القرآن ـ وهو الأرجح ـ، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]. وهذا قول مجاهد والأكثرين.

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٧٨).

(٤) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٥) ﴿كَلَّا﴾ المراد: انزجروا عن هذا التساؤل والتكذيب.

(٦) أي: بعد الموت.

﴿ثُمَّ كَلَّا[١] سَيَعْلَمُونَ[٢] ۝٥﴾ أي: ستنكشف لهم الحقيقة في أمر الحشر والحساب، ويَرَوْنَ صحَّة الخبر عند الموت.

وفي الجملة تهديدٌ لهم وتوعُّد، وفي صيغتها تهويلٌ وترهيب. وأتى بـ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنَّ الوعيد الثاني أشدُّ وأنكى. وقيل: الأول للبعث، والثاني للجزاء، أو الأول للقيامة، والثاني للبعث والجزاء، والله أعلم[٣].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾.

ثم أردَفَ الإنكار والوعيد بدلائل قدرته ومُنَّته وحكمته، تحقيقاً لإنجاز الوعيد، واستشهاداً لقدرته على البعث والجزاء الذي ينكرونه عليه، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ أي: مُمَهَّدةً للعمل والسَّيْر، ولم نجعلها كلَّها جبالاً وَعِرة.

﴿وَ﴾ جعلنا ﴿ٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ لئلّا تميدَ بأهلها، فهي تعادلُ ثِقَلَ ما يقابلها، ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾[٤] ليتمَّ حِفظُ النَّسْل، وللتعاون على تربيتـه، وعلى سعادة المعيشة، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ أي: قَطْعاً عن الإحساس والحركة، و في ذلك استراحةٌ للقوى الحيوانيَّة، وإزاحةٌ لِكَلالها؛ لأنه يُعيدُ إليها ما فُقِدَ منها بالتعب واليقظة في النهار، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ يَسْتركم بظلامه كما يَسْتركم اللباس؛ لتكونوا في

---

(١) تأكيد للزجر السابق.

(٢) أي: عند القيام من القبور.

(٣) والراجح في معنى الآيتين ٤ و٥: «فَلْيرتدع ولينزَجر المُكذِّبون بالبعث ويوم الدِّين، سيعلمونَ عند نَزْع أرواحِهم عاقبةَ تكذيبهم حين تنكشفُ لهم مقاعدهم في جهنم دار العذاب، ثم عند البعث سيعلمونَ أنَّ ما كانوا يُكذِّبون به من أحوال الآخرة حقٌّ لا ريب فيه».

(٤) ﴿أَزْوَٰجًا﴾: جمع زوج. وهو الجنس من الخلق يُقابلُه آخر من جنسه.

هدوء، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ تُبعَثون فيه من نومكم الذي هو أخو الموت، وتتقلَّبون في حوائجكم ومكاسبكم.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

ثم ذكر قدرتَه تعالى في عَظَمة السماء وما فيها من منافع للإنسان، فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ وقد قلتُ غيرَ مرة: إنه يجوز أن يُراد بها طبقاتُ النجوم المتفاوتة في العُلوّ؛ لأنَّ كل طبقة تنفصلُ عمَّا تليها بمسافات بعيدة، والعدد للتكثير لا للتحديد[1].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ أي: متلألئاً وقَّاداً، يعني به الشمس التي بها ضياء النهار، وحياة الحيوان والنبات.

ثم ذكر قدرتَه في تكوين الأمطار، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قيل: المراد بها السُّحُب. وفي اللفظ مجاز عقليٌّ في استعمال اسم الفاعل مكان اسم المفعول[2]، وذلك من خصائص اللغة، مثل حجرة مضيئة. وقال مجاهد وقتادة: المراد من المُعصِرات: الرياح ذوات الأعاصير[3].

أقول: وعلى هذا، فيجوز أن يراد بها الأعاصير التي تهيج في البحر، فتتصاعد معها التَّبخُّرات، وتنعقد غيوماً في الأجواء، فإذا بردت انقَلَبت ﴿مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ أي: مُنْصَبّاً بكثرة.

---

(١) تقدم نقدُ هذا المعنى الذي يُكرِّره المؤلف غفر الله له عن السماوات السبع، وبيان بطلانه.

(٢) يعني: استعمال «المُعصِرات» بدل «المُعصَرات».

(٣) ينظر «الوسيط» للواحدي (٤: ٤١٣).

ثم ذكر قدرتَه في عظمة النبات ومنَّته فيه، فقال: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا﴾ وهو ما يقتات به الناس، ﴿وَنَبَاتًا ۝١٥﴾ وهو ما يقتات به الدواب، ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ أي: حدائقَ متكاثفةَ الأشجار.

وفي كلِّ ما ذكر إيماءٌ إلى ما قد أخَذَت له الحكمة الإلهيَّة من حيطة وسَدَاد وأسباب ومُسبَّبات، وإيذانٌ بأنها كذلك قد أوجَدَت في قضية البعث والإعادة مِثلَ هذه الاحتياطات الطبيعية والسنن الكونية، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾.

وبعد أن استشهد على إمكان البعث بدلائل قدرته العامَّة، وذكر من مشاهد الحياة الدنيا ما فيه الكفاية لمن شاء أن يلتمس الدليل على قدرة الله القادر على البعث والنشور، ذلك الأمر الذي يتساءلون عنه تساؤلَ إنكار وتكذيب؛ شَرَع في تفصيله وبيان أحواله، مُبيِّناً أنَّ له وقتاً معلوماً، مُقرِّراً بذلك قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥] ومفصِّلاً له، فقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ الذي يفصل فيه بين العباد ﴿كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾[1] ينتهي إليه الناس، ليرى كلٌّ عاقبةَ عمله.

ثم ذكر سبحانه ما يكون في مُقدِّمة ذلك الوقت من الظواهر العظيمة، فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾[2] إيذاناً بالقيامة، ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ قال معاذ[3]: أي: أُمماً،

---

(١) أي: موعداً مؤقَّتاً، ومكاناً مُحدّداً.

(٢) بدل من: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو: ﴿يَوْمَ﴾ عطف بيان له، لتوضيح المراد وتوكيدِه مع التهويل. والنافخ: إسرافيل عليه السلام.

(٣) هذا ليس من قول معاذ، ولعله أشكل على المؤلف حيث ذكره الزمخشري في «الكشاف»، ثم =

كلُّ أمةٍ مع إمامها، أو زُمَراً وجماعاتٍ مختلفةَ الأحوال، متباينةَ الأوضاع، حسب اختلاف أعمالهم وتباينها.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ بعد أن كانت سَبْعاً شداداً، وذلك لأنَّ الأجرام تَنْزاح عن مواضعها نتيجةَ الاصطدام والخراب، فتتكتَّل كتلاً كتلاً، وتبقى فَجَوات خالية. والله أعلم.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ بنتيجة اصطدام الكواكب وفيها الأرض، ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾[1] أي: كأنها سراب لشدَّة تَفَتُّت ذرَّاتها وتفرُّقها. كما قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥-٦].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

وبعد أن ذكر يوم الفصل بين الخلائق أجمعين، ذكر جزاءَ المكذِّبين، فقال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ يُرْصَدون فيها للعذاب، حيث كانت ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾

= استدلَّ بحديثٍ عن معاذ فصَّل فيه النبي ﷺ أحوال هذه الأمم. انظر «الكشاف» للزمخشري (٤: ٦٨٧).

وهو أبو عبد الرحمن معاذ بْن جبل بْن عَمْرو الخزرجي الأنصاري، كان أعلم الصحابة بالحلال والحرام، وكان عاملاً للنبي ﷺ على اليمن، ثم لأبي بكر، ثم استعمله عمر على الشام، ومات بناحية الأردن في طاعون عمواس سنة (١٨هـ). انظر «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣: ١٤٠٢).

(١) أي: مثله في خفَّة سيْرها. والسراب: ما يُرى وسط النهار كالماء الجاري.

أي: مَرجِعَهم الذي ينتهون إليه، وسيبقون ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ أي: سيُقيمون فيها مُدَداً طوالاً لا تتناهى. أعاذنا الله.

ثم أجمَلَ حالهم وشقاءَهم فيها، فقال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا[١] ٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥﴾ والحميم: الماء الحارُّ الشديدُ الحرارة، والغسَّاق: صديد أهل النار، فهم يذوقون ذلك ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾ لأعمالهم السيِّئة، وعقائدهم الباطلة.

ثم بيَّن شيئاً من تلك الأعمال والعقائد على طريقة التعليل، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧﴾[٢] قال الحسن وقتادة: أي: إنهم لا يؤمنون بالغيب[٣]، يعني: البعث والحساب. وقال أبو مسلم: المعنى: لا يظنُّون أنَّ لهم حساباً، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨﴾ أي: كذَّبوا في ذلك بالآيات التي جاءت بها الأنبياء أو بالقرآن تكذيباً مفرطاً.

ثم قال في إتمام التعليل: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾[٤] فلم نُغادِر شيئاً لهم ولا لغيرهم، وسيُجْزَىٰ كلٌّ بعمله.

قال الأستاذ الإمام[٥]: ولا نبحث عن كيفيَّة الكتابة، ولكن نؤمن بها، ونَكِلُ حقيقةَ أمرها إلى الله.

---

(١) أي: لا يحسُّون ولا يَطعَمون فيها بردَ ريح ولا بردَ ظلٍّ ولا بردَ نوم؛ يُخفِّف عنهم حرَّ النار، ولا يشربون شيئاً يغنيهم عن عطش.

(٢) أي: إنهم كانوا في الدنيا لا يتوقَّعون لقاءَ ربِّهم يوم القيامة للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء، فلا يُؤمِّلون ثوابَنا، ولا يخشَوْن عقابنا.

(٣) انظر تفسير «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (١٠: ١١٣).

(٤) ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ (كتاباً): مصدرٌ من معنىٰ أحصينا، كقولهم: قعدت جلوساً. والمراد: أحصيناه إحصاءً دقيقاً. كما قال سبحانه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

(٥) يعني: الشيخ محمد عبده.

ثم عَطَفَ على قولِه ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ ـ عَطْفَ الـمُسبَّبِ على السبب ـ قولَه: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾[1].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

ثم قَرَنَ وعيدَ الكافرين بوعدِ المؤمنين، زيادةَ تحسيس لهما في الأمرَيْن بالمقابلة بينهما، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ أي: فوزاً بالنعيم والثواب، أو مكان الفوز بذلك. وقد فصَّلَه بقوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ وخصَّ الأعناب بالذِّكر؛ اهتماماً بشأنها، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ وهُنَّ البنات اللاتي استدارت ثديُهنَّ، واللاتي مِن سنٍّ واحدة، ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: مملوءة، وهذا بيانٌ لكمال السرور.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ وقد اختلفوا في ضمير ﴿فِيهَا﴾؛ فقيل: راجع إلى الكأس، وقيل: إلى الجنة المفهومة من السياق، على نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

واللغو: ما لا يعتدُّ به، والكِذَّاب: التكذيب.

وقرأ الكسائيّ: ﴿كِذَّابًا﴾ الأولى[2] بالتشديد، والثانية هذه بالتخفيف، وقرأ الباقون

---

(١) أي: يقال لأهل جهنَّم: ذوقوا عذابَ الحريق فيها، وأحسُّوا بملامسته، مع أنواعِ عذابٍ غيرِه، فلن نُضيفَ إليكم بعد ما أنتم فيه من عذاب إلا عذاباً فوق عذابكم؛ عقوبةً وإهانة لكم.

(٢) يعني: التي في الآية ٢٨ من هذه السورة.

كِلَيْهما بالتشديد[١]. والمعنى: لا يدور بينهم ما يُكدِّر صَفْوَهُم، ولا ما يُكذِّب به بعضُهم بعضاً. وإنما حياتهم كلُّها صفاءٌ ووفاق.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: عطاءً كافياً، مِنْ: أحسَبَه الشيءَ؛ إذا كفاه. يقال: أعطاه فأحسَبَه، أي: أعطاه حتى قال: حَسْبي، أي: يكفيني. ويقال: أعطى فأحسَبَ، أي: أعطى كثيراً. وعلى كلٍّ، فالمعنى: عطاءً كثيراً. وقيل: على حسب أعمالهم.

ثم ذكر من صفاته تعالى ما يُشعِرُ بتحقيق ذلك الجزاء ويُـؤْذِنُ به، فقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وفي هذا الوصف تنصيصٌ على مصدر لُطفِ الله فيهم.

ثم بيَّن جَلالَه وعظمتَه بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: لا يملك أحدٌ من أهل السماوات والأرض أن يخاطبه في شأن الثواب والعقاب، بل هو المُتصرِّف فيه وحده. وفي صورة التعبير وصفٌ له سبحانه بما اعتاد الناس أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم من الهيبة وقوة السلطان، على أُسلوب القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من النوع التاسع من المادة الأولى من المقدمة السادسة في مجازات القرآن).

ثم ذكر ذلك اليومَ الذي لا يملكون فيه الخطاب، وقرَّر فيه هذا المعنى، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾[٢]، وفي هذا الوصف بيانٌ لعَظَمة الله ولـهَوْل ذلك اليوم.

---

(١) «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٣٦٩).

(٢) أي: يوم يقومُ الرُّوحُ جبريلُ عليه السلام متميِّزاً بارتفاع منزلتِه عند ربِّه، والملائكةُ معه مُصْطَفِّين، ساكتين صامتين. وعَطْفُ الملائكة على جبريل من باب عَطْفِ العامِّ على الخاصّ؛ تنبيهاً على جلالة قَدْر جبريل عليه السلام؛ لأنه رئيسُ الملائكة الكرام عليهم السلام.

ثم استثنى من نفي التكلُّم قولَه: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ قيل: هو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

أقول: ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون استثناءً منقطعاً، ومن أعمِّ الأحوال، بمعنى: لا ينجو ذلك اليوم إلا مَنْ أذن له الرحمنُ بالانصراف إلى الجنَّة لكمال عقيدته في توحيد الله وتنزيهه[1].

ثم بالغ في التَّحسيس بَهْول ذلك اليوم، والتحذير من بأسه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا[2] ﴿٣٩﴾﴾ صالحاً كريماً، وذلك بالإيمان به وبوحدانيته وتنزيهه وكمال عبادته، والقول والعمل بكلِّ ما يُرضيه من الخيرات وعمل الصالحات.

وفي صورة التعبير إشارةٌ إلى أنَّ ذلك بيد الإنسان، إذا حافظ على سلامة فطرته، ولم يُفسِدها بسُوءِ القدوة، والتقليد الأعمى، والتصرُّف المشين؛ لأنَّ الإنسان مفطورٌ على معرفة الحق والإيمان بالله، ما لم يُفسِد فطرتَه ويُدَسِّيها، فإذا حافظ عليها انصَرَفَت للقول الصائب والعمل الصالح.

ثم ختم السورة بما فيه تهويلٌ وإجمالٌ لِمَا سبق، مبالغةً في تخويف الكفار وتحذيرهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾[3]، وذلك ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ

---

(١) هذا بعيد، والأول هو المعتمد لظهوره، وإنما أورد المؤلف المعنى الثاني ليخرج من إشكال إثبات الشفاعة بنص الآية، وهو ينفيها، كما تكرَّر منه ذلك في مواضع من هذا التفسير، وتقدَّم التعليق عليها.

(٢) أي: أوْباً ورجوعاً إلى الله بالتوبة والطاعة؛ ليسلمَ من العذاب فيه، أو يختار لنفسِه عاقبةً سيئة بكُفرِه، فيَستحقّ العذاب الأليم يوم الدِّين.

(٣) أي: حصوله. وهو عذاب يوم القيامة. وكلُّ آتٍ قريبٌ.

يَدَاهُ ﴾[١] من خير أو شر، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾[٢] ولم أُصِبْ حظاً من الحياة، يقول ذلك نَدَماً على ما فعل، مما أدَّى به إلى ما يتوقَّع من العذاب الأليم.

قال الأستاذ الإمام: إنما قُربُه لأنهم يجدون منه عَقِبَ موتهم، فإنَّ الروحَ متى فارقت البدن انكشف لها ما ينتظرها، ولا تزال في ألم منه حتى تلاقيَه، يومَ ينظر المرءُ أعمالَه حاضرةً لديه، معروضةً عليه، ويتمنَّى الكافر أنْ كان جماداً؛ لِـهَوْل ما انكشف له مما ينتظره ويَسُوؤه.

* * *

(١) أي: يرى بعينَيه ما عمِلَت يداه في الدنيا. وخصَّت اليدانِ بالذِّكر، مع أنَّ المراد هو الإنسان كلّه، لأنَّ أكثرَ العمل يكون بهما. فهو من باب تغليب البعض على الكل، والمراد: ما عمله الإنسان من نيَّة أو قول أو عمل.

(٢) أي: يا ليتني بقيتُ على حالتي الأولى ولم أَصِرْ إنساناً مكلَّفاً. ونظيرُ هذا قولُ عمر بن الخطاب لكن في مجال الخوف من الله: «ليت أمَّ عمر لم تَلِدْ عمر».



مكيَّة، وهي ست وأربعون آية

وهي كسابقتها في إثبات البعث والحساب، والتوعُّد على إنكاره بعذاب الدنيا والآخرة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾[1] وقد اختلفوا في هذا القسم أيضاً على وجوه، كما اختلفوا في المُرسَلات. والأَوْلى أنها أقسام بالأجرام السماوية.

والمراد بـ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١﴾ الأجرامُ التي تُسرِعُ في حركتها. والكلام مُستَعارٌ من قولهم: أغرَقَ النازع في القوس؛ إذا بلغ غاية المدى.

---

(١) يقسم سبحانه ـ والله أعلم ـ بالأجرام السماوية، فيقول: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يقال: أغرق النازع في القوس؛ إذا بلغ بالسهم غاية المدى، فيكون الكلام ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أبعاد النجوم الموغلة في الارتفاع، ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ إشارة ـ والله أعلم ـ إلى حركات النجوم على أنفسها، أي: دورانها على نفسها كالدولاب أو المغزل، ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ إشارة إلى دورانها في أفلاكها، ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ إشارة إلى تفاوتها في هذه الحركة، ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ إشارة إلى ما للأكوان من أثر في الحيوان والنبات، كأثر الشمس والهواء والسحاب، وكالأثير الناقل للأصوات، إلى غير ذلك من المؤثِّرات التي لا يعلمها إلا الله، أي: فالذي قَدّر هذا التقدير، إنه بسنن إعادتكم عليم خبير. وجواب القسم محذوف، على نهج القرآن في مثل ذلك، والتقدير: لتُبعَثُنَّ ولتُحَاسَبُنَّ حساباً عسيراً. (المؤلف).

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾ النجوم تنشط من أُفق إلى أُفق، تطلع وتغيب في ظاهر النظر، أو تَتَحرَّك على نفسها.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣﴾ النجوم السيَّارات، تسبح في فلكها، بمعنى: أنها تتحرَّك حركة فلكيَّة، فتقطع فلكها في سنة أو أكثر أو أقل، على اختلاف السيارات.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾، هي صفة النجوم أيضاً، يسبقُ بعضُها بعضاً في بادئ النظر؛ لاختلاف مَداراتِها سعةً وابتعاداً، فترَى صغيرةَ المدار تسبقُ كبيرةَ المدار.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾: مثل الشمس والقمر اللذَيْن لهما تأثيرٌ عظيمٌ في حياة الإنسان والحيوان والنبات.

فتكون كلُّها صفاتٍ لمختلف الأجرام السماويَّة. وأظنُّ أن المختصِّين بعلوم الفلك والعلوم الكونية يتمكَّنون أكثر من غيرهم لتأويل هذه الأوصاف للنجوم، ولا يعلم بحقيقتها إلا العليم الحكيم[1].

فإذا قلنا: هي أقسام بالأجرام السماوية، فَلْنكتفِ بأنها صفاتٌ للأجرام السماويَّة، وما فيها من بديع الصُّنع وعظيم القدرة ومُحْكَم الإتقان، تلك الأمور الدالة على عظمة قدرة الخالق العظيم.

---

(١) أو المراد بالقسم في الآيات الخمسة: القسم بالملائكة. وهو ما رجَّحته في تفسيري «المعين» ص٥٨٣، أي: أقسمَ الله تعالى بالملائكة التي تَنْزع أرواحَ الكفار من أجسادهم نَزْعاً شديداً، كما ينْزع الرَّامي بقوسِهِ وَتَرَ قوسِهِ بشدَّةٍ حتى يستوفيَ غايةَ مدِّهِ، والملائكةِ التي تَجْذب أرواحَ المؤمنين من أجسادِهم عندَ انتهاءِ آجالهم برِفقٍ وسهولة ويُسْر، والملائكةِ الذين يترقَّبون دواماً ما ينزل إليهم من أوامر ربَّانيَّة؛ ليقوموا بتنفيذها في كونِهِ، دون كلل ولا تعب، فالملائكة المُتقدِّمات المُسْرعات لتنفيذ أوامر الله دون تأخير ولا تباطؤ، فالملائكة المنفِّذات ما سبَقَ به تدبير الله، وتمَّ به تقديرُه وقضاؤه.

ووَجْهُ المناسبة بين المُقسَم به من هذه الأشياء والمُقسَم عليه ـ وهو البعث ـ: ما فيها من عَظَمة القدرة الدالَّة على القدرة على البعث.

وجوابُ القَسَم محذوف، على نهج القرآن في مثله، ويدلُّ عليه الظرفُ المتعلِّق به. وتقديره: لتُبعَثُنَّ ولتُحَاسَبُنّ، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ والمراد: قيام الساعة، وخراب العالم، واصطدام الأجرام، والله أعلم، ثم ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ وهي البعث والنشور والحساب. وهذه الآية بمعنى قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فانظر ما ذكر هناك من التفسير.

ثم صوَّر هَوْلَ ذلك اليوم بقوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ أي: شديدة الاضطراب، ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ ومعنى الخشوع: الذلة والاستكانة من شدَّة الخوف. وقد أعاد الضمير للقلوب، فأضاف إليها الأبصار؛ لِمَا بينهما من مُلابَسة الاجتماع في جسم واحد، والإضافة تَصحُّ في أدنى ملابسة. ويجوز أن يكون إعادةُ الضمير إليها باعتبار أصحابها، على طريقة المجاز المرسل، مِن ذِكرِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ، فأضاف إليه الأبصار لأنها جزءٌ من الأصحاب.

وبعد أن أقسَمَ على تحقيق وقوع البعث، وألمع عن هَوْلِ مُقدِّماته، ذكر إنكارَ المشركين له وكلامَهم في ذلك، وقَرَنه بالردّ، فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا قيلَ لهم: «إنكم مبعوثون ليوم عظيم»، يقولون مُنكِرينَ له مُتعَجِّبين منه: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾ أي: أئنَّا لَمُعادُونَ بعد موتتنا إلى الحالة الأولى؟! مِنْ قولِهم: رَجَعَ فلان في حافرته، أي: في طريقِهِ التي جاءَ فيها فحفرها، بمعنى: أثَّر فيها بمشيه، إذا كانت الأرض ترابيَّة. وتسميتُها حافرة مع أنها محفورة مجازٌ عقليٌّ مِن ذِكرِ اسم الفاعل مكانَ اسم المفعول، مثل: حجرة مضيئة، فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١، والقارعة: ٧].

ثم أكَّدوا الإنكار بالاستبعاد، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ أي: أنردُّ إلى أوَّل حالنا وابتداء أمرنا فنعود أحياءً كما كنا بعد أن تنخر عظامنا؟ ثم ﴿قَالُوا۟﴾ مستهزئين ساخرين: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: إنْ صَحَّت فنحنُ إذن خاسرون في التكذيب بها والإهمال لأمرها. وجواب «إذا» محذوف، على نهج القرآن.

فردَّ عليهم سبحانه ببيان سهولة البعث عليه، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾، وهي نفخة الصُّور الثانية، أو مجرَّد الإرادة[1]، ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي: فإذا هم أحياءٌ على وجهِ الأرض، بعدما كانوا أمواتاً في بطنها، ووُصِفَت بـ«الساهرة» بصفة من يمشي فيها ليلاً، وقيل: هي البيضاء المستوية. سُمِّيت بذلك لأنَّ السَّراب يجري فيها، من قولهم: عينٌ ساهرة؛ للَّتي يجري ماؤها، وعينٌ نائمة؛ للَّتي لا تجري.

وقيل: هي المفازة؛ لأنَّ سالكها لاينام خوف الهلكة، فتكون مجازاً عقلياً، من إسناد وصف الفاعل للمكان. وهذا المعنى أنسَبُ في الموضوع؛ لأنَّ الناس على أرض المحشر في أشدِّ الجزع والهلع، كان الله لنا بالعَوْن.

وقال الراغب: هو اسمٌ لوجه الأرض مُطلقاً[2]، ونقل مثل ذلك عن الحسن وقتادة ومجاهد وغيرهم[3].

وقيل: هي أرض القيامة، يُجدِّدها الله سبحانه وتعالى.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ

---

(١) هذا تأويل بعيد فيه تكلف ظاهر، فالأول هو المعتمد.

(٢) «المفردات» ص٤٣٠.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ١٩٨).

وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر حديث المُكذِّبين المُنكِرين للبعث، عقَّبه بحديث موسى وتكذيب فرعون وقومه إيَّاه، وما قاساه من الشدائد، عقَّبه بذلك زَجْراً لهؤلاء المكذِّبين، بأنَّ فرعون كان أقوى منهم فنكَّل به، وتسليةً لنبيِّنا ﷺ وعِدَةً له بالنصر، وحثًّا له على أن يصبر مقتدياً في ذلك بموسى عليه السلام، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[1]، وجعل الخشية غايةً للهداية؛ لأنها مَلاكُ الأمر كلِّه.

وقوله: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ الفاء تُفْصِحُ عن جُمَل طُويت، تعويلاً على تفصيلها في السُّور الأخرى.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بموسى وسَمَّى تلك المعجزات سِحْراً، ﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ اللهَ عزّ وجل بالتمرُّد، بعدما علم صحَّة الأمر، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي: يشتدُّ في مكايدة موسى، ﴿فَحَشَرَ﴾ الناسَ ليُغالب موسى أمامهم بالسَّحرة. فلما غَلَبَ موسى وظهر الحقُّ على يديه أعرَضَ فرعون عن الحق الواضح، ومضى في كفره وعناده، ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ في

---

(١) أي: استمع مُتفهِّماً ـ أيها المخاطب ـ هذا الحديث المتعلِّق بالنبيِّ موسى عليه السلام؛ حينَ ناداه ربُّه بالوادي المُطهَّر «طُوى»؛ الواقع إلى جانب جبل الطُّور بينَ مَدْين ومصر: اذهب إلى فرعون؛ إنه عَلا وتكبَّر وتجاوزَ الحدَّ في كُفرِه وفسادِه وظُلمِه وعدوانه.

فـقُل لفرعون بغاية الرفق والتكريم: هل يَطيب لك أن أدعُوَك إلى أن تَـتَطهَّر من الشِّـرك والكفر، وأُعرِّفك بصفاتِ ربِّك الجليلة، وأسمائه الحُسْنى، فإذا عرفتَ صفاته الجليلة، خشيتَ عقابَه وانتقامه، فآمنتَ به ربّاً لا شريك له، وعبدتَه وحدَه، وأطعتَه طامعاً بثوابه الجزيل يوم الدِّين؟

المجتمع، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ[1] ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾[2] أي: نكَّل به سبحانه في الدنيا والآخرة نَكالاً عظيماً، بالغرق ثم العذاب المُهين.

وقد كان المصريُّون يعتقدون بحلول روح الإله في الفراعنة، وأنها تتناوبهم واحداً بعد الآخر، أو أنهم لِكَرَمِ عُنصِرِهم يستمدُّون الروح المعنويَّة من الملأ الأعلى.

ثم بالغ في التَّحسيس بما جرى، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ لأنَّ خشية الله تفتح القلوب.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن ختم القصة رَجَعَ إلى مخاطبة مُنكِري البعث، مُؤنِّباً إيَّاهم على إنكارهم القدرة على ذلك، ومُسْتَدلاً عليه بأمر يُعلَمُ بالمشاهدة، فقال: ﴿ءَأَنتُمْ[3] أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: أخَلْقُكُم وإعادتكُم بعد الموت أصعَبُ أم بناءُ السماء؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

---

(١) النَّكال مصدرٌ بمعنى التنكيل، وهو التعذيب الشديد. والمقصود منه: منعُ الغيرِ من الوقوع في أسبابه. والمعنى: عاقبه الله عقاباً جعله عِبرةً لغيره.

(٢) أي: جعله عِبرةً لغيره،جزاء الآخرة في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقوله في الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

(٣) ﴿ءَأَنتُمْ﴾: استفهامٌ أُريدَ به التوبيخ لمنكري البعث.

وقد فصَّل خَلْقَ السماء بقوله: ﴿بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾، والمراد من السَّمْك: العُلوّ، ومن التَّسْوية: النظام والإتقان، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا[1] وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ أي: جَعَل الليلَ مظلماً، والنهارَ والضحى مبتهجاً مُزْهِراً. وقدّم هذا على الدَّحْو؛ لأن مصدره الشمس، والله أعلم.

فأخّر الدَّحْوَ فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾[2] أي: مهَّدَها وبَسَطها، ولم يجعلها كلَّها جبالاً وَعِرة، و﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ فكان كثيرٌ منها خزَّانات للماء ومُسْتَغَلًّا خِصْباً للكلأ والثمار والمحصولات الزراعيَّة، وجعل ذلك ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾.

فكفرتُم بالله وبنِعَمِه، وأنكرتُم قدرةَ الله على بعثكم، فحقَّ عليكم العذاب الذي ذكره سبحانه ضمن ما فصَّله عن موعد الجزاء بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾ وهي القيامة، وذلك ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾ أي: يتذكَّر كلُّ أحد ما عمله من خير أو شر لينال جزاءَه، وهذا هو معنى حساب الخلائق جميعهم في لمحة البصر[3] ـ والله أعلم ـ كما جاء ذلك في الأثر[4].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾ فيراها كلُّ ذي بَصَر، تَتَلظَّى بزفيرها وشهيقها، وحينئذٍ ينال كلُّ ذي عمل جزاءَه.

---

(١) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يقال: غَطَش الليلُ بوزن ضرب، أي: أظلم. وأغطشَه الله، أي: جعلَه مُظلِماً.

(٢) الدحو: قذف الشيء من مقرِّه مع مدِّه وبسطه، فيجوز أن يشير بذلك إلى صورة انفصالها من الشمس إذ كان كذلك، والله أعلم. (المؤلف).

(٣) بل الحساب أمرٌ أعمُّ من هذا الإدراك والتذكُّر، وما الإدراك والتذكُّر إلا تمهيد للحساب ومقدمة له، كما تقدَّم بيانه تعليقاً في مواضع ينظر منها على سبيل المثال (١: ٦٠٩).

(٤) سبق تخريجه (١: ٦٠٩).

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ وجاوَزَ حدودَ الله المضروبة لأحكامه، ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ ففضَّل لذائذَها على ثواب الآخرة، فسَعَى للأُولى ولم يَسْعَ للأُخرى، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي: فدارُ العذابِ مُستَقرُّه ومأواه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[1] أي: مقامَه بين يديه للحساب، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[2] الذي يميل به إلى اتِّباع الشهوات، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ ينال فيها السعادة والهناء.

---

(١) أي: خاف مقام ربِّه عليه باطِّلاعه على سرِّه وعلانيتِه، فالمقامُ مصدرٌ ميميٌّ بمعنىٰ القيام، ويحتمِلُ أنَّ كلمة «مقام» أُتِيَ بها لتعظيم الله وإجلاله وعزَّته وسلطانه، وهذا الخوف يحمل صاحبَه إلى مقام الخشية من الله، ويحتمل أن يكون المعنى: خاف العبد قيامَه بين يدي ربِّ العزَّة سبحانه، فالمقام اسم المكان، وأُضيف الضمير العائد على الله؛ لأن ذلك القيام يكونُ بين يدَيه سبحانه، وهو موقف تكليم الله عبدَه من غير حجاب ولا ترجمان، وكل هذه المعاني لازمة ومتلازمة.

(٢) يظنُّ بعض علماء النفس أنَّ ما يُسمُّونه الأفعال المنعكسة يعمل في النفس عَمَلَه دون سيطرة عليه أو قدرة على كفِّه، كرغبة الإنسان ومَيْله الشديد إلى الشيء أو الأمر الذي يحبُّه حباً جمّاً، إذا رآه أو تهيأ له وقدر عليه، فلا يتمكَّن من كفِّ نفسه عنه، وحفظها منه، ولا سيما إذا كان المَيْل إليه طبيعياً فطرياً.

والصواب: أنَّ في قدرة الإنسان السيطرةَ على هذا الموقف ما لم يكن قد أفسَدَ إرادته بجريانه مع هواه من أوَّل نشأته، وعدم تربيته على تحمُّل ما لا يحب في العاجل لينال به الخير في الآجل. فإنْ هو أفسَدَها استبدَّت به وحكمت عليه واستولت، وإنْ هو نمّاها على طبيعتها الصحيحة، وثبَّتها في ترك الحب العاجل للخير الآجل؛ استبدَّ بها وأوقفها عند حدِّها وعوَّدها على ذلك. وهذا هو المراد من إرجاع جميع الأسباب إلى اتِّباع الهوى؛ لأن من يتعوَّد على اتِّباع هواه حتى يسيطر عليه ويستبدَّ به، لا يتمثَّل له النفع الآجل، كما يستحوذ عليه الميل العاجل، لضعف نفسه وخور إرادته عن مقاومة هَوَاه. (المؤلف).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياق بسياق آخر، تكلَّم به عن تَعَنُّت المشركين في إنكارهم لذلك اليوم، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ تعنُّتاً واستهزاءً ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ أي: متى إرساؤها؟ والكلمة مُسْتعارةٌ من مَرْسىٰ السفينة، وهو المكان الذي تَسْتقرُّ فيه من البحر[1]. وهذا من تعبير القرآن عمَّا أراده المنكرون، وليس من تعبيرهم، وذلك نهجُه في الحكاية.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ عِلمَ ذلك ينتهي إلى الله، وأنه استأثر به، ولم يُطْلع عليه أحداً، فقال: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾[2]، وصورةُ التعبير تُؤْذن بالعَظَمة والهوْل مع الخفاء، وأنها فوق إدراك البشر، أي: ما أنت من ذِكرِها لهم وتبيين وقتها في شيء؛ لأن ذلك مما استأثر الله بعلمه، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ أي: هذه وظيفتك، تُبيِّن اقترابها، وتُفَصِّل ما فيها من الأهوال كما تُحيط به خُبراً. أما تعيينُ وقتها فلم يُفَوَّض إليك، فما لهم يسألونك عمَّا ليس من وظائفك، وتحت مقدورك؟!

ولما كان سؤالهم يندمج فيه شيءٌ من الاستبطاء، وإن كان على نهج الاستهزاء،

---

(١) أي: يسألك المكذِّبون بالبعث ويومِ الدِّين ـ يا رسول الله ـ عن الوقت الذي يُبعث الناسُ من أجْداثهم إلى الحياة الآخرة، وتنتهي فيه مسيرة هذه الحياة الدنيا، بتصاريفها المتتابعة، وتغيُّراتها المستمرَّة، كما تتوقف السفينة في الميناء، وتُلقي مَراسيها، وتثبتُ وتستقرُّ عنده؟

(٢) ﴿فِيمَ﴾ الأصل: (في ما)، و(ما) هذه اسم استفهام إنكاري، أي: في أيِّ شيء أنت ـ يا رسول الله ـ من تذكُّر وقت قيام الساعة، وأنت لا تعلم عن هذا الوقت شيئاً حتى تسأل عنه؟ إلى ربِّك ـ وحده ـ منتهى علمها، لا يعلم متى ينتهي مسير زمن الحياة الدنيا، وترسو عنده ساعة إنهاء ظروف هذه الحياة إلا الله تعالى.

قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ أي: كأنهم يوم يَرَوْنَ ذلك، لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار، يُمثِّل قِصَرَ أيام الدنيا بالنسبة إلى أيام الآخرة وخلودها، فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ – ١١٣]، وذلك لأنَّ الحياة الدنيا هي المرحلة الأولى القصيرة من السفرة الطويلة العديدة المراحل، البعيدة المَدَى والمداخل.

ويجوز أن يكون المراد بيان أنَّ أرواح الموتى طالما هي في حياة البرزخ لم تـتقيَّد بالزمان ولم تشعر به، فتكون عندها الآمادُ في عداد الساعات، كما تُؤْذِنُ بذلك قصَّة المارِّ على القرية، وقصَّة أصحاب الكهف، والله أعلم.

قال الأستاذ الإمام: كان أهل العِناد من قريش يُعَنِّتون رسولَ الله ﷺ بالسؤال عن وقت الساعة، ومتى يقيمها الله؟ فكان النبيُّ ﷺ يُردِّد في نفسه ما يقولونه، ويَتَمنَّى لو أمكن الجواب عمَّا يسألون، كما هو شأن الحريص على الهداية، الجاهد في الإقناع، فنهاه الله عن تَمَنِّي ما لا يُرْجَى، وجاءَ بالنهي في صورة الاستفهام الإنكاري، حيث قال: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: ما هذه الذكرى الدائمة؟ لستَ في شيءٍ منها، أي: لا حاجة لك بها، فإنّ عِلمَ ذلك ينتهي إلى ربِّك، وإنما شأنك أن تُنذِرَ مَنْ يخافها، فتُنبِّهه من غَفْلته حتى يستعدَّ لِـمَا يلقاه يومها. أما هؤلاءِ المعاندون فإنهم لا يعقلون، فلا تشتغل بالجواب عمَّا يسألون، فإذا جاءَت الساعة ذهبت صورة كلِّ زمان مَضَى من أذهانهم، سواءٌ طال أو قَصُر، فحَسِبوا أنهم لم يلبثوا من يوم خُلِقوا إلى يوم بُعثوا إلا عشيَّة أو ضُحاها، أي: طَرَفاً من أطراف النهار، لا نهاراً كاملاً.

* * *

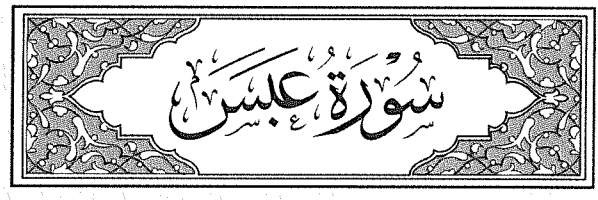

مكيَّة، وهي اثنتان وأربعون آية

وقد تضمَّنت تَسْويةَ الناس في الدعوة، لا فرق بين عظيم وغيره.

وقد انتقل السياق من العتاب إلى الترغيب والترهيب، فأشبَهَت بذلك هذه المجموعة من السُّور.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾[1] نزلت في ابن أُمِّ مكتوم، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها، واسمه عَمْرو بن قيس، وأُم مكتوم: لقب أُمه، واسمها عاتكة المخزومية، وكان أعمى، واستخلفه النبيُّ ﷺ على المدينة مراراً. يُصلِّي بالناس، وكان يُؤذِّن بعد بلال.

---

(١) إذا أراد الله سبحانه أن يَتدارك أمةً برحمته، فيعيد إليها الحياة الاجتماعية الصحيحة بواسطة التعاليم الإلهية، فلا يكون ذلك إلا بواسطة العامَّة، لأنهم لبُعدهم عن مناشئ الإصابات من الأمراض الاجتماعية يكونون أبطأ تأثراً بأنواع الفساد العمراني الخلقي من الخاصَّة، فيبقى فيهم بقية من نور الفطرة تصلح للرجوع بهم إلى الحياة الاجتماعية الصحيحة والتعاليم الإلهية.

وتأنيب القرآن لمحمد ﷺ عن هذا الأمر بهذه الصورة القوية تَصفَعُ الكافر المتقوِّل بأنَّ القرآن من صُنع محمد واختِلاقِه. (المؤلف).

قلت: هو عتاب وليس بتأنيب، والعِتاب إنما يكون بين المحبِّين، ثم هو عتابٌ رُوعي فيه اللطف في الخطاب، حيثُ عَدَلَ عن أسلوب الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، ولم يقل: عَبَسْتَ وتولَّيت.

أما سبب نزول هذه الآية فقد روي: أنه أتى النبيَّ ﷺ أول إسلامه، وهو بمكة، ومعه ﷺ صناديد قريش؛ عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأميَّة بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام، رجاءَ أن يُسلِمَ بإسلامهم غيرُهم، فقال ابنُ أم مكتوم: يا رسول الله، أقرِئني وعَلِّمني مما علَّمك الله، وكرَّر ذلك، وهو لا يعلم تَشَاغُلَه ﷺ بالقوم ـ بل ظنَّ أنه في مجلس إرشاده العام ـ فكَرِهَ الرسول ﷺ قَطْعَه لكلامه، فظهرت الكراهة في وجهه، فعَبَسَ وأعرض عنه، فنزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ[1] ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ بما يقتبس منك، ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾ أي: يتَّعظ بمواعظك وينتفع بها.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥﴾ عمَّا عندك وأعرضَ عنك، والمراد: أنه أعرضَ بماله وقوَّته عنك، أي: مِن هؤلاء المشركين الصَّناديد، ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي: تَتعرَّض بالإقبال عليه، وليس عليك إلا البلاغ، ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ حتى تهتمَّ بأمره وتُعْرِضَ عمَّن جاءك طالباً الإرشاد. وهو مَنْ ذكره بقوله: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨﴾[2] طالباً للهداية، ﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩﴾[3] الله، ويخاف من الغَواية، ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أي: بشأن الصَّناديد من كفار قريش، ظناً منك أنَّ مُداجاتهم[4] تردُّهم عن العِناد.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا﴾ أي: الهداية المُودَعة إليك ﴿تَذۡكِرَةٞ ۝١١﴾ لا مُداجاة فيها ولا إجبار،

---

(١) أي: تغيَّر وجْهُ النَّبيِّ ﷺ كارهاً، وأدار ظهرَه مُدبراً؛ لأجل أنَّ الأعمى عبد الله بن أم مكتوم جاءه مُسْتَرشداً، وهو لا يدري أنه مُقْبل على دعوة كبار مشركي قريش، حتى ظهرت الكراهة في وَجْه رسول الله ﷺ لقطعِه كلامه.

(٢) حال من فاعل «جاء».

(٣) حال من فاعل «يسعى».

(٤) أي: مداراتهم. انظر: «لسان العرب» (دجو).

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ أي: ذَكَر وانتبه لتلك التذكرة. وذكَّرَ الضميرَ الراجع إلى الهداية؛ لأنها بمعنى الوعظ والإرشاد، على أنه يجوز أن يُراد به القرآن الذي حوى تلك الهداية التي هي ﴿فِى صُحُفٍ(١) مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ﴾ في الشأن والقَدْر، ﴿مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ من النقص والضلالة، ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ وهم الملائكة الذين يَسفِرون بين الله والرسل، والأنبياء الذين يَسفِرون بين الله والناس بما حَوَت تلك الصُّحف من هدايةٍ وإرشادٍ من الله سبحانه لعباده. ويجوز أن يكون من ذِكرِ الجنس وإرادة الواحد، إذا كان المراد جبريل عليه السلام، والله أعلم.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم خصَّ من تلك الهدايةِ الهدايةَ إلى اختصاصه سبحانه بالألوهية، فإنها لا تحتاج إلا إلى التذكير لوضوحها، ولا يمنع عن الإقرار بها إلا منازعة الهوى، لذلك قال: ﴿قُتِلَ(٢) ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾(٣) وهذا دعاءٌ على الإنسان بأشدِّ عبارات النقد والتنديد،

---

(١) ﴿فِى صُحُفٍ﴾: خبر ثان لـ ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: إنَّ الجارَّ والمجرور مُتعلّقان بخبرٍ ثانٍ محذوف، والتقدير: كائنة، وما قبله اعتراض.

(٢) ﴿قُتِلَ﴾ أي: لُعِن وهذا خاصٌّ للكافر. «ياقوتة الصراط» ص ٥٨٥، لغلام ثعلب بتحقيقي.

(٣) هذه جملة قُصد بها المبالغة في التأنيب على المبالغة في الكفر والجحود، ثم بصَّره في نفسه بالقدرة الإلهيَّة التي ينكرها، فقال: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: خلقه من شيءٍ مَهين، ثم قدّره على ما لا يقدر عليه غيره من العالمين، ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ﴾ إلى ذلك الإنتاج ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ بأن سخَّر له ما في الأرض جميعاً، وذلَّل له مناكبها، فاكتشف من إمكانياتها، واستفاد من =

على ما هو المعروف باللسان العربي، وهو كناية عن قُبح حاله، وأنه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحقُّ معه أن يبقى حياً، ومنشأ الشناعة ومناطها: نسيانُه لِـمَا يتقلَّب فيه من النِّعم، وذهولُه عن مُسْديها، فإذا ذُكِّر به أعرَضَ عن الذكرى، فما أشدَّ كفره بإحسان من غَمَره بنِعَمِه من مبدأ إيجاده إلى ساعة مَعَاده؟!

أنظَرَ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي: فأتمَّ خَلْقَه بأعضاء متناسبة تلائم حاجاته، ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾[1] حيث أودَعَ فيه من القوى ما يمكِّنه

= خيراتها، واستخدم طاقاتها الظاهرة والخفيَّة، وكذلك يسَّره لسبيل الهدى والطريق المستقيم للدنيا والأُخرى، يسَّره إليه بالطبيعة والشريعة، ولكنه أعرض عما هداه الله، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: بينما هو في هذه الرفعة والقدرة البالغة فاجأه الموت، فجعله جَثوَة هامدة كأنْ لم يَغْنَ بالأمس، فأين ذهبت تلك الهمَّة العالية، وكيف انطمست هاتيك المعالم النائية؟ أفلا يفكر هذا الإنسان أنَّ الذي سيَّره هذا التسيير، وصيَّره هذا المصير، قادرٌ على إعادته مرة أخرى؟ بلى، ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: إنه سبحانه قادر على ذلك كل القدرة، وسيعيده إلى حالته مرة أخرى.

ثم ردعه عن موقفه هذا من الكفر والإنكار والتقصير والإعراض، فقال: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: ما أمره به الله من عقيدةٍ وأعمال تؤول به أحسن مآل. وهذا يشمل المُنكِرَ والمقصِّر معاً؛ لأنَّ التقصير ينبعث من اعتقاد مائع، لم يصل إلى درجة اليقين، فيكون شبيهاً بالمنكرين.

وبعد أن بصَّره ما فيه نفسه من آيات على قدرته البالغة التي لا تعجزها إعادته، أشفعها بمثلها من دلائل القدرة والامتنان، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلى مجموعة أخرى من مظاهر القدرة والمنة ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ...﴾ الآيات. (المؤلف).

(١) تشبه هذه الآيات ما جاء في سورة الدهر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢ - ٣]، فالمراد من السبيل وتيسيره: هدايته سبحانه للإنسان بهدايتين: هداية الطبيعية التي أشار إليها بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، =

من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خُلقت له، وجعل ذلك على صورة تدريجيَّة بمقتضى قانون التكامل، فكُلَّما نَما العضوُ نَمَت القوة. وهكذا أيضاً شأن العقل الذي يقودُ تلك القوى عند تصريفها للأعضاء، فإنه يتدرَّج في تكامل قوته وعُلوِّ إدراكه، وبهذا العقل قد يسَّره سبيل الخير، وأوضَحَ له جادَّة الرَّشاد، وقد ضمَّن «يَسَّرَ» معنى: بصّر، فأفاد أيضاً أنه طَبَعه على معرفة الحق من الباطل، وألهمه فجوره وتقواه، وأرسل له الشرائع تُبصِّره هُداه، فهداه بهدايتين: طبيعية وتعليمية، بينما سائر المخلوقات مَهْدية بهداية طبيعية فقط، حتى الملائكة، فأفرَدَ الإنسانَ بهذه الخاصَّة لاختياره في تصرُّفاته؛ كي لا يبقى له حُجَّة بعد الرسل.

ثم أكمل أطواره فيما بعد هذه الحياة، فقال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ وبينَ هذا الطور والحياة قبله بَوْنٌ بعيد، ليست الحياة الثانية بأعجب من الموت بعد ما كان عليه قبل ذلك، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إنه يَنشُرُه ويبعثُه بعد موته وإقباره، في الوقت الذي يريد أن يبعثَه فيه، ويحاسبُه على أفعاله وأقواله بمقتضى طبيعته وتعاليم شريعته.

ولكونه قصّر كثيراً، عنَّفه سبحانه عن تقصيره الشديد في هذا السبيل الذي خلقَه لأجله، ويسَّره إليه، وبصَّره عليه، فقال: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ أي: حقاً إنَّ الإنسان قد بلغ في كفره بالنِّعم الإلهيَّة مبلغاً يقضي بالعَجَب، فإنه بعدما رأى في نفسه ما عَدّدناه من آيات ربِّه، وبعد أن مضى على نوعه تلك السنون الطوال في الأرض، وهو يتقلَّب

= وهداية الشريعة التي أشار إليها بقوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ – ٣٩]. ولذلك عقَّب قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ بقوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: ثم يُنشِرُه في الوقت الذي شاء أن ينشره فيه. (المؤلف).

في أدوار وأطوار، يشاهد فيها من جلائل الآثار، ما يُحرِّك الأنظار، ويسير بها على الصواب من الآراء والصحيح من الأفكار، بعد هذا كلِّه إذا ذُكِّر لا يذكر، وإذا أُنعِمَ عليه لا يشكر، فهو إلى الآن لم يَقْضِ ما أمره الله به، سواءٌ كان الأمر بالإلهام وهداية الفطرة بما أشهده في نفسه من دلائل القدرة وعلائم الإحسان والنعمة، أو كان بالوحي على ألسنة الأنبياء والمرسلين، فإنَّ الله تعالى لم يَدَع الإنسان سُدى، ولم يُهمِله من إرسال الهُداة إثْرَ الهُداة، غير أنَّ الإنسان في ضلاله وانقياده للأهواء الفاسدة، لم يَقْضِ شيئاً ممَّا أمره الله به، وكيف يكون قد قضى شيئاً من ذلك وهو لا يزال في غفلةٍ عنه، يدعو معه غيره، ويُشرِكُ في الاستعانة سواه، ويأتي من فظائع الأعمال ما لا يرضاه، فلا يزال أن يراه الله حيث نهاه.

فإنْ زعم الإنسان أنه لم يشهد خَلْقَ نفسه، وعَمِيَ عمَّا في ذاته من بدايتها إلى نهايتها، وأنكر أن يكون شيءٌ من ذلك يدلُّ على وحدانيَّة خالقه، وانفراده بالإحسان إليه؛ ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ ذلك ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلى ما بين يديه من أقرب الأشياء إليه، فَلْينظر ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ الذي يدورُ عليه أمرُ معاشه، كيف دَبَّرناه تدبيراً عجيباً؟

وذلك ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ من المُزْنِ ﴿صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ من نَحْو الحنطة والشعير وأمثالهما، ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾[1] وهو ما يُؤْكَلُ من النبات غضّاً طرياً، ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ جمع غَلْباء، وهي الضخمة العظيمة، وعِظَمُ الحدائق بكثرة أشجارها والتفافها.

---

(١) ﴿وَقَضْبًا﴾: أصلُ القَضْبِ مصدر لفعل قَضَب فلان الشيء، أي: قطعَه بوزن ضَرَب. ومنه كلام مقْتَضَب. وتُطلِقُ العربُ القضْبَ على كلِّ نبات يُقطَع بعضُه وهو أخضر ليُؤْكل، ويخرج مكانه غيره، كالكرات والبرسيم الذي تُعلف به الدواب.

ثم خصَّ الفاكهة بالذِّكر بعد ذلك؛ لأنها ممَّا يَتمتَّع به الإنسان خاصَّة، فقال: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ وهي ما يَتفكَّه به الإنسانُ من الخضر والثمر، ثم خصَّ ما ينفع الحيوان خاصَّة، فقال: ﴿وَأَبًّا ۝٣١﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المرعى والكلأ الذي لم يزرعه الناس[١].

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية، فقال: «كلُّ هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم رَفَضَ عصاً كانت بيده غضباً على نفسه، وقال: هذا لَعَمْرُ الله التكلُّف، وما عليك يا ابنَ أمِّ عُمر أن لا تدري ما الأبُّ. ثم قال: اتَّبعوا ما تَبيَّن لكم من الكتاب، وإلا فَدَعوه»[٢].

قال الأستاذ الإمام مُعلِّقاً على كلام عمر هذا: إذا سمعتَ هذه الرواية فلا تظنَّ أنَّ سيدنا عمر بن الخطاب ينهى عن تتبُّع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته، كلا، ولكنه يريد أن يعلِّمك أنَّ الذي عليك من حيثُ أنت مؤمن، إنما هو فهم جملة المعنى على قَدْر الإمكان، وفي ذلك يتفاوت المتفاوتون حسب العلم والمعارف.

فالمطلوب منك في هذه الآية هو أن تعلم أنَّ الله يمنُّ عليك بنِعَم أسْداها إليك في نفسك وتقويم حياتك، فجعلها ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ فإذا جاءَ في سَرْدها لفظٌ لم تفهمه، لم يكن من جدِّ المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى، بعد فهم المراد مُجْمَلاً، هكذا كان شأن الصحابة ومن بعدهم رضي الله عنهم، ثم خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ وقفوا عند الألفاظ وجعلوها شغلاً شاغلاً، لا يهمُّهم إلا التَّشدُّق بتصريفها وتأويلها

---

(١) ينظر «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠: ٣٤١٠).

(٢) رواه الحاكم (٣٨٩٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وتحميلها ما لا تحتمله، وقد تركوا قلوبهم خاليةً من الفِكرِ والذكر، وأعضاءَهم مُعطَّلةً عن العمل الصَّالح والشكر.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه خَلْقَهم ومعاشَهُم، أتبَعَ ذلك ببيان معادهم بصورة شرطٍ محذوفِ الجواب، على نهج القرآن في مثله، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ وهي الصوت الهائل الذي يحدث من خراب الكون، ووقوع بعض أجرامه على بعض عند قيام الساعة، وذلك ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾[1] وقد كان في الدنيا يفديهم بماله وروحه ويفدونه كذلك، ولكن الآن يُصبح ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أمرٌ عظيم يَشْغَلُه عن الأقرباء، ويَصْرِفُه عنهم.

---

(١) سُئلَ الشيخُ ابنُ تيميَّةَ عن قولِه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦] لِـمَ ابتدأَ بالأخ، ومنْ عادةِ العربِ أن يُبدأَ بالأهمِّ؟

فأجاب: «إنَّ الابتداءَ يكونُ في كُلِّ مَقام بِما يُناسِبُه، فتارةً يَقتضي الابتداءَ بالأعلى، وتارةً بالأدنى، وهنا المناسَبةُ تقتضي الابتداءَ بالأدنى؛ لأنَّ المقصودَ بَيانُ فِرارِهِ عن أقاربِه مُفَصَّلاً شيئًا بعدَ شيءٍ، فلو ذَكرَ الأقربَ أوَّلاً؛ لم يكنْ في ذِكْرِ الأبعدِ فائدةٌ طائلة؛ فإنَّهُ يعلمُ أنَّهُ إذا فرَّ منَ الأقربِ فَرَّ منَ الأبعدِ، ولما حصلَ للمُستمِعِ استشعارُ الشِّدَّةِ مُفصَّلةً، فابتُدِئَ بنَفْيِ الأَبعدِ مُنتَقلاً منهُ إلى الأقربِ، فقيلَ أوَّلاً: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾، فعُلِمَ أنَّ ثَمَّ شِدَّةً تُوجِبُ ذلك، وقد يجوزُ أن يَفِرَّ منْ غيرِهِ، ويجوزُ أن لا يَفِرَّ، فقيلَ: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ فعُلِمَ أنَّ الشِّدَّةَ أكبرُ من ذلك بحيثُ تُوجِبُ الفِرارَ مِن الأبوين، ثُمَّ قيلَ: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ فعُلِمَ أنَّها طامَّةٌ بحيثُ تُوجِبُ الفرارَ ممَّا لا يَفرُّ منهم إلاَّ في غايةِ الشِّدَّةِ، وهي الزَّوجةُ والبَنونَ. ولفظُ «صاحبته» أحسَنُ مِن «زوجتِهِ». انتهى. تفسير شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ: (٦: ٤٦٣، ٤٦٤).

ثم فصَّل سبحانه أحوالَ الناس في ذلك اليوم ـ المؤمنين والكافرين ـ فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي: مشرقة مضيئة، ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ بما تشاهد من النعيم. اللهمَّ اجعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: يَعْلوها ويَغْشاها سوادٌ وظُلمة، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ[1] ﴿٤٢﴾﴾، أعاذنا الله وعافانا بفضله وإحسانه.

* * *

(١) أي: أولئك البُعداء عن رحمة الله هم الجاحدون للحقِّ، المنكرون للتوحيد والبعث، المُنبَعثون بوقاحةٍ في ارتكاب الآثام والمعاصي.



مكيَّة، وهي تسع وعشرون آية

والغرض منها:

إثبات المعاد والحساب، كالسُّور التي قبلها والتي بعدها.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: أي: اضمَحَلّت وأظلمت[1].

أقول: وهذا لازم المعنى، أما المعنى نفسه فهو أنها تُلفُّ مع بقية الأجرام بالصَّدمة الناتجة من خراب الكون وفساد نظامه الطبيعي، والله أعلم.

ومن نتيجة ذلك أيضاً ما ذكره بقوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ أي: ذهب ضوؤها. وقيل: تناثرت وفُقد منها ما كان في اجتماعها من جمال، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ فصارت هباءً منبثاً أو كثيباً مَهيلاً، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾[2] والعِشار: جمع عُشَراء ـ بضم العين وفتح الشين ـ وهي: النِّياق يمضي على حَمْلها عشرة أشهر.

---

(١) رواها عن مجاهد الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٢٣٨).

(٢) قال الإمام محمدُ بنُ عبدِ الواحدِ المعروف بغلام ثعلب في «ياقوتة الصراط» ص ٥٨٦: «﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤] أي: الدُّور مات أهلها؛ فتعطَّلت. قال أبو العباس ثعلب والمبرِّد: العشار: الحوامل من النوق؛ فإذا شُغِلوا عن هذه فهم عن غيرها أشغل».

وخصَّها بالذِّكر لأنها أكرَمُ مال كان عند المخاطَبين من العرب، ومع ذلك يُهمِلونها حينئذ ويَدَعونها تذهب حيث شاءت؛ لِعِظَم الهول وشدَّة الكَرْب يطلبها صاحبها.

وقال القرطبي: إنَّ هذا تمثيل لشدَّة الكَرْب، وإلا فلا عِشار ولا تعطيل[١]، فهو كناية عن أنَّ هَوْل هذه الحوادث يَصرِفُ من يحضرها عن أكرم الأشياء عليه لو كان.

أقول: والكنايات لا يجب فيها تحقُّق المعنى الأصلي، بل يجوز أن يكون المعنى خيالياً فقط.

ويقول غيره: إنه أمر واقع[٢]؛ لأن القيامة تأتي بَغْتة، والناس والحيوان لا يزال بعضهم أحياء، ثم يهلكون لِـمَا يصيبهم، ويدلُّ عليه قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ وذلك بأن تتجمَّع في صعيد واحد لاستيلاء الرُّعب عليها، فتخرج من أجحارها وأوكارها، لا يخشى بعضها بعضاً، ولا تخشى سَطْوة إنسان، ولا يطمع قويٌّ بضعيف؛ لخوفها واندهاشها من عِظَم الهَوْل وشدَّة الكرب. وأما قوله ﷺ: «إنَّ الله ليقتصُّ من الشاةِ القَرْناء للشاةِ الجَلْحاء»[٣] فيجوز أن يكون ذلك في الدنيا[٤].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ إذ تُفجِّر تلك الزلازل ما بينها حتى تختلط وتعود بحراً واحداً. والسَّجْر معناه: الملء، فإنَّ كل واحد منها يمتلئ حتى يفيض ويختلط بالآخر. ويدل على هذا التأويل قوله تعالى في سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الإنفطار: ٣].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٩: ٢٢٨).

(٢) وهو الصواب، إذ هو ما يدلُّ عليه ظاهر اللفظ، والحملُ على الظاهر مُتعيِّن إلا إذا قامت قرينة تدل على صَرْفه عنه، ثم كون الأمر واقعياً أبلغ في الدلالة على هول الموقف.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) بل في الآخرة، كما يدلُّ عليه سياق الحديث، ولا ينافي ما في الآية لأنها واردة في لحظة القيامة، والحديث فيما بعده من مواقف الحشر والحساب.

وقد يكون تسجيرُها إضرامها ناراً، من قولهم: سجر التنور، فإنَّ ما في بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشقّقها، أو المراد من التسجير: تبخُّرها لقُرب الأرض من الشمس بنتيجة ارتباك الكواكب. والله أعلم. أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً، ويجوز أن يحدث إذ ذاك تفاعل في الماء يفصل الهيدروجين من الأوكسجين، فيلتهب الأول بشرارة ذرية وتنسجر البحار ناراً، ويجوز أن يكون ذلك بقرب الأرض من الشمس. والله أعلم بتفصيل ذلك الأمر.

وبعد أن عدَّد من مقدِّمات الفناء وبطلان الحياة في الأرض والهلاك والدمار فيها، أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور، وما يأتي بعده، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ أي: زُوِّجت الأرواحُ بأبدانها، وهي النشأة الآخرة، وهذا يُشعر بأنَّ النفوس كانت باقية من يوم الموت إلى يوم المعاد، ولكنها مُنفكّة عن الأجسام، فإذا أُنشِئَت هذه الأجسام نشأةً ثانية بالبعث والنشور، زُوِّجَت بها النفوس، وتكون الأجسام حينئذٍ من مادة في كيفيَّةٍ قابلةٍ للخلود. والله أعلم.

وبعد أن ذكر شيئـاً من البعث، ذكر شيئاً من الحساب، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ بين يدي وائدها، ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ ما أبدع هذا الاستطراد في هذا السياق، والوأد: دفن البنت الصغيرة حيَّة إثر ولادتها، وكانت عادة من أشنع العوائد عند بعض العرب في الجاهلية، يفعلونه مَخافةَ السباء في حروبهم الكثيرة. وهذا السؤال استنكار لقتلها، وتبكيتٌ لوائدها. وقال أبو مسلم: المعنى: يُسأل قاتلُها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] أي: مسؤولاً عنه.

أقول: وعلى هذا يكون المعنى: سُئل عنها: مَنْ وائِدُها، تأنيباً له واحتجاجاً عليه. والمعنى الأول أروَعُ وأبلغ.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ يعني: صُحُف الأعمال. قال الأستاذ الإمام: والذي يجب علينا اعتقاده أنَّ أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبيَّنةً، ويعبَّر عن مثل ذلك الثبوت بنشر الصحف للأعمال(١).

أقول: وذلك كما جاء في قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات: ٣٥].

ثم عاد فذكر شيئاً من أحوال القيامة، على نهج القرآن في إدماج المعاني المتناسبة

---

(١) يوم القيامة يُواجَه الإنسان بعمله، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، فيتذكَّر كلُّ واحد ما قام به من عمل، من خير أو شرٍّ، من طاعة أو معصية، من عدل أو ظلم، حيثُ يجدُ عملَه أمامه؛ يشاهده بنفسه ويراه بعيني رأسه: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ويُشاهِدُه أيضاً في صحيفة أعماله، التي كتبها الكاتبون طولَ عُمُرِه، له أو عليه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وهناك يُقالُ لكلِّ إنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وهذه الآياتُ كلُّها تؤكِّد بقوَّة وجلاء: أنَّ الإنسان في الآخرة يرى عملَه الذي عَمِلَه، وسعيَه الذي سعاه، وقولَه الذي قاله، يراه نفسَه، لا أنه يرى جزاءه أو ثوابَه أو عقابَه فقط، فهذا تأويل للآيات لا يُقبَل.

ونحن اليومَ نشاهد: أنَّ الإنسان يمكنه أن يُواجَه بقوله وعَمَلِه مُسجَّلاً، يراه بعينيه، ويسمعُ صوتَه بأذنيه، عن طريق عَرْض الأشرطة المُسجَّلة عليه، فلا يُستبَعَدُ على الله جلَّ وعلا: أن يُسجِّلَ على الإنسان أقواله وأعماله؛ ليراها ويشاهدها ويسمعَها ويُعاينَها بنفسه، لتكون شاهداً له أو عليه.

بعضها ببعض، تربيةً لنشاط القارئ والسامع، واستمراراً لذكرى المعنى المنصرم، حتى لا يغيب عن الذاكرة، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ والكشط: هو القَشْط بعينه، فيهما اعتقاب الكاف والقاف، ومثله كثير في اللغة. وهذا الكشط يكون باضمِحْلال الأجرام واجتماعها على بعضها كُتلاً كُتلاً، فيخلو بعضُ نواحي الفضاء منها بانقشاطها عنه. والله أعلم.

ثم ذكر أحوال الجزاء، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ أي: أُوقدت إيقاداً شديداً للكافرين، ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ أي: قُرِّبت للمتَّقين.

وبعد أن تابع هذه الأحوال المتسلسلة عن القيامة وما يتبعها من الجنة والنار، ذكر ما يدل على الوعد والوعيد، فقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ ليومها هذا، أي: من الأعمال التي تستحقُّ بها الجنة أو النار. وهذا جوابٌ لجميع ما سبق من أدوات الشرط المتتابعة يُؤْذِنُ بأنَّ أعمال الإنسان يُدركها كلَّها في الآخرة[1].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم أكَّد سبحانه ما تقدَّم من البيان بالقَسَم عليه بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾

---

(١) أي: إذا وقعَتْ تلك الأحداثُ الستَّةُ المذكورة في الآيات (١-٦) التي تكون قبيل الساعة، والأحداث الستة الأخرى المذكورة في الآيات (٧-١٣) التي تكون بعد البعث: تعلم كلُّ نفسٍ ما أَحضرَت من خير أو شرٍّ كَسِبَته باختيارها الحرّ في مدَّة امتحانها في الحياة الدنيا.

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾. قال الأستاذ الإمام: قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ هو عبارة من عبارات العرب في القَسَم، يُراد بها تأكيد الخبر، كأنه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم، ويقال عنها أيضاً: أنها يؤتى بها في القَسَم إذا أُريد تعظيم المُقسَم به[١].

والخُنَّس: جمع خانسة، من قولهم: خَنَس؛ إذا رجع.

والكُنَّس: جمع كانسة، من قولهم: كنس الظبي؛ إذا اسْتتر في كناسِه، وهو موضعٌ له في الشجر، يأوي إليه من شدَّة الحر أو غيرها.

والجواري: جمع جارية، من الجري، قيل: المراد بها السيارات الخمسة، وهي: عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزُحَل، وذلك لأنها تجري مع الأرض حول الشمس، ثم تُرى راجعة إذا سبقتها الأرض، ولأنها تظهر في وقت، وتخفى في آخر لأنها تكون فيه وراء الشمس، فرجوعها في رأي العين هو خنوسها، واختفاؤها هو كنوسها.

وقيل: هي الكواكب جميعها، فإنها لا تزال في نظر العين جاريةً راجعةً علينا بعد مغيب الشمس غائبةً عنا بعد طلوعها. وكذلك كثير منها تخفى إذا كانت وراء الشمس، ثم تكرُّ فتظهر لنا[٢].

وقد تابع القَسَمَ بقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ أي: أقبل ظلامُه أو أدبر، وهو

---

(١) والمراد بالقسم: أُقسم بهذه الآيات الكونيَّة الثلاث التي لا تُدركون عظمتَها، ولكن سيأتي زمان يُدرِكُ فيه علماءُ الكون عظمةَ هذه الآيات.

(٢) الآية الكونيَّة الأولى: ﴿بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ أي: أقسم بالنجوم السيّارةِ السابحةِ في الفضاءِ تبدو بالليل فتظهر، وتختفي بالنهار تحتَ ضوء الشمس؛ النجوم الجارية المُسْترة في أبراجها كما تستتر الظِّباءُ بين الأشجار عن أعين طُلَّاب صَيْدها.

من الأضداد[١]. وقد أجمع المفسرون على أن المراد به: أدبر[٢]، ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ أي: بدا وظهر[٣].

أما الـمُقسَمُ عليه فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾، وضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾ يجوز أن يعود إلى الخبر المتقدِّم، وهو: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ...﴾، أو إلى القرآن الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة؛ لأن عَوْد الضمير إلى ما يُفهَمُ من السياق مألوفٌ في اللغة، ومعروفٌ في القرآن.

أما الرسول الكريم، فقد قال الحسن وقتادة: هو جبريل عليه السلام[٤]. وإنما كان هذا قولَه؛ لأنه هو حاملُه إلى النبيِّ ﷺ.

ووَجْهُ المناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه: هو أنه كما تشاهد هذه النجوم وأوضاعها، والنظام الشمسي وتنسيقه، مضبوطةً مُحكَمةَ الإتقان، لا يشكُّ الناظر في إتقان وَضْعها وإحكام صُنعها، فكذلك هذا الخبر أو هذا القرآن الذي جاءَ به رسولٌ من الله سبحانه، خالقِ هذه النجوم، وجاعلِ هذا النظام المنظور والمعلوم، فهو أمرٌ لا

---

(١) الآية الكونية الثانية: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي: وأقسم بالليل إذا أقبَل وأدبر بظلامِه أولَ الليل وآخرَه. وتفسيرُه بإقبالِ الظلام أوفق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

(٢) ادَّعى الإجماعَ الفراء، ولا تصحّ هذه الدعوى. وينظر: الطبري والفخر الرازي والقرطبي.

(٣) الآية الكونية الثالثة: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: وأُقسم بالصبح إذا تبلَّج وامتدَّ وبزغَ ضَوْؤه، وانتشرَت نسماته الباردة، شبَّه الليلَ بالمكروب المحزون، فإذا بدا الصبحُ فكأنه تخلَّص من الحزن.والمعنى: أنَّ أولَ النهار كأنه شخص مهموم من ضغطِ الليلِ عليه، فإذا ذهبَ تنفَّس مسروراً وأشرقَ وجهُه. والكلام كناية عن ظهور ضوئه.

(٤) ذكر عنها الماوردي في «النكت والعيون» (٦: ٢١٨)، ورواه عن قتادة الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٢٥٨).

شك فيه، جليٌّ لا غبار عليه، واقعٌ مُسْتقرُّ الثبوت، مهما كذَّبوا واتَّبعوا الأهواء، وهو أعظم شأناً من هذا الكون ونظامه، وأتقن سَدَاداً؛ لأنه كلام الله، والكون صُنْعُ الله.

ثم تابع وَصْفَ هذا الرسول بما يزيد في توثيق هذا الخبر الذي جاءَ به من الله، فقال: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ شديدة. قال الأستاذ الإمام: والمراد بها ما وصفه سبحانه في سورة النجم، من أنه ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥-٦]. والـمرَّة: الحصافة في العقل والرأي، والمتانة فيهما.

وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ[1] مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ المراد به: أنه صاحب مكانة وشرف لديه سبحانه.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في العالم الإلهيِّ، وهو عالَـمٌ لا يعلم كُنْهَه إلا الله سبحانه، وقد عبَّر عنه بالملأ الأعلى. ثم تمَّم الوصف بقوله: ﴿أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: على وحي الله ورسالاته إلى أنبيائه.

ثم نقل السياق إلى النبيِّ ﷺ مُبلِّغ تلك الرسالة، وذلك الخبر إلى الخلق، فوَصَفَه بما يزيد في توثيق هذا الخبر، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني: النَّبيَّ ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾، قال الأستاذ الإمام: أي: كما تَبْهتُه الكَفَرةُ عندما يسمعون عنه غريبَ الخبر عن اليوم الآخر وغيره من مواضيع العِبَرِ مما لم يكن مألوفاً لعقولهم. والتعبير عنه بصاحبهم أبلغُ في الاستدلال عليهم، فإنه ﷺ معهم من صِغَرِه إلى كِبَرِه، وما عَرَفوا منه إلا كمال العقل، والتبريز في الفضل.

ثم ذكر ما يدلُّ على توثيق أَخْذِهِ ﷺ عن جبريل عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: أنَّ محمداً ﷺ رأى جبريل عليه السلام بالأُفق الأعلى الواضح

(١) ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾: خالقه والمتفرّد به. والعرش: ما يُحيط بالكونِ كلّه.

الـمُظْهِرِ لِـمَا يُـرَى فيه، فتجلَّى لعينه أنه جبريل، فعرفه. وهذه أولُ نزلةٍ بعد انقِطاعِه، والله أعلم.

ثم عاد إلى توثيق صحَّة ما يقوله ويُبلِّغه عن الله، فقال: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: محمدٌ ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ وقد قرئ بالضَّاد والظاء[1]، أما على الأولى فمعناه: ليس محمد ﷺ ببخيل فيما يؤدِّي عن الله سبحانه أن يُعلِّمه للناس. وأما على الثانية فمعناه: ليس بمُتَّهم على الغيب. أي: إنه صادق في إخباره عن اليوم الآخر وحوادثه، والوحي وما يجيء به، والمعنى الثاني أَوْلى بالسياق[2].

ثم ردَّ على المشركين ما يتقوَّلونه من أنَّ الشيطان يُلقي إليه كما يُلقي إلى الكَهَنة، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ليس هو ممّا تنقله الجن كما تفعل مع الكهّان، فليس بكهانة وسحر كما تتقوَّلون، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ في تقوُّلاتكم هذه؟ يُبكِّتهم ويُضَلِّلهم فيما يَسْلكون في أمر الرسول ﷺ والقرآن.

ثم أتبع التبكيت بتقرير الحقّ، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا القرآن وما فيه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يُذكِّرهم مصيرَهم وعاقبةَ أمرهم، ويهديهم لرُشْدِهم وللعاقبة الحُسْنى، فهو موعظةٌ وتذكيرٌ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[3] ويعتدلَ بتحرِّي الحق، ومُلازمة الصواب.

---

(١) «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٣٨٠).

(٢) الترجيح بين القراءات المتواترة ليس بالمنهج المرضيّ، لأن هذا الترجيح يقوم على أمر يلمحه المفسِّر يكون ألصق بقراءة من أخرى، فيقول يرجحان الأولى على الثانية، وقد يكون هناك ملامح أُخَر خفيت عليه تشهد للقراءة الثانية، ولذا ينبغي الإمساك عن الخوض في مثل هذا الترجيح ما دامت القراءات متواترة.

(٣) تؤذن هذه الآيات: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بأن الاستقامة والهداية =

وفي هذه الآية ـ كما في قوله تعالى في سورة الدهر: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] ـ دلالة واضحة على أن اندفاع الإنسان إلى الخير والهداية إنما هو بيد الإنسان نفسه، وميسَّر له بطبيعته.

أقول: وتوضيح الآية هو أنَّ الله سبحانه أرسَلَ هذا الذكرَ للعالمين، بعد أن خلقهم مستعدِّين لقَبوله بالفطرة، إن لم يُفْسِدوا طبيعتهم بمفاسد التربية وسُوء القدوة وضلال التعليم، فقد شاء الله سبحانه أن يخلقهم على أكمل صورةٍ في الاستعداد إلى الخير وقَبول الحق، وأرسل لهم هذه التعاليم، يمشون بحسبها نحو الكمال المنشود لهم من ورائها، فمَنْ شاءَ أن يستقيم تمسَّك بها، ومَنْ شاءَ أن يزيغ انحرف عنها، نتيجةَ تحريفه لطبيعته بمفاسد التربية.

وذلك كما يكون له جهاز يعمل عملاً من الأعمال، كالحاكي والمذياع مثلاً، فإنْ أجاد تحريكه والتصرُّف فيه، واستعمله بمقتضى صَنعته وحَسَب تعاليم صانعه، إيجاباً وسلباً؛ بقي الجهاز سالماً، يقوم بعمله على أحسن الوجوه. وإن عَبَث به وأساء استعماله؛ عَطَب واختَلّ، فلم يَقُم بالعمل مطلقاً، أو لم يَقُم به على الوجه المطلوب.

= معروضة أمام البشر، إن شاؤوا أخذوها وإن شاؤوا تركوها. ثم بيَّن أنهم لا يمكنهم أن يشاؤوا أخذها إلا بحسب النظام العام الذي شاءه الله سبحانه في طبيعة الإنسان، وهو أنه لا يهتدي إلى الحقِّ والصراط المستقيم إلا إذا حافظ على سلامة فطرته وزكَّى نفسه بالتنشئة الصحيحة التي أرادها الله منه بشريعته، ولذلك قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لا يمكنكم أن تشاؤوا الاستقامة إلا أن تتحقَّق تلك السنة الكونية، فكما لا يمكن للحَبِّ إذا نخره السوس أن يَنبُت، لا يمكن للإنسان أن يشاء الاستقامة إذا أفسد طبيعته بمفاسد التربية، كيف وهو حينئذٍ أصبح يرى الضلال هُدىً والهدى ضلالاً، بخلاف ما إذا حافظ على سَلامة فطرته، وقد خلق الله كل شيء مُيسَّراً لِـمَا خُلِقَ له، ما لم تفسد طبيعته بمفاسد خارجيَّة. (المؤلف).

وهكذا شاء الله تعالى أن يخلق الإنسان كسائر مخلوقاته، سالماً كاملاً صالحاً لِـمَا خلق له من الخير وطلب الكمال، ولكن شاءت حكمة الله سبحانه أن يجعله مختاراً في تصرُّفاته، يأخذ ويترك بكمال حريته؛ ليكون على حظٍّ عظيم من العلم والإدراك، لأن ذلك لا يكون إلا مع الاختيار التام، كما ألمعت إلى ذلك قصَّته في سورة البقرة[١]، والله أعلم، فإن شاء أن يبقى سالـماً في استعداده هذا، استقام وعمل بما أرسل الله إليه من التعاليم على يد أنبيائه ورسله، وإن شاءَ أن ينحرف ويتسافل ويخلد إلى الأرض زاغ عن تلك التعاليم أو عَبَث بها، فضلَّ عن سواءِ السبيل، وساءَت دنياه وأُخراه. والفرد والجماعة في ذلك على حدٍّ سواء.

وقد ألمع سبحانه إلى هذه الحقيقة في خِلْقة الإنسان، وهي أنه إذا لم يحافظ على سلامة فطرته لا يُمكِنه أن يشاء الحق والاستقامة، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٢] أي: لا يمكنكم أن تشاؤوا الاستقامة إلا أن يتحقَّق نظام الله في ذلك، وهو أن تحافظوا على سلامة فطرتكم، ولا تُفسِدوها بمفاسد التربية والقدوة السيئة والتقليد الأعمى، فمآل الآية مآل قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠]، فكلُّ من حافظ على سلامة فطرته فقد شاء الله له أن يستقيم، وكلُّ مَنْ شاء الله له أن يستقيم يقدر أن يستقيم، وكلُّ من

---

(١) يعني: قصة خلق آدم الواردة في الآية ٣٠ من سورة البقرة وما بعدها.

(٢) هذه الآية أيضاً للإيذان بأنَّ معارضتكم ليست ناشئة عن عجز في قدرة الله ولا قَسْراً لإرادته، ولكنها جارية بحسب سنن خلقية ونواميس كونيَّة، شاءها سبحانه في طبيعة الإنسان، وأساسها: كونه مختاراً في تصرُّفاته يفعل ما تمليه عليه إرادته بحسب عقليته الناجمة عن تنشئته وتربيته، وقد يسَّر سبحانه الإنسان لهذه المشيئة، وكلُّ مخلوقات الله سبحانه مُيسَّر لِـمَا خلق له، ما لم يُفسِد طبيعته. والله أعلم. (المؤلف).

أفسدها لا يُمكِنُه أن يستقيم، وقد أوضَحْنا تفسير هذه الآية بأكثر من هذا في سورة الدهر[١].

ومُحصَّل المعنى: أنه سبحانه قد شاءَ أنَّ من حافظ على سلامة فطرته اهتدى إلى الحقِّ المستقيم، ومن أفسدها لم يَهتَدِ لذلك، ولا تغيير لهذه المشيئة التي شاءَها الله سبحانه وتعالى بالحقِّ والحكمة البالغة، وهذا هو مُؤَدَّى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

* * *

(١) يعني: سورة الإنسان، في الآية ٣٠ منها.

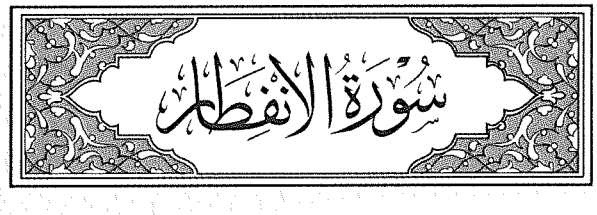

مكيَّة، وهي تسع عشرة آية

وهي كسابقتها في إثبات البعث والحساب، وما يَتْبعه من ثوابٍ أو عقاب، فهو كتابٌ متشابهٌ مثاني.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾ هذا عَوْدٌ إلى التذكير باليوم الآخر، والانفطار والانشقاق والانصداع نظائر. والمراد به: خراب هذا العالم، فلا يبقى أمرُ ما فيه من الكواكب على ما نراه اليوم.

ثم أردَفَه بمظاهر ذلك وأعراضه، فقال: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾[1] فإنّ الخلل الذي يطرأ على الكواكب يَنثُره نَثْراً، ويؤثِّر على الأرض كذلك، فتزول حواجز البحار فتختلط، وتتفكَّك أجزاءُ الأرض فتتبعثرُ القبور، وينقلب باطنها إلى ظاهرها.

وبعد أن يأخذ عَجْب الذنب ينمو في الأرض ويربو حتى يصير جسماً، وتشقَّق عنه الأرضُ بعد أن تتمَّ خِلقتُه فيها، وحينئذ يكون بَعْثُ الأموات وإحياؤهم في النشأة الآخرة، ويكون الحساب الذي عبّر عنه بهذا الجواب لسائر ما تقدَّم من أفعال الشرط، فقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾[2]، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ

---

(١) يجوز أن يراد ببعثرة القبور: حشر الأجسام منها. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) أي: عَلمتْ نفسٌ في ذلك اليوم ما عمِلَت من عملٍ طاعةٍ أو معصيةٍ فقدَّمَته إلى الآخرة، وما تركَت من عمل فأخَّرته، فبقي عدماً معَ انصرامِ زمنِ الامتحان في الحياةِ الدنيا، فهي تستحقُّ =

﴿يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

ثم أردَفَ ذلك بالتأنيب والتقريع والوعظ والإيقاظ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾[1] وجَرَّأك على معصيته، وقد جعل الوَصْفَ بالكرم مُسْتَنداً للتأنيب، ومثاراً للتقريع، ومُوجباً لذلك. وهذا الوَصْفَ تستعمله العرب للجَوْدة في كلِّ شيء، والأنسَبُ هنا أن يُراد به: الذي مَنَح كلَّ شيء ما يحتاجه، وأحسنَ كلَّ شيء خَلقَه وأجاد فيه.

ثم ذكر ما منَّ الله به على الإنسان، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ أي: أكمَلَ لك قُواك ومَيَّزها، ﴿فَعَدَلَكَ ۝٧﴾[2] عن طريقة الضلال إلى طريق الهدى بأصل خِلْقتك،

= الثواب على ما أخَّرت فلم تعمَلْ من عملٍ فيه معصية الله، وتستحقُّ العقابَ على ما أخَّرت فلم تعمل من عملٍ كانَ يجب عليها أن تعملَه طاعةً لله.

(١) محصَّل الكلام: أن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم أن يدرك الهدى من الضلال، إذا لم يُفسِد تلك الخلقة ويُحرِّف تلك الطبيعة، ولكنه أفسد طبيعته فساء إدراكه، فأشرك وأنكر وكذب بيوم الدين. ومُحصَّل المعنى: سوَّاك بخلقتك فعَدَلك عن طريقة الضلال، ولكنك أفسدتَ تَسْويتَك فضَلَلتَ ضلالاً بعيداً. والآية تلمع بأنَّ للنفس ينابيعَ صافية للخير ومعرفةِ الحق، ما لم تفسد بسوء التربية. (المؤلف).

(٢) (فعَدَّلَك) أي: فقوَّمك، (فَعَدَلك) أي: صرفَك من الكفر إلى الإيمان، وهما نعمتان. «ياقوتة الصِّراط» لغلام ثعلب، ص ٥٨٧، بتحقيقي.

ولكنَّك أفسدتَ خِلقَتَكَ فضلَلتَ ضلالاً بعيداً، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا...﴾ [الشمس: ٧].

وتحتمل أيضاً: أنه عَدَلَك عن طريق خِلقة سائر الحيوان، إذ أودع فيك من الاستعداد والمواهب ما لا يدخل في حُسْبان حاسب، من إدراكٍ لا تعجزه حقيقة يطلبها، وعقلٍ لا تُكِلُّه مُعْضِلةٌ يَتَصدَّى لحلِّها، وأملٍ فسيح يبعث على اقتناء ما يَقصُر العمر عن استيعابه، فيُتمَّ الثاني ما أبقاه الأول، ويَرُمَّ الثاني ما أخلَّ به الثاني، حتى أصبح العُمران يرتقي يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، ودهراً بعد دهر، ويتبعه رقيّ الفكر والانسجام في الأفهام، ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجةَ يومه، ولا كان رقيٌّ في أفكار الإنسان، ولا خلَّف شيئاً من العمران. وقد قال علماء الطبيعة: إنَّ الخالق ـ تقدَّست صفاتُه ـ وَهَبَ الإنسان مواهبَ جليلة، ومَنَحَه مزايا نبيلة، وركَّبه مادةً ومعنىً على صورة قابلة للترقِّي والتهذيب والكمال.

وقد أثبت العِلمُ الحديث أنْ ليس في الوجود شيءٌ يشابه دماغ الإنسان، بكثرة تعقُّده وتشابكه، حتى قال أحد أساتذة علم الأعصاب من أهل أمريكا: إنَّ كل خطوط التلفونات والتلغرافات في الولايات المتحدة، وما يلزمها من مفاتيح محوّلة وأجهزة وغيرها، ليست إلا شيئاً بسيطاً بالنسبة إلى الدماغ الذي يحوي أكثر من عشرة ملايين خليَّة ذات نظام لا يحدُّه العقل، ولا يُدركه تمام الإدراك. وهي متَّصلة بكلِّ ناحية من أنحاء الجسم، بشبكة من الأنسجة العصبية الدقيقة، وعلى رُغم تشابكها ودقَّتها فنظام مواصلتها تامٌّ لا يطرأ عليه أقلُّ خَلل. أقول: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ وكلمة ﴿مَّا﴾ مزيدةٌ للتفخيم، أي: لقد ركَّبك

في صورة هي من أعجب الصُّور وأتقنها، وأحكمها وأبدعها، وأقدرها على إدراك الحقائق ومعرفة الخالق، وأدلِّها على البقاء الأبديِّ في النشأة الأخرى بعد هذه النشأة الأولى؛ إذ ليس من المعقول أنَّ الله سبحانه ينشئ الإنسان هذه النشأة الرفيعة الشأن مستعداً لِـمَا لا يَتَناهى من الكمال، بما وَهَبه من العقل الذي لا يقفُ عند حدٍّ في العلم وإرسال أشعة الفهم إلى أسرار الكائنات، وبما أقدره على البيان عن دقائق المعاني بأفصح العبارات، ليس من المعقول أن يُنشئه هذه النشأة لتكون غايتُه غايةَ سائر الحيوان، الذي لم يُعْطَ استعدادَه، ولم يُمدَّ إمدادَه، بل تقضي حكمتُه في هذا الخلق العظيم الذي أسْدى إليه من المواهب ما أسْدى، أن يجعل له حياةً بعد هذه الحياة يستثمر فيها أعمالَه، ويُوافي فيها كمالَه، إن اتَّبع تعاليم ربِّ العالمين، فذلك هو الحقُّ المبين.

ثم أضرَبَ إلى بيان ما هو السبب الأصلي في هذا الغرور، مُصدِّراً ذلك بحرف الرَّدْع عن مضمون ما قبله، على نهج القرآن في مِثلِه، وسَبَك ذلك على الوعيد، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾ أي: لم يكن ذلك الغرور من أصل خِلْقتكم، بل من إفسادكم لطبيعتكم، حتى كذَّبتُم بالدين وبالبعث والحساب الذي يُدان فيه الإنسان، ويُجازى على أعماله.

ويجوز أن يكون الإضرابُ إضراباً عمَّا تقتضيه التسوية من إدراك الحقائق والإيمان بيوم الدين، أي: إنكم لم تستفيدوا من هذه التسوية والعَدْل، بل أفسدتموها وأصبحتُم لم تُدركوا الحقائق، وكذَّبتُم بالدين وبيوم الدين.

وقد توعَّدهم بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾[1] وهذا تحقيقٌ لِـمَا يُكذِّبون به وردٌّ لِـمَا يَتوقَّعون من التسامح والإهمال،

---

(١) أي: وإنَّ عليكم رُقباء من الملائكة، يَحفظون عليكم أعمالَكم الظاهرةِ الجسديَّة والباطنة النفسيَّة، كراماً على الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم الإراديَّة، ويُسرعون في تسجيل الحسنات، =

إذ لو لم يكن حساب لِـمَا حُفظت علينا الأعمـال.

قال الأستاذ الإمام: ومن الغيب الذي يجب علينا الإيمان به في كتابه من أنَّ علينا حَفَظةً يكتبون أعمالَنا حسناتٍ وسيئات، ولكن لا نعلم كيفيَّة كتابتهم وحفظهم لها.

ومعنى ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾: مُطهَّرين عن الغرض والنسيان.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ذكر نتيجةَ هذه الكتابة وهذا الحفظَ من الثواب والعقاب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ[1] لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ[2] لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: يُعَذَّبون بها يوم القيامة بعد الحساب، ولا يخرجون منها.

ثم هوَّل أمْرَ ذلك اليوم بعبارة تَرجُفُ منها القلوب، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾[3]، والتكريرُ للزيادة في التهويل، وكذلك العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾.

= ويتمهَّلُون في كتابة السيئات، رجاءَ توبة المذنب واستغفاره، يعلمون ما تفعلون من خيرٍ أو شر، فليسوا مُجرَّد أدواتِ تسجيلٍ لا تعلَمُ ما تُسجِّل، بل هم يعلمون ما يُسَجِّلُون؛ لأنهم يسجِّلون النيَّات من الأعمال، وما تُكِنُّه الصدور.

(١) ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: جمع بَرّ بوزن (رَب)، وهو المطيعُ المتوسِّع في أعمال الخير.

(٢) ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾: جمع فاجر، وهو الذي يكشف ستْر الشرائع دون مبالاة.

(٣) أي: أعظم ـ أيها الـمُتلقِّي ـ بيوم الحساب إعظاماً لا تَصِلُ إليه دِرايتُك مهما فكَّرت؛ لأنه لم يمرَّ في تصوُّراتك شيء يجعلك تقيسُ هذا الأمر عليه؟ ثم أعظِمْ بيوم الحساب إعظاماً لا تَصِلُ إليه دِرايتُك في الهَوْل والشدَّة؟

وعلى أثر هذا الإبهام المبنيِّ على التهويل بيّنه إجمالاً، فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ فلا تحمل عنها ذنباً، ولا تدفع عنها عتباً، ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ وحده، فلا شفيعَ ولا نصير، ولا مُعينَ ولا وزير، وهو الذي يُجازي كلًّا بعمله بمقتضى عِلمِه وحكمته، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلُّ ما كان في القرآن من قوله: ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه إيَّاه، ومن قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فقد طواه عنه[1].

* * *

(١) «تفسير القرطبي» (١٩: ٢٤٩).



وقد اختُلف فيها أمكيَّة أم مدنيَّة؟

وهي ستٌّ وثلاثون آية

وقد جاء فيها تحريم التطفيف في الميزان والمكيال، وإنذار مَنْ يفعل ذلك بأنه مبعوثٌ للحساب على الأعمال.

وقد اشتملت أيضاً على الترغيب والترهيب.

والتطفيفُ قد يدخل في سائر نواحي الحياة، فقد يستغلُّها الأقوياء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء، في سائر الحقوق والأشياء.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ قيل: إنها مكيَّة، وقيل: إنها مدنيَّة، نزلت في حال أهل المدينة حين قَدِمَها النبي ﷺ، حيثُ كانوا أخبثَ الناس كَيْلاً[1]. كما رواه البيهقيُّ وغيره عن ابن عباس[2].

والتطفيف: بَخْسُ الناس حقوقَهم في الكَيْل والوزن، كما فسَّرته الآية، قال الزجّاج: وإنما قيل له: مطفِّف؛ لأنه لا يكاد يَسرِقُ في المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف[3].

أقول: ومن مباحث اللفظ أنّ في ﴿كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ حذفاً وإيصالاً، أي: كالوا لهم ووزنوا لهم. والغَرَضُ من الآية: تقريرُ العدالة والإنصاف من النفس في الأفراد والجماعات، فهي وإن كانت بياناً لسلوك الكافرين، فهي تحذيرٌ منه للمؤمنين.

ومعنى الآية: أنّ مِثلَ هذا الصِّنف إذا كان لهم حقٌّ على الناس أخذوه وافياً، وإذا

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٢٣)، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٧٨٥): إسناده حسن.

(٢) في «السنن الكبرى» (١١١٦٥)، و«شعب الإيمان» (٤٩٠٣).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٩٧).

كان لهم عليهم حقٌّ أعطوه ناقصاً. وهذا وعيدٌ لكلِّ من تلاعب بالمبايعات والمعاملات، يَغبِنُ ويغشُّ ويُدلِّس، إلى أمثال ذلك من زعبرات المبايعات والمعاملات والمعاوضات. وهي تدلُّ على هذه الأشياء بدلالة الفحوى، وإنما خصَّ التطفيف بالذِّكر لأنه أبرز الأحوال، وأكثرها وقوعاً، كما خصَّ البيع في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، وأراد كلَّ ما يعيق عن الجمعة. وكذلك تدلُّ على السُّوء والقبح في سائر المعاملات.

فهدَّدهم وأنّبهم سبحانه بأسلوب الاستفهام الاستنكاري التهويلي، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ[1] ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ قياماً طويلاً، يحاسبُهم فيه على أعمالهم وما ارتكبوه من سيِّئات.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾.

ثم أردَفَ التقريعَ الإنكاريَّ بما يستلزم التقريرَ والإثباتَ لمضمونه، على نهج القرآن في تعقيب الخاصِّ بما يشمله ويشمل مِثلَه، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ فدلَّ التقرير على أمرين: الأول: أنَّ أعمالهم مُحْصاة عليهم. والثاني: أنها في سِجِلٍّ ممقوت، كما يدل عليه الاسم المشتق من السِّجْن.

والمراد بالكتاب الأول: المعنى المصدري، بمعنى الكتابة. والثاني: بمعنى السِّجِلّ. ومعنى ﴿سِجِّينٍ﴾ يدلُّ على الشدَّة والكُرْه.

فمدلول الآية: أنَّ أعمال الفُجّار تكتب في سِجِلٍّ مكروه، كما يقال: في السِّجل الأسود، يكنِّي بذلك عن شدَّة ما يصيبهم من العذاب جزاءَ أعمالهم المَحْصيَّة عليهم في هذا السجل. فنقل وَصْفَ العذاب للسِّجِلِّ المُسَجَّل فيه.

---

(١) أي: لا يكفي أولئك البُعداءُ إلى جهةِ أسفل سافلين الذين يأخذون لأنفسهم زيادةً، ويدفعون إلى غيرهم نقصاً؛ أن يظنُّوا أنهم مبعوثون بعد موتهم ليومٍ عظيم الهول؟

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم أعاد الوعيد الأول بعبارةٍ أدلَّ على عِظَمِ الجُرم والجزاء، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾ أي: يوم الجزاء الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين للحساب.

ثم ندَّد بهم بهذا التنديد العام، فقال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: مُتجاوزٍ للحقِّ إلى الباطل، مُنهَمِكٍ في الإثم والشهوات التافهة الرذيلة. وهذا التكذيب إما بالجحود والإنكار لوجوده، وإما بعدم المبالاة له بما يكون فيه، فلا يحذره ولا يتَّقيه.

ثم شنَّع بالقِسم الأول؛ لأنه أشنَعُ القسمين، فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

ثم ردَّ عليهم مُبيِّناً سرَّ هذا الإنكار فيهم، على نهج القرآن في مثله، وصدَّره بحرف الرَّدْع، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليست هي بأساطير الأوَّلين، ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ فبيَّن أنَّ الذي أدَّى بهم إلى قولهم هذا، إنما هو تَغْطيةُ ما كانوا يكسبونه من الكفر والمعاصي لقلوبهم، وإفسادهم لعقولهم، وإعماؤه لبصائرهم؛ لأنَّ من طبيعة الإنسان إذا انطبع على شيءٍ لا يُمكِنُه أن يتحوَّل إلى ضدِّه، ويرى كلَّ ما يخالفه واهياً غيرَ جدير بالعناية والتفكير.

وقد جاء عنه ﷺ في تصوير هذا المعنى: ما معناه: «إنَّ العبد كلما أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتة سوداء، حتى يَسْوَدَّ قلبُه»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٧٩٥٢). قال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح.

ثم كرَّر الرَّدْعَ وقرَّر مصيرَهم، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[1] قال أبو مسلم: أي: ممنوعون من رحمته، مدفوعون عن ثوابه، غير مقبولين ولا مرضيِّين.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم زيادةً في التأليم والتقريع: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم قَرَنَ حالَ الفُجّار بحال الأبرار، على نهج القرآن في مثله، زيادةَ إيلامٍ للأوَّلين وإيناسٍ للآخرين، وأعاد الردع فقال: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمر كما يدَّعيه أولئك الفُجّار من إنكار البعث، ومن أنَّ هذه الآيات أساطير الأوَّلين، بل إنَّ البعث أمرٌ واقعٌ ومتحقّق، وكما سينال الكفار جزاءَهم سينال الأبرار ثوابهم، و﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾[2] فدلَّ هذا البيانُ أيضاً

---

(١) أي: ليس الأمر كما يقولون: أنَّ لهم في الآخرة خيراً، بل إنهم عن رؤية الله يوم القيامة وخطابه ورحمته لممنوعون. وفي الآية تقرير رؤية الله للمؤمنين في الآخرة وحرمان الكافرين منها.
قال الإمام أبو عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب في «ياقوتة الصِّراط» ص ٥٨٨ بتحقيقي: «قال ثعلب: في هذا دليل أن ثمَّ قوماً ليسوا بمحجوبين؛ وهو بمعنى الخبر: إنَّكم ترَوْن ربَّكم يوم القيامة كما ترَوْن القمر ليلةَ البدر».

(٢) أي: إنَّ كتاب المتوسِّعين في فعل الصَّالحات من نوافل العبادات، وفي ترك المكروهات الذي كُتبت فيه أعمالُهم ومثوباتُهم لـمُثْبَت في ديوان جامع، عالٍ قدرُهُ في السماء السابعة، دوَّن الله =

على أمرين: أنَّ الأعمال الصالحة محفوظة لأربابها. والثاني: أنها في سِجِلّ مبرور مُكرَّم جليل، وهو في حفظ المقرَّبين. والكتاب الأول: بمعنى الكتابة والمكتوب. والثاني: بمعنى السِّجِلّ.

وبعد هذا البيان المُجْمَل فصَّل ما ينالونه من الجزاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ والأرائك: هي الأسِرَّةُ في القباب المضروبة، وهم ينظرون مناظر الجنَّة العجيبة، وإلى ما أَوْلاهم الله تعالى من النعيم والكرامة.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إذا نظرتَ في وجوههم عَرَفتَ أنهم من أهل النعيم، بما ترى عليها من البهجة والرواء.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ والرحيق: الشراب الخالص، وقد خُتمت أوانيه وسُدَّت، وكان ختامها المسك مكان الطينة. قال البيضاوي: ولعله تمثيلٌ لنفاسته. وقيل: بل المراد من ختامه: مقطعه بعد الشراب، أي: أنَّ الشارب يجد منه رائحة المسك بعد أن يشربه[1].

ثم حثَّ على ما يؤدِّي إلى هذا النعيم، فقال: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: يتغالب المتغالبون، بمعنى: يرغب الراغبون، ويسبق بعضُهم بعضاً بالأعمال التي تُقَرِّبُ منه، وإلى أعلى درجة فيه؛ لأن ذلك من مُقْتضيات العقل الكامل، حيث يدفع صاحبَه إلى التنافس في نَيْل الزيادة من هذا النعيم.

= فيه أعمالَ الصَّالحين من الجنِّ والإنس، وأعظم بهذا الأمر إعظاماً لا تصل إليه درايتك؟ هو كتابٌ مسطور بيِّن الكتابة، يطَّلع عليه الملائكة المُقَرَّبون ويَحضرونه. أطلق على هذا الكتاب عِلِّيُّون؛ لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنَّة.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٩٦).

وهذه جملةٌ معترضة، عجَّل بها قبل أن يأتي على بقية أوصاف الرحيق، إسراعاً بالترغيب في التسابق إلى ما أعدَّ من أنواع السعادة، على نَهْج القرآن في مثل ذلك.

ثم بيّن ما يُمزَجُ به ذلك الرحيق، فقال: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾[1] وقد سُئِلَ ابنُ عباس رضي الله عنهما عن التسنيم، فقال: هذا ما يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. ومِثلُ هذا قول الحسن: خفايا أخفاها الله لأهل الجنة[2].

ثم زاد بياناً بقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا[3] ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وهم الأبرار بعينهم، ذكَرهم بهذا الوصف زيادةً في تكريمهم.

قال الأستاذ الإمام: وكل هذه الأنواع من النعيم التي ذُكرت في الآيات مما ترغب فيه النفس، وتتسابق إليه الهمم، لهذا حفَّز الله بها عزائمَ المحسنين ليزدادوا إحساناً، وليطمع فيها الواقف على أول الطريق، فيلزم الجادَّةَ الواضحة، ويَدَعَ المُعوَجّةَ الملتبسة. وهذا على أنَّ المفهوم منها ما يشبه ما نحن فيه، فما رأيك فيها وهي لا يُدانيها شيءٌ مما

---

(١) أي: مزاج الرحيق من عينٍ في الجنة تُعرف لعُلوِّها بـ«تسنيم»، تنصبُّ عليهم من غُرَفِهم ومنازلِهم في أوانيهم على قدر ملئها.

(٢) ذكر هذه الأقوال الواحدي في «الوسيط» (٤: ٤٤٩).

(٣) ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾: أي: يرتوون بسببها، أو يلتذّون بها. ولم يَقُل سبحانه: «يشرب منها» ليدلَّ على كمالِ شُربِهم وتمام ريِّهم، فكأنه سبحانه قال: يشربون منها، ويرتوون بها. ففيه تضمينٌ كما هو معلومٌ في علم البلاغة. ونظيرُه قوله تعالى في سورة الدهر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

و﴿تَسْنِيمٍ﴾: أشرف شراب أهل الجنة، يُمزج لسائر أهل الجنة، ويشربه المقرَّبون من أهل مرتبة الإحسان صِرفاً غير مخلوط.

نعهده في الدنيا إلا بالاسم، أو بضَرْبٍ من الشبه البعيد، كما هو حقيقةُ أمرها، والحقُّ في شأنها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر ما أوعدَ به الفجَّار وهم أهل الجرائم ومُقترفو السَّيِّئات، وما وُعِدَ به المتَّقون وهم أهل البرِّ والإحسان، وما سيُلاقيه كلٌّ من الفريقين في الدار الآخرة جزاءً على عمله، أخذ يذكرُ ما كان لأحد الفريقين مع الآخر في الدنيا، وما سيكون من شأن الآخر مع الفريق الأول في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ وهم المعتدون الأَثَمةُ الذين قد تشبَّعت نفوسهم بالشرِّ، وصُمَّت آذانهم عن سماع دعوة الحق، ﴿كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بأن يشير بعضهم إلى بعض بالأعين والحواجب، استهزاءً بهم، ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ بحكاية ما يعيبون به أهل الإيمان، إذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟﴾ فيهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ في تركهم اللّذّات الحاضرة، طلباً لثواب لا يُدرى أحقٌّ هو أم باطل؟

فردَّ عليهم سبحانه بما فيه تهكُّمٌ بهم، فقال: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: لم يبعثهم الله رُقَباءَ على المؤمنين، يحفظون لهم وعليهم أحوالهم، وربما يرمز بذلك ـ تهكُّماً بهم ـ إلى الكرام الكاتبين الذين يرقُبون الأعمال.

وقد جُوِّز أن يكون هذا من جملة قول المجرمين، كأنهم قالوا: إنَّ هؤلاء لضالون

في دَعْواهم لنا إلى ما دخلوا فيه، ومحاولتهم أن يصدُّونا عمَّا وجدنا عليه آباءنا، ما لهم ولنا؟ ما أُرسلوا علينا حافظين! ينكرون عليهم صَدَّهم عن الشِّرك وتعلُّقاته، ودعاءَهم إلى الإسلام، ومَنْعَهم من اللهو الأثيم وشهواته. وعلى هذا إنما قال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بدل (علينا)، نقلاً له بالمعنى، كما في قولك: حلف ليفعَلَنّ، لا بالعبارة كما في قولك: حلف لأفعَلَنّ.

ثم بيَّن شأن المؤمنين مع الكافرين يوم القيامة، وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ[١] ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٢] إلى صُنع الله بأعدائهم.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين تقريراً لصدق وعده، فقال: ﴿هَلْ ثُوِّبَ[٣] ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: هل رأيتُم كيف جَازى الله الكافرين؟

و﴿ثُوِّبَ﴾ مثل: أُثيب، واستُعمل لفظ الثواب في العقوبة؛ لأنَّ الثوابَ في أصل اللغة: الجزاء. ويجوز أن يكون مجازاً تهكُّمياً لزيادة التأليم، مثل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

اللهمَّ اجعلنا ممَّن سبقت لهم منك الحُسْنى يا أرحم الراحمين.

---

(١) أي: فاليوم ـ الذي هو يوم القيامة ـ يَضحكُ المؤمنون من الكفّار وهم يتقلَّبون في عذاب الجحيم، كما ضَحِكَ الكافرون منهم في الدنيا.

(٢) أي: هؤلاء المؤمنون جالسون على المقاعد المُنجَّدة الوثيرة الفاخرة، ينظرون إلى المجرمين، وهم في النار يُعذَّبون؛ فيُسرُّون بذلك، ويَضحكون من أعداء الله الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا.

(٣) أي: ينظرون ليتحقَّقوا هل جُوزيَ الكفارُ بالعدل المطابِق لِما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين؛ من الاستهزاء والضحك؟ نعم، لقد جُوزوا بالعدلِ المطابق لما كانوا يفعلونه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا. يقولون ذلك شكراً لله على عَدلِه.



مكيَّة، وهي خمس وعشرون آية

جاءَ فيها إثبات الـمعاد، وما يكون من ثواب وعقاب، فهي أيضاً في الإنذار والترهيب، على نهج القرآن في تلوين الكلام عن الغرض الواحد، بأساليب مُنوَّعة، زيادةً في تقريره وتفصيله وتحليله، كتابٌ متشابهٌ مثاني.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ[1] ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ يقال: أذِنَ له، أي: استمع له، ويقال: حُقَّ عليه أن يفعل، أي: لزم ووَجَب. وهذا عَوْدٌ إلى التذكير باليوم الآخر، على نهج القرآن في العودة إلى الموضوع الذي يُريد إشباعَ الكلام فيه، وشدَّة التنبيه له، وقد جاءَ به على صُورة شرطٍ محذوف الجواب، على نهج القرآن في مثله إذا أراد التهويل.

ومعنى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾: استَمَعت لأمر ربها، وفعلت ـ حين أراد انشقاقها ـ فِعلَ المحقوق المِطواع، فكأنه قال: امتثلت له وحُقَّ لها أن تمتثل. أي: أراد منها الفناء، ففَنيت، كما أنَّ آية: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلت: ١١] بمعنى: أراد منها الوجود فوُجِدَت[2].

---

(١) أي: انشقَّت وتصدَّعت أجزاؤها المتماسكة.

(٢) «أذِنَت» هنا بمعنى: استَمَعَت وأطاعت، ففي «المفردات في غريب القرآن» للراغب ص٧٠: «وأذِنَ: استمع، نحو قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾».
ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوتِ يَتَغنّى بالقرآن يجهرُ به»، رواه البخاري (٧٥٤٤) ومسلم (٧٩٢)، أي: ما استمع الله لشيء استماعَه لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به. =

وانشقاقُ السماء مِثلُ انفطارها الذي مرَّ تفسيره في سورة ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ

= ومنه قول قعنب بن أمِّ صاحب:

صمٌّ إذا سَمِعوا خيراً ذُكِرتُ بـه فإن ذُكِرتُ بسوءٍ عندَهم أذِنُوا

أي: استمعوا.

وفي «تفسير ابن كثير» (٨: ٣٥٦)، وذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (٣: ٩٦): ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت لربِّها وأطاعت أمرَه فيما أمَرها به من الانشقاق، ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحُقَّ لها أن تُطيعَ أمرَه؛ لأنه العظيمُ الذي لا يُمانعُ ولا يُغالَب، بل قد قهر كلَّ شيء وذلَّ له كلُّ شيء. اهـ.

وهذا هو المرويُّ عن السلف، فقد روى ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (١٠: ٣٤١١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: أطاعت. ومن طريق سعيد بن جبير: ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: حُقَّ لها أن تطيع. ومن طريق الضحّاك: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: سَمِعت. وقال مجاهد: أذِنَت: سَمِعَت وأطاعت لربها. أخرَجَه ابنُ أبي حاتم من طريقه. كذا في «فتح الباري» (٦: ٢٩٤) و(٨: ٦٩٧). وأخرج الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٣١٠) بسند صحيح عن مجاهد: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ قال: سمعت.

وأما حملُها على المجاز فلا حاجة له، لأنَّ المخلوقات تسمع أوامر الله وتطيعه فيها، كما قال تعالى في السماء والأرض: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

وفي «تتمة أضواء البيان» للشيخ عطية محمد سالم: وقد حمله بعض المفسرين على المعنى المجازي في «أذنت»، أي: لـمّا لم تكن ممانعة من تشقُّقها، كان ذلك بمثابة الامتثال والاستماع، وقد قدّمنا أن للجمادات بالنسبة إلى الله تعالى حالةً لا كهي بالنسبة للمخلوقين في مبحث أول الحشر، في معنى التسبيح من الجمادات. وقد جاء صريحاً في حقِّ السماء والأرض من ذلك قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾. [فصلت: ١١]. والله أعلم.

﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، وهو فسادُ تركيبها واختلال نظامها عندما يُريد الله خرابَ هذا العالم الذي نحن فيه وتبديلَه بغيره، ويكون ذلك نتيجةً لاضمحلاله بتَقَادُم عهدِه[١]. والله أعلم.

وقال الأستاذ الإمام: خراب هذا العالم الذي هو القيامة إنما يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجرُّ إليها سَيْر العالم[٢]، كأن يمرّ كوكب في سَيْره بالقرب من آخر، فيَتَجاذبان فيَتَصادمان، فيضطرب نظام الشمس بأسره[٣]، ويحدث من ذرَّات ذلك

---

(١) ليس العالم كمصنوعات البشر التي تتلف بمرور الزمن عليها، بل هو مخلوق في غاية الإبداع والإتقان، وفناؤه إنما يكون بأمر الله تعالى لنظامه أن يختل، لا نتيجةً طبيعةً للتلف الذي أصابه بتقادُم عهده. ثم إن الزمن وتقادُمَه ليس له فِعل في الأشياء، وإنما أجرى الله العادة بأن يفعل التلف والاختلال في الأشياء مقارناً لطول زمانها، وهذا حكمٌ جار في عالم الدنيا، فإذا حان وقت القيامة تعطلت هذه السنن المبنية على حكم العادة، وصارت الأفعال مجرَّدة عن أسبابها الكونية وظروفها الطبيعية.

(٢) هذا تخرُّصٌ ورَجْمٌ بالظن في مسألة غيبيَّة لا تدرك إلا بالخبر الصحيح، ومحاولةُ إيجاد تفسير طبيعي لظواهر القيامة محاولةٌ يائسة غير محمودة.

(٣) يمكن أن ينضمَّ إلى هذه النظريَّة ـ والعلم عند الله ـ نظريَّة أخرى، وهي أنَّ صورة هذا العالم المادي تضمحلُّ بتقادم العهد عليه، فيختل التماسك بينه، فيتصادم ويتفتَّت، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. (المؤلف).

قلت: تقدَّمَ الردُّ على هذه الدعوى من المؤلّف ـ غفر الله له ـ بأنَّ فناء هذا العالم الماديّ إنما يكون بأمرِ الله تعالى لنظامه أن يختلّ، وليس بسبب الاضمحلالِ بتقادُم العهد عليه. ثمَّ إنَّ الزمن وتقادُمَه ليس له فِعل في الأشياء، وإنما أجرى الله العادة بأن يفعلَ التلفَ والاختلالَ في الأشياء مقارناً لطول زمانها، وهذا حكمٌ جار في عالم الدنيا، فإذا حانَ وقتُ القيامة تعطّلَت هذه السنن المبنية على حكم العادة، وصارت الأفعال مجرَّدة عن أسبابها الكونيَّة وظروفها الطبيعيَّة. وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، =

غمام - وأيُّ غمام - يظهر في مواضع متفرِّقة من الجوِّ والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشقَّقت بالغمام، واختلَّ نظامها حالَ ظهوره.

ومتى فَسَد نظام السماء فتَساقط من كواكبها بعضها على بعض، أصاب الأرض من ذلك أشدّ ما يصيبها من الاضطراب، فتُدَكُّ جبالها، وتَتَقطَّع أوْصالها، وتفقد التماسك بينها، فلا يبقى لها هذا الاندماج الذي هي عليه الآن، فتُمدُّ مدَّ الأديم العكاظي[١]، كما روي ذلك عن ابن عباس، ولا تكون إلا كتلة مائرة تتساوى أعاليها وأسافلها، وعظمت بهذا الانتعاش، وزادت أقطار حجمها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾[٢].

ولا رَيْبَ أنَّ هذا المدّ يتبعه أنَّ جميع ما في جَوْفها ينقذف إلى خارجها، وربما قذفته الحركة العنيفة إلى ما يَبعُدُ عن سطحها، فتخلو الأرض منه حتى لا يبقى له أثر في باطنها، وهو معنى قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾[٣] وهي في ذلك كلِّه تحت

= فليس المراد به ما استدل به المؤلف على نظريته، وإنما يذكره المفسِّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، فقد فسَّرها به الرازي، كما في «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٨: ٤٦٧).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) والمراد: إذا الأرض بُسِطَتْ بسطاً واسعاً، فصارت سطحاً مستوياً، لا عوج فيه، ولا مرتفعات ولا منخفضات.

(٣) يجوز أن يريد بقوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾: ما كان فيها من أجسام الموتىٰ التي أُعيدت، وإنْ كان ذلك بعد حين، أي: بعد النفخة الثانية. والله أعلم. (المؤلف).

قلت: وهو الراجح في معنى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي: ألقَتْ ما فيها من الأموات وتخلّت عنهم، فقد أخرج الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٣١١) بسند صحيح عن مجاهد: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ قال: أخرَجَت ما فيها من الموتى. ونقله ابنُ كثير في «تفسيره» (٨: ٣٥٦) عن مجاهد وسعيد وقتادة. =

سلطان الجلال الإلهيّ وقهره، خاضعةً لأوامره، منقادةً لمشيئته، كما قال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾ وقد مرَّ تفسير هذه الجمله، إلا أَنَّ الأُولى في حقِّ السماء، وهذه في حقِّ الأرض.

قال الأستاذ الإمام: ولا يخفى أنَّ الاستماع والطاعة من السماء والأرض تمثيلٌ لكونها في قبضة القدرة الإلهيَّة، تُصرِّفها في الفناء كما تُصرِّفها في الابتداء[1]، وهو نظير

= وقيل: إن المراد: ألقت ما فيها من الكنوز التي في بطنها، كالذهب والفضة وغير ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، وفي حديث النبي ﷺ: «تقيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِها أمثالَ الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتلت، ويجيء القاطعُ فيقول: في هذا قَطَعتُ رَحِمي، ويجيءُ السارق فيقول: في هذا قُطِعَت يدي، ثمَّ يَدعونَه فلا يأخذونَ منه شيئاً. رواه مسلم (١٠١٣).

وقد ضعَّفَ ابنُ جُزَيٍّ القولَ الثاني، فقال في «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢: ٤٦٤): ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: ألقت ما في جوفها من الموتى للحشر، وقيل: ألقت ما فيها من الكنوز، وهذا ضعيف؛ لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال قبل القيامة، والمقصود ذكر يوم القيامة، ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي: بقيت خاليةً ممَّا كان فيها. انتهى.

وهناك أقوالٌ أخرى ذكرَها القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٩: ٢٧٠) فقال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: أخرَجَت أمواتها وتخلّت عنهم. وقال ابنُ جُبَير: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلّت ممَّن على ظهرها من الأحياء. وقيل: ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها وتخلت منها، أي: خلا جوفها، فليس في بطنها شيء، وذلك يُؤذِنُ بعظم الأمر، كما تُلقي الحاملُ ما في بطنها عند الشدة. وقيل: تخلّت مما على ظهرها من جبالها وبحارها. وقيل: ألقت ما استُودِعَت، وتخلّت ممَّا استُحفِظت، لأنّ الله تعالى استَودَعَها عبادَه أحياءً وأمواتاً، واستحفظها بلاده مزارعةً وأقواتاً. انتهى.

(١) هذا غير صحيح، بل الصواب أنها تدرك أمرَ ربها تعالى إدراكاً يُناسبُها، فتمتثلُ الأمرَ وتطيع، كما تقدم بيانُه تعليقاً في أول هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلت: ١١]، والمعنى: أنه خلقهما على الوجه الذي أراد بدون أن يكون منه جهد أو كدّ.

ولم يأتِ بجواب للشرطين، ليذهب فيه السامع ما شاء من المذاهب، حتى يمرّ بذهنه جميع ما وَرَدَ من حوادث ذلك اليوم التي جاءَت مفرَّقة في سور أُخرى، وفي هذا التَّهويل ما ربما لا يفيده الذِّكر والتطويل، وهذا من عجائب إيجاز القرآن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

ثم أردَفَ الكلام عن يوم القيامة بالكلام عن الحساب، وضَمَّن العبارة تحسيسَ الإنسان بالمصير، على وَجْـهِ الإغراءِ والتحذير فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا[1] فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾، يقرِّر أمر الرجوع إلى الله، وأنَّ الإنسان مُسْرِعٌ فيه بكلِّ جدّ، وسينتهي إليه عن قريب. أي: إنك مُجِدٌّ في السَّيْرِ إلى ربِّك، وكلُّ خطوة في عملك خطوةٌ إلى أجلك، والموت يكشف عن الروح غطاءَ الغفلة، ويجلو لها وَجْهَ الحق، فتعرف من الله ما كانت تنكره، ويعرف كلُّ عامل ما جرَّه إليه عمله.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ وهو المؤمن الصادق ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا

---

(١) قال غلام ثعلب في «ياقوتة الصراط» ص ٥٨٩: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: عامل عملاً؛ خيراً أو شراً؛ يقال: فلانٌ يكدَح على عياله ولعياله؛ أي: يعملُ ويكتسبُ.

يَسِيرًا(١) ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ أي: ينقلب إلى عشيرته المؤمنين، أو فريق المؤمنين، أو ما أعدَّ الله له من الحور العين، مبتهجاً بحاله، قائلاً: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ أي: يُـؤْتاه بشمـاله ويأخذه من وراء ظهره؛ كراهةً له، وهو الكافر، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ أي: يقول: يا ثبوراه، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

ثم علَّل ذلك ببعض مُوجباته، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ بما كان عليه من التَّـرَف ومُعاقَرة اللذّات ومُداعبة الشهوات، والإنكار للبعث والحساب، حيث ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لن يرجع إلى ربِّه فيحاسبه؛ وذلك لأنه مُنكِرٌ للحشر والحساب.

فردَّ عليه سبحانه بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ لا يغادر له صغيرةً ولا كبيرةً إلا يُحصيها ويُحاسبُه عليها ويجزيه بها جزاءً وفاقاً.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) أي: فأمَّا من أُوتي ديوان عمله الذي عمله في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا بيده اليمنى، فسوف يُحاسَب في محكمة العدل الربَّانيَّة حساباً يسيراً لا شدَّة فيه ولا مناقشة، تُعرض عليه أعماله، فيُعرَّف بالطاعة والمعصية، ثم يُثاب على الطاعة، ويُتجاوز له عن المعصية. كما ثبت في الحديث الذي رواه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحدٌ يُحاسب إلا هلك». قالت عائشة: قلت: يارسول الله، جعلني الله فداءك: أليس يقول الله عـز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: «ذاك العَرْض، يُعرَضون، ومن نُوقش الحساب هلك».

ثم أكَّد ذلك بآيات الله الظاهرة الباهرة في هذه الكائنات، بأسلوب القَسَم، وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾، وقد مرَّ الكلام على عبارة ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ في عدَّة سور[١].

والشفق: قال الزجَّاج: هو النهار[٢]. وقال غيره: هو بقيةُ ضوء الشمس، والحمرةُ من غروبِ الشمس إلى وقت العشاء.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ قال عكرمة وغيره: أي: وما جَمَع وضمّ ما كان منتشراً بالنهار، وذلك لأنَّ الليل إذا أقبَلَ آوى كلُّ شيء إلى مأواه. وقال الضحَّاك ومقاتل: أي: ما ساق؛ لأنَّ ظلمة الليل تسوقُ كل شيء إلى مسكنه[٣].

وقال أبو مسلم: بل المعنى: وما طَرَد من الكواكب، فإنها تظهر بالليل وتخفى بالنهار، وأضاف ذلك إلى الليل؛ لأنَّ ظهورها فيه مُطَّرد لها؛ لأنها تسير فيه كما يسير السَّاري، وينتقل من مكان إلى مكان، وذلك بحسب النظر والعيان.

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ أي: إذا استوى وتكامل وتمّ. قال الفرّاء: اتِّساقُه: امتلاؤه واجتماع ما يضيء منه، واستواؤه لثلاث عشرة إلى ستَّ عشرة[٤].

أما المُقسَمُ عليه فقوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ والطبق: الحال على اختلافها، يقال: الدهر أطباق، أي: أحوال. والمراد: أنَّ الأحوال تنقلب بهم، فيصيرون على غير الحال التي كانوا عليها في الدنيا.

---

(١) في سورة الواقعة (٧٥-٨٠)، والحاقة (٣٨-٤٣)، والمعارج (٤٠-٤١)، والقيامة (١-٤)، والتكوير (١٥-٢١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٠٥).

(٣) روى قولَ عكرمة والضحاك الطبريُّ في «تفسيره» (٢٤: ٣٢١).

(٤) «معاني القرآن» (٣: ٢٥١).

واختلافُ الحال هو وجْهُ المناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه، أي: كما أنَّ في الطبيعة أن يظهر الشَّفَقُ بعد غروب الشمس، ثم يَعقُبُه الليل، ثم يبدو فيه القمر، فكذلك يعقب الحياة موتٌ للجسم وتبقى الروح حيَّةً في البرزخ وحدها، ثم يَعقُبُ ذلك حياةٌ للجسم تزدوج به الروح بعد القيامة، فهذه أطوار ثلاثة متعاقبة كتعاقب الشَّفَق والليل والقمر متطابقة، أي: متشابهة في الأحوال والأوضاع والصُّور، والله أعلم.

و﴿عَن﴾ بمعنى: «بعد»، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] أي: بعد قليل.

وقال الزجَّاج في معنى الآية: لَتَركَبُنَّ حالاً بعد حال حتى تصيروا إلى الله[1]. والأحوال هي: الإحياء الأول، ثم الإماتة، ثم البعث.

وقيل: بل معنى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾: لَتَركَبُنَّ شدَّةً بعد شدَّة.

وقال الأستاذ الإمام: أصل مادة (الطبق) من المطابقة والمساواة، والمعنى الذي يُعوَّل عليه: لتركبنَّ حالةً بعد حالة، على أنَّ الحالة الثانية تُطابق الحالةَ الأولى، أي: لتكوننّ في حياة أُخرى تماثل هذه الحياة التي أنتم فيها وتطابقها من حيث الحسُّ والإدراك والألم واللذّة على الإطلاق، بمعنى: أنها حياة حقيقيَّة، وإن خالفت في بعض شؤونها هذه الحياة الأولى[2].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٠٥).

(٢) أو المعنى ـ والله أعلم ـ: لتركبنَّ ـ أيها الناس ـ بما ستكتَشفون من مراكبَ بإلهام الله لكم، تنتقلون بها في طبقات الجوِّ؛ مُجتازين في كلِّ طبقةٍ تصلون إليها عن طبقةٍ انتهيتُم من عبورها إلى طبقة أخرى.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن بيّن سبحانه وتعالى أعراض القيامة، وذكر البعثَ والحساب، وأقسَمَ على ذلك بمظاهر القدرة في هذا الكون؛ أنكر عليهم بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ به، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ وهم أرباب الفصاحة يعرفون إعجازَه ومداركَه، فما لهم ﴿لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ له ويَخضَعون ويُسلِمون؟

قال الأستاذ الإمام: لا تظنَّ أنَّ قرع القرآن لم يكسر أغلاقَ قلوبهم، ولم يبلغ صوتُه أعماقَ ضمائرهم، بل قد بلغ وأقنع فيما بلغ، ولكن العِناد هو الذي يمنعهم عن الإيمان، ويصدّهم عن الإذعان، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل، وإنما هو تقصيرُ المُسْتَدِلّ وإعراضُه عن هدايته، لذلك أضرَبَ سبحانه وتعالى إلى بيانِ حقيقة أمرهم، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: بما يجمعون في صدورهم من الوعي السَّيِّئ للقرآن والخوف على الرياسة وحُطام الدنيا، فقد غطَّى ذلك على قلوبهم، فأعرضوا عن الحقِّ على وضوحه.

هذا أُميَّة بن أبي الصَّلت يُقرُّ برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: لا أؤمن برسول ليس من ثقيف. ومثله أبو عامر الراهب. وهذا أبو جهل يقول: ما كذب محمد قط، ولكن إذا كانت السدانة والحجابة في بني هاشم، ثم النبوة، فما بقي لنا؟ وهذا أبو طالب يرى المعجزات، ويقول: إني لأعلم أنك على الحق، ولولا أن يُعيِّرني نساءُ قريش لأقررْتُ بها عَيْنَك. فنعوذُ بالله من ظلمةِ حَسَد، وصَلَافة كِبْر، وحَماقة هوى، تُغطِّي نورَ العقل وضياء البصيرة، فيُعرِض صاحبها عن الحقِّ والرُّشد والفلاح.

وقد توعَّدهم سبحانه وتعالى بما فيه تهكُّم عليهم، وقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾، والتهكُّم في استعارة التبشير للوعيد بالعذاب إنما هو على القول بأنه مجاز فيه، أما على القول بأن التبشير لغةً: هو الإخبار بما تتأثَّر له بشرة الوجه سروراً أو حُزناً، فلا تهكُّم به، بل مجرَّد وعيدٍ شديد.

ثم قابل حال هؤلاءِ الكافرين المعاندين بحال المؤمنين، على طريقة الاستثناء المنقطع، وصورة الاستدراك، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لكن الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لهم جزاءٌ غير مقطوع؛ مما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

* * *



مكيَّة، وهي اثنتان وعشرون آية

والغرضُ منها:

تثبيتُ المؤمنين وتصبيرهم على تعذيب أهل مكة لهم، وتذكيرُهم بما جَرَى من التعذيب لأمثالهم من المؤمنين في الأمم الماضية.

وقد أنذَرَ مَنْ يُعذِّبهم، وتَوَعَّدهم بأسوء العذاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾[1] وقد فسَّروا البروج بالبروج الاثني عشر التي تنزل

---

(١) أقسم سبحانه بما نعلم وما لا نعلم من عالَمي الغيب والشهادة على قدرته البالغة التي لا يعجزها أمر البعث والحياة الأخرى؛ ليؤنِّب المنكرين، ويتوعَّد الظالمين. وقد نظم اليوم الموعود في سلك القسم، مع أن إثبات وجوده هو نفس المُقسَم عليه، المقدَّر في الكلام، وذلك لِمَا في هذا المسلك من المبالغة في ادِّعاء وجوده وتحقيقه.

ولا يقال: كيف يستدل بما لا يعلم وبالدعوى نفسها على إثباتها؟ لا يقال ذلك؛ لأن بعض المُقسَم به كافٍ لإثبات الدعوى؛ لِمَا فيه من دقَّة الصنع وعجائبه وعَظَمة القدرة، وما عداه إنما ذكر زيادة في التنبيه والتذكير. ففي الكلام بلاغة عالية في المعنى والغرض والأسلوب، جلَّ من هذا كلامه. وقد جاء في سورة ﴿وَالشَّمْسِ﴾ شبيه بهذا النظم من القسم، أو قريب منه، حيث سلك قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] في صورة القسم مع أنَّ المقسم عليه هو إثبات حالها من تَزْكية أو تَدْسية، وهو أمرٌ غير خارج عنها. ومثل هذا من البلاغة العالية بمكان، ومن أساليب القرآن. (المؤلف).

فيها الشمس والقمر أثناء سَيْرهما في منطقة البروج. وفسَّروها أيضاً بالنجوم مُطلقاً أو بعظام الكواكب على تشبيهها بالأبنية الضخمة الفخمة. وهذا هو الأنسَب بمعاني القرآن؛ لأنه معنىً لغوي، والأوّل معنىً اصطلاحيّ، والقرآن يتبع في تعابيره المعاني العرفيَّة اللغويَّة.

ثم تابع القَسَمَ بقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾ وهو يوم القيامة؛ لأنَّ الله سبحانه وَعَد به ولـمّا نَصِلُ إليه بعد، ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ والشاهد: كلُّ ما له حسٌّ يَشهَدُ به المشاهَدات، والمشهود: كلُّ محسوس يُشهَد ويُدرَك بالحسّ.

قال الأستاذ الإمام: أقسم سبحانه أولاً بما فيه غيبٌ وشهود، وهو السماء ذات البروج، فإنّ كواكبها مشهودٌ نورها، مرئيٌّ ضوؤها، معروفةٌ حركاتها، بحسِّ البصر مباشرة أو بواسطة الآلات، وفيها غيبٌ لا يُعرف بالحسِّ، وهو ما أودع الله فيها من القُوى، وما أسكنها من المَلَك وغيره، كلُّ ذلك غَيْبٌ لا تُدرِكه حواسُّنا، وإنْ وَصَل إلى الاعتقاد بشيءٍ منه عقلُنا.

ثم أقسم جلَّ شأنه بما هو غَيْبٌ صِرْف، وهو اليوم الموعود؛ لأنه أخبرنا بأنه سيكون، وأخبرنا عمَّا يكون فيه من الحوادث في البعث والحساب والعقاب والثواب، ولكن شيئاً من ذلك لا يمكننا أن نشهده في حياتنا هذه.

وبعد ذلك أقسم بما هو شهادة صِرْفة، وهو الشاهد، أي: صاحب الحسِّ وهو مرئيٌّ، والمشهود وهو ما وقع عليه الحسّ، فكأنه جلَّ شأنه أقسَمَ بالعوالم كلِّها مع هذا التقسيم البديع لِيَلفِتَكَ إلى ما فيها من العِظَم والفخامة، لتعتبرَ بما حَضَرَك وتبذلَ الوُسْعَ في دَرْك ما استَتَر عنك، وتستعدَّ لِـمَا يستقبلك، وليقرع المنكرين بغفلتهم عمَّا في هذا الكون من أثر القدرة التي لا يُعجزها شيء، ولينذر به الظالمين.

أما المُقسَمُ عليه فمحذوفٌ دلَّ عليه ما ذكره بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾[1]، فكأنه قال: أُقسِمُ بهذا الكون العظيم، وبذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لربِّ العالمين، لقد ابتُلِيَ مَنْ قبلَكم من المؤمنين المُوحِّدين ببطش أعدائهم بهم واشتدادهم في إيذائهم، حتى خَدُّوا لهم الأخاديد، وملؤوها بالنيران، وقذفوهم فيها، ولم تأخذهم بهم رأفة، بل كانوا يتشفّون برؤية ما يحلُّ بالمؤمنين، وأُقسِمُ لقد صبروا، ولقد انتقم الله ممَّن أوقع بهم، وأخذَه بذنبه أَخْذَ عزيزٍ مُقْتدر، ولئن صَبَرتم لَيُوفِّيَنَّكم أجرَكم، ولَيأخذنَّ الله أعداءَكم، ولَيُنزِلَنَّ بهم من بطشه ما لا قِبَلَ لهم به. فهذا كله قد فُهم من الآيات الآتية.

وقد أقام مقام الجواب حكاية مثل الماضين، ووعيده للكافرين، ووَعْده للصالحين، وما بعد ذلك من البيان؛ تثبيتاً للمؤمنين، وحَمْلاً لهم على الصبر والمجاهدة في سبيله.

قال الزجَّاج: أعلَمَ اللهُ قصَّةَ قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صَبَروا على أن أُحرقوا بالنار في الله جل شأنه[2].

والخدُّ في الأرض: الشَّقُّ. وجملة ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ تشنيعٌ جارٍ بمقتضى ما هو المعروف في لغة التَّخاطُب، وهي كنايةٌ عن قُبح حالهم، وأنهم بلغوا معه مبلغاً لا يستحقُّون معه أن يبقوا أحياءً، أي: أُخذوا بذنوبهم ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) وفي هذه الآية تشنيعٌ على الكافرين، وإغراءٌ للمؤمنين من أهل مكة أن يعتبروا بهؤلاء المؤمنين. ويجوز أن يكون الجواب المحذوف إثبات اليوم الآخر، والتقدير: إنَّ عذاب ربك لواقع، إذ يلمع إليه التشنيع ويُومئ للقدرة على مفهوم القسم. وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ نعيٌ عليهم ووعيدٌ لهم بذلك اليوم المهول، الذي يُجازَى فيه الظالمون جزاءً شديداً. (المؤلف).

(٢) «التفسير الوسيط» للواحدي (٤: ٤٦١).

وأصحاب الأخدود: قوم كافرون ذَوُو بأس وقوة، أصابوا قوماً مؤمنين غاظهم إيمانهم، فحَمَلوهم على الكفر، وأكرهوهم أن يرتدّوا إليه، فأبوا، فشقّوا لهم شقاً في الأرض، وحَشَوْه بالنار، وجاؤوا بالمؤمنين واحداً واحداً، وألقوهم فيها، وهؤلاء القُساة قُعودٌ على جوانب الشقّ، يُشاهِدونَ احتراقَ الأجساد الحيَّة، وما تفعل بها النار.

قال الأستاذ الإمام: أما تعيين أصحاب الأخدود، وأنّى كانوا؟ ومن هم أُولئك المؤمنون؟ وأين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كَثُرت فيه الروايات، والأشهر أنَّ المؤمنين كانوا نصارى نَجْران عندما كان دينهم دين توحيد، ليس فيه حَدَثٌ ولا بدعة، وأن الكافرين كانوا أُمراء اليمن، أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية.

وقد توعَّدهم على عملهم هذا بما فيه تعنيف لهم، فقال: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] والتعرُّض لهذه الأوصاف فيه إيذانٌ بالتهديد الرهيب، ودلالةٌ على أنه لا مَفَرَّ لأولئك الظالمين من سلطانه، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ فلا تخفى عليه خافيةٌ من أعمالهم، وسيُجازيهم عليها جَزاءً وِفاقاً.

ثم زادهم وعيداً بهذا البيان العام الشامل لصناديد قريش، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أي: وما علموا فيهم عَيْباً، ولا كرهوا منهم وأنكروا من أحوالهم إلا إيمانهم بالله القويِّ الغالب القاهر الذي لا يُغالب ولا يُدافع، المحمود الذي يستحقُّ أن يُحمَدَ ويُثنى عليه، وهو أهلٌ لذلك، والحامد الذي يحمدُ عبادَهُ على ما يكون منهم ممَّا يستحقُّ الحمد، وهو بعزَّته سينتقم من المجرمين الجبَّارين، وبمقتضى كونِه محموداً بصفاته العليّة، وحامداً لمُستحقّي الحمد من عباده، سَيُثيبُ عبادَه المؤمنين الصابرين على ما نالهم من اضْطهاد بأيدي الطغاة المجرمين. الذي له ـ وحدَهُ ـ مُلك السموات والأرض، المُتصرِّف بكلِّ ما يملك، فهو المُسْتَحِقُّ للعبادة.

﴿فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: بَلَوْهُم بالأذى، وامتحنوهم بالتعذيب؛ لِيَرُدُّوهم عن دينهم، ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ من كفرهم الذي أدَّى بهم إلى فتنة المؤمنين، ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[1] وهذا العطف المبنيُّ على تغاير الوصفين أتى به للزيادة في التهويل والمبالغة في التَّحسيس. والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات: هم الضَّالُّون من كلِّ قوم، الذين يُؤْذون أهل الحق والدعاة إليه، حرصاً على ما أَلِفوا من الباطل، ومنهم كفار قريش، ففيه تعريضٌ بهم.

ثم أردَفَ ما سجَّل به للكافرين من المصير، بما سيكون للمؤمنين من المصير، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. ثم نوَّه بشأن هذا المصير، تحسيساً للكافرين، وترغيباً للمؤمنين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ الذي يَصْغُر معه نعيمُ الدنيا وما فيها من الرغائب.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم عقَّب السياق بتعظيم أمر الله عزَّ وجلّ، فيما فيه وعيدٌ لأعدائه، وتسليةٌ لأوليائه، فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) أي: لهم أنواع العذاب المختلفة في جهنَّم، ولهم عذابُ الحريقِ بمباشرة النار لأجسادهم. وإنما ذَكَرَ الحريق وهو مفهوم من عذاب جهنَّم، ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود. ولكن أين حريق من حريق؟ فحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق، وحريق الدنيا لحظات تنتهي، وحريق الآخرة آمادٌ لا نهاية لها، ومع حريق الدنيا رضا الله عن المؤمنين، ومع حريق الآخرة غضب الله على الكافرين.

ثم أيّد تحقيق هذا الوعيد بالبرهان على سَعَة قدرته، وعلى إعادته للإنسان، فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ وذلك ظاهر في النبات، فإنه يُعاد إنباتُه في كل سنة. وكذلك البشر فإنه سبحانه يخلقهم أولاً في الدنيا، ويعيدهم في الآخرة.

وقال ابن عباس: يُبدئ العذاب في الدنيا، ويُعيدُه في الآخرة[١].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾[٢] لمن يرجع إليه بالتوبة، فقد جاء في الحديث: «إنَّ الله سبحانه أفرَحُ بتوبة عَبْده من العقيم الوالد، والضالِّ الواجد، والظمآن الوارد»[٣]. وقال مجاهد: يودُّ أولياءَه ويُحبُّهم. وقال الأزهريّ: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾: فَعُولٌ بمعنى مفعول، ومعناه: أنَّ عباده الصالحين يودُّونه ويحبُّونه، لِـمَا عرفوا من فضله وكرمه[٤].

وهو ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العَظَمة والسلطان[٥]، وهو ﴿ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ أي: الرفيع السَّامي، وأصل المَجْد في كلام العرب: الشرف الواسع.

وهو تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ فلا يُعجزه إهلاكُ الجاحدين، ونَصْر المؤمنين.

ثم تابع وعيدَ الكافرين وتَسْليةَ المؤمنين، فذكَّرهم بخبر الجموع الكافرة، وما فعل بهم، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ وأُولي البأس من الأشدّاء الأقوياء، مثل

---

(١) «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (١٠: ١٧٥).

(٢) ﴿ٱلْوَدُودُ﴾: المُتحبِّبُ إلى عباده؛ بإسباغ النِّعم، ودوام العافية. «ياقوتة الصِّراط» لغلام ثعلب، ص٥٩٠، بتحقيقي.

(٣) رواه ابن عساكر في «أماليه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، كما في «الجامع الصغير» للسيوطي (١٠١٠٤).

(٤) «التفسير الوسيط» للواحدي (٤: ٤٦٢).

(٥) هذا لازم المعنى ونتيجته، فالعرشُ أعظمُ مخلوقات الله تعالى، وقد خلقه الله تعالى إظهاراً لقدرته، ودليلاً على قَهْوه وعظيم سلطانه.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ وقومه، ﴿وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ وأبطالها، فقد كانوا أشدَّ بأساً وأعظمَ قوةً من قومك، ومع ذلك فقد أخذهم الله بذنوبهم أخْذَ عزيزٍ مُقْتدر.

ثم أضربَ إلى بيان حقيقة أمر المُكذِّبين، وأنَّهم في غَمْرةٍ من التكذيب، لم تترك لعقلهم مجالاً للنظر في أمر مَنْ سبقهم من المُكذِّبين، وسَبَك ذلك على الوعيد أيضاً، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ فلا يَنْجون من بأس الله.

ثم أردَفَ كفرَهُم وتكذيبَهُم لمقرَّرات هذا القرآن، بالإضراب إلى بيان الحق فيه، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ اللوح المحفوظ شيءٌ أودَعَ الله فيه كتابَه، ولم يُعرِّفنا حقيقتَه(١).

---

(١) نعم، لكنْ مثلُ هذه العبارات قد يُستَنَدُ إليها في نفي الحقيقة وحَمْل اللفظ على المجاز أو الكناية، فلا بُدَّ من تقييدها، فنقول: إنه سبحانه لم يُعرِّفنا حقيقته وماهيته، لكنه أخبرنا أنه لوح، فنثبتُه على أنه لوحٌ حقيقةً، من غير أن نعرف ماهية هذا اللوح، ولا نقول مثلاً: إنه كناية عن العلم.
واللوح المحفوظ: هو الكتاب الذي كتبَ الله فيه مقاديرَ الخلق قبلَ أن يَخلقهم. وسُمِّي محفوظاً لأنه محفوظ عن الزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير، أو لأنه محفوظ عن الاطِّلاع عليه إلّا لِـمَن أطلعَه الله سبحانه.
قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: ٧٠].
قال ابن عطية: هو اللوح المحفوظ.
وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢] قال القرطبي: يعني اللوح المحفوظ.
وقد روى البخاري في «صحيحه» (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين ـ الطويل ـ وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكْر كل شيء، وخلق السموات والأرض». =

وقال ابن الجوزي: إنَّ هذه العبارة من جملة العبارات التي يُعبّر بها القرآن لتحقيق الثبوت في الأذهان، بصورة تتناسب مع تصوُّرات الإنسان. فالمراد بها: تحقُّق كون القرآن شيئاً ثابت المجيء منه تعالى.

ومن هذا ما جاءَ من مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فالمراد بهذا التعبير: تحقُّق وجود الله سبحانه وسلطانه القاهر، وكذلك قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، فالمراد به: الردُّ على المتقوِّلين بصورةٍ تَتَناسب مع تصوُّرات الإنسان، وتماشي التعابير العرفية التخاطبيَّة، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: عظمته وسلطانه. والله أعلم.

* * *

= قال الحافظ ابن حجر: أن المراد بالذكر هنا: هو اللوح المحفوظ. وينظر ما تقدَّم تعليقُه في تفسير الآية ٥٩ من سورة الأنعام.

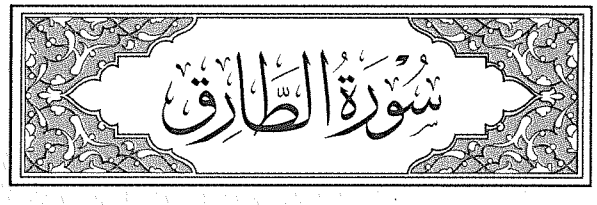

مكيَّة، وهي سبع عشرة آية

والغرض منها:

إثبات حفظ الأعمال لكلِّ نفس، وما يتبع ذلك من حساب وثواب أو عقاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ قال الأستاذ الإمام: يُقسِمُ سبحانه بالسماء، وهو كل ما علانا، فهو قَسَمٌ بالعالم العلويِّ وما فيه، ثم خصَّ بعض ما في ذلك العالم السماوي، وأقسم بالطارق، والطارق: كلُّ ما أتاك ليلاً، ولـمّا كان اللفظ عاماً والمُقسَمُ به كائن مُعيَّن وشيءٌ خاصّ ممَّا يصدق عليه الطارق، بيّن ما قصده منه بعبارة تدلُّ على تعظيمِ أمره وتفخيم شأنه، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ وهو الذي يثقب ضوؤه الظلام، كأنَّ الظلام جلدٌ أسود، والنجم يثقبه، وإنما عظَّم الله أمره لِـمَا فيه من الهدايةِ الحسيَّة والمعنويَّـة، والشؤون الأخرى التي يعلمها الله ويعلمها الراسخون في علوم أسراره في خليقته. وإنما سُمِّي النجم الثاقب بالطارق؛ لأنه لا يظهر إلا ليلاً، وضوء الشمس يخفيه.

أما المُقسَمُ عليه فقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾[1] قال المفسِّرون: أي: من الملائكة، يحفظ فِعلَها وقولها.

---

(١) قال غلام ثعلب في «الياقوتة» ص ٥٩١: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] معناه: ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ.

وقال الأستاذ الإمام: المعنى: أنَّ كلَّ نفس عليها حافظٌ ورقيبٌ يُراقبها في جميع أطوار وجودها، حتى تنتهي إلى أجلها، وذلك الحافظ الرقيب هو الله[1].

ووَجْهُ المناسبة بين الـمُقسَم به والـمُقْسَم عليه: هو المراقبة عليها بكلِّ دقَّة في السَّيْر والعمل.

ولـمّا كان المُقْسَم عليه يَتَضمَّن البعث والحساب ويلمع إليه، زاد في الاستدلال عليه والتـأكيد له بقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ[2] ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ

---

(١) الصواب في تفسير هذه الآية: أنَّ المراد بالحافظ الملائكة، كما روي عن ابن عباس: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ إلا عليها حافظٌ من الملائكة، وإسنادُه صحيحٌ كما قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦: ٣٦٥).

وفي «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزّي (٢: ٤٧١): ومعناه عند الجمهور: أنّ كلَّ نفس من بني آدم عليها حافظ يكتب أعمالها، يعني: الملائكة الحفَظَة. انتهى.

ولا مانع من إطلاق الحفظ على الـملائكة، فقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤: ٤٣٧): أنهم أربعة بالليل وأربعة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الحسنات والسيئات، واثنان من ورائه وأمامه يحرسانه. انتهى.

وقال ابنُ رجب في «جامع العلوم والحكم» (١: ٤٦٥): قال ابنُ عباس: هم الملائكةُ يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القَدَرَ خَلَّوا عنه. وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنّ مع كلِّ رجل مَلَكَين يحفظانه ممّا لم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَرُ خَلَّيا بينه وبينه، وإن الأجل جُنّة حصينة. وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله مَلَكٌ يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال له: وراءك، إلا شيئاً أذِنَ اللهُ فيه، فيُصيبه.

(٢) قال غلام ثعلب في «الياقوتة» ص ٥٩١ بتحقيقي: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ في معنى مدفوق، وهو =

﴿بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ والصُّلب: عَظْمُ فِقارِ الظهر، والترائب: موضع القلادة من الصَّدر.

قال الأستاذ الإمام: كنَّى بالصُّلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة، أي: أنَّ ذلك الماء الدافق إنما يكون مادةً لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة. أي: فَلْيتدبَّر ذلك ليصل إلى أنَّ الذي أنشأه بهذا الكمال في ماءٍ دافق، قادر على أن يعيده تارة أُخرى بعد الموت ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾.

وبعد أن أقام الدليل على صحَّة القول بالبعث، وَصَفَ حالَ الإنسان في ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ أي: يوم يُختَبَر ويُتصفَّح ما خفيَ من أعمال الإنسان، ويظهر الطيِّب والخبيث، وتنقلب كل خفيَّة إلى جَهْر، ويكون الحساب والعقاب، ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ حينئذ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ على الإفلات مما قُدِّر له، جزاءً لعمله، ﴿وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ يحميه مما حُتم عليه.

وقال أبو مسلم: بلوت: يقع على إظهار الشيء وعلى امتحانه، والظاهر أنها هنا بمعنى: الإظهار.

ثم زاد في قضية البعث بياناً، فأتبع السياق السابق بسياقٍ لاحقٍ يدلُّ على صحَّة القول بها أيضاً، لأنه يشبهها من حيث الإعادة والرَّجْعة، وذكر ذلك بصورة القَسَم، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾ أي: ذات الحركات الترددُّيَّة ذهاباً وإياباً التي تحدث من حركات الأجرام في أفلاكها المستديرة. وقال الزجَّاج: الرَّجْع: المطر لأنه يجيء ويتكرَّر[1].

= ممَّا جاء على لفظ الفاعل وهو مفعول به، ومثله: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١، القارعة: ٧] أي: مرضيَّة.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٥١٢).

أقول: ويجوز أن تشير كلمة ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ إلى الدورة المائيَّة، حيث ينزل المطر من السَّحاب، ويتَّخذ الماءُ مَسَالك في الأرض، وبعد أن يتجمَّع يخرج منها ينابيع تتكوَّن أنهاراً، وتعود إلى البحار، ثم تَتَبخَّر ثانية وتكون سحاباً، وهكذا دواليك. ولا شك أنَّ بين هذه الدورة وبين الإعادة بالبعث دقَّةَ مناسبةٍ وتنويراً، وفيها من القدرة ما يُبصِّر بهَوْن أمر البعث في جانب قدرة الله[1].

ثم تابع المعنى بقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ والصَّدْع: النبات؛ لأنه يَصدَع الأرض، أي: يشقُّها فتحيا بعد موتها، ثم تخفى وتحيا في السنة الثانية، وهكذا[2]. ولا شكّ أنَّ بينه وبين البعث مناسبةً وتماثلاً، فلذلك يُقسِمُ سبحانه وتعالى بهاتين الآيتين الكونيتين على وقوع البعث وصحَّة القول به، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القول بالبعث والمعاد ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾ أي: حقٌّ واضح لا مجال للرَّيْب فيه.

ثم توعَّد المكذِّبين المعارضين، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾ في السَّعي لإبطال الحقِّ وإطفاء نوره بزَعْمِهم، ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ أي: أُدبِّر لهم عاقبة كَيْدهم ليعُودَ وبالُه عليهم، وإسنادُ الكيدِ إلى الله للمُشاكَلة، والمراد به لازمه، بمعنى: أنه سيعودُ عليهم وَبَالُ كيدهم لا محالة، ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولا تستعجل لهم.

---

(١) والمعنى: والسماءِ القريبة المحيطة بالأرض بغلافها الغازي ذات الإرجاع المُتكرِّر لما يصعد إليها من المياه المُتبخِّرة، فتُرجعها إلى الأرض ماءً حلواً، أو ثلجاً، أو بَرَداً، لسُقْيا الناس والدوابّ، ولإحياء الأرض بالنباتات المختلفة، كما أنَّ السماء تُرجعُ قسم الأشعة الكونيَّة المؤذية بعدم السماحِ لها بالنفوذ في الغلاف الجويِّ في الأرض.

(٢) ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾: أصله الشقُّ في الشيء الجامد، أي: الأرض ذات الشَّق، تنشقُّ عن النبات والأشجار والأنهار، وكنوز الأرض من المعادن وغيرها.

ثم بيَّن أن ذلك الإمهال لا يطول، وسَبَكه على الوعيد، فقال: ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا ۝١٧﴾[1] أي: قليلاً.

وقد كرَّر وخالف بين اللفظين للمبالغة في التثبيت والتسكين، وفيه وعيدٌ شديد لهم بأن ما يُصيبُهم سيكون قريباً، سواء كان في الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت.

❊ ❊ ❊

(١) ﴿رُوَيۡدًا﴾: مصغَّر (رُوْد) بوزن عُوْد، وهو التمهُّل. تقول العرب: فلان يمشي على رُود، أي: على مهل، ويُصغِّرونه على رُوَيْد كما هنا. فهو اسم مصدر لـ«أمهل» من معناه. كما تقول: اجلس قعوداً. فالمعنى: أمهلهم إمهالاً خاصاً. وهو القليل.

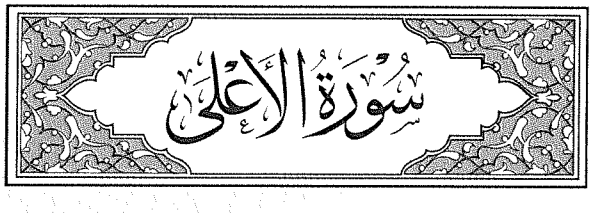

مكيَّة، وهي تسع عشرة آية

نزلت في أوائل ما نزل من السُّور، وكانت كالمنهاج لأمر الدعوة، وتقسيمه إلى أقسام:

منها تنزيهُ الله عمَّـا لا يليق به من الشِّرك ونحوه.

وإنزال القرآن ليكون أصلاً للدعوة والهداية إلى الشريعة اليُسْرى الصَّالحةِ لجميع الناس.

والترغيب بالتمسُّك بها، والترهيب من الإعراض عنها.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝١٣﴾.

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ قال الأستاذ الإمام: اسمُ الله ـ في مثل هذه الآية ـ: هو ما يُعرف به. والله سبحانه إنما يُعرف بصفاته، فلا تعرفه أذهاننا إلا بأنه العالم القادر الحكيم، إلى آخر ما دلَّنا عليه النظر في خلقه، وهدانا الوجدان السليم في وَصْفِه. والله سبحانه يأمرنا بتسبيح هذا الاسم، أي: بتنزيهه عن أن يكون فيه ما لا يليق به من شَبَهِ المخلوقات.

ثمَّ وصفه بهذه الصفات التي تقوم دليلاً على وجوب هذا التنزيه، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢﴾ أي: خلق الكائنات على كيفيَّة تامَّة ونظامٍ كامل لا اضطراب فيه ولا اختلال، ولا نقص ولا انحلال، كما تراه فيما يظهر لك من خَلْق السَّماوات والأرض وما فيهما، حتى كانت تلك المخلوقاتُ على اختلاف أنواعها مؤديةً للأغراض التي خُلِقَت لأجلها على أحسن حال وأكمله، ولم يشذَّ من ذلك إلا الإنسان، كما قال تعالى في آخر سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ

أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] أي: خانـها[1]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٤ - ٦].

ثم أكمل البيان سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ أي: قـدَّر لكلِّ حيٍّ ما يُصْلحه مُدَّة بقائه، وهَداهُ إليه، وعرَّفه وَجْهَ الانتفاع بما فيه مصلحةٌ له ومنفعة، ووَجْهَ

(١) لا يصحّ تفسيرُ حمل الإنسان للأمانة بالخيانة، ومعنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٤٢٧: «إنَّا عَرَضْنَا الأمانة التي ائْتَمنَ الله عليها الـمُكلَّفين، بأن يَعبروا رحلةَ امتحانِهم في الحياة الدنيا، وهم يحملون الإرادة الحرَّة، وقُدْرات الإدراك والفهم، على أنْ تُسخَّر لهم بخَلْق الله الأشياء والقوى في ذات أنفسهم، وفي الكون من حولهم؛ ليُمتحنوا في ظروف الحياة الدنيا، بالإيمان والإسلام والعبادة، فَمَنْ كفر بالله كان مصيرُه إلى الخلود في النار، ومَنْ آمن وكسب في إيمـانه خيراً، كان مصيرُه إلى الخلود في جنات النعيم.

عرضنا تلك الأمانة على السَّموات والأرض والجبال، وكان العرضُ عليهنَّ تخييراً لا إلزاماً، فَأَبت السَّمواتُ والأرضُ والجبال رغم كِبَرها وضخامَتها من حَمْل هذه الأمانة، بل خِفْن من حَمْلها، بعد أنْ أعطاهنَّ الله القُدرة على إدراكها، إذ لا تملك استعداداً فطرياً لحَمْل الأمانة، لأنها لا تملك إرادة حرَّة حتى تُختبر أمانتُها وخيانتُها، وحَمَلها الإنسان؛ لأنه يحمل الاستعداد الفطريَّ الكامل لحَمْل الأمانة؛ بما منحه الله سبحانه من خصائص التفكير والعقل ومعرفة صفات الأشياء، والإرادةِ الحُرَّة، ممَّا يستطيع التصرُّف فيه بفعل الخير أو بفعل الشر.

وإذْ وضع الله هذه الخصائص أمانة تحت يده، وضع له منهاجاً يسير عليه، فإذا استعمل الإنسانُ ما استودع الله إرادتَه من قوى وطاقات، في طاعة الله، وفيما أَذِنَ له به، فإنه يُثبت أنه صاحب أمانة، أما إذا استعملَها فيما لا يُرضي الله، أو فيما فيه ظلم أو عدوان على أحدٍ من خلق الله، فهو خائنٌ فيما اسْتأمنه الله عليه، وجعله وديعةً عنده؛ إنَّه كان ظلوماً لنفسِه لكثرة خيانته للأمانة، وعدوانه على حقوقها، استجابةً لأهوائه وشهواته، ووساوس الشياطين، جهولاً بأمر ربِّه، لم يَتَبصَّر بعواقب ظلمه، ولم يحسب حساباً لمسؤوليَّته، ولم يَخْشَ عقابَ ربِّه، كما هو الـمُشَاهَدُ في وصف معظم الناس».

الهرب مما يخشى غائلتَه، ومن هذين الأمرين قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٨].

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ أخضَرَ غضّاً طريّاً، ثم أيبَسَه، ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ أي: هشيماً أصفَرَ مُشرَباً بشيءٍ من الحُمْرة والسواد، فهو مَهْديٌّ بطبيعته إلى ما يُراد منه وينتهي إليه.

وفي هذا البيان إلفاتُ النظر إلى أنَّ سائر المخلوقات الماديَّة المخلوقة للفناء لا للبقاء لها نهاية وخراب، كما في هذا المَرْعى الذي كان أخضَرَ نَضِراً، ثم آل أمرُه إلى هذا الهشيم اليابس الأحوى، وفيه أيضاً دليل القدرة على تبديل الأجسام من أوضاع إلى أوضاع مباينةٍ للأولى، وإيماءٌ إلى قدرة الله سبحانه على البعث والنُّشور، وأنها أطوار بعد أطوار متسلسلة.

وبعد أن بيَّن سبحانه أنَّ هدايتَه عامَّة لكافَّة مخلوقاته، وَعَدَ نبيَّهُ ﷺ بأن سيُقرِئُه ما يحتاج إليه البشر من أنواع الهداية، مُلمِعاً إلى أنَّ هداية الحيوان طبيعيَّة، وهداية الإنسان نوعان: طبيعيَّة ودراسيَّة بواسطة الأنبياء، لِـمَا له من الروح والعقل والإدراك، فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ أي: سنُقرئك ونُطلِعُك على ذلك بحيث لا تنساه، أي: محفوظ من النسيان. وهو على حدِّ قولهم: سأكسوك فلا تَعْرى. فهو وعدٌ من الله سبحانه لرسوله ﷺ بهدايته لتلقِّي الوحي وحفظِ القرآن الذي هو هُدىً للعالمين، وبتوفيقه لهداية الناس به حتى يكونوا مؤمنين.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ في ذلك إتقاناً وتسديداً، كما في سائر أعماله تعالى.

وفيه إيذانٌ بأنَّ القرآن محفوظٌ مَضْبوطٌ ليس فيه نقصٌ ولا تبديل، كما أنزله ربُّ العالمين، فللإيماء إلى كُلِّ ذلك عَقَّبَ الإقراء مع الإتقان ومراقبة النسيان بسَعَة علمه تعالى.

وبعد أنْ عقَّب على هذا التأييد القطعي باستثناء المشيئة، على نهج القرآن بالتعقيب على التأييدات والقطعيَّات باستثناء المشيئة، لا لإفادة نقضها كما يوهمه الظاهر، بل لإفادة أنَّ ذلك القطع والتأبيد مبنيٌّ على النواميس التي شاءَها الله، بحسب الحكمة البالغة، ولو كانت الحكمة في غير ذلك لشاءَ ما به الحكمة، فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يكون إلا ما شاءَ الله، بمعنى: لا يكون إلا ذلك، مع إرشاد إلى التفويض لأنه قد شاءَه الله، ولا يكون إلا ما شاء الله.

فمُؤدَّى هذا الاستثناء الجزْمُ بما قبله، والإشارةُ إلى أنَّ مشيئتَه تعالى لا يُعارضها أمر ولا نظام. وقالوا: إنّ هذا كما يقول الرجل لصاحبه: أنت شريكي فيما أملك إلا ما شاءَ الله، وهو لا يقصد استثناء شيء.

ثم أكَّد الوعد وقـرَّره بمضمون قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾ أي: إنَّ الذي وَعَدك ـ بأن سيُقْرئُك ويُحفِّظك ما تقرأ فلا تنساه ـ عالمٌ بالجهر والسرّ، فلا يفوتُه شيءٌ مما يكون في نفسك، فهو مُطَّلع على معلوماتك، ما تقرؤه منها وما تُدركه، ويراقبها فيك، فلا يدخلها خَلَل ولا نقصان، ولا غَلَط ولا نسيان. يُلمع بذلك إلى أنَّ ما جاءَنا به من الشريعة، أمرٌ محفوظ مضبوط.

ثم عطف على قوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، قولَه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ أي: نُوفِّقك بذلك الإقراء للشريعة السَّمْحة التي يسهل على النفوس قَبولها، ولا يَصْعُبُ عليها فهمُها، لأنها ملائمةٌ للعقل، وموافقةٌ للفطرة وللطبيعة في كلِّ شأن من شؤونها، ومُحقِّقةٌ للإنسانية من سائر وجوهها، وجالبةٌ للمصالح والمنافع على اختلاف أنواعها.

ويجوز أن يُراد باليُسْرى أيضاً: الهداية؛ لأنها موافقة لطبيعة الإنسان، والأمر الطبيعي يكون سهلاً، ومخالفُه ـ كالضلال ـ يكون صعباً؛ لأنه مرض يعاكس الطبيعة،

لذلك قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾[1] وهذا ليس بشرط، ولكنه تأسُّف على البشر، أُخرج مَخْرَجَ الشرط، والله أعلم، سيقَ تأنيباً وتقريعاً للبشر في إهمال القرآن، وتسليةً له ﷺ عمَّن لا يزيدُه التذكير إلا عُتُوّاً ونُفوراً.

ويجوز أن يكون المراد: المبالغة في الحثِّ على تفقيه المؤمن وتوسيع معلوماته، تـمشّياً مع قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، والله أعلم.

وقال الأستـاذ الإمام: وقد أشار بهذا الشـرط إلى ما عليه حال أهل البـاطل وجمودهم على ما ورثوه من آبائهم، وأنَّ الذكرى ربما لا تنجح فيهم، فهي تبكيتٌ لهم وتقريع، وليس هذا الشرط قَيْداً في الأمر، فقد أجمَعَ أهل الدين سلفهم وخلفهم على أنَّ الأمر بالتذكير عام، نفعت الذكرى أم لم تنفع[2]، وعملُـهُ ﷺ شاهدٌ على ذلك، ويؤيِّـده قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ فإنه يدلُّ على التذكيـر للصنفين معاً، إلا أنَّ الذكرى ستنفعُ الصنفَ الأول وهو الذي يخشى الله تعالى، ولا تنفع الصنف الثاني وهو الذي غلبه شقاؤه بتحريفه لطبيعته، وإعمائه لبصيرته، بمفاسد التربية وسوء القدوة، حتى انطبع على الباطل وجَـمَدَ عليه، فلا يرى ما يناقضه جديراً

---

(١) قال الإمام غـلام ثعلب في «الياقوتـة» ص ٥٩١، بتحقيقي: «﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ «إنْ»: في معنى: «قد»، وأخبرنا أبو عمر قال: أخبرني سلمة، عن الفراء، عن الكسائي قال: سمعت العرب تقول: إنْ قام زيد، قال: فظننته شرطاً، فسألتُهم، فقالوا: نريد: قد قام زيدٌ، وليس نريد: ما قام زيد».

(٢) أجمع الأصوليون على أنَّ القيد إذا كان لغرض خاصّ لا يكون له مفهوم مخالفة. ويجوز أن تكون جملة ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ جملةً اعتراضية سيقت للتـأسُّف على هؤلاء الأشقياء؛ إذ لا ينتفعون بالذكرى. والله أعلم. (المؤلف).

بالنظر والتفكير، وسيلقى من الله جزاءَه الذي ذكره في وَصْفه بقوله: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: لا يموت ميتةً يستريح بها، ولا يحيا حياةً يستفيد منها.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن أجمَلَ وعيدَ المُعرِضين الأشقياء، أشار إلى سعادة المتذكِّرين السعداء، وعبَّر عنهم بعمل من أعمالهم المؤدِّية إلى ذلك، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾[1] بتمسُّكه بما جاءَه من عند الله ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي: لاحظ اللهَ سبحانه وتعالى، وذكَرَ ما يعرفه منه فخشع. وعبَّر عن الخشوع بالصلاة، لأنه لبُّها والمقصود منها، وهي بدونه شَبَحٌ بلا روح. وقد يكون هذا الخشوع ضمن الصلاة.

ثم أضرَبَ عن بيان ما يؤدِّي إلى الفلاح والسعادة في الآخرة، إلى توبيخ هؤلاء الكَفَرة الذين لا يسلكون هذا الطريق، فقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ فتَسْعَون لتحصيل لذَّاتها الفانية، وتُعْرِضون عمَّا يؤدِّي إلى سعادةِ الآخرة الباقية. وقيل: بل هو التفاتٌ وعتابٌ للمؤمنين الذين يُؤْثرون الحياة الدنيا بصَرْف أكثر المواهب لها، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾؛ لأنَّ سعادتها خالدة، وسعادة الدنيا فانية، سريعة الزوال، فالآية تنبيهٌ وبيانٌ لخطأ المؤمنين في ذلك.

قال الأستاذ الإمام: ثم أراد الله سبحانه أن يؤيِّد الحقَّ الذي يُوحيه إلى نبيِّه بإثبات أنه هو بعينه الحق الذي ذُكر في صُحُف إبراهيم وموسى، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ

---

(١) أي: قد فاز وظفرَ بالمقصود، ونجا من المكروه؛ مَنْ تطهَّر من رِجْس الشِّرك والمعاصي بالإيمان والعمل الصالح، ونمَّى نفسَه بالأعمال الصَّالحة.

﴿ٱلْأُولَىٰ (١) (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (٢) (١٩)﴾ فدينُ الله واحد، وإنما تختلف صُوَرُه وتتعدَّد مظاهرُه، فإذا كان المُخاطَبون قد آمنوا بإبراهيم وموسى، فعليهم أن يؤمنوا بمحمَّد؛ لأنه لم يأتِ إلا بما جاء في صُحُفهم، وإنما هو مُذكِّرٌ لهم بما أعرضوا عنه من شرعهم، أو مُحيٍ لِـمَا أماتوا منه، أو مُصحِّحٌ لِـمَا عَبَثوا به.

وقد روي عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه سأل رسول الله ﷺ: «كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: مئة وأربعة كتب؛ على آدم عشرَ صحف، وعلى شيثٍ خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان»(٣).

أقول: فيكون قوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ تغليباً للفظ الصُّحُف على الكتاب؛ لأسبقيَّتها في الزمن.

* * *

(١) أي: القديمة المُنزّلة قبل القرآن. وصحف موسى غير التوراة؛ إذ أنزل على موسى عليه السلام عشر صحف قبل التوراة.

(٢) وقد ذكر سبحانه أشياء من صُحف إبراهيم وموسى في ثماني عشرة آية من سورة النجم، من الآية ٣٦ إلى الآية ٥٤، من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾، إلى قوله سبحانه: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه بنحو هذا اللفظ (٢: ٧٦)، وذكره الرازي في «تفسيره» (٣١: ١٣٧).

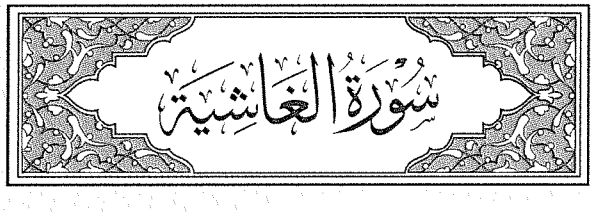

مكيَّة، وهي ست وعشرون آية

الغرضُ منها:

إجمالُ صورة الثواب والعقاب في الآخرة، ثم تفصيلُه بعض التفصيل، ترغيباً وترهيباً.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ أي: الداهية التي تَغْشىٰ الناسَ بشدائدها، وتَغمُرُهم أهوالها، والمراد منها: يوم القيامة. والمعنى: هل سمعت قصَّة يوم القيامة وما يقع فيها؟ والاستفهام لتعظيم الأمر وتهويله[1].

وقد بيَّن بعض مظاهر ذلك بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ أي: يظهرُ عليها الذلّ والخزْيُ النازل بأصحابها، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ أي: عملت في الدنيا ونَصِبَت، ولم تستفد من عملها سوى نَصَبِها، فأثرُ الخيبة وحبوط العمل ظاهرٌ عليها، فهي ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾[2] و﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ أي: شديدة الحرارة، من قولهم: أَنى الماءُ يأنى؛ إذا سخن وبلغ في الحرارة غايتها.

والمعنى: أنَّ أهل النار إذا عطشوا عطشهم الخاصّ بهم في تلك الدار، وطلبوا ما يُطفئ لَـهَبَ ظمئهم، جيءَ لهم بما لا يُطفئ لهباً، ولا ينقع غُلَّة، وإذا خَوَتْ بطونُهم وأحسُّوا من الجوع ما يدفعهم إلى طلب الطعام ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا

(١) قال غلام ثعلب في «ياقوتة الصراط» ص ٥٩٢: «﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي: قد أتاك».

(٢) أي: تذوق عذاب الاحتراق بنارٍ حاميةٍ شديدةِ الحرارة.

﴿يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾، وسمَّى الله ذلك الطعام بالضريع، تشبيهاً له به، وهو نَبْتٌ سيِّئُ المرعى يَنْبت في الحجاز، ويُسمَّى الشبرق أو الضريع.

وكلُّ ما في ذلك العالم الأُخروي إنما بينه وبين ما في عالمنا وجوهُ مشابهة لا وحدةُ مجانسة، وقد جاءَ في القرآن العظيم عن طعام أهل النار وشرابهم أنواع عديدة بعبارات مختلفة، وكلها مما يُصوِّر في أذهاننا بَشَاعتَه وخُبثَه؛ لتنفر منه نفوسنا، وتطلب كلَّ وسيلة للفرار منه، فتبعد بذلك عن العقائد الفاسدة والأعمال الخاسرة.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

وبعد أن ذكر شقاء الكافرين، ذكر سَعادة المؤمنين بطريقة المقابلة، على نهج القرآن، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ أي: ذات بهجة وحُسْن، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت مُنعَّمةً فَرِحةً بما لاقت من جزاء سعيها في الدنيا ـ اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين ـ فهي ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾ على ضدِّ ما عليه تلك العاملة الناصبة.

ثم فصَّل ما به ذلك الرضا، فقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾ الشأن ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾ أي: كلاماً لا يُعتدُّ به ولا شَتْماً، ولا فحشاً ولا باطلاً.

قال الأستاذ الإمام: وإنما عجَّل بهذا الوصف قبل إتمام البيان عن أنواع النَّعيم؛ لدفع ما يسبق إلى الأذهان عند ذكر الجنَّة ونعيمها من أحوال أهل التَّرف والمُولَعين بالشهوات من تمضيةِ الأوقات في اللهو والقول اللغو، ويجعلون ذلك من مُتمِّمات النعيم، فنَزَّه سبحانه وتعالى نعيمَ الجنة عن ذلك.

وفيه تنبيهٌ للمؤمنين إلى أنه لا يليق بهم أن يكونوا من أهل اللغو، مهما فاض عليهم النعيم، واتَّسعت لهم النعمة، بل ذلك مما ينـزَّهون عنه حتى إذا رفعت عنهم التكاليف، ووصلوا إلى فَضَاء الرحمة الذي لا سَخَط فيه ولا نقمة، فنعيمهم ينبغي أن يكون نعيم أهل الفضل والجدّ، لا نعيم أهل الجهل والحمق، فاعتَبِرْ بهذه الحكمة، ثم انظر كيف قدَّم من الأوصاف للجنَّـة وضروب نعيمها ما هو روحانيّ يليق بأرباب النفوس العالية والمقامات الرفيعة في العرفان وكمال الوجدان، فذكر الرِّضا بالسَّعي، ولذَّته فوق اللذائذ، فإنه لا لذَّة تفوقُ عند العامل لذَّة سروره بعمله، ثم أتبَعَه بالتنزُّه عن اللغو وما لا فائدة فيه، وهو أسْمى ما يَطلُبُ الكامل أن يحيا به.

ثم جاء بعد ذلك بما له شَبَهٌ باللذائذ الجسمانيَّة المعهودة لنا في هذه الحياة، فقال: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ وفي منظر الماء الجاري من مَسرَّة النفس ما هو معلوم، و﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ على مَقرُبة من العين الجارية، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ على جانب العين، يُشـرَبُ بها منها، ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ وهي الوسائد، ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ وهي البُسُطُ مطلقاً، وقيل: البُسُطُ التي فيها خمل. وكلُّ ذلك لتصوير النعمة والرَّفاهة واللذة، وإلا فنعيم تلك الدار الآخرة مما لا يشبهه في هذه الدار نعيم. اللهمَّ اجعَل لنا فيه نصيباً يا أرحم الراحمين.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

ولما كان الكلام مَسُوقاً من أوَّله لتقرير أُمور الآخرة، وما يكون من شأن الناس

يوم القيامة، وفي المُخاطَبين منكرونَ جاحدونَ أو مُقرُّونَ غافلون، أرادَ اللهُ إقامةَ الحُجَّة على أُولئك وتنبيهَ هؤلاء؛ بتوجيه نظرهم إلى آثار حِكَم الله وقُدرته فيما بين أيديهم، وما يقع تحت بَصَرِهم من المخلوقات، وإلفات المشركين من قريش إلى مظاهر الإبداع في مجتمعهم الصَّحراوي الساذج الذي يعيشون فيه، ودقَّة الحكمة في مخلوقات الله سبحانه ومُبْدَعاته، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾[1] وإنَّما تكلَّم عن الإبل؛ لأنها أفضل دوابِّ العرب وأعمّها لهم نفعاً، ولأنها على الحقيقة خَلْقٌ عجيب بأوضاعها وأحوالها وأعضائها.

ومن ذلك ما قاله عنها بعض علماء الحيوان: إنَّ سَنَام ظهر الجمل مُعين لكثرة الحَمْل عليه واحتماله للثقل، وأوصال ركبتيه وعراقيبه كبار صِلاب، وأوتارها وعروقها متينة شديدة، وعَصَبُه وثيق لم يشتد ليهون عليه البروك والنهوض بحِمْله، مع تسهيل الارتقاء عليه في ذلك.

وفي الجملة؛ إنَّ في تركيبها وطبيعتها ما أعدَّها لحمْل الأثقال إلى المكانات البعيدة، وانقيادها للضعيف والصغير مع عِظَمِ جسمها وقوّتها، وبروكها لتُحمَّلَ عن قُرْب ويُسْر، ثم تنهض بما تحمل، مع صبر على السَّيْر والعطش والجوع، ومع اكتفائها من المرعى بما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفيها غير ذلك من المزايا الصالحة للصحاري.

ومن عجيب أمرها: أنها تُبصِرُ الأشياء إذا أغمَضَت عينَها، وذلك أنها خُلقت لتكون صالحةً لاحتمال عواصف الرمال في الصحاري، فلها جفنان: جفن رقيق شفاف،

---

(١) لما ذكر الفرق بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين، فرَّع عليه ما يكون كالدليل له، ومحصَّله: أن الله سبحانه يعطي كل شيء ما يستحقه ويقتضيه، فكيف يجعل المجرمين كالمحسنين، والكافرين كالمؤمنين، ولا يعطي كل صنف ما يستحقه من نعيم وجحيم وسعادة وشقاء؟ والله تعالى أعلم. (المؤلف).

وجفن سميك، فإذا أسدَلَت الأول، وأطبَقَت الثاني قليلاً، أمكَنَها رؤية الأشياء كأنما تنظر بالمنظرة.

ثم قال: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ والمراد: تماسك ما فوقنا من شموس وأقمار ونجوم، وكلٌّ منها في مداره، لا يَخْتلُّ سَيْرُه، ولا يفسد نظامُه.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ من دون بقيَّة وَجْه الأرض، فكانت أوتاداً لها وموازنة لثقل أطرافها، وعَلَماً للسائر، وملجأً للحائر، وعبرةً للناظر.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ ولم تُجعَل كلُّها جبالاً وَعِـرة، وذلك لتصلح لسُكْنى الناس ولشؤونهم، والقرآن يستشهد بمثل هذا الاستشهاد؛ لأنه يصلح لسائر طبقات الناس، ويأخذ كلُّ واحد منهم بنصيب، حسب استعداده وقابليته في تهذيبه وثقافته وعلمه ودرايته.

قال الأستاذ الإمام: وإنما حَسُن ذِكرُ الجمال مع السماء والأرض والجبال؛ لأنَّ هذه الجملة من المخلوقات هي ما يقع تحت نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، فحَسُن أن ينتظمها الذِّكر كما انتظمها النظر. والمراد: أنَّ الله سبحانه كما خَلَق ذلك كلَّه والناس لا يعلمون طريقة خَلْقه، كذلك يُنشئ الله ما يُنشئ في اليوم الآخر مما لا يعرفون طريقة إنشائه، وإنما يَرَوْن ما يَرَوْن فيه كما يَرَوْن اليوم ما يَرَوْن من هذه المخلوقات، فإذا كان الأمر ظاهراً جلياً؛ وما هي إلا نظرة، فتهجم عليهم العِبرة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ لأنَّ الفطرة سائقة بنفسها إلى الاعتقاد بصانعٍ قادر، وهي مُيسِّرةٌ بذاتها إلى الإذعان بأنه قادرٌ على إنشائها في خلقٍ آخر ترى فيه شقاءً أو نعيماً، ولكن قد تَتحكَّم الغَفلات، وتَغْلب الأهواء، فتحتاج النفوس إلى مُذكِّر يُرُدُّها إلى ما كان عَسَاه تَنْساق إليه غرائزها، وهذه هي وظيفة الأنبياء، وقد قرَّرها بقوله:

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ليس في مقدرتك أن تجعلَ ذلك الاعتقاد فيهم إذا كانوا قد أفسدوا طبائعهم، وجَمَدوا على فسادها. وفي هذا تسليةٌ له ﷺ، على نهج القرآن في تسليته، إثرَ بيان جحود الجاحدين، وعناد المعاندين.

قال الأستاذ الإمام: وقد قال بعضُ المُولَعين بالنَّسخ: إنَّ هذه الآية نُسِخَت بآية الجهاد، كأنَّ الجهاد شُـرِعَ في الإسلام لقهر النفوس على الاعتقاد، وخفيَ عليهم أنَّ القهر لا يُحدِث إيمـاناً، وأنَّ الإكراه لا أثر له في الدين، وأن الجهاد ينقطع وجوبُه متى خضع المحارب لأداء الجزية، مع بقائه على دينه. والنبيُّ ﷺ ليس مُسيطراً على قلوبهم إنْ كان مُحارباً أو مُسالماً، فلا حاجة إلى القول بالنسخ.

ولما كان نفيُ السيطرة ربما يتبادر منه إلى بعض الأذهان أنَّ الناس مختارون في الإيمان والكفر، وحَبْلُ كلٍّ على غاربه؛ دَفَع ذلك بقوله: ﴿إِلَّا﴾ أنّ ﴿مَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرَض عن الذكرى المَسُوقة إليه ﴿وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: جَحَد الحقَّ المعروض عليه ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

ثم أكَّد هذا التسجيل بهذا التذييل، فقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي: رجوعَهم، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ فلا مَفَرَّ لهم ولا خلاص.

* * *

(١) أي: لكن من تولَّى مُدْبراً مبتعداً منهم عن التذكير والموعظة، وأصرَّ على كُفرِه بعناد، فيدخله الله يوم القيامة جهنَّم خالداً فيها أبداً، ويُعذِّبه فيها العذابَ الأكبر، وهو عذاب الحريق، الذي لا عذاب أكبر منه. فالعذاب الأكبر هو عذاب الآخرة. والأصغر: عذاب الدنيا بالقتل والأَسْر.

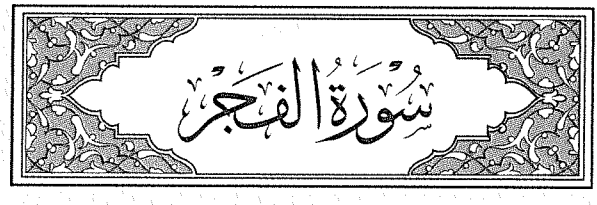

مكيَّة، وهي ثلاثون آية

والغرض منها:

إثباتُ البعث بدليل القدرة.

ثم إثبات العذاب للكافرين بالقَسَم والاستشهاد بالواقع.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ قال الأستاذ الإمام ما مُحَصَّلُه بتصرُّف: كَثُر خلاف المفسِّرين والرواة في معنى كلٍّ من «الفجر» «وليال عشر»، والمراد ـ والله أعلم ـ من الفجر: معناه العام، ومن الليالي العشر: ليال يَتَشابه حالُها مع حال الفجر من كلِّ شهر، وهي ما يكون ضوء القمر فيها مُطَارداً لظلام الليل.

أقول: والأظهر أنَّ المراد بالليالي العشر: الوسط من كلِّ شهر؛ لأن فيها إبداعاً في ضياء القمر، والتنكير للتعظيم[1].

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ أي: الزوج والفَرْد من هذه الليالي العشر، فهو يُقسِم بها

---

(١) المراد بالقَسَم بالفجر والليال العشر ـ كما رجَّحه شيخنا الميداني في تفسيره «معارج التفكر»: أقْسَمَ الله عزَّ وجلّ بالفجر، وهو الزمن المختار لإهلاك عادٍ قوم هود، وثمود قوم صالح، وفرعون وجنوده، والليالي العشر من أوَّل المحرَّم حتى العاشر، وهي مُدَّة مسير موسى عليه السلام بقومه حتى نَجَوْا وعَبَروا البحر إلى سيناء، ومدّةُ لحاق فرعونَ وجنودِهِ لهم، حتى هلكوا غرقاً.

على الجملة، ثم يُقسِم بما حَوَته من تباين مظاهر كلِّ زوج وفرد؛ ليلفتَ النظر إلى بداعة تدرُّج زيادةِ وَجْهِ القمر ونقصانه، وظهور تفاوته بين ليلة وليلة وهو الشفع، وزيادة ظهوره بين ليلة وليلتين وهو الوتر، والله أعلم.

ويجوز أن يُراد بالشفع: الليلة الرابعة عشرة منها، وبالوتر: الليلة الخامسة عشرة، فيكون الكلام تخصيصاً بعد التعميم، لامتيازهما من بين الليالي العشر بالكمال. والله أعلم[1].

وبعد أن أقسمَ بضروبٍ من أوقات الضياء أقسَمَ بالليل، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾[2] أي: ينتشر فيغطِّي المُبْصَرات، ويَخلِف النهار، يبتدئ سَرَيانه من المشرق بغروب الشمس، وينتهي في المغرب بشروق الشمس. ويتقدَّم الليلَ في سَرَيانه نحو الغرب ضوءُ الشفقِ الأبيضِ المُماثلُ للفجر في الضوء والزمن والمقابل له، إلا أنَّ الفرق بينهما أنَّ ضياء الفجر سابق للشمس، ويبدو ضئيلاً، ولا يزال يزداد في وضوحه كلما قربت الشمس حتى تبدو الحُمْرة، ثم تطلع الشمس. أما الشفق فهو لاحِقٌ للشمس، ويبتدئ بالأحمر، وهو بقيَّة أثر الشمس، ثم يخفىٰ ويبقىٰ الأبيض، ولا يزال يَضْؤُل حتى يزولَ عند العشاءِ ويعمَّ الظلام.

وكلُّ ما ذكر سبحانه في هذا القَسَم: أُمور عظيمة دالَّة على قدرة الله الجليلة، تُؤْذِنُ بأنَّ البعثَ في جانبها ليس بعزيز، وبأنه تعالى مُسْتَحِقٌّ وحدَه لأن يُعْبَد لاختصاصه بأفعال الألوهيَّة، ولذلك تُسمَّى مِثلُ هذه الأقسام بالأقسام الاستدلالية.

---

(١) المراد بالشفع والوتر: الأيام الشفع الثمانية، والليالي الوتر السبع، وهي المدّة التي أرسل الله عزَّ وجلّ فيها الريح الصَّرصر العاتية على عادٍ، فقطعت دابرهم.

(٢) المراد بالقسم بالليل في هذه السورة: والليل إذا يجري ويذهب بهدوء، وتعقبه أحداثُ الإهلاكِ العُظمى المدمِّره عند الفجر لمَن يريد الله إهلاكهم

ثم أردَفَ هذا القَسَمَ بتفخيمه وجلاء قدرته، زيادةً في التأكيد، فقال: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾[1] ذكر القَسَم وإرادة المُقْسَم عليه هو من خصائص اللغة. والحِجْر: العقل، أي: أمَا في مظاهر هذه القدرة البالغة ما يُقْنع مَنْ له عقلٌ وتفكير بأنَّ الله سبحانه قادرٌ على إعادة جسم الإنسان بعد الموت وحَشْره للحساب والجزاء، وأنه سبحانه هو الإله، ولا ربَّ سواه، وأنَّ الشرائع التي يُرسلها هي مثل هذه المظاهر في الإتقان، وما هي إلا لسعادةِ البشر ووقايته من الشقاء، ومَنْ أعرَضَ عنها وعارَضَ الرسل وَقَع في البلاء.

قال الرازي: وهذا الكلام كمَنْ ذكر حُجَّة باهرة، ثم قال: هل فيما ذكرتُه حُجَّة لمن يعقل[2]؟ يُفْخِّم أمرَها ويُقرِّر الحقَّ بها.

وجواب القَسَم محذوف، وهو تحقيقُ البعث وتقريرُه، ووعيدُ المُكذِّبين به على نهج السُّور السابقة، وقد أقام مقامه الاستفهام الاستشهادي، على نهج القرآن في مثله، وعرض بذلك لَوْحةً لشقاء المكذِّبين من جبابرة أهل الوبر، ثم لجبابرة أهل الحضر، ثم للعريقين في المدنية، نوَّر بها ما تضمَّنه السياق من وعيد المكذِّبين، وأثبته بالدليل الواقع، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ وتقدير الجواب: إن الحشر لواقع، وإني سأفعل بالمكذِّبين كما فعلتُ بعادٍ وثمود وقوم فرعون.

---

(١) أي: هل فيما ذكرت من الأزمنة التي جَرَت فيها هذه الأحداث، بحكمة الله وقدرته وعلمه مُكتفى في القَسَم لذي عقل يتدبَّر به ويتفكّر، ويعقل أهواءَه وشهواته؟ نعم، إنَّ من تفكَّر بعقل حصيف في هذه الأزمان التي أهلك الله بها الأمم السابقة، ووقعت بها هذه الأحداث العظمى، تؤكِّد صدق الخبر بحدوث أشباهها مُستقبلاً عند وجود المقتضيات المماثلات للمقْتضيات التي حدَثت بسببها الأحداث الماضية؛ لأنَّ سنَّة الله القائمة على حكمته سنَّةٌ دائمةٌ، لا تتغيَّر ولا تتبدَّل.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٥١).

و(عادٌ): جيل من العرب البائدة يلقب بـ(إرم)، وبقي مشهوراً عند العرب بذلك، ومعنى ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾: سكان الخيام الفخيمة ذات العماد الرفيعة، وقيل: ذات الأبنية الرفيعة، يكني بذلك عن الرفعة والقوة، وكانت منازل عاد بالرمال والأحقاف إلى حضرموت، وقد بلغت من الشدَّة والقوة مبلغاً لم يصل إليه سواها في عهدها، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام: ويروي بعضُ المفسِّرين حكايات في تصوير إرم ذات العماد، كان يجب أن يُنزَّه عنها كتاب الله. وقد بيَّن الله سبحانه في سور أُخرى من القرآن كيف فعل بعاد.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ و(ثمود): قبيلةٌ من العرب البائدة كذلك، وهي معروفة عند العرب باسمها، ومنزلها بالحِجْر بين الشام والحجاز، ومعنى ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾: قطعوا الصَّخرَ ونَحَتوه، كما قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، فقد أنعم الله عليهم بالقوَّة والعقل، حتى صَنَعوا لأنفسهم قصوراً فخمة من الصَّخر العظيم بواديهم الذي كانوا يقيمون فيه.

وقد يصحُّ ما قاله البعض من أن معنى ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾: إنهم قطعوا الصخر واتَّخذوا منه وادياً يخزنون فيه الماء لمنافعهم، ولا يفعل ذلك إلا أهل القوة والدراية والفهم من الأمم.

فالله سبحانه يُبصِّر بما كان من أمر عاد وثمود، ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ وفرعون: هو حاكم مصر الذي كان في عهد موسى عليه السلام.

وللمفسِّرين في كلمة «الأوتاد» اختلافٌ كبير، وأظهَرُ أقوالهم ملاءمةً للحقيقة: أنها المباني العظيمة الثابتة في مصر، وما أجمَلَ التعبيرَ عمَّا ترك المصريون من الأبنية الباقية

بالأوتاد، وهي الأهرام، ومنظرها في عين الرائي منظر الوتد المقلوب. ويجوز أن يكون تسميتُها بالأوتاد لاستقرارها وبقائها على الدهور الطويلة[١].

ثم بيَّن ما كانوا عليه من الأحوال التي اقتَضَت أخْذَهم بالعذاب، وكانت نتيجةً لعدم إيمانهم بالله وخوفهم منه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ أي: إنَّ كلَّ قوم من هذه الأقوام الثلاثة طغى في بلده. والطغيان: تجاوُزُ القَدْرِ المعروف في العمل أو غيره. والمراد منه: سُوء استعمال السلطان والقوة والخروج بها عن حدِّ القصد والاعتدال والإسراف في هَضْم الحقوق اغتراراً بعظم القدرة؛ إذ لا معنى لفساد شيء سوى اختلال نظامه وصورته.

ثم ذكر سبحانه ما جازاهم به عن تلك الأعمال، وقال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ والسَّوْط: لفظٌ شاع استعمالُه في الجِلْد المضفور الذي يُضرَبُ به، وإن كان في الأصل اسماً للخلط والمزج، وقد شبَّه بالسوط ما صبَّه عليهم من ضروب العذاب التي ذكرها في مواضع أُخرى من كتابه العزيز؛ لأنَّ السوط يُضرَبُ به في العقوبات. والصَّبُّ: الإنزال بشدَّة مع توالي الضربات.

---

(١) هذا التفسير ذكرَه بعضُ المعاصرين، ولا مانع منه، إلا أن المشهور عن السَّلَفِ الأولِ هو تفسيرُها بالجنود أو بالأوتاد التي يربط فرعون بها المُعذَّبين.

فقد جاء في «تفسير» الطبري (٢٤: ٤٠٩) وابن كثير (٨: ٣٩٧) وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الأوتاد: الجنود الذين كانوا يشدُّون أمره، وعلى ذلك فالمقصود بالأوتاد: أركان ملكه، وقال بعضهم: كان يربط الرجل في كل قائمة من قوائمه في وتد، ثم يرسل عليه صخرة عظيمة، فيشرخه بها.

وقال صاحبُ «الظلال» (٦: ٣٩٠٤): «وهي على الأرجح الأهراماتُ التي تشبه الأوتادَ الثابتة في الأرض المتينة البنيان، وفرعون المشار إليه هنا: فرعون موسى الطاغية الجبار».

ثم علَّل تعذيبهم بسبب طغيانهم وإفسادهم في أُمورهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ وهذا تأكيدٌ لجواب القَسَم المفهوم من سابق الكلام ولاحقه، وهو إثبات الحشر والحساب على ما سبق تقديره؛ لأن رَصْد الأعمال لا يكون إلا لذلك.

والكلام على التمثيل، بمعنى: أنه رقيبٌ على عباده لا يفوتُه من شؤونهم شيءٌ على أنه لا يريدُ منهم إلا أن يَسعَوا لمصلحتهم الدنيويَّة والأُخرويَّة.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام ما مُلَخَّصه: وبعد أن بيَّن شأنه تعالى في مراقبة أحوال الإنسان ورَصْدِه له، وطلب منه أن يسعى السَّعْيَ الصحيح للكمال، في الأقوال والأفعال، بيَّن شأنَ الإنسان وغَفْلته وسوءَ ظنِّه بربه، على طريقة وصف الجنس بصفة أكثر أفراده الذين أفسدوا طبيعتهم وحرَّفوا غريزتهم، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾[1] واختبره ليُظهِرَ ما لديه من شكر وكفر، ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ ظنَّ أنَّ الله قد اصْطَفاه

---

(١) بعد أن بيَّن سبحانه ما فعله بأولئك الضالِّين المكذِّبين، ذكر نوعاً من الضلال لأولئك الجهَّال، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ ظنَّ أنه قد رضي عنه، ولذلك رفع من شأنه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فقد رضي عني، ويتمادى في غيِّه وضلاله، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: قتَّره وضيَّقه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ وأهمل شأني، فهو لم يَرْضَ عنّي. فيجعل هذا الضال مقياس رضا الله: رَفْعَ شأنه وسَعَة رزقه، ومقياس سخط الله: خَفْضَ شأنه، وقلَّة رزقه، فردَّ الله سبحانه هذه العقيدة الضالَّة، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس هذا مقياس الرضا والغضب، ولكن المقياس تمسُّك الإنسان بالتعاليم الإلهية والعقيدة المرضية، وذكر شيئاً من طبيعة تلك التعاليم فقال: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ حتى تمنعون منه المستحقِّين، فإنهم لا يورثون المرأة والصغير، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ تجمعونه من حقٍّ وباطل. فتوعَّدهم على ذلك بقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...﴾. (المؤلف).

لذلك، ورفعه على من سواه، وجنَّبه منازل العقوبة، فيذهب مع هواه، فيفعل ما يشتهي ولا يبالي، أكان ما يصنع خيراً أم شراً، فيطغى ويُفسِدُ في الأرض. وقد عبَّر سبحانه عن ذلك الظنِّ الفاسد والغرور المُهلِك بقوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥﴾[1] أي: إن الله أكرمني بنعمته، ومَنْ يكرمه الله لا يُؤاخذه على عمل يعمله.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ وامتَحَنَه بالفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ وضيَّقه لِيُمَحِّص قلبَه بالإخلاص له، وليُظهِرَ قوة صبره، ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾ ومَنْ أهانه الله وصَغُرت قيمتُه عنده لم تكن له عناية بعمله، ولا يُؤاخذُه بما يصدر منه من شرّ، ولا يكافئه على ما يصنع من خير، فينطلق لذلك يكسب عيشه بأية وسيلة عنَّت له، ولا يقف عند حدّ، ولا تحجزه شريعة.

تلك هي حالة الإنسان الذي أفسد غريزتَه، وحرَّف طبيعتَه، فلم ينتفع بعقل سليم، ولم يستفد من دين صحيح قويم، أما الذين حافظوا على فِطَرِهم وغريزتهم التي أنعَمَ الله بها عليهم، فأُولئك الذين ترتقي إلى مثل حالهم مرتبةُ الإنسان، فيعلون إلى المقام الذي لا تذهلهم فيه القوة، ولا يشغلهم فيه الفقر عن مُراعاةِ الحدود المعروفة فيما هو حقٌّ لهم أو عليهم.

ولما كان بعض المُخاطَبين بهذه الآية من مُشرِكي قريش الذين يَزعُمون أنهم على شيء من دين إبراهيم، وأنهم مُصْطَفَونَ عند الله، ولذلك أمدَّهم بأموال وبنين، لـمَّا كان هؤلاء كذلك، وكان بعض المتمسِّكين بطرف من الدين ربما لا يعتقدون أنها تنطبق عليهم، لأنهم من الشاكرين الذاكرين والمتَّبعين لفضائل الدين الحنيف المُصْلح للنفوس؛

---

(١) بعد أن بيَّن سبحانه مراقبته أحوال الإنسان بمقتضى شرائعه التي أرسلها إليه، بيَّن جهله في إعراضه عن تلك الشرائع واعتماده على وَهْم أوحاه له خيالُه، وهو أنَّ الله سبحانه إذا أغناه فذلك دليل رضائه عنه، وإذا أفقره فذلك دليلُ غضبه عليه، فردَّ عليه ذلك. (المؤلف).

ردَّ عليهم سبحانه بما أقام من الدليل الواضح على كَذِب ما تُحدِّثهم به نفوسُهم، فقال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾[1] أي: لو كان غنيُّكم لم يُعْمِهِ الطغيان، وفقيرُكم لم يطمس بصيرتَه الهَوَان، وكنتم لا تزالون على الحال التي يرتقي إليها الإنسان؛ لشعرت نفوسكم بما عسى يقع فيه اليتيم، فعُنِيتُم بإكرامه، فإنَّ الذي يفقد أباه مُعرَّض لفساد طبيعته إذا أُهملت تربيتُه، ولم يُعامَل بما فيه إكرامه وما فيه رَفْعُ نفسه عن دنايا الأمور وسفاسفها، ولو كنتم على ما تُحدِّثكم به نفوسكم من الصَّلاح لكانت الشفقة تُحرِّك قلوبكم إلى التعاون على طعام المسكين الذي لا يجد ما يَقْتات به مع العجز عن تحصيله. وإنما ذكر التَّحاضّ على الطعام ولم يكتف بالإطعام، ليُصرِّح لك بالبيان الجليّ أنَّ أفراد الأمة متكافلون.

ثم تابع النقد بقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ أي: شديداً، بمعنى: أنكم تأكلون المال الذي يتركه مَنْ يُتوفّى منكم وتَشْتدُّون في أكله حتى تحرموا صاحب الحقِّ من حقِّه، كالمرأة والصغير، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ﴾ مطلقاً؛ ميراثاً أو غيرَه ﴿حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي: كثيراً، فشَرَهُكم إلى المال، ومَيْلُكُم إلى اللذّات، وانصرافُ أنفسكم إلى التَّمتُّع بها، ثم قسوةُ قلوبكم، وشَلَلُ وجدانكم إلى حدٍّ لا يألم لحال المسكين، ولا ينظر إلى ما تجرُّ إليه الاستهانة بشؤون اليتامى، من فساد أخلاقهم وتعطيل مواهبهم

---

(١) أقول: لما كان قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ ...﴾ متضمِّناً لبيان اعتقادهم بوهمين خاطئين: الأول: أنَّ من أعطاه الله في الدنيا ووسَّع عليه فهو المرضيُّ عنده، ومَنْ قَدَر عليه رزقه فمغضوبٌ عليه. والثاني: أنهم سيفوزون بسعادة الآخرة كما فازوا بسعادة الدنيا؛ رَدَعهم عن الأول بقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ...﴾ فذكر عنصراً من عناصر الدين تعبيراً بالجزء عن الكلِّ، مُلمعاً إلى أن قَبول الدين والإعراض عنه هما مظهر الرضا والغضب، لا الفقر والغنى. ورَدَعهم عن الثاني بقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...﴾ مُتوعِّداً بما لهم في الآخرة من الشقاء. (المؤلف).

وانتشار العدوى منهم إلى مُعاشريهم، وما يصيبُ الأمة من ذلك: كلُّ هذا منكم ناتج من كفركم، ودليلٌ على أنَّ ما تَزعُمونه ـ من اعتقادكم بإلهٍ يأمركم وينهاكم، وأنَّ لكم ديناً يعظكم، وأنكم عند الله مُكْرَمون ـ زَعْمٌ باطل.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد أن فنَّد مزاعمَهُم ـ توعَّدهم، على نهج القرآن بمثل ذلك ـ بقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ أي: دكاً متتابعاً، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[1] أي: صفوفاً متعدِّدة متتالية.

قال الأستاذ الإمام: أما إسناد المجيء إلى الله ففيه رأيُ السَّلف، وهو أنَّ ذلك مجيءٌ نؤمن به ولا نطلب معناه، ولكنه يُمثِّل لنا الهيبة والعَظَمة وظهور السلطان الإلهي في ذلك اليوم العظيم، وفيه مذهبُ الخَلَف، وهو على تقدير: وجاء أمر ربِّك، أو أنه من قَبيل التمثيل لتَجَلِّي السطوة الإلهيَّة على القلوب، كما تَتجلَّى أُبَّهة المَلِكِ للأعين إذا جاء في جيوشه ومواكبه؛ لأنه سبحانه يُخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم، تقريباً للأذهان، فهي عبارةٌ تتناسب مع تصوُّرات الإنسان. ولله المَثَلُ الأعلى.

---

(١) يعبِّر القرآن عن أحوال الله سبحانه وصفاته ـ ولا سيما القهريَّة منها ـ بأحوال الملوك والسلاطين؛ تصويراً للأمر، وتبديهاً له في المفهوم، والانطباع على العقول. وهكذا جاءت هذه الآية مستعارة من حال ملك قاهر على أثر ثورة في البلاد أخمدها، وحضر المحكمة بنفسه مُحاطاً بالقوة القاهرة وأسباب الجزاء؛ لِيُمحِّصَ الأمر بنفسه، ويُنفِّذ الحكم على أدقِّ وجوهِ الحقِّ في المُحسِن والمسيء، والله تعالى أعلم. (المؤلف).

ثم أكمَلَ الترهيب بقوله: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦]، أي: كُشِفَت جهنَّم للناظرين بعد أن كانت غائبةً عن الحاضرين، فكأنها كانت بعيدةً وجاءت إليهم، و﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يتذكَّر الإنسان الغافل ما كان منه أيام غَفْلته، فيندم ويَتحسَّر، و﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ أي: يا ليتَني قدَّمتُ عملاً ينفعني في حياتي الحقيقيَّة، وهي الحياة الآخرة، ولكنْ لا ينفعُه ذلك الندم والتذكُّر.

ثم ذكر ما ينـاله من الجزاء الشديد، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ قرئ الفِعلانِ بالبناء للمعلوم، والهاء لله، أي: لا يقع من المُعذِّبين وصانعي العذاب مِثلُ العذاب الذي يُعذِّب الله به ذلك الكافر. وقرئ الفعلان بالبناء للمجهول[1]، والهاء للإنسان الكافر، أي: لا يُصابُ أحدٌ بعذاب مِثلِ العذاب الذي يُصابُ به ذلك الإنسان، ولا يُحبَسُ أحدٌ حَبْسَه؛ لأنَّ الوثاق معناه: الشدّ والربط، كما يكون بالسلاسل والأغلال.

ثم قال الأستاذ الإمام: ومُلَخَّص معنى الآيات الكريمة: أنَّ ما يزعمُه الأغنياء الجبَّارون والفقراء الخاسرون من أنهم لربِّهم ذاكرون، مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء، وامتلائها بحُبِّ المال، وفيضانها بالميل إلى الشهوات؛ زَعْمٌ لا حقيقة له، وإنما يَتَذكَّرون ربَّهم على الحقيقة في ذلك اليوم العظيم، عندما يَشْهَدون الهَوْل، ويُعوِزُهم الحَوْل، ويظهر لهم مكانهم من العذاب والنَّكال.

وكرَّر قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[2] ليقوِّي استِحضار ذلك اليوم في الذِّهن. ثم إنّ التنوين

---

(١) وهي قراءة الكسائي كما في «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٤١١).

(٢) في الآيتين ٢٣ و٢٥.

في الأُولى منها[١] نائبٌ عن دكِّ الأرض ومجيء ربِّك والمَلَك، وفي الثانية[٢] نائبٌ عن ذلك وعن مجيء جهنم، وفي الثالثة[٣] عمَّا تقدَّم وعمَّا تضمَّنه قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾.

وبعد أن ذكر حال الإنسان الشقي، عقَّبه بحال الإنسان التقيِّ، على طريقة القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾[٤] في أمرها ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ﴾ بما أُوتيتِ من النَّعيم المُقيم ﴿مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ عنده بما فعلتِ واعتقدتِ من الاعتقاد السليم، ﴿فَٱدۡخُلِي فِي﴾ زُمْرة ﴿عِبَٰدِي ٢٩﴾ الصَّالحين، ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ التي أُعِدَّت للمُتَّقين. اللهُمَّ اجعَلْنا منهم يا أرحم الراحمين.

أما الرجوع فيكون عند الموت، وأما الدخول فيكون يوم القيامة.

قال الأستاذ الإمام: ومفاجأة السامع بهذا النداء ضربٌ من ضروب إيجاز القرآن، لا تخطر لبشر على بال، فإنَّ التَّقيَّ الخائف الذي يخاف مقامَ ربِّه إذا سمع ذلك الوعيد المتقدِّم، أخذت الرهبةُ نفسَه، وأفعَمَت الخشيةُ قلبَه، فبينما هو كذلك، إذ يُنقذه هذا النداء، ويصعد به إلى أكرم فناء، ويصفه بالمطمئن ليذهب عنه الخوف، وبالراضي

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [٢٣].

(٢) في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾.

(٣) في قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾.

(٤) النفس بمقتضى تربيتها تكون أصنافاً ثلاثة: نفساً أمَّارة بالسُّوء، وهي التي تَتَسلَّط عليها الغرائز التي فَسَدت بخسَّة التربية وسُوء القدوة. ونفساً رقيبةً لوَّامة، وهي التي صَلَحت برفعة التربية وحُسْنِ القدوة، فكانت تستريح للخير والبر، وتضيق ذَرْعاً بالشر والفساد. ونفساً مطمئنةً، ترغبُ في جوار ربِّها، وتُحبُّ لقاءه، وهي التي سَمَتْ إلى أعلى مقامات النُّبل والكمال. (المؤلف).

المرضيِّ ليُبعد عنه خشية الغضب، أما الشقي فقد يلهو بأنه ليس وحده في الشقاء، بل الناس في كلِّ ما يُوعَدُ به سواء، فيَفجَؤُه نداء الأبرار بأوصاف الخيار إلى قرب الجوار، فتبغته الدهشة، وتفزعه الوحشة.

وقال الحسن في تفسير هذه الآية: إذا أراد الله عزَّ وجل قَبْضَها، اطمأنَّت إلى الله واطمأنَّ الله إليها، ورَضِيَتْ عن الله، ورضيَ الله عنها[1]، فأمر بقبض روحها، وأدخَلَها الجنةَ مع عباده الصالحين. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

* * *

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥: ٢٥٣).

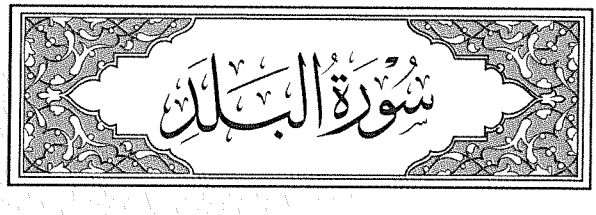

مكيَّة، وهي عشرون آية

والغرض منها:

تسليتُه ﷺ عمَّـا يلاقيه من الأذى في دعوة قريش.

ووعيدٌ لهم على إعراضهم وسوء سلوكهم معه.

وإقامةُ الحُجَّة عليهم في تعطيل مواهبهم الموجَّهة للحق والكمال في أصل خِلْقتهم.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ وهذه عبارةٌ من عبارات القَسَم والتأكيد في لسان العرب، كما تقدَّم بيانه في سورة التكوير[1] وغيرها.

والبلد المشار إليه: هو مكة، لِمَا يدلُّ عليه قوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ الحرام، والحِلُّ: هو الحلال، أي: قد استحلُّوا فيه إيذاءك وإخراجك، وعَزَموا فيه على قتلك، وهو بلدٌ مُحَرَّم محترمٌ غايةَ الاحترام، وهم يعلمون أنَّ النَّيْل فيه من أحد يُعَدُّ من أكبر الآثام، فكيف ينالون منك وأنت رسول الله؟! أي: ينتهكون حُرْمَةَ هذا البلد بالنَّيْل من مثلك؟!

وقال أبو مسلم: المعنى: وأنت مُنتَهَكُ الحُرْمة فيه. وهذا هو المرويُّ عن عبد الله[2]، قال: كانت قريش تُعظِّم البلد وتستحلُّ محمداً ﷺ، فقال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ يُريدُ أنهم استحلُّوك فيه فكذَّبوك وشَتَموك وقرَّروا اغتيالك، وكانوا لا يأخذ الرجل منهم فيه قاتلَ أبيه، يقول ذلك توبيخاً لهم، فالواو

---

(١) في تفسير الآية ١٥ منها.

(٢) انظر «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (١٠: ٢٠٧).

ليست للحال، ولكن لاستئناف التأنيب على انتهاك حُرمتِه، بعد أن أقسَمَ به ونوَّه بشأنه، أي: ولكنك مُنتَهكُ الحُرمة فيه.

وبعد هذه الجملة المعترضة بين المعطوف والمعطوف عليه للتأنيب والتجهيل، تابع القَسَم بقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ فهو عَطْفٌ على ﴿هذا ٱلْبَلَدِ﴾، داخل في المُقسَم به.

قال الأستاذ الإمام: والمراد منه: أيُّ والد وأيُّ مولود، كما يُرشد إليه التنكير، وكما هو مختار ابن جرير وجميع المُحَقِّقين[1]، وفي القَسَم به إلفاتُ النظر إلى رِفْعةِ هذا الطَّوْر من أطوار الوجود، وهو طَوْرُ التَّوالد، وإلى ما به من بالغ الحكمة وإتقان الصُّنع، وإلى ما يُعانيه الوالد والمولود في إبداء النشء وتكميل الناشئ، وإبلاغه حَدَّه من النُّمو المُقدَّر له، وتعبه في تربيته. ففيه تسليةٌ للنبي ﷺ عمَّا يلاقيه من الأذى الذي أشار إليه بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ لأنَّ قيامه بتربية الأمة كقيام الوالد بتربية الأولاد.

أما قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ فهو الخبرُ المقصودُ توكيده بالقَسَم جواباً له. وفيه تسليةٌ له ﷺ عن تَعَبه وتكبُّدِه المشاقَّ في سبيل نشر الدعوة، حيث يُذكِّره بخِلْقة الإنسان المعروضة لتكبُّد المشقَّات، ولا سيما في سبيل تنشئة النشء الصالح وتثقيفه.

ويجوز أن يكون جوابُ القَسَم محذوفاً، على نهج القرآن في مثله، والتقدير: لأخذُلنَّهم وأنصُرنَّك. وتكون جملة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ مستأنفةً للتقرير والتسلية والتنبيه. والكَبَد: المشقَة والتعب، ومنشأ ذلك في الإنسان: عقله ودرايته.

وقال الأستاذ الإمام: جَمَع بين البلد المُعظَّم والوالد والولد مع الاعتراض بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾؛ ليشير إلى أنَّ مكةَ على ما بها من عمل أهلها، ستلدُ من الأمر العظيم ما يكون إكليلاً لمجْد النوع الإنساني، وهو دين الإسلام الذي جاء به عليه الصَّلاة

---

(١) تفسير «جامع البيان» لابن جرير الطبري (٢٤: ٤٣٣).

والسلام، وأنَّ العَنَاء الذي يُلاقيه من اختَصَّه الله بوحيه، إنما هو العَناء الذي يصيبُ الوالد في تربية ولده، وهو طبيعيٌّ للإنسان، يُكابد به أكثر مما يكابد الحيوان؛ لمكان العقل من ذلك وعُلوِّ تربية الإنسان، ففيه تسليةٌ له ﷺ، وفيه من الوعد بإتمام أمره ما فيه، بعد أن يأخذَ الكبد والتعب مَأخَذَه.

ثم توعَّد سبحانه الإنسانَ ناظراً إلى هؤلاء الأشقياء العُصاة منه، الذين نال من كيدهم ﷺ ما نال، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ فالضمير يعود إلى الإنسان، باعتبار تحقُّق هذا الحُسبان في بعض أفراده الأشقياء العُصاة الذين منهم عصاة مكة، فهو تَقْريعٌ لهم واستِجْهالٌ وتهديد، إذ كيف لا تملك ناصيته تلك القدرة التي أبدعته وأنشأته.

ثم أجرى الكلام على الإنسان بالنظر إلى المُتبجِّحين منه بالبذل لمجرَّد الشهرة والفخر، ومنهم كبراء مكة، فقال: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا[1] ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ قال المفسِّرون: هذا ما كان ينفقه أهلُ الجاهلية فيما يُسمُّونه الكرم، ويعدُّونه من مكارم الأخلاق، ويفاخرون به، ينكر سبحانه ذلك عليهم لأنه لم يكن لوجه الله، ولكنه للسمعة والرياء.

وقال الأستاذ الإمام: هذا الصنف من الإنسان هم الأغنياء البخلاء المراؤون الذين ينفقون أموالهم في سبيل أُبَّهتهم وسمعتهم المزيَّفة ينفقونها ما بين الأثاث والرِّئيا، طلباً للشهرة الكاذبة، ثم إذ طُلِبَ منهم الاشتراك في عمل من أعمال الخير، قالو: إننا نحتاج إلى مصاريف كثيرة في أعمال غير الذي تدعونا إليه. أيظنُّ هؤلاء المغرورون أنَّ سرائرهم تَخْفى على المُتصرِّف في ضمائرهم؟

---

(١) ﴿لُّبَدًا﴾: أصلُه الشيء المتلبِّد بعضُه على بعض. و«لُبَد»: جمع لُبَدَة، وهي ما كثر واجتمع وتلبَّد. والمراد به هنا: كثيراً. يقول ذلك إظهاراً للتفاخر بكثرة المال والإنفاق.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾.

وقد أنكر سبحانه على هؤلاء الشقاة العُصاة من أفراد هذا الإنسان مُؤنِّباً فيهم الإنسان كلَّه، على مثل هذه النظرات الخاطئة الناتجة من الإعراض عن الدين، والتثقف بثقافته، رغم ما وهبه سبحانه له من مواهب جليلة، تُعينه على النهج الصحيح، والاتِّجاه القويم، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ يُشاهد فيهما كثيراً من آثار الله الدالَّة على ألوهيَّته واستحقاقه لأن يُعْبَدَ وحده، ﴿وَلِسَانًا﴾ هو مَظهَر البيان والعقل والإدراك، ﴿وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ تُساعدان اللسان في النطق؛ لينطق بالقول الحقّ والعقيدة الصدق، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ أي: طبعناه على معرفة طريقَي الخير والشَّر، وعبَّر عنهما بالنَّجْدَين للإشارة إلى وضوحهما أمامه بصُورةٍ لا تَخْفىٰ عليه؛ لأنَّ النَّجْد ما ارتفع من الأرض، والمراد: أنَّ الله سبحانه خَلَقَ له من المواهب الصحيحة ما يُميِّز بها هذين الطريقين الواضحين، فله ما يختار، وليس على الله حُجَّة إذا اختار الإنسان طريق الشرِّ بعد ذلك.

وتفصيل الأمر: أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان ذا عقلٍ يَتَصرَّف في أنواع شعوره، وفكرٍ يجولُ في طرق حاجاته البدنيَّة والنفسيَّة، وجعل ارتقاءَه في إدراكه وتفكيره كسبياً، بحسب التربية التي تُحيطُ به، والتعليم الذي يَتلقَّاه، وتأثير حوادث الزمان والمكان، والأسوة والتجارب، وعَرَضَ أمامَه هداية الدين بالآثار المرئية في هذا الكون، والرُّسُل المرسَلة بهدايته تعالى، بعد أن طبعه على الميل إليها، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وبهذا الـجَعْل وبهذا التَّبيين والهداية، ظَهَر مَوْضع الإنكار على الإنسان الذي أنكره عليه بقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾[1] التي تعترضُه في سبيل النجاة والوصول إلى السعادة.

وفي الكلام حذفٌ واكتفاء، على نهج القرآن، والمراد: ألم نجعل له ذلك ليقتحم العقبة، وهي الهوى الذي يضلُّ عن سبيل الله. وإنما فسَّرها باللازم ذاكراً شيئاً منها؛ ليردَّ بذلك على هذا القائل، أي: ليس إنفاقك مَرضيّاً عند الله، ولكنَّ المرضيَّ عنده هو هذا الإنفاق الصَّادر عن إيمان وإخلاص، فبمثل ذلك تُقتَحَمُ العقبة.

والعقبة: الطريقُ الوعر في الجبل، فبينها وبين النَّجْدين مناسبة، وقد استعارها للطريق التي يَصْعب سلوكها، إلى حيثُ تُنال السعادة في الدنيا والأخرى، وإنما كانت صعبة السلوك لمُعارَضة الهوى، ومُغالَبة الشهوة لسالكها.

ثم فسَّرها سبحانه بالسبب المُساعِد على الاقتحام، وهو هذه الشريعة وتعاليمها الهادية إلى سواء السبيل، وألمع إلى ذلك بصورة من طبيعة هذه الشريعة، وذكر شيءٍ من عناصرها، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ[2] ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ أي: عِتقُها أو المعاونةُ عليها، وهذا يُؤْذِنُ إلى ما في الإسلام من مَيْلٍ عظيم إلى الحرية، وجَفْوتِهِ للأسر والعبودية، لولا العلة الضرورية.

---

(١) إنما عبَّر بالماضي في ﴿ٱقْتَحَمَ﴾، للإيذان بأنَّ ذلك قد وقع من نوع الإنسان منذ نشأته، وأن الحيوانيَّة غلبته فصرفته إلى سبيل غير التي كان يقوده إليها عقله، إلا مَنْ هدى الله. وفي ﴿ٱلْعَقَبَةُ﴾ ترشيح لـ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾؛ لأنها إنما تكون في أعالي الجبال. (المؤلف).

(٢) أي: فلا فَعَلَ ما أمره الله به، فاقتحم عَقبةَ نفسِه، وما يشقُّ عليها من مَكَاره، ولا ترك ما نهاه الله عنه، فأحجمَ عن اتِّباع أهوائه وشهواته. وأيُّ شيءٍ أعلمك: ما مقْدار ثواب اقْتحام العَقَبة عند الله، وما يُعينُ على تَجاوُزها؟

ثم تابع التفسير والإلماع بقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ أي: ذي مَجاعةٍ عظيمة، ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ منه بالنَّسَب، ﴿أَوْ مِسْكِينًا[1] ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾[2] أي: فَقْر مُدْقع. وإنما خصَّ بالذِّكر هذَيْن الصنفين من بين الفضائل، ليردَّ بهما على ذلك القائل، أي: إنَّ هذا هو المقبول عند الله، لا إهلاك المالِ اللُّبَدِ في سبيل التباهي والتفاخر برخيصِ المحامِدِ والمظاهر.

ثم تابع التفسير والبيان للعقبة بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾[3] فأنكر على هذا الإنسان عدمَ اقتحامه لهذه العقبة التي خُلِقَ على هذه الصورة لاقتحامها، وأشار إلى أنَّ الإيمان أساس لها، وبيَّن ما كان يجب أن يكون بنتيجة ما وهبه الله له من العقل السليم والهداية الرشيدة.

ثم سجَّل للصنف المتمسِّك بطبيعة هذه الشريعة والقائم بهذا الواجب بقوله:

---

(١) محتاجاً لا يتعرَّض لسؤال الناس ولا يُعرف بشدّة فقره.

(٢) ﴿مَتْرَبَةٍ﴾: «المتربة»: مصدر لفعل تَرِب ـ بفتح فكسر ـ، أي: افتقر، وأصلُه من قولهم: ترِب الرجل، أي: التصق بدنُه بالتراب، أما «أترب» فمعناه: استغنى، أي: صارَ ذا مال كالترابِ في الكثرة.

(٣) ﴿ثُمَّ كَانَ﴾: «ثم»: حرفٌ أريد به هنا الترقي في ذِكر الرُّتَب، فالمعنى: ثمَّ كان قبل كلِّ ما تقدَّم مؤمناً.

أرشدت هذه الآية إلى لزوم تتبُّع الخطوات الفكريَّة للتكاليف الدينيَّة، التي يحتاج الالتزامَ بتعليماتها إلى اقتحام عقبة النفس، وهذه الخطوات ينتقل المتتبِّع فيها ضمن فروع شجرة الإسلام من فرع إلى فرع، حتى يصلَ إلى سوقها، ثم إلى جذرها الذي تتمدَّد أجزاؤه وعناصره الإيمانية داخل عُمْق الفؤاد.

وأرشدت الآية أيضاً إلى أن اقتحام عقبة النفس، بأداء التكاليف والكفّ عن المحرمات لا بدَّ أن يكونا مَسْبوقَيْن بقيام جماعة مؤمنة، تتلاقى على وحدة إيمانيَّة، يتواصى أفرادها بالصبر وبالمرحمة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾، فاسم الإشارة يعود إلى القِسم المُثبَت المتَّصف بهذه الصفات الذي تضمَّنه الكلام. وأصحاب المَيْمَنة: هم الذين بيَّن حالهم في سورة الواقعة[1].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩﴾ يعود إلى القِسم المنفيِّ الذي تضمَّنه الكلام أيضاً، وهو الذي لم يتَّصف بهذه الصفات. وأصحاب المَشْأمة: هم الذين بيَّن حالهم في سورة الواقعة أيضاً[2]. وقد زادهم وعيداً بالتسجيل عليهم بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ أي: مُغْلَقةٌ أبوابُها عليهم، وهذا تمثيلٌ لإفادة التهويل[3]. والله أعلم.

* * *

(١) في الآيات ٢٧ - ٤٠.

(٢) في الآيات ٤١ - ٥٦.

(٣) بل هو حقيقة، فقد وصف الله تعالى النار بأن ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، وقال أيضاً: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ...﴾ [الزمر: ٤١]، وهذا يقتضي إثبات أبواب لجهنم حقيقةً، لكنْ على وجه لا ندري كيفيته، لأنه من عالم الغيب، ثم إن فَتْحَ هذه الأبواب وإغلاقها أمرٌ ثابت على وجه الحقيقة أيضاً تبعاً لإثبات الأبواب على هذا الوجه، من غير علم بكيفيَّة ذلك أيضاً.

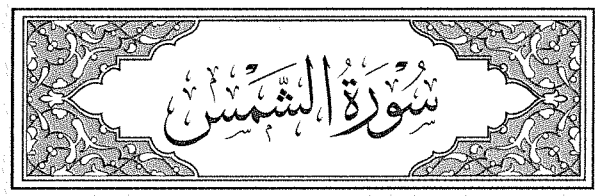

مكيَّة، وهي خمس عشرة آية

والغرض منها:

بيان أن الله سبحانه سَوَّى النفس تسويةً صحيحةً، وجَعَلها مستعدَّةً للكمال وفعل الخير والهداية للرشاد، ما لم يعبث بها سوء التربية وفساد المعاشرين، فإذا عبث بها ساءت واستحقَّت عذاب الدنيا والآخرة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾[1] أي: وضوئها، ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾ وذلك في الليالي

---

(١) يقدِّر علماء الفلك في العصر الحاضر المسافة بين الأرض والشمس بثلاثة وتسعين مليون ميل، فإذا فرض أنَّ جِرماً يصعد إليها بسرعة ستين ميلاً في الساعة ليل نهار دون أن يقف، فإنه يقتضي لوصوله إليها مئة وخمساً وسبعين سنة. وهذا البُعد العظيم بالنسبة إلى متوسط أبعاد النجوم، كنسبة واحد إلى ملايين الملايين، جلَّت قدرة العليِّ القَدْر. ويصل ضوء الشمس إلينا بثمان دقائق بعد أن ينفصل منها، أما النجوم فأبعادها لا تقدَّر، إذ أقرب نجمٍ إلينا يصل ضوؤه بعد أربع سنين ونصف، وأبعدها لم يصل ضوؤه إلينا منذ خلق إلى الآن، وبعضها لا يصل ضوؤه إلينا حتى تقوم الساعة وتتحطم الأكوان، فجلَّ مَن هذا صنيعُه. وهذا الكون كلُّه بسائر حدوده وأطرافه بالنسبة إلى سَعَة الفضاء كنسبة تفاحة إلى قبة السماء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وأن لا خالق لهذا الكون سواه، وإنَّ الشرك لظلم عظيم فيه تسوية الضعيف المهين التافه بهذا الإله العظيم القادر، فهوناتج عن جَهَالةٍ عمياء، وفكر لا يفقه الأشياء.

هذا وإن امتداد الكون في الزمان لا يقلُّ عن مثل ما ذكر من مقدار امتداده في المكان، وقد كان سبحانه ولا فضاء ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، فهو المنزَّه عن الأعراض والأحداث والزمان والمكان. (المؤلف).

البيض من الليلة الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة منه، أو العشر الأواسط كلها التي جاء ذِكرُها في سورة الفجر، ففي هذه الليالي يخلف القمرُ الشمسَ بالإضاءة، وهو على أكمل ما يكون من الرَّوْعة والبهاء.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ أي: أظهَرَها؛ لأنَّ النهار هو الذي يُجلِّي الشمس ويُظهِرُها.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ أي: يُخفي ضوءَها، حيثُ يَحجُبُ نِصفُ الأرض المقابلُ للشمس النِّصفَ الآخر، فيكون الزمن ليلاً فيه.

يُقسِمُ سبحانه بهذه الأمور للإشارة إلى تعظيم أمر الضياء وإعظام قَدْر النعمة فيه، ولإلفات أذهاننا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونِعَمِه العظمى، فإنَّ الله سبحانه يُقسِمُ بما يشاء من خلقه، تنبيهاً على ما فيه من قدرة الله العظيمة وحكمته البالغة، وإلى ما فيه من النفع لهذا الإنسان بالمباشرة أو بالواسطة. وفيه إشارة إلى أنَّ إبداعه في الشريعة كإبداعه في تخليقه. وتُسمَّى هذه الأقسام بالأقسام الاستدلالية.

ثم تابع القَسَمَ بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ فذكر العامَّ بعد الخاصِّ؛ لأن السماء اسمٌ لِـمَا عَلَا من هذا الكون الذي فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجري في مجاريها، وتتحرَّك في مداراتها، وكل كوكب بمنزلة لَبِنةٍ من بناء سقف مُحكَم مُتْقَن شُدَّ بعضه إلى بعض برباط الجاذبية العامة، كما تُربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به.

وإنما أُوثرت كلمة ﴿مَا﴾ على «مَنْ» لإرادة معنى الوصفيَّة[1]، وكذلك فيما يأتي

---

(١) ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي: ومَنْ بناها، وهو الله سبحانه وتعالى. والعرب تعبِّر بـ(ما) عن الذات المصاحبة لوصفٍ عظيم يستلفت النظر. والمعنى: وحقِّ القادر العظيم الذي بنى السماءَ دالةً على وحدانيَّته وكمالِ قدرته.

من قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾[1] أي: وطَّأها للسَّيْر والعمل، ولم يجعلها كلَّها جبالاً وَعِرةً غيرَ قابلة السلوك والانتفاع بها، فأقسَمَ سبحانه بهذه الآيات الآفاقية الكونية العلوية والسفلية مشيراً إلى ما فيها من نِعَمٍ عُظمى وآيات كبرى وإتقان بديع وقدرة باهرة، فكيف يجعل الإنسان دون ذلك؟

ثم عَطَفَ عليها عَطْفَ المقارنةِ والمساواةِ آيةً من الآيات النفسيَّة التي لها دَخْلٌ في الموضوع والبيان، وأدخَلَها في المُقسَم به لذلك الشأن، فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧[2]﴾ للإشارة إلى أنَّ الله سبحانه قد أحكم صُنْعَ هذه النفس في استعدادها للإعراض عن الفجور والتلبُّس بالتقوى، كما أحكم صُنْعَ هذه الآيات الكونية، فلم يكن في هذه النفس نقصٌ أبداً ولا توريط، بل هي تامَّة الاستعداد للكمال، ولكن الله سبحانه وتعالى إذْ أعدَّها إلى مقامات عالية من الكمال يَقصُرُ التَّصوُّر عن إدراكها، متّعها بخاصّتَي الاختبار والإرادة، وأراها طريقي الاعتدال والانحراف، بالفطرة والوحي ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾، ومن ذلك أن جَعَلَ في غريزتها التمييزَ بين الحق والباطل، والضارِّ والنافع، والحسن والسيِّئ، والأخلاقي وغير الأخلاقي، ما لم تفسد تلك الغريزة بمفاسد التربية وسُوء القدوة، فهي تشعر بشرف العدل والإحسان والصدق

---

(١) الطحو: هو قذف الشيء من مقرِّه مع مدِّه وبسطه، فيجوز أن يكون فيه إشارة إلى صورة انفصالها من الشمس، إذ إنه كانت قطعة منها، والله أعلم. (المؤلف).

(٢) (ما) في الآيات الثلاث ٥ و٦ و٧ مصدريَّة أو بمعنى «مَن». والمصدريَّة أوْلى؛ لأنَّ القَسَم هو لعجائب الخلق والتكوين، أي: أُقسم بالسماءِ وببنائِها العظيم العجيب، وبالأرض وبَسْطها وكُرويَّتها ودورانها حول نفسِها، ودورانها في مدارٍ حول الشمس، وبكلِّ نفس مُـمْتَحَنة مُكلَّفة من الجنِّ والإنس، وما فيها من إبداع الخالق في تَسْويتها، بجعلها كاملة الصِّفات التي تُؤهِّلها لأداء وظيفتها في الحياة.

والأمانة ولين الجانب، إلى أمثال ذلك، وبحطَّة أضدادها، وتُسمَّى هذه الغريزة بالوجدان، ويُسمَّى الفهم بها بالمنطق الوجداني.

وقد جعل موازنتها بيد صاحِبها، فإن اعتدل صاحبُها واتَّبع في نموِّها قانونَ الحكمة الإلهية؛ نال بها غايتَي الكمال المادي والأدبي والسعادة في الدنيا والأخرى. وإن انحرَفَ وارتطم في أوحال النَّقص، وسقط إلى دَرَكات الانحطاط والسِّفال؛ نال الجزاءَ الأدنى في الدنيا والجزاء الأكبر في الأخرى. وهذا هو المقصود بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ واتَّبع قانون الحكمة الإلهيَّة في نموِّها، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[1] أي: أفسَدَها وسَفَّلها بالانحراف عن ذلك القانون والارتطام في مواحل الانحطاط والنقصان، واتِّباع طرق الشيطان، وشهوات الإنسان، والميل بها إلى عالم الحيوان.

فالمراد بالتزكية: إنماءُ ما بها من استعداد صحيح للخير والتَّجنُّب عن الشر، على ضوء الشريعة الغرَّاء المنطبقة على السنن الكونيَّة والواقع. وأراد بالتَّدْسية: إفساد هذا الاستعداد، والارتطام بالشر، واستعمال مواهبها له. فهذه النفس مثل حبّة البُرِّ، تُخرِجُ نباتَها ما لم تَعفَنْ ولم يُفسِدها السُّوس، فإذا عَفِنَت أو أفسدها السُّوس لا تخرج النبات[2].

---

(١) قال أفلاطون: في الإنسان طبائع أربع: العقل، والهوى، والشهوة، والعفَّة. فالعقل يعاتب الهوى، والهوى يقاتل العقل، والعفَّة تعاتب الشهوة، والشهوة تقاتل العفَّة، والإنسان مُسلَّط على مشيئه. اهـ. فمن عمل خيراً كوفئ عليه، ومن عمل شراً جُوزي به، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، والآية في مفهومها شبيهة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، وتنبئ بأن في النفس ينابيع صافية من الخير، ولها استعداد للشر، يظهر بإفساد فطرتها والتحول بها عن نهجها الطبيعي. (المؤلف).

(٢) إن هذه الخلقة للنفس تشبه حالة سائر المخلوقات، لا فرق بينهما، فالله سبحانه خلق الحديد والخشب والطين مثلاً مستعدة لأن يكون منها أشرف الأدوات وأميزها، وأن يكون منها =

وفي الآية تصريحٌ بأنَّ الإنسان مُخيَّر في أعماله، مُطلَقُ التصرُّف بها، غيرُ مجبور ولا مقسور، وهناك برهانٌ عقليٌّ جاهرٌ بهذا الاختيار، وهو إجماع الأمم ـ مع اختلاف مذاهبها ومآربها ـ على فائدة التربية والتهذيب، وسعيها لذلك بالفعل. فهو اعترافٌ في أنَّ الإنسان مُخيَّر غير مجبور، وأنه ابن التربية والتدريب.

قال الإمام الغزالي في التمثيل لاستعداد النفس للخير والشر: هي كالنواة، فإنها ليست تفاحاً ولا نخلاً، ولكنَّها قابلة أن تصير ذلك بالتربية والتعهُّد، إذا اتُّبع فيها قانون الحكمة الإلهية، حتى تُـفْرِغَ كلَّ استعدادها في الكمـال، وإذا لم يتَّبع فيها ذلك فسدت وبارت[1].

أقول: وقد ذكرنا غيرَ مرَّة: إنَّ الله سبحانه قد خلق للإنسان عقلاً يتصرَّف في أنواع شعوره، وفكراً يَتجوَّل في طرق حاجاته البدنية والنفسية، وجَعَل ارتقاءه وانحطاطه في إدراكه وأفكاره كسبياً، حسب التربية التي تحيط به، والتعليم الذي يتلقَّاه، والبيئة التي يعيش فيها، وتأثير حوادث الزمان وما يُصادِفُه منها. وقد عَرَض هداية الدين أمامه عرضاً؛ بالآثار المرئية في هذا الكون، وبالرسل المرسَلة بهداية الله إليه، فـ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنۡ

= أخسُّ الأدوات وأحطها، وذلك حسب صنع الصانع وإرادته وصفة تصرُّفه، وكذلك إذا صنع صانعان نوعاً واحداً، يمتاز صُنع كلِّ صانع بنسبة مهارته وحُسن صنعته وقُبحها، وعلمه وجهله فيها. وهكذا حال الشجر والنبات وغيرها من المخلوقات، تمتاز وتنحطُّ بامتياز التربية وحطّتها، وبدرجة ما يناله من العناية أو الإهمال، فلا فرق بين هذه النفس وبين سائر مخلوقات الله في ذلك ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [الملك: ٣]، مخلوقة كلها في كمال الاستعداد ونهاية الصَّلاح بالقوة، ولكن يعود صلاح النفس بالفعل أو فسادها كذلك؛ لصنع صاحبها بها، وما كسبت فيها يَداه، فـ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]. (المؤلف).

(١) «إحياء علوم الدين» (٣: ٥٦).

حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، حتى الفقر والمرض والجبن والكسل وغير ذلك من الأسواء.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن أقسم بتلك الآيات الكونيَّة والنفسيَّة وما فيها من عَظَمة وإتقان، وألمع إلى ما يستلزم ذلك من الغاية النبيلة والنهاية الخطيرة للإنسان؛ جعل التعقيب لذلك القَسَم تهديدَ المكذِّبين من قريش بما جرى على أمثالهم من الأمم الماضية، وأقامه مقام جواب القَسَم، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ فالكلام عَرَضَ لوحةً لِـمَا جرى على المُدَسِّين لأنفسهم، والتقدير: ليَنزِلنَّ بالمكذِّبين مِثلُ ما نَزَل بثمود إذ كذّبت نبيَّها.

وثمودُ: قوم من العرب البائدة بعث الله إليهم نبياً، وهو صالح عليه السلام، وكانوا قد اقترحوا عليه آيةً على صدقه، وهي هذه الناقة المخلوقة بطريقة غريبة، والتي جعل الله لها شِرباً تختصُّ به، ولهم شِربٌ يَختصُّون به في يوم معلوم، وأن تأكل في أرض الله لا يمسُّها أحدٌ بسوء، فإذا مسُّوها بسُوء أخذهم العذاب؛ لأن الله سبحانه قد أجرى سُنَنَه في الأمم إذا اقترحوا على نبيِّهم آيةً فأعطاهم الله إيَّاها، ثم لم يؤمنوا بها؛ أن يستأصلهم بعذاب.

والطَّغوى: من الطغيان، كالدَّعْوى من الدعاء، والسَّلْوى من السلوان، أي أنّ طغيانها هو الذي جَعَلها تُكذِّب نبيَّها، وهو الذي بعث شقيَّها فعَقَر الناقة، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ أي: أشقى القبيلة.

وأطلقت الآيةُ عليه هذا اللقبَ؛ لأنه المُباشِرُ لعقرها بعد أن كذَّبوا نبيَّهم وكذَّبوا هذه الآية التي طلبوها، ولـمّا رضوا بفعله أو أغرَوْهُ عليه نُسِبَ العقر إليهم جميعاً، وقد حكى ذلك عنهم بقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهو صالحٌ عليه السلام: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ والنَّصْب على الإغراء أو التحذير، أي: احفظوا أو احذروا ناقةَ الله وسُقْياها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في وعيده هذا، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قال ﷺ: «انبعث لهم رجل عزيز عارم منيع في رهطه فعقرها»(١).

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ أي: أطبق عليهم العذاب، فسوَّى القبيلة في العقوبة، فلم يفلت منهم أحد. وقيل: الدمدمة: التدمير. والمعنى: دمَّر مساكنَهم وسوَّاها بالأرض بما فيها السكان، وهي القبيلة عن آخرها، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ وهذه جملة تهكُّمية مُستعارة من حال المُخاطَبين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، أي: إنَّ الله في عزَّته وجبروته أهلك هؤلاء المكذِّبين، ولا يخاف عاقبةَ إهلاكهم.

أقول: والأنسب بالسياق طباقاً لِـمَا في سورة ﴿وَٱلَّيْلِ﴾: أن يكون قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] جواباً للقَسَم، كما ذهب إلى ذلك المحقِّقون.

ووَجْهُ المناسبة بين المُقسَم والمُقسَم عليه: كَوْنُ مخلوقات الله سبحانه كلِّها مُتقَنةَ الصُّنع، قائمةً بأماناتها التي كُلِّفت بها، صالحةً مُنْتجةً للخير والنفع، وكذلك هذه النفس الـمُلْهَمة للأمرين، إلا أنَّها مُختارة، فإنْ صَرَفها صاحبُها نحو ما خُلِقَت له من الكمال،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥)، عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه.

وزَكَّاها بصحيح الأقوال وصالح الأفعال؛ أفلَحَ ونال سعادة الدارين. وإنْ أساءَ التَّصرُّف بها ودَسَّاها بباطل الأقوال وفاسد الأفعال، وغلبته شهوته وهواه؛ خابَ وشقيَ في الحياتين. ففسادُها وخسرانُها من سُوء تصرُّف صاحبها بها لا من ذاتها. وعلى كلٍّ، يكون قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ استشهاداً على إفساد الإنسان لنفسه، وخَيْبته من جَرَّاء ذلك وخُسْرانه.

* * *

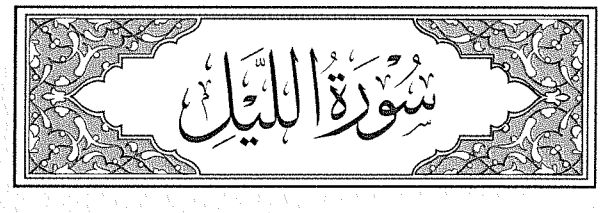

مكيَّة، وهي عشرون آية

والغرض منها:

الوعد بالسعادة الحُسْنى لمن حافظ على سلامة طبيعته، وصَرَفها فيما خُلِقت له من الخير والكمال، وتمسَّك بما يهديه الله إليه على لسان رسله.

والوعيد لمن أفسد طبيعته بمفاسد التربية وسُوء العشرة، وخَرَج بها عما خلقها الله عليه من الاعتدال، والاستعداد للخير والكمال، وأعرض عن هداية الله إيَّاه لحسن الفعال.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾[1] فيه إشارةٌ إلى عُروض الظلمة لأصل النُّور الذي هو أكمل مظاهر الوجود، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ وظهر بزوال ظلمة الليل، يُقسِمُ سبحانه بهما لِـمَا فيهما من بدائع الصنع وحكمة الوضع وإتقانه. وكذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾[2]، وإنما أُوثرت كلمةُ (ما) دون (مَنْ) لإرادة معنى الوصفيَّة.

قال الأستاذ الإمام: وإنما أقسَمَ بذاته بهذا العنوان، لِـمَا فيه من الإشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها، ومن الإشارة إلى الإبداع في الصُّنع ودقَّة التقدير؛

---

(١) الليل عَرَضٌ خاص يتأتَّى بعد أفول الشمس في ناحية، لأنَّ الليل هو احتجاب الشمس عن نصف الأرض بنصفها الآخر، لأن الضياء إذا أشرق على جسم كرويّ بعيد يضيئ نصفه، لا أقل ولا أكثر. (المؤلف).

(٢) ارجع إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ في آخر سورة القيامة [الآية: ٣٧]. (المؤلف).

إذ لا يُعقَلُ أن هذا التخالف يكون بمَحْض الاتفاق، وإنما هو النظام الدقيق في المادة بصنع الله تعالى.

وجواب القَسَم[١] قولُه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾[٢]؛ منه الصالح ومنه الفاسد.

ووَجْهُ المناسبة بين المُقْسَم به والمُقسَم عليه: أنه كما اقتضت حكمتُه تعالى أن تختلف المظاهر الكونيَّة في هذه الأمور، اقتضت حكمتُه أن يكون الإنسان مُختاراً في أعماله، يصدر عنه الخير والشر بصنعه واختياره، وكما أنَّ نظام الليل والنهار والخلق مُتْقَن الصُّنع مُحكَمُه، فكذلك الإنسان مُتْقَن الصُّنع في الاستعداد والانصراف للخير ما لم يُفسِد ذلك الاستعداد بصُنعه فيصرفه للشر، فالآية تفيد ما يفيده قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، كلُّها في غرض واحد، إلا أن كلَّ واحدة تشير إلى صفحة من صفحات المعنى.

وهذه الآية تشير إلى أنَّ صدور الأفعال من الإنسان ينبعث بالاختيار عن ذلك الاستعداد، فلا يَخْلو: إما أن يكون قد بقي سالماً صحيحاً، فينبعث عنه السَّعيُ للخير

---

(١) يجوز أن يكون جواب القسم محذوفاً، على نهج القرآن. وتقديره: لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ، ثم استأنف الكلام لبيان الناجي من غير الناجي، وأنَّ ذلك مبنيٌّ على الأعمال. (المؤلف).

(٢) وجه المناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه: أنَّ خلْقَكُم مُتْقَن الصُّنع مُستَوْفٍ لسائر أسباب الصلاح وإدراك الحق وموجبات الفلاح، كخلق هذه الأكوان المحكمة الصنع والتدبير التي أقسم بها ولفت نظرنا إليها، فللّه الحجة البالغة، ولكن سعي الإنسان شتّى، حسب اختياره المُطلَق بالنسبة لنشأته وتكون سيرته؛ فمنه مَنْ زكَّى نفسه ووجَّهها توجيهاً صحيحاً كما جاءته رُسُل الله، ومنه من دسَّى نفسه وسار بها نحو الضلال مُعْرِضاً عما جاء به الرسل من تعليمات وتوجيهات، أو مُحرِّفاً لها، ففرَّع على الحالين نتائج كلٍّ منهما، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾، فالآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، تَتَّحد معها في الهدف والمراد. (المؤلف).

والصلاح، وإما أن يكون قد انحرف وفَسَد بما عَرَض له أثناء نموِّه من التربية الفاسدة وتأثير حوادث الزمان والمكان، فينبعث عنه السَّعي للشرِّ والفساد.

ويجوز أن يكون بين الخلق في الرَّحِم الواحد ذكراً وأُنثى وبين شتَّى السعي مناسبةٌ أدقُّ من الأولى؛ إذ كما أنَّ النطفة مخلوقة على أن تكون مُستعدَّة لأن تصيرَ ذكراً إذا صادفها وَضْعٌ خاصٌّ في الرَّحِم، أو تصيرَ أُنثى إذا صادفها وَضْعٌ خاصٌّ آخر، كذلك الإنسان مُسْتَعدٌّ لأن يكون صالحاً خيِّراً إذا صادفه وَضْعٌ خاصٌّ في تنشئته، وهو التربية الحسنة على قواعد الدين وسُنن الكون، ولأن يكون فاسداً شريراً إذا صادفه وَضْعٌ آخرُ في تنشئته، وهو التربية السيِّئة على خلاف قواعد الدين الصحيح وسنن الكون، ذينك العنصرَيْن اللذَيْن يُساعدانه فيما خُلِقَ له من الكمال. والله أعلم. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ - ٥].

ولا يَبعُدُ قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٨ - ١٠]؛ حيث فيه تصريحٌ أيضاً بأن الإنسان مُخيَّر في أعماله، مُطلقُ التصرُّف بها، غير مجبور ولا مَقْسور، فإن تصدَّى للخير ناله، وإن تصدَّى للشر ناله.

وقد فصَّل ذلك ببعض صُوره أو بإقامة اللازم مقام الملزوم، على نهج القرآن في مثله، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ لسلامة استعداده، وهذه هي صفة المؤمن.

والحُسْنى: هي هداية الله التشريعيَّة التي أنزلها الله على الناس بواسطة رسله، ومنها الفضائل، والتصديق والإيمان بها يستلزم بذلَ المال واتِّقاءَ مفاسد الأعمال، فهما ثمرتان لهذا التصديق، ودليلٌ واضحٌ على تحقُّقه، ومن كان كذلك ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ أي: للأعمال الصَّالحة. وإنما كانت هذه الخطة هي اليُسْرى؛ لانطباع الطبيعة عليها، ما لم يُفسِدها صاحبها.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩﴾ لفساد استعداده الطبيعي، بما عَرَض له من سُوء التربية وتأثير حوادث البيئة وعوائدها وأنظمتها الفاسدة، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ وهي الخطّة المخالفة للغريزة من الشر والفساد، تلك هي سُنَّة الله تعالى في طبائع الإنسان وأخلاقه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

قال الأستاذ الإمام ما مُحَصَّله: البخيل: هو الذي لا يبذل مالَه في سبيل الخير، وإنْ أنفق جميعَ ماله في لـذّاته ولذات أمثـاله. ومعنى ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾: عدّ نفسه غنياً عن الناس بما لديه من المال، ولا يحسُّ بأنه عضوٌ من جماعتهم، فيُنفق من ماله فيما يعود بالمنفعة عليهم، ولا يُبالي بمـا يُصيبهم من فساد أو سلامة. ومعنى ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: كذَّب بالفضيلة وبأنه أصلُ الإنسانية وركنٌ من أركان وجودها، فلا يعرف إلا ما يلذّ له ويهوى. والبخلُ والاستغناءُ عن الناس بهذا المعنى: دليلٌ واضحٌ على التكذيب بالفضائل، وإفساد الاستعداد لها. ولذلك عَطَفَه عليها وقدّمها عليه.

ويدخل في الـمُكذِّبين بالحُسْنى: أُولئك الذين لا يظهر أثرُها في أعمالهم، ومن كانت هذه حاله فقد مَرَنت نفسُه على الشر، وتعوَّدت على الـخُبْث، واستَشْرى فيها الفساد، فيُسَهِّل الله له ـ حسب ما جَرَت به سُنَّته سبحانه ـ تلك الخطَّة العُسْرى، وهي الخطَّة التي يَتَردَّى بها إلى حضيض البهيمة، ويرتطم في أوحال الخطيئة وأدرانها.

وقد توعَّده بقوله: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾، ويجوز أن تكون كلمة ﴿مَا﴾ نافية، أي: لا يُغْنيه ذلك، أو استفهامية للإنكار، أي: ماذا يُغني مالُه إذا تردَّى وهلك في مغبَّات أعماله؟!

ثم قال: ولـمّا كان هنا موضع أن يقول قائل: كيف يخلقُ الله الناس ويَكِلُهم إلى أهوائهم، ثم يعاقبُهم على ما تجرُّهم إليه؟! أو أن يقول: إذا كان اللهُ هو واهب تلك

القوى والآلات البدنية، فكلُّ ما كان من متناولـها وانساقت إليه، فهي مُسَيَّـرة إليه بمقتضى غريزتها، فكيف يُؤاخذ الله على فعل فاعل أطلق الله له الإرادة في عمله وأعطاه القدرة عليها؟! لما كان ذلك مما يقال في جميع الأزمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي: إننا خلقنا الإنسان، وجعلنا من جوهر إنسانيّته العقلَ والاختيار، وألهمناه التمييزَ بالعقل بين الحقِّ والباطل، وبين الخير والشر، ثم بعثنا له رُسلاً من كَمَلَة أفراده، وشَرَعنا لهم الأحكام، وبيَّنا لهم العقائد، تعليماً للإنسان وإرشاداً، فهذا هو ما يقتضيه خَلْقُ الإنسان من حيث هو إنسان، ثم بعد ذلك هو مختار؛ فإما أن يسلك مَسلَكَ الخير فيَسْلَم، وإما أن يذهب مذهبَ الشر فيعطب ويشقى.

ومُلَخَّص المعنى: إننا خلقنا الإنسان مُسْتعدّاً للهداية، ما لم يُفسِد ذلك الاستعداد برَداءة التربية وسُوءِ القدوة والتقليد، وأرسلنا إليه الرسل بالتعاليم المُرشِدة إلى الطريق المستقيم. وهذه هي الـحُجَّة البالغة لله سبحانه على عباده، إنْ أفسدوا استعدادهم، وأعرضُوا عمَّـا أرسله إليهم ربهم من التعاليم، وسَلَكوا سبيلَ الضلال، فاللهُ سبحانه قد جَعَل الهداية إلى الصِّراط المستقيم معروضةً أمام البشر، إنْ شاءَ أخذَ بها، وإنْ شاءَ أعرَضَ عنها، كمـا شأنُه في الأخذ بسائر أنواع الاستفادة من منافع الكون، بحريَّـته واختياره.

ثم تمَّم سبحانه هذا البيان بقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: نحن المالكون للحياتين، والمالك للأمر عالمٌ بوجوه التَّصرُّف فيه، فما مكَّنك منه بهداه، وأرشدك إليه من ذلك، فلا تَحِدْ عنه فتشقى.

وقد أشار بذلك إلى ما نظّمه من العلاقة بين الدنيا والآخرة سعادةً وشقاء، ولهذا رتَّب على قولِه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾، قولَه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا

﴿تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي: لِرَحمتنا بكم وعِلمِنا الكامل بمصالحكم أسْدَينا إليكم هذا الهدى لِنُنذِرَكُم ناراً تتلهَّب.

قال الأستاذ الإمام: وهي نار يجب علينا الإيمان بها، ولكنْ لا ينبغي لنا البحث عن حقيقتها، لأنها من أمور الآخرة التي استأثر الله بعلم حقائقها، وإنما هي عذابٌ أليمٌ لمن يَصْلاها، و﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١) ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: لا يُعَذَّب فيها إلا الذي هو أشدُّ شقاء، وهو الذي كذَّب بالحق وأعرَض عنه، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ وهو الذي يأتي بما يَقي النفسَ من سُوء العاقبة.

وقد ذكره بأفضل مزاياه، فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ (٢) مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا (٣) ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ والمراد به: مَنْ يُنفِقُ مالَه ويعطيه، لا مُقابَلةً لنعمةٍ عليه، ولا مُكافأةً على خدمةٍ له، أو إحسان معه، ولا رياءً ولا سُمْعة، وإنما يُنفق ماله ابتغاءَ وجْهِ الله سبحانه.

وقد أكَّد له الوعد العظيم مقروناً بلام القَسَم المُضْمَر، فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي: لَسَوْفَ يعطيه عطاءً يُرضيه، ويُجازيه جَزاءً عظيماً حتى يرضى.

ويجوز أن يكون المعنى: فسوف يرضى الله عنه، ومَنْ رضي عنه فقد فاز، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) هذا الحصر ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ مُؤوَّل مصروفٌ عن ظاهره، فلا ينفي دخول الفاسق النار، لقولِه تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] يعني: أنَّ غيرَ الكافرينَ لا يُخلَّدون في النار. فيكون المرادُ بالآية هنا الصَّلْيُ المؤبَّد.

(٢) ﴿عِندَهُۥ﴾ أي: عندَ هذا الذي أعطى شيئاً من ماله للمحتاج.

(٣) ﴿إِلَّا﴾ حرف معناه هنا: «لكن».



مكيَّة، وهي إحدى عشرة آية

والغرض منها:

تثبيتُه ﷺ، وإيناسُه تجاه إبطاء الوحي عنه، وبيان أنَّ ذلك إعانةٌ له على التدرُّب عليه، وإراحةٌ له بالفترات أوَّلَ الأمر، حتى تقوى وتتدرَّب عليه نفسُه، وحينئذ يَتَتابع الوحي.

وقد أيَّد له أنَّ ذلك في مصلحته بما يعلمُه من عنايته به سبحانه منذ طفولته حتى الآن.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾ هو ضَوْءُ الشمس في شباب النهار، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أي: أظلم وسكن، ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ أي: ما تَرَكَكَ ربُّك وما أبغَضَك، وما أعرض عنك، ولكن أرجأك فترةً زال فيها الخوف من المَلَكِ وتبدَّل بالشوق.

قال الأستاذ الإمام: وقد اتَّفقت الروايات على أنَّ سبب النزول هو حصول فترة في توالي الوحي على النبيِّ ﷺ، فاشتدَّ شوقُه إليه، وكلُّ شوق يصحبُه قلق، وكلُّ قلق يشوبُه خوف، وهو ﷺ بشر يعلو به عن البشر الوحي.

وقد جاء في «الصحيح»: أنَّ النبيَّ ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً شديداً[1]، فآتاه الله ما كان في شوق إليه وثبَّته بالوحي، وبشَّره أن تلك الفترة لم تكن عن تَرْك ولا عن قِلىً، وأقسَمَ له على ذلك، وأشار في القَسَم إلى أنَّ ما كان من سطوع الوحي على قلبه أول

(١) رواه البخاري (٦٩٨٢) من بلاغات الزهري، بلفظ: «... وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ، فيما بلغنا، حزناً غدا منه ...».

مرة هو بمنزلة الضُّحى، تقوى به الحياة، وتنمو به الناميات، وما عرض بعد ذلك من الفترة فهو بمنزلة الليل إذا سكن؛ لتستريحَ فيه القوى، وتستعدَّ فيه النفوس لِـمَا يستقبلها من العمل.

ومن المعلوم أنَّ النبيَّ ﷺ لاقى من الوحي شدَّةً في أول الأمر، حتى جاءَ خديجة رضي الله عنها ترجف بوادرُه[١]، كما هو معروف في حديث «الصحيحين»[٢] وغيره، فكانت فترةُ الوحي لتثبيته ﷺ وتَقْوية نفسه على احتمال ما يَتوالى منه، حتى تتمَّ به حكمة الله في إرساله إلى الخلق، ولهذا قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾[٣] أي: ولَلْحالةُ الآخرةُ من أمرك خيرٌ لك من الحالة الأولى منه، يريد: ولَنِهايةُ أمرك خيرٌ لك من بدايته؛ لأنَّ كَرَّة الوحي وتتابُعَه سيكمل به الدين، وتتمُّ به نعمة الله على أهله. وأين بداية الوحي من نهايته، وأين الإجمال الذي جاء في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] من تفصيل العقائد والأحكام الذي جاء في مَثَاني القرآن؟!

ثم زاد الأمر تسليةً بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ مِنْ تَـوارُدِ الوحي عليك بما فيه إرشادٌ لك ولقومك، حتى أعلن سبحانه لعباده المؤمنين بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وكان ذلك في أكثر من عشرين سنة، فاستعمال حرف التسويف لذلك، وصَحِبَ إكمالَ الوحي في هذه المدَّة ظهورُ الدين، وإعلاءُ كلمة الله، وكمالُ نعمة الله عليه في ذلك.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) سلف تخريجه (٥: ١١٨).

(٣) يجوز أن يُراد بالآخرة والأولى: الدنيا والآخرة، وتكون الجملة إيماءً وتطميناً إلى أنَّ الله لا يتركك ولا يقلوك في الدنيا ولا في الآخرة، وأخراك خيرٌ من دنياك. ويجوز أن يُراد بالآخرة: عاقبة أمره التي تتناول آخر دنياه وجميع أُخراه. (المؤلف).

ثم استشهد على الإتمام بوعده، بما شاهده بنفسه من نِعَمِ الله عليه، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾. قال الأستاذ الإمام: التعبير بـ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾، ﴿وَوَجَدَكَ﴾: على مُتَعارَفِ الخطاب في لسان العرب، أي: ألم تكن كذلك وكنتَ كذلك. والاستفهام للتقرير.

كان عليه الصلاة والسلام يتيماً، لأنَّ والده تُوفِّي في المدينة وهو حَمْلٌ في بطن أُمِّه، فلما وضعته، عَطَّفَ الله قلبَ جدِّه عبد المطلب وقلبَ مرضعته حليمةَ على يتمه، وكَفِلَه جدُّه خير كفالة، ثم مات جدُّه وهو في سنِّ ثمان، فكَفِلَه عمُّه أبو طالب بوصيَّةٍ من أبيه عبد المطلب، وكان شديدَ العناية به في صغره، عظيمَ المحبة له في كبره، وما زال يُحبُّه وينصره بعد أن أكرمه الله بالنبوَّة حتى قُبِض، فتجرَّأت قريشٌ على النبيِّ ﷺ بعد موت عمِّه هذا، حتى اضطرَّته إلى الهجرة للمدينة، فذلك إيواءُ الله لنبيِّه ﷺ وهو يتيم.

أما قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ فهو من ضلال الطريق والتحيُّر في السلوك، أي: وجدك مُتحيِّراً في تعيين الطريق الحقِّ لأمر الدين، فهداك الله إليه.

قال الأستاذ الإمام: نَشَأ ﷺ مُوحِّداً لم يسجد لصنم قط، وطاهرَ الخلق لم يَقْترف فاحشةً، حتى عُرِفَ بين قومه بالأمين، فضَلالُ الشِّرك وضَلالُ الهوى في العمل كانا بعيدَيْن عن ذاته الكريمة، يَرْهَبان الدنوَّ من نفسِه القويمة، نزَّهه عنها من أول أمره ليُعليَ منزلتَه عند من يُرسَلُ إليهم، فيسمعوا قوله، ويهتدوا بهديه. ولكن للضلال أنواع أُخر، منها: اشتباه المأخذ على النفس حتى تأخذها الحيرة فيما ينبغي أن تختاره، وقد عَرَف ﷺ فسادَ الدين في قومه من مشركي العرب، ولكن كان بين يديه دينُ النصرانيَّة على ما كان عليه أهلُه في ذلك الحين، ودينُ اليهودية كذلك، وكلاهما دين توحيد، وفي كليهما شريعة لنبيّ، فهل في اختيار أحد الدِّينَيْنِ مصلحةٌ له ولقومه، وهل في الدعوة إلى

ما يختار منها فلاحٌ لنفسه ولشعبه؟ وهو عليه السلام أُمِّيٌّ لا يقرأ الكتب ولا ما حَوَته تلك الأديان من الأحكام والشرائع، وكيف كان يصلح ذلك وأهلُ كلٍّ من الدينَيْن لم يكونوا في حالهم أرشَدَ من قومه، إذ كان شيءٌ من الشِّرك يشوب عقائدَهم، وكثير من السيِّئات والجرائم تُدَنِّس أعمالَهم.

وأعظم أنواع الضلال كانت الحيرة في أمر العرب أنفسِهم، يراهم ﷺ في سَخافة عقائدهم، وضَعْف بصائرهم، باستيلاء الأوهام عليهم، وفساد أعمالهم، وشُؤْم تلك الأعمال في أحوالهم، وتفرُّق كلمتهم، وتَفانيهم بتَسافك الدماء، وإشرافهم على الهلاك باستعباد الغُرباء لهم، وتحكُّم الأجانب فيهم ـ الحبشة والفرس من جانب، والرومان من جانب آخر ـ، ثم هم في غفلة من مصيرهم ينفرون من الذُّل ويمدُّون أيديهم إلى أسبابه، ويفرُّون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه، فما العمل في تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكُّم عاداتهم، وأيُّ طريق ينبغي أن تُسْلَكَ في إيقاظهم من سُباتهم، ومن أيِّ الأبواب يمكن أن يدخل إلى قلوبهم؟ ما أشدّها حيرةً على الصِّدِّيقين، وما أعظمها ظلمةً تغشى السالكين من أهل الصِّدق واليقين، إلى أن يكشفها الله بالنور المبين، وهي حَيْرة لم يكمل الحظ من شرفها إلا للنَّبيِّين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، فهذا هو الذي عَنَاهُ الله بالضلال في هذه الآية الكريمة. وما أعظم الهداية في ذلك الضَّلال، وما أجدَرَه بالكُمَّل من الرجال.

ثم قال رحمه الله: وبعد هذا وهذا، فإنَّ من اهتدى إلى الله وعَرَف أنه خالق الناس كلِّهم، وأنه وحده المستحقُّ للعبادة من دون أحدٍ منهم، هل يدري بنفسه بغير وحي إلهي كيف يعبده، وبأيِّ وصف يصفه ويُمجِّده، والناس من حَوْله قد شَبَّهوه بخلقه وقاسوه على ما يعرفون من صُنعه، أفلا يحار الموحِّد كيف يصفُ ربَّه، وبأيِّ الوسائل يطلب قربه؟ كلُّ هذه الضروب من الحَيْرة كانت من حظِّه عليه الصلاة والسلام، قبل

أن تطلع عليه شمس النبوَّة، وللخلاص منها كان يطلب الخَلْوةَ بغار حراء، ويتلمَّس هدايةَ ربِّه في جوانب قلبه إلى أنْ سَطَع عليه نور الوحي، فانتشله من هذا كلِّه، واختار له ديناً قوياً، وعلَّمه كيف يُرشدُ قومه، وسَنَّ له الطريقَ في تخليصهم وتخليص العالم ممَّا كان فيه من فساد العقل وسُوء العمل، وهَدَاه إلى وَصْفِ ذاته سبحانه بما يليق بذاته، وأيُّ نعمةٍ أكبر وأجلُّ من هذه النعمة؟

ثم قال رحمه الله: هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، وهو نفسُه معنى قوله في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وليس في وصف النبيِّ ﷺ بالضَّالِّ على هذا المعنى شَيْنٌ له أو حَطٌّ من شأنه، بل هذا هو فَخْره عليه الصَّلاة والسلام، وإكليل[1] مَجْده، لم يكن عالماً فعلَّمه، ولم يكن مُطَّلعاً على الغيب فأطلَعه. هذا مُلخَّص ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير الآية، وما أجَلَّهُ مِن كلام!

وقد جاء عن محمد حسين هيكل[2] في الكلام عن النبيِّ ﷺ في غار حراء ما مُلخَّصه: «حراء: ويُسمَّى الآن جبل النُّور، يقع على يَسَار السالك إلى عَرَفة، وهو جبل شاقُّ الصعود، ويستغرق صعودُه أكثر من نصف ساعة، وفيه الغار في ذلك الوسط

---

(١) الإكليل: شبه عصابة مُزيَّنة بالجواهر، ويُسمى التاج إكليلاً. «لسان العرب» (كلل).

(٢) هو محمد بن حسين بن كامل هيكل (١٣٠٥-١٣٧٦هـ)، كاتب صحفي، مؤرخ، من رجال السياسة، له: «حياة محمد»، و«في أوقات الفراغ»، و«ثورة الأدب». «الأعلام» للزركلي (٦: ١٠٧).

المُوحِش الذي يفزع منه من يجهل أنَّ الحياة لا يملكها إلا مَنْ سَمَا فوق الخوف من كلِّ ما في الحياة، وتلك قوة فوق ما أُوتي الناس جميعاً، لا يُؤْتاها إلا من اختاره الله لرسالته، اعتزل محمد ﷺ الناس، وأمعَنَ في الانقطاع عنهم، ووَجَدَ في حراء خيرَ مَرْصَد رُوحيٍّ يمتحن به أسباب الحقيقة في كلِّ ما تقع عليه عينه، أو يتعلَّق به حسُّه، وفيما يتوسَّمه من حياةٍ وراء ما يقع عليه الحس أو تدركه العين، يمتحن ذلك فوق قمَّة هذا الجبل المشرف الذي يرى منه قويُّ البصر ساحلَ البحر الأحمر ـ على ما يقال ـ كما يرى منه أجلى صُور السماء في وسط تلك الجبال المحيطة به، فهو مَرْصَدٌ يطالع الحياة وتُطالعه، تَبزُغُ الشمس عليه ساعةَ تشرق، وتنحدر عنه ساعةَ تغيب، وتألق النجوم، ويحبو البدر في السماء، وتهوي الشُّهب، وتنتطح السُّحُب، ومحمد ﷺ شهيدٌ على هذه الأحداث كلِّها، يرى ما يشاهد من غذاء الروح، وأسباب التفكُّر والتأمُّل، بصُورة لا تفسدها ضجَّة الحياة، ولا تغشّيها مشاغلها.

وليس من رَيْب أن يصلَ من معرفة هذه الأسرار إلى نـتائج باهرة، من خير ما يصل إلى من يتَّصل بالكون في أسمى مراتب الاتِّصال، فلم ينطبع العالمُ في نفسٍ بالقوة التي انطبع بها في نفسِ محمدٍ ﷺ، ولم تصل الرياضة الروحيَّـةُ بأحدٍ إلى الرؤيا الصَّادقة التي انتهى إليها ﷺ قبل بعثِه، بعد أن قضى السنين يَتَعبَّد شهر رمضان كلَّ عام في حراء.

في هذه البقعة المُوحِشةِ المنعزلة، كان يقيم ﷺ وحده، يُؤْنسُه تفكيره وتأمُّله، يُقلِّب في نفسه هذه الحقيقةَ الساميةَ التي كان الله سبحانه يُهيِّئُه لها، ليبعثه إلى الناس بها.

وظَـلَّ كذلك حتى أماطت له الحقيقةُ لثامَها بالوحي الذي هَداهُ الله به، وأنقَذَه من حَيْرته، ونزل هذا القرآن عليه في ليلة القدر من شهر رمضان، بعد أن تمَّ لنفسه صفاؤها وتهيُّؤها، إذْ مما لا شك فيه أنَّ الحقَّ في حاجة إلى صَلابةٍ في النفس، وقوةٍ في

الخَلْق لينتصر، فلا بدَّ أن يُهيِّئَ سبحانه لرسوله ﷺ مِثلَ هاتيك الصِّعاب، تدريباً له؛ لِيَتولَّد في نفسه مثل هذه القوة. وكلُّ ما لاقاه ﷺ في أثناء حياته التبليغيَّـة من المشاقِّ والشدائد، إنما هو من بعض هذا المِرانِ التأديبي، لتكميل هذه القوة في نفسه وتغذيتها. انتهى.

ثم تابع سبحانه الاستشهاد على الإتمام بالوعد، بما شاهده بنفسه من نِعَم الله عليه، فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ والعائل: الفقير، وقد كان ﷺ فقيراً لم يترك له والده من الميراث إلا ناقةً وجارية، فأغناه الله بما ربحه في التجارة، وبما وهبته خديجة رضي الله عنها من مالها، وصَرَف ذلك كلَّه في سبيل الدعوة.

والمعنى: فمَنْ آواك في يُتمِك، وهَدَاك من ضلالك، وأغناك من فقرك، لا يتركك في مستقبل أمرك.

قال الأستاذ الإمام: منْ ذاق مرارةَ الضيق في نفسه، فأجدَرُ به أن يستشعرها في غيره، فيمنحه ما كان هو بصَدَد أن يستمنحَه.

كان ﷺ يتيماً، فباعَدَ الله عنه ذُلَّ اليُتم وآواه، فما أجدَرَه عليه السلام أن يُكرم كلَّ يتيم، شكراً لله تعالى على نعمته له، لذلك أمره سبحانه بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ وهو أمرٌ يوافق ما فيه نفسه، ولكنه جاءَ للمُبالغة في التهييج، أي: فلا تُذِلَّه، بل ارفع نفسَه بالأدب، وهذِّبه بمكارم الأخلاق، ليكون عضواً نافعاً في جماعتك، ينفعها وتنتفع به، ولا يفسده التذليل والهوان، فيكون جرثومة فساد.

وكان ﷺ حَيْـران، فأنقَـذَه من حَيْرته، فمِنْ حقِّ رعاية هذه النعمة أن يرأف بالحائرين، لذلك أمره سبحانه بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ والسائل: هو المُستَفهِم عمَّا لا يعلم. وقيل: بل المراد به طالب الصَّدقة، ويجوز أن يُراد به الأمران معاً. والغرض

من مساعدة السائل: نفسُ الغرض من تعهُّد أمر اليتيم. والمعنى الأول أنسَبُ لمقابلته بالهداية من الضلال في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾.

ثم كمَّل له الإرشاد بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ وقد قال في تفسيره الأستاذ الإمام: أي: إنَّك لما عرفتَ بنفسك ما يكون فيه الفقير فأوسِعْ في البذل على الفقراء، فالجملةُ كنايةٌ عن بَذْل العطاء للمُعْوِزين وإعانة المحتاجين، وليس القَصْد هو مُجَرَّد ذكر الثروة، فإنَّ ذلك من الفخفخة التي يتنزَّه عنها النبيُّ ﷺ. ولم يعرف عنه ﷺ في امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض، ولكن الذي عُرِفَ عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً.

أقول: ويؤيِّد أن المراد منه إعانة المحتاجين مقابلتُه لقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، والله أعلم.

ويجوز أن يُراد بالنعمة الرسالة، وبالتحديث نَشْرُ الدعوة، والله أعلم، وهو الأنسَبُ بالهداية من الضلال، وبموضوع السورة، والله أعلم، أي: فحدِّث بما أنعم الله عليك بعد حَيْرتك، من الهداية إلى هذه الشريعة، وانشرها بين الناس.

❊ ❊ ❊

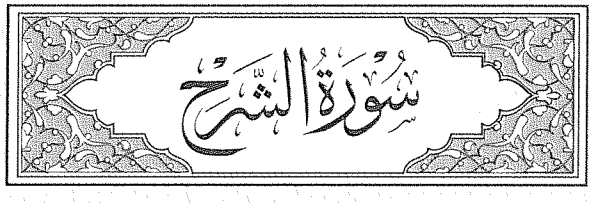

مكيَّة، وهي ثمان آيات

والغرض منها:

تتميمُ ما قبلها فيما اشتملت عليه من بيان عنايته به ورعايته له في سائر أحواله وتقلُّباته ﷺ.

وتنوير لقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، ولذلك أتى فيه بلفظ الماضي، فهي تمنُّنٌ عليه بتحقيق ما وَعَده به.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ الشَّرْح: التوسعة والبَسْط، أي: ألم نُـرَفِّه عليك بعد الشدَّة، ونُرِحْكَ بعد التعب.

قال الأستـاذ الإمام: وعِظَمُ الصَّدر من الجسم كان عند العرب دليل القوة، والقويُّ: قاهرٌ لِـمَا ينتابه، فهو في مَسَـرَّة وحضورِ رأيٍ دائمـاً، لا يضيق ذَرْعُه بأمر. وكذلك كَنَّوْا بشرح الصَّدر عن المسرَّة وانبساط النفس، وقد شَرَحَ الله صدرَ نبيِّه ﷺ، بإخراجه من تلك الحَيْرة التي كان يضيق لها صدرُه بما كان يلاقيه من جمود قومه وعنادهم، وقد كان ما يهمُّه من أمرهم حِمْلاً ثقيلاً عليه، فوضعَه الله عنه بهدايتهم، كما قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ والوزْر: الحِمْل، والإنقاض: الهدم، والكلام على التَّمثيل، فإنَّ ما كان يحمله ﷺ من ثِقَل الاهتمـام بشأنِ قومه وشأن الدعوة وما لاقى في سبيلها لم يكن ثِقْلاً حسياً، ولكنه كان همّاً نفسياً، فعبَّر عن الهمِّ الذي تُبْخَعُ به النفوس، بالحِمْل الذي تُقْصَم منه الظهور.

وتفصيل البيان: أنَّ الله سبحانه أنزل عليه القرآن، وأوجب عليه الدعوة إلى ما اشتمل عليه من الحقِّ والهدى وجدال المعاندين، وأوجب عليه حياطة الدعوة وحمايتها وقتال المعتدين على حرية الدعوة؛ ندبه تعالى لهذا كلِّه، وتلك مهمَّة شاقَّـة تحتاج إلى

الشجاعة والصبر، والفِطنة والـحَذَر، وتحتاج إلى سياسةٍ ماهرةٍ حازمةٍ في تدبير أمور الخلق في الحرب والسِّلم، وتدبير علاقات الأمة الإسلامية بعضها مع بعض، وتدبير علاقاتها مع غيرها من الأمم، وقد لاقى ﷺ في سبيل ذلك من العَنَت ما لاقى، ومن الشدائد والإحَن والمِحَن، ومن العداوة والبغضاء ما حدَّثنا به التاريخ.

وقد قام ﷺ بما نَدَبَه الله إليه أحسنَ قيام، على أكمل وجه وأتـمِّه، وذلك بمعونته سبحانه وتعالى. وهذا معنى قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

ثم أردَفَ ذلك بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ وأيُّ ذِكرٍ أرفعُ من أن يختصَّه الله لرسالته، فينقذ البشر من الظلماتِ إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد.

ثم قرن بين التهنئة والتعليل في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[1] أي: هذا الذي مَنَحناه إيَّاك من شَرْح الصدر ووَضْع الوزر ورَفْع الذِّكر، بعد ضيق الأمر واستحكام الكَرْب في أول السَّيْر، كان على ما جرت به سُنَّتُنا في هذا النوع من خِلقتِنا، وهو أنَّ مع العُسْر يُسْراً. والعُسْر الداخل في الاستغراق: هو كلُّ ما تجد النفسُ ألَـمَ الوقوع فيه، وتنزع إلى طلب الخلاص منه، بالوسائل التي سَنَّها الله لذلك الخلاص.

ولا ريب أنَّ كلَّ عُسْر من هذا القبيل فمعَه يُسْـرٌ يَسُوقُه الله إلى العامل الآمل العاقل، جزاءَ عمله، باتِّباع الوسائل لتحقيق أمله، واستعمـاله لمواهب عقله، لذلك حثَّ سبحانه على متابعة الأعمال، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي: واصِل العملَ

---

(١) يجوز أن تكون هذه الآية وعداً وتثبياً له ﷺ في موقفه الشاقِّ، وتقريراً لطبيعة مثل هذا الموقف من الشدَّة والرخاء، فكلُّ من يُقْرن به هذه المهمة يُعاني الشدائد حتى يَسْتَتِبَّ له الأمر، ويظهر الحق على الباطل، فيتبدَّل العسر باليسر، والعناء بالراحة والهناء. ويحتمل أن تكون الأولى: في بدء الوحي وهدايته بعد الحيرة، والثانية: في استِتباب الأمر ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بعد الإعراض والمقاومة الشديدة. (المؤلف).

وابْذُل الجهد، فإذا فَرَغتَ من عملٍ من أعمالك النافعة لك ولأمَّتك، وبَلَغْتَ سُؤْلَك فيها، فخُذْ في عمل آخر واتعَبْ فيه، فإنك تجد لَذَّةَ الراحة عَقِبَ النَّصَب، بما تَجْنيه من ثمرة العمل.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ في استثمار أعمالك، لا إلى أحدٍ سواه، أي: واصِل العملَ رغبةً في الله وفي جزائه.

فإن قيل: إنَّ هذه السورة ـ بما اشتملت عليه من الامتنان بتكلُّل مهمَّته بالنجاح ـ كان اللائق بها أن تكون مدنيَّة.

والجواب: أنها تعليق على ما جاء في سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ من عَوْد الوحي ومن رفع الحَيْرة وغير ذلك، حتى قال بعضهم: إنها تتمَّة لسورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، وكانت بمثابة الوعد الأكيد، والتسلية له ﷺ بما سيؤول إليه أمرُه من النجاح في مهمَّته ورفع ذِكرِه عالياً، وتكون أُخرى أمره خيراً من أُولاه، وآخرته خيراً من دنياه.

وحاصل المعنى: ألم نَشرَح لك صَدْرَك بهذا القرآن، ففاضت الحكمةُ من لسانك، وتحمَّلت أتعاباً لا تطاق، ثم بَدَّل الله حياتك المكيَّة بالحياة المدنيَّة، وأَمَرْنا المؤمنين بالصلاة عليك وذِكرِك على الدوام، فإنَّ مع العُسْر يُسْراً، فاحمد الله سبحانه، وتأهَّب إلى لقاه. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

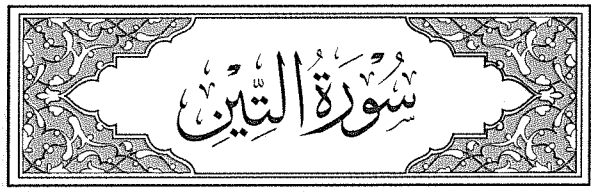

مختلفٌ فيها؛ أمكيَّة هي أم مدنيَّة

وآيُها ثمان

والغرض منها:

بيان أنَّ الله سبحانه خَلَق الإنسان مُستعداً للكمال والتخلُّق بحُسْن الخصال، ما لم يُفسِد ذلك الاستعداد بسُوء التربية ومفاسد العشرة ورَداءة الخلطاء، فإذا انحلَّت طبيعتُه بذلك الحال المُهين، انحَطَّ إلى أسفل سافلين، وكان من أرذل المخلوقين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ اختلفوا فيهما؛ فقيل: المراد بهما الثمرتان المعروفتان، وأقسَمَ سبحانه بهما لاختصاصهما بخواصّ جليلة، ومن أرباب هذا القول: مجاهد والنَّخَعي[1] وعطاء وجابر ومقاتل، وغيرهم.

وقيل: المراد بهما مكانان مُقدَّسان، ومن أرباب هذا القول: قَتادة وابن زيد ومحمد ابن كعب والضحَّاك وغيرهم، واختاره الطبري[2].

ثم اختلف أرباب هذا القول؛ فمنهم من قال: هما جبلان في بيت المقدس يُقالُ لهما بالسُّريانية: طورتينا وطورزيتا، لأنهما مَنْبتا التين والزيتون. ومنهم من قال: التين: جبل دمشق، والزيتون: جبل بيت المقدس. ومنهم من قال: التين: مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجوديّ، والزيتون: مسجد إيليا. وقيل غير ذلك.

وعلى كلٍّ، فمراد أرباب هذه الأقوال أنهما محلّان لنبيَّين من الأنبياء، وكذلك

---

(١) روى قول النخعي ومجاهد، الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٥٠١).

(٢) المصدر السابق (٢٤: ٥٠٣).

قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ هو الجبل الذي كلَّم الله فيه موسى عليه السلام. ويقال: إنَّ (سينين) و(إلياسين) و(الغِسْلين) وأمثال هذه الأوزان هي من لغة أهل اليمن وعرب الجنوب.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ هو مكة المشرفة، إذ هو بلد مأمون الغائلة، لا يخافه من يحلّه.

والأقسام بهذه الأماكن المقدَّسة؛ للتنويه بقَدْرها، وللإشارة إلى حوادثها في تاريخ الأنبياء، وأنها مَظهَرُ الآيات الباهرات، ومَبْعَثُ النور والهداية للبشر، وموضع إهلاك أهل الفساد المعارضين لذلك النور المبين، بنتيجة إفسادهم لطبيعتهم وارتدادهم إلى أسفل سافلين.

وقيل أيضاً: إنَّ هذه الأقسام الأربعة هي إشارة إلى أربعة فصول من تاريخ الإنسان الطويل؛ فالتين: إشارة إلى عهد الإنسان الأول، فإنه كان يستظلُّ في تلك الجنة التي كان فيها بشجر التين، وعندما بَدَتْ له ولزوجته سَوْآتهما طَفِقا يخصِفان عليهما من ورقه. والزيتون: إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذرِّيَّته؛ لأن أوَّل شيء عَثَر عليه من الأرض بعد أن استَقرَّت السفينةُ وغيضَ الماء هو شجرة الزيتون. وطُور سينين: إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية، وهذا البلد الأمين: إشارة إلى عهد الشريعة المحمدية.

فالأقسام بهذه الأربعة للتذكير بتلك الحوادث وتلك الفصول من التاريخ الطويل، وبما وقع فيها من كفر وإيمان، نتيجةً للمحافظة على طبيعة الإنسان وعدم المحافظة عليها بأمان، فمن حافظ على طبيعته البشرية سار نحو الكمال المنشود لبني الإنسان، وكان في أعلى علِّيين، ومن أفسدها انحدر إلى أسفل سافلين.

ثم ذكر جواب القَسَم، وهو استعداد الإنسان هذا للخير والشر، وأنَّ حصوله

على الخير إنما يكون بمحافظته على فطرته واتِّباعه لِمَا جاءَه من شرائع الله وتعاليمه على لسان أنبيائه، مما يلائم فطرته ويوافق طبيعته، وأنَّ وقوعه في الشرِّ إنما يكون بإفساده لطبيعته، وانحرافه عن تلك الشرائع والتعاليم، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[1] أي: في خَلْقِه وخُلُقِه، فإذا حافظ على ذلك بلغ من السُّموِّ والمعرفة ما يجعله مُتَّصلاً بالملأ الأعلى، ولا يرى لأحدٍ من الخلق حقاً في التوجُّه إليه، فلا يطلب إلا من الخالق، ولا يعبد إلا الخالق، ولا يعتزُّ إلا بعزَّة الخالق. وإذا لم يحافظ على طبيعته وأفسدها بحطَّة التربية وسوء القدوة؛ انحطَّ إلى حضيضٍ مهين.

وهذا هو معنى قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ﴾ أي: بذلك الإفساد لطبيعته والتحريف لغريزته ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ بسبب اتِّباعه لغير منهج الله الذي وصفه له، وطلب منه اتِّباعَه والسيرَ فيه حيثُ سار في نهج مستقيم، فبلغ من الدناءة والحطَّة أن يعبد حَجَراً أو شجراً أو إنساناً مِثلَه أو حيواناً من أجهل الحيوانات وأقلِّها معرفة وقيمة، وأمثال هذا، ولا سيما اندفاعه مع شهواته وهواه.

ويلوح لي في القَسَم بهذه الأشياء الأربعة معنىً آخر، وهو: أنَّ الله سبحانه جَمَع في هذا القَسَم بين ما يكون مُستعداً للتنشئة على ما خُلِقَ عليه من حُسْن التقويم، أو

---

(١) إنَّ الإنسان مؤلف من الذات الطبيعية المخلوقة في أحسن تقويم، والذات الانطباعية المتكوِّنة عنها بالتنشيء والتقويم، فإن ثُقِّفت وقوِّمت على العقيدة الصحيحة والمعرفة القويمة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة؛ أخذت بالنفس نحوَ ما خُلقت له من الكمال، وساعدت استعدادها الطبيعي للتَّحلِّي بأكرم الفعل وأفضل الخصال، وعاشت في الدنيا راضيةً مرضيةً، وفي الأخرى سعيدة علية. أما إذا نشِّئت الذات الانطباعية على العقائد الخاطئة والأخلاق الواطئة؛ حطمت حُسْن قوام الذات الطبيعيَّة وحطَّتها، وانحدرت بها إلى الحضيض وسفّلتها، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾. (المؤلف).

التردِّي به إلى أسفل سافلين، وبين ما يكون به حُسْن التقويم للإنسان، وفي مخالفته يكون ذلك التردِّي الفظيع.

وقد ذكر من النوع الأول فصيلتَيْن لا يَجهَلُ جودتَهما ورداءتَهما أحد، وهما «التين» و«الزيتون» فإنهما إذا تُعُهِّدا بالتربية الصحيحة بمقتضى السُّنَن الكونيَّة فيهما جاءا بأحسن النوعين وأجودهما، وإذا أُسِيئَت تربيتهما بمُخالفة تلك السُّنَن جاءا بأردأ النوعين وأخسِّهما. ومثلهما الإنسان؛ يكمل إذا حافظ على طبيعته بحُسن التربية، ويَسفُل إذا أفسدها بسوء التربية.

وذكر من النوع الثاني موضعَيْن ظهر فيهما شريعتان إلهيتان، وهما: طور سيناء الذي ظهرت فيه شريعة موسى، واعتمدت عليها شريعة عيسى. وهذا البلد الأمين الذي ظهرت فيه الشريعة الكاملة؛ شريعة محمد صلوات الله وسلامه عليهم، وهما من التعاليم الإلهيَّة التي يُرسلها سبحانه للبشر، فمن تمسَّك بها حافظ على ما فيه من حُسْن التقويم وأكمَله إلى أبعد حدّ، ومن أهملها أو خالفها انحطَّ وتردَّى إلى أسفل سافلين.

ومُحصَّل القَسَم: كما جعلنا مِثلَ التين والزيتون يَصلُحُ إذا صَلَحَت تربيتُه وتنشئته، فكذلك الإنسان إذا سار حسب تعاليم الله حَسُنت حاله وتَمَّ كماله، وإذا أعرضَ عنها، تَسَفَّل وتَردَّى، وكان أحطَّ من الحيوان، وإنْ تَرقَّى في الماديَّات والصِّناعات؛ إذ لا ثقافة ولا إنسانيَّة إلا بالدين السماويِّ الصحيح.

أما تحرير معنى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ...﴾ فهو أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان على أحسن تقويم في تركيبه الخارجيِّ والداخليِّ، وفي شكله الصُّوري والمعنوي، لأنه سبحانه أعدَّه من دون سائر المخلوقات إلى مراتب من الكمال يَقْصُر دون إدراكها التصوُّر، فركَّب فيه أشرفَ المواهب، وهو العقل الذي امتاز به عن سائر الحيوان، ومنحه خاصَّتَي الاختيار والإرادة تكميلاً لتلك المَوْهبة، ووَهَبه كذلك مواهب أُخرى

وغرائز فُضْلى اختَصَّه بها من دون سائر المخلوقات، وأراه طريقَي الاعتدال والانحراف بالفطرة وبالوحي، وبيَّن له أنه إن اعتدل نالَ غايةَ الكمال الماديّ والروحيّ، وإن انحرف ارتطَمَ في عقبات النقص والانحطاط، وارتدَّ إلى أسفل درجة من عالم الحيوان؛ لأنَّ فيه ذلك الاستعداد الحيواني، كما فيه استعداد الكمال الروحاني، فلو اتَّبع في نُموِّه قانونَ الحكمة الإلهيَّة والتعاليم الربَّانيّة، كان في أعلى مراتب الكمال بمقتضى ما خَلَقه الله عليه من حُسْن التقويم وبداعة التكوين، وإن أهمَلَ ذلك وتَسَفَّل تَربَّت فيه الحيوانيَّة البهيميَّة بأقوى مظاهرها وأحطِّ أشكالها، كما هي السنَّة الطبيعيَّة في هبوط العالي، فشارك البهائم في شَرَهها ونَهَمها، وضارَع الوحوش في ضلالها وجهلها، وأشبَهَ الضياغم في ضَرَواتها وقسوتها، فعكس تلك المَلَكات والمواهب عكساً سقط به إلى الحضيض في السفالة والانحطاط هذا.

وتوضيح المعنى بصورة أُخرى: أنَّ الله سبحانه خلق ذاتَ الإنسان مُستَعِدَّةً للعُلوِّ والتَّسفُّل، نتيجةً للمُثل العُليا أو السُّفلى التي تجعلها هدفَها في هذه الحياة، وتنهج نهجَها في النشأة والتوجيه.

فإن جَعَلَت هدفَها الـمُثُلَ العُليا تدرَّجت في العُلوِّ نحو الكمال، وتفاوتت في الدرجات العُلى التي تَرْقى إليها حتى تكون بعضُ الذوات أفضَلَ من المَلَكِ كالأنبياء.

وإن جعلت هَدَفَها الـمُثُلَ السُّفلى تدرَّجت في السَّفَل، وتفاوتت في الدَّرَكات التي تنحطُّ إليها حتى تكون بعضُ تلك الذوات أسفَلَ من الحيوانات وأحطَّ من الحشرات، فالذات السُّفلى إذا غلبت ـ وهي المعبَّر عنها بالشيطان[1] أو الناحية الشيطانيَّة

(١) بل الشيطان مخلوق آخر مُباينٌ للذات الإنسانيَّة السُّفلى، مخالفٌ لها في الجنس؛ حيثُ خُلِقَ من نار، وهي مخلوقة من طين، إلا أنه يعمل على تقوية هذه الذات السفلى وتغليبها على الذات العليا.

أو المركز الشيطاني، والله أعلم ـ تهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين، والذات العُليا إذا غلبت تسمو بصاحبها إلى أعلى عليِّين، وهو الكمال المنشود لبني الإنسان في عالم الغيب وعالم الشهود.

والخلاصة: أنَّ الله سبحانه أعدَّ الإنسان لمقاماتٍ من الكمال يعجز عن إدراكها التصوُّر والخيال، ومَنَحَه لذلك خاصَّتي الإرادة الواسعة والاختيار المُطلَق، وأراه طريقَي الاعتدال والانحراف بالفطرة والوحي، وصرَّح له بأنه إن اعتَدَل وارتقى نال غايتَيْ كماله الماديّ والأدبي، وإن انحرف وتردَّى ارتطم بأوحال الحِطَّة والتَّسفُّل، وارتدَّ إلى ما دون عالم الحيوان، كما هي السنة الطبيعة في هبوط العالي.

ولذلك بيَّن سبحانه أنَّ الذين سَلِموا من ذلك الارتداد هم المؤمنون الذين حافظوا بتمسُّكهم بشريعة الله على سلامة فطرهم ونور بصيرتهم، وحفظوا لأنفسهم مواهبَها، فأجابوا الحقَّ حين دعاهم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ باتِّباعهم لِـمَا جاءهم به أنبياؤهم من هداية الله وشرائعه، فهؤلاء هم الذين يحفظون منزلتهم من الإنسانيَّة، ويستبقون لأنفسهم ذلك الاستعداد والاعتدال الفطري.

وقد أقام مقامَ هذا البيان لازِمَه، على نهج القرآن في ذلك، وهو ما سينالونه من النعيم المقيم في الآخرة، وقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ أي: نعيمٌ غير مقطوع من نعيم الآخرة.

ثم عقَّب هذا البيان بأبلغ وجه يحثُّ على التمسُّك بالدين الذي يؤدِّي إلى هذا الأمر العظيم والفوز المبين، فقال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾[1] والخطابُ للأمة

---

(١) بعد أن بيَّن أنَّ الدين والإيمان هو الذي يحفظ من التدهور إلى أسفل سافلين، فرَّع عليه بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾؟ أي: بعد أن عرفت ثمرة الدين هذه في الإنسان والإنسانية، وأنه =

في شخص النَّبيِّ ﷺ، أو هو خطابٌ للإنسان، أي: بعدما علمتَ أنَّ الدِّين الذي يأتي من الله سبحانه على لسان أنبيائه ورسله إنما هو أمرٌ حافظٌ لكيان وكمال الإنسانيَّة تنزيلٌ ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، كيف تكذِّبه وتنكره، وتتَّخذ لك ديناً من موضوعات البشر، أو مما حرَّفه أو تلاعَبَ به، أو ديناً منسوخاً؟

ثم بالغ في الحثِّ على ذلك بوجه آخر، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ وأعلى المُدبِّرين والمُشرِّعين حكمةً وإتقانَ تشريعٍ وتدبير؟ فكيف تُعرِضُ عن تشريعه وأحكامه؟ تُنكِرُ على المُعارِض ويُؤنِّبه.

ويجوز أن يُراد بالدين: الحساب والجزاء، وتكون الآية تقريعاً على صِنفَي الإنسان على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]؟ أي: كيف لا يكون حياة ثانية يُجازى فيها المحسنُ بإحسانه والمسيء بسيِّئاته، ويُقتَصُّ للمظلوم من الظالم؟ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ وأعدَلُ العادلين؟!

= هو الذي يحفظه من التردِّي إلى الحضيض، ويحفظ له كرامتَه ورتبتَه العالية التي فطر عليها من الاستعداد للكمال، أيُّ شيء يدعوك إلى التكذيب به، ويجعلك تُعرض عنه وتتنكَّب؟

وهذه صورة من تعابير القرآن المنوعَّة في البيان، ينوِّه بها عن الدين وآثاره.

ثم أيَّد هذا التنويه بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟ أي: أليس هذا الدين من تشريع الله سبحانه، وهو أعظم مَنْ وضع الأحكام في مراعاة حفظ الأخلاق، وقيادة الإنسان للمحافظة على إنسانيَّته، ونَيْله السعادة في الدارين؟

ويجوز أن يراد بالدين: الحساب في اليوم الآخر. والمعنى: إذا علمتَ أن أكثر الناس يُرَدُّ إلى أسفل سافلين بإفساده لطبيعته، فكيف لا تُصَدِّق بالردِّ للحساب، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟ (المؤلف).

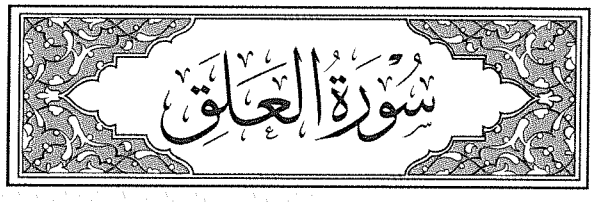

مكيَّة، وهي تسع عشرة آية

والغرض منها:

إعلامُ النَّبيِّ ﷺ ببَدْء الرسالة، والدعوة إلى الله.

والوعيد الشديد لمن خالفه وعَصاه، أو عارضه وقاوَمَ هُداه.

وقد نَزَلَ أوَّلها في غار حراء في جبل النور على يسار الذاهب إلى عَرَفة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨﴾.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ أثبتَ العِلمُ أنَّ منيَّ الإنسان يحوي حيوانات صغيرة تُشبِهُ شكل العَلَق، بها يكون التلقيح.

وهذه الآية هي أوَّل القرآن نزولاً، وهذه الآية مع ما تليها دعوةٌ إلى القراءة والعلم، وتَبْصيرٌ للإنسان بحقيقته وأصل خِلقته، وبقدرة الله العليَّة فيه، مُلمعاً بها إلى أنه سبحانه قادرٌ أن يجعلَ غيرَ القارئ قارئاً؛ لأنه قد جَعَل الإنسان مُستعدّاً للعلم والقراءة.

قال الأستاذ الإمام: صحَّ في الأخبار: أنَّ النبيَّ ﷺ أوّلَ ما تـمثَّل له المَلَكُ الذي يتلقَّى عنه الوحي قال له: «اقرأ، قال رسول الله ﷺ: فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فَغَطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال لي: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فغَطَّني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾»[1]. فهو أول خطاب إلهيٍّ وُجِّه إلى النبيِّ ﷺ. والذي يظهر أنَّ الأمر للتكوين، فقد أراد الله سبحانه أن يكون من هذا الأمي قارئـاً فكان[2]، ومدخول البـاء سببٌ مُحقِّـق للفعل، ويجوز

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) لعله يريد: فكان قارئاً عن ظهر قلب. أما كونه صار قارئاً عن خط وكتابة فهذا لم يكن، كما هو معلوم في السيرة النبوية.

ـ والله أعلم ـ أن يكون في طبيعة المَلَك دَخْلٌ في هذا الاستعداد، ويجوز أن يكون الأمر للتنبيه إلى أنه ـ بصفته إنساناً ـ مُستعدٌّ لذلك، ولا سيما الكامل منه، ولكنه لم يدرَّب، فتكون الباء للاستعانة.

وقيل: العلق: الدم الجامد، وهي حالة الجنين في الأيام الأولى لخلقه.

وفي جملة الصلة هذه إيماءٌ إلى أنَّ الذي يَخلُقُ من الدم الجامد إنساناً ـ وهو الحيُّ الناطق الذي يسودُ بعلمه سائر المخلوقات الأرضيَّة يُسخِّرها لخدمته ـ يقدر أن يجعل من الإنسان الكامل مِثلَ النبي ﷺ قارئاً، وإنْ لم يسبق له تعلُّم القراءة.

ثم استأنف الكلام بإيماءٍ آخر، وهو أنه سبحانه قد خصَّ الإنسان بالاستعداد لقابليَّة العلم والتعلُّم، ولصنعة الكتابة التي يحفظ بها علومَه، وكرَّر عليه الأمر بالقراءة، نظراً لهذا الاستعداد الطبيعي، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ من العلوم والمعارف، فأزاح ما بيّنه ﷺ من العُذْر بقوله: «ما أنا بقارئ»، وبيَّن له أنَّ الله سبحانه أكرَمُ من كلِّ مَنْ يُرتجى من الإعطاء، فلا غَرَابة أن يُعطيَك قابليَّة القراءة[1]، وزادَه اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة، فوَصَفَ مانِحَها بأنه الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم.

وفيه براعةُ استهلال بأنَّ القرآن كتابُ علمٍ وتوجيه، يُعلّم الإنسان ما لم يَعْلَم، كما فيه إيماءٌ إلى أنَّ إنزاله هو من كَرَم الله ونعَمِهِ العُظمى، وفيه إعلاءُ شأن الكتابة، وإعلاءُ شأن هذا الإنسان.

وفيه إيماءٌ إلى اتِّساع مدارِكِه لعلومٍ عجيبة الشأن، وإلى أعظمِ ما سيدركه عبرَ

---

(١) أي: عن ظهر قلب، كما تقدم، وإلا فالكلام غير صحيح.

مسيره في هذه الحياة، والمعنى: إنَّ الذي جَعَل من الجماد آلةً للفهم والبيان، ألا يجعل منك قارئاً مُبيناً، وتالياً مُعلِّماً.

وهذه الآيات دلَّت على أنَّ الله سبحانه خَلَق الإنسان الحيَّ الناطق، مما لا حياة فيه ولا شكل ولا نطق، وهو الدم، وعلَّمه أفضَلَ علم، وهو الكتاب، ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئاً، فكلُّ موهبةٍ في الإنسان هي من هِباته تعالى، فما أعجبَ أن يكون بعد ذلك كلِّه غافلاً عمَّا أنعم الله به عليه، مُعْرِضاً عن شكره وذِكره.

ثم قال الأستاذ الإمام: ولهذا ناسب أن يأتي بعد تلك الآيات المتقدّمة بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ فلا يقدِّر نعمةَ الله هذه عليه.

والذي أراه في وجه الربط: أنَّ ما سبق يتضمَّن الإرسال للناس، وهذه الجملة تتضمَّن الباعث عليه والزَّجْر والوعيد للطاغين، ويجوز أن تكون تقريراً لضرورة إرساله إلى الناس.

وكلمةُ ﴿كَلَّآ﴾ زَجْرٌ تفيد في الأغلب أنَّ ما بعدها مخالفٌ لأثر ما قبلها، فهي زَجْرٌ وتأنيبٌ للإنسان بأنه مع ظهور أمره، وشدَّة فقره في نفسه، وظهور أنَّ الله سبحانه وليُّ نعمته ومالك كل شيء لديه، فإنه مع ذلك كلِّه يَطْغى ويخرج عن الحدِّ الذي يجبُ عليه أن يقفَ عنده، فيستكبر عن الخشوع لربه، ويتطاول بالأذى على خَلْقه، وذلك ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ أي: أنْ رأى نفسَه قد استغنى وتميَّز عن الناس بثروته ومركزه الزائف.

ومُحصَّل الكلام: أنه متى أحسَّ من نفسه قدرةً وثروةً يَعُـدُّ نفسَه بهما فوق مَنْ دونه من الناس، فلا يرى أنه معهم أعضاءُ جماعة واحدة يحتاج كلٌّ إلى الآخر في استدامة الأمن واستكمال السعادة. والاستغناء بهذا المعنى، هو الرذيلة، وهو المذكور في قوله تعالى في سورة الليل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل: ٨].

أما الغنى والقوة في أيدي الأتقياء فهما أعظم وسائل الخير، وأفضل أسباب السعادة الدنيويَّة والأخرويَّة؛ لأنَّ الأتقياء يُرشدهم في تصريف ثروتهم وقوَّتهم العِلمُ والدينُ الصحيحان. ولما كان الأغلب من عامَّة الناس يصرفهم الهوى والشهوة، أطلق ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في هذه الآية باعتبار الأغلب من أفراده، وهم الذين يستغنون بالمعنى السابق.

ثم توعَّد هذا الصِّنفَ من الإنسان، فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ أي: إنَّ المرجع إلى الله فيحاسبك على أعمالك.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾.

ثم جاء بمَثَل من أمثلة الطغيان؛ ليقرِّر ذلك المعنى في النفس، ويجعله موضوعاً للإرشاد، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾؟ فكلمة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يُقصَدُ بها إنكارُ الحال المُستَخبَر عنها وتقبيحُها، كأنه يقول: ما أسخف عقل هذا الذي يطغى به الكِبْر، فينهى عبداً من عبيدِ الله عن صلاته والقيام بواجباته!

أما قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ فهو صورةٌ من صُوَر الإرشاد ببيان الفَرْق بين لو آمن ونال ثمرة إيمانه وبين كفره هذا ونهيه عن الهدى وما سيناله عليه من عقاب. ومِثلُ هذا الأسلوب من خصائص القرآن؛ لأنه كتابُ هدى وإرشاد، فهو يُعقب الإنكار على الضَّلال ببيان الهُدى وطريق النجاة، وصَفْاً للدواء بعد بيان الداء.

فمعناه: أخبِرْني عن حاله لو كان ذلك الطاغي على الهدى وعلى صراط الحق، أو كان قد أمر بالتقوى مكانَ نهيه عن الصلاة، أفما كان ذلك خيراً له وأفضل؟! فهو

إرشادٌ لهذا الطاغي بأبدع الوجوه وألطفها، أكمله بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ أفلا يخشى أن تحلَّ به قارعة، ويُصيبَه من عذاب الله مالا قِبَلَ له باحتماله؟!

وجواب كُلٍّ من الشرطين محذوف، على طريقة إيجاز القرآن، أقام مقامَه قولَه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي: أجَهِلَ أنَّ الله مُطَّلِعٌ على أمره، فإنْ كان على الهُدى أحسَنَ جزاءَه، وإن كذَّب وتولَّى لم يَفلِت من عقوبته؟ هذا مُلخَّص ما قاله الأستاذ بتصرُّف.

ويجوز أن يكون هذا المعنى العام مُتمثِّلاً في حادثةٍ خاصَّة للنبيِّ ﷺ في مبدأ الدعوة، كما يُؤخَذ من مُلخَّص السيرة، وهي أنه ﷺ أخذ يدعو إلى الدين الجديد، ويُصلِّي في فناء الكعبة جهاراً، وهو مَجْمع عُظماء مكَّة، فكان ذلك مُهيِّجاً لغَيْرتهم على دينهم، فاندفع واحدٌ منهم ـ دفعَه أحدُ عظماء قريش ـ ينهى النبيَّ ﷺ عمَّا يقوم به من الدعوة والصَّلاة في فناء الكعبة.

ثم أردَفَ السياقَ بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ وهي شعرُ الجبهة، والسَّفْع: الجَذْب بشِدَّة. وهذا مَثَلٌ[1] في القَهْر والإذلال والتعذيب والنَّكال.

ثم أبدَلَ من الناصية قولَه: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾، فوصفها بهذين الوصفَيْن لزيادة التَّشنيع بها، وبيان سبب السَّفْع والإذلال.

ثم تابع التهديدَ، وسَبَكه على التهكُّم بهذا الطاغي، فقال: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ والنادي: المجلس، أي: فَلْيَدعُ جماعتَه لنُصْرته، سنَدعُو له من جنودنا ما يراه من العذاب. وأصل الزبانية: الشُّرَط وأعوانُ الولاة، استعير لأدوات العذاب أو ملائكته.

---

(١) بل الأقرب أن يكون على الحقيقة في الآخرة.

ويجوز أن يكون المعنى: فَلْيَدعُ جماعتَه وليمنعوا المُصلِّين ويُعاونوه على هذه الأعمال، فإنْ فَعَل فقد تعرَّضَ لقهرنا وتنكيلنا.

ثم شجَّع النبيَّ ﷺ بقوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ إذا نهاك عن عبادة الله، ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ أي: تقرَّب إلى الله بالعبادة.

ويجوز أن يكون الكلام إرشاداً للأمة أيضاً في شخص النبيِّ ﷺ. وعليه، فهذا النَّهيُ مُوجَّه إلى كلِّ مَنْ يُعارضه الطغاة في أمرٍ من أُمور الله، يَزْجُره به سبحانه عن الضعف والإصغاء.

وهذه الصلاة التي جاءت في هذه السورة هي ما كان النبيُّ ﷺ وأصحابه يُصَلُّونها قبل ما فَرَضَ الله عليهم الصَّلواتِ الخمس.

❊ ❊ ❊

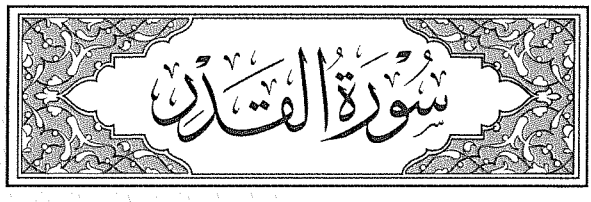

مُخْتَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة هي أم مدنيَّة

وآيُها خمس

والغرض منها:

بيان فضل الليلة التي نزل فيها القرآن تنويهاً بشأنه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ قال الشعبي: المراد من نَحْو ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]: الابتداءُ بإنزاله. وإسنادُ ما للبعض إلى الكلِّ من خصائص اللغة[١].

وليلة القدر هي بعينها الليلةُ المباركة التي جاء ذِكرُها في سورة الدخان، ويصرِّح بذلك نصُّ آية البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قالوا: والسِّرُّ في عدم تعيين ليلة القدر من شهر رمضان، إنما هو ليكون الشهر كلُّه ظرفاً لطَلَبها؛ ليذكر المؤمنون ويشكروا فيه كلَّه نعمةَ الله عليهم في إنزال القرآن.

وسُمِّيت ليلة القدر، إما بمعنى: ليلة التقدير، لأنَّ الله سبحانه ابتدأ فيها تقديرَ دينه، وتحديد الخطَّة لنبيِّه في دعوة الناس إلى ما يُنقِذهم مما كانوا فيه[٢]، أو بمعنى العَظَمة

---

(١) الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: للقرآن، وأضمَرَه من دون ذِكر تفخيماً له، وشهادةً بنباهته المُغْنيةِ عن التصريح، كما عَظَّمه بإسناد إنزاله إليه، والتنويه بشأن الوقت الذي نزل فيه. (المؤلف).

(٢) لم أقف على هذا القول في معنى ليلة القدر عن أحد من السلف، وهو قول جديد يضاف إلى معنى التقدير، وهو لا يلغي ما نقل عن السلف من أقوال كثيرة في معنى التقدير. =

والشرف، كما قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ بمعنى: أنَّ شَرَفَها ليس مما تَسهُلُ إحاطةُ العلم به.

ثم أتبع ذلك بالكلام عنها إجمالاً، فقال: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾

= والراجح أن ليلةَ القَدْر سمِّيت بذلك لعُلُوِّ شأنها وعِظَم قَدْرها وفضلها عند الله، أو لأنه يُقدَّر فيها ما يكون في السنة من الآجال والأرزاق والمقادير. كما في «تفسير الطبري» (١٦: ٤٧٩)، وأبي السُّعود في «تفسيره» (٩: ١٨٢).

وأما المراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، فقد قال الماوردي في «النكت والعيون» (٥: ٢٤٥): «في تأويل: ﴿كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ أربعة أوجه:

أحدها: الآجال والأرزاق والسعادة والشقاء من السنة إلى السنة. قاله ابن عباس.

الثاني: كل ما يقضى من السنة إلى السنة، إلا الشقاوة والسعادة، فإنه في أم الكتاب لا يُغيَّر ولا يُبدَّل. قاله ابن عمر.

الثالث: كل ما يقضى من السنة إلى السنة إلا الحياة والموت. قاله مجاهد.

الرابع: بركات عمله من انطلاق الألسن بمدحه وامتلاء القلوب من هيبته. قاله بعض أصحاب الخواطر».

ولا تعارض بين هذه الأقوال، وقد أسند الإمام الطبري نحوَها عن جماعة من التابعين، ثم قال: «وعنى بقوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾: في هذه الليلة المباركة يُقضى ويُفصَلُ كلُّ أمر أحكمه الله تعالى في تلك السنة إلى مثلها من السنة الأخرى».

وقال ابنُ الجوزي في «زاد المسير» (٤: ٤٧٣) في تفسير قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾: «قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلة القدر، ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ أي: بما أمر به وقضاه، ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ قال ابنُ قتيبة: أي: بكُلِّ أمر. قال المفسرون: يتنزلون بكل أمر قضاه الله في تلك السنة إلى قابل».

والذي اختاره شيخُ المفسرين الإمامُ الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٥٣٤) هو قول قتادة، وهو: أنه يقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها.

والمراد من هذا العدد: التكثير لا التحديد[١]، والعرب تعدُّ الألف عدداً كبيراً، فبيَّن بذلك فضيلةَ هذه الليلة على الأزمان والدهور.

ثم بيَّن شيئاً من مزاياها، فقال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ يريد نزولَ الوحي بهذا القرآن العظيم، الذي حَوَى كلَّ أمر جليل يحتاجه الإنسان بالضرورة، وعدَّى تَنزَّل بـ﴿مِّن﴾ لتضمُّنه معنى: أُنزلوا أو نزلوا.

والروح: هو الذي يتمثَّل له ﷺ مُبلِّغاً للوحي، وهو جبريل عليه السلام؛ إذ كانت هذه الليلة هي أوَّل عهد النبيِّ ﷺ بنزول الملائكة عليه وشهوده لهم، والأمر هنا هو نفس الأمر الذي جاء في قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤-٥]، والآيتان بمعنى واحد، وهو الكلام عن ليلة القدر المباركة التي كانت فيها هذه الأحداث المباركة، وهي احتفال الملائكة واحتفاؤهم بوحي الرسالة وابتداء نزول القرآن، وفيه الأوامر والأحكام والأخلاق الفخام.

وإنما عبَّر بالمضارع ﴿تَنَزَّلُ﴾، لحكاية الحال واستحضارها في الذهن لعظمتها.

ثم ذكر مزيَّةً أُخرى من مزايا هذه الليلة وبركتها، فقال: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾[٢] أي: إنها ليلةُ سلام، حيثُ فتح الله فيها سبيل الهداية والرشاد، المؤدِّيَيْن

---

(١) سلف الكلام في تبيان أن العدد للتحديد.

(٢) ليلة القدر أصلها الليلة التي ابتدأ فيها نزول القرآن على النبيِّ ﷺ، ولتَشَرُّفها بهذا الحَدَث العظيم لُقِّبَتْ بهذا اللقب الكريم، ثم بقيت ذكرى تَتكرَّر في مثل تلك الليلة من كل سنة، تحتفل وتحتفي بها الملائكة ـ والله أعلم ـ احتفاءَها بالليلة الأولى التي نَزل فيها القرآن، وجاءت السورة مُبيِّنة للأمرين معاً، فالمراد بقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: القرآن الذي حَوَى كل أمر عظيم، كما جاء في =

إلى السلام. أو المراد ـ والله أعلم ـ: سلامُ الملائكة على بعضهم تهنئةً واحتفاء. وقوله: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ تقريرٌ لاستغراق السلام والاحتفاء بها حتى نهايتها.

ويجوز أن يُراد سلامُ الملائكة بعضهم على بعض وعلى المؤمنين القائمين المُحْيين لهذه الليلة المباركة، إخباراً بالمعنى المَصْدري عن الزمان، على حدِّ قولهم: «شهر رمضان صيام وقيام»، ويأتي السلام بمعنى التهنئة، كما في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، والله أعلم.

فكلَّما دار الفَلَكُ دورتَه، وجاء بشهر رمضان؛ صَحِبَته نفحةٌ من ذكرى نزول هذا القرآن الذي عمَّ خيره سائر الأكوان ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

* * *

= سورة الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. وإنما عدَّى التنزيل بـ﴿مِن﴾ لإفادة التنويع فيما احتواه المنزل، على ما أظن. والمراد بقوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ شعار الاحتفال وعبارة التهاني، وهو من باب الإخبار بالمصدر عن الزمان، كقولك: العيد مُصافحات وتهاني، ومثل ذلك من خصائص اللغة وعُرْف التخاطب. والسلام يكون للتعارف وللطمأنة، ويكون للتهنئة، كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، فالملائكة تحتفل وتحتفي بليالي القدر يُهنِّئ بعضهم بعضاً، ويُهنِّئون أرواحَ المؤمنين بها، وبالصيام والقيام. هذا ما أراه في فهم السورة، والله أعلم بمراده. (المؤلف).



مُختَلَف فيها، مدنيَّة أم مكيَّة

وآيها ثمان

فبعد أن بيَّن في السورة السابقة فَضْل الليلة التي نزل فيها القرآن، بيَّن في هذه فَضْل القرآن، ونوَّه بشأنه وشدَّة احتياج البشر له؛ لعموم الكفر والشِّرك والضلال في سائر البشر قبل نزوله، فهم في أشد الحاجة إليه.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ عمَّا هم عليه من الضلال ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ التي هي ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ عن الباطل، وهي هذا القرآن، أي: لا يُمكِنُهم أن يهتدوا إلى الصواب من أنفسهم، بعد أن زاغُوا وأفسدوا فِطَرَهم، وابتعدوا عن الحقِّ بتلاعبهم في شرائعهم، فهم في أشدِّ الحاجة إليه، ولا علاج لهم سوى ذلك. وفي هذا الوَصْف تعريضٌ بما عند أهل الكتاب من الخَلْطِ في كتبهم التي بأيديهم، وباحتياجهم الشديد إلى هذا الدين، كالمشركين.

ثم وصف هذه الصُّحف المُطَهَّرة بقوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ[1] قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي: ذاتُ

---

(١) إن الكلام يُكتَبُ في الورقة ونحوها، فتسمَّى الورقة كتاباً وصحيفة، ويُسمَّى نفس المكتوب كتاباً، فمن الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٨]، =

قيمةٍ لِـمَا فيها من الحقِّ، أو مستقيمةٌ ناطقة بالحق والصواب. وهي إما الأحكام الحكيمة، والبيانات الجليلة، والتوجيهات الصحيحة التي في القرآن، وإما ما اشتمل عليه مما صحَّ من كتب الأوَّلين، كصُحف إبراهيم وكتاب موسى وعيسى عليهم السلام، فإنها موجودةٌ في ضمنه؛ لأنه واسع ومبارك، أو كلاهما، وهو الأَوْلى والأقرب لنهج القرآن، على أنه يجوز أن يراد بالكتب: نفس السُّوَر.

وعلى كُلٍّ، فالآية تنويهٌ بشأنِ هذا القرآن وما اشتمل عليه، وبيان شدَّة الحاجة إليه، وتَـمنُّن على مَنْ آمن به من الفريقَيْن بعد أن كانوا في ظلام من الجهل بما يجب الاعتقاد والعمل به من شرائع أنبيائهم وسَلَفِهم، وذلك لاعتمادهم فيما يعتقدون وما يعملون على تقليد آبائهم الضَّالِّين، حتى جاءَتهم هذه البيِّنةُ الواضحة من الله سبحانه، فهَدَتْهم لرُشْدِهم وأخرَجَتْهم من ضلالهم، وهم الذين آمنوا بها منهم، واهتَدَوا بهَدْيها.

وأما الذين لم يؤمنوا بها فقد أومأ سبحانه إلى أمرهم ضِمنَ بيان حال أهل الكتاب ودَيْدَنهم مع كتبهم، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ على ألسنة أنبيائهم، فتفرَّقوا بها بالتأويل، وتلاعَبوا في التوحيد، وما أُمِروا إلا ليعبدوا الله وحده، وهكذا انسَلَخَ كلُّ فريقٍ منهم مما يأمر به كتابُه، وأخلَدَ إلى الأرض واتَّبع هواه، وكان أمرُه فُرطاً. وهكذا كان شأنُهم في النبيِّ ﷺ، فجَحَدوا بيِّنَته، كما جَحَدوا بيِّنةَ أنبيائهم وحَرَّفوها بالتأويل، وأشركوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطاناً، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ أي: مائلين عن جميع العقائد الزائفة، ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

= ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: ٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾. فالمراد بالصحف: ما يكتب فيه، وبالكتب: المكتوب. والله أعلم. (المؤلف).

ثم نوَّه بشأن هذه الأوامر بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ أي: دينُ تلك الكتب القيِّمة، أو البيِّنة القيِّمة، أو دين الملَّة القيِّمة[1].

ويفيد مفهوم هذه الآية: وحدةَ الأديان في أُسُسِها، كما يفيد أنَّ دَيْدَنَ أهل الكتاب التفرُّق في أمر الأديان، والاختلاف في أحكامها، والمُعارضةُ لِـمَا جاء فيها كلِّه أو بعضِه، فهو يَنْعى عليهم بذلك ويُعنِّفهم عليه.

أقول: ويجوز أن تكون الآيات أيضاً حكايةً لِـمَا كان يقوله أهل الكتاب والمشركون من أنَّ نبياً قد حان حينُه، ووافانا زمانُه، يأتي ونؤمن به، يقولون ذلك لأن الأفكار كانت مُشْبَعةً بالبشارة بقرب مجيء نبيٍّ يكون خاتم الأنبياء، وتكون شريعتُه خاتمةَ الشرائع، كما بشَّرت بذلك الكتب السماوية ولا سيما الإنجيل، إذ معناه البشارة، وكان الأحبار والرُّهبان يبثُّون هذه الفكرة بين الناس، وكانت جاليات من الروم تأتي إلى مكة للتجارة تَرقُبُ ظهور هذا النبيِّ وتبثُّ الفكرة، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثم ذكر سبحانه جزاء الفريقَيْن الكافرين والمؤمنين، وسجَّل أحوالهم، وبيَّن مصيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾[2] أي: شرُّ الخليقة. بمعنى:

---

(١) قال غلام ثعلب في «ياقوتة الصراط» ص ٥٩٨، بتحقيقي: «﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ قال الإمامان ـ أي: ثعلب أحمد بن يحيى، إمام الكوفيين المتوفى سنة ٢٩١، والمبرِّد محمد بن يزيد إمام البصريين المتوفّى سنة ٢٨٥ـ: هاهنا مضمر؛ كأنه قال: وذلك دين الملَّة القيِّمة؛ فكأنه نعتُ مضمرٍ محذوف؛ كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] أي: خَلْقاً باطلاً».

(٢) حيث استبدلوا الكفر بالإيمان، والحقَّ بالباطل، والطاعة بالعصيان، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ حيث آمنوا بما جاءهم من الحق، وعملوا به، فكانوا خيرَ أمةٍ أخرجت للناس. (المؤلف). =

أنهم أقبَحُ وأسوَأُ ما خلق الله حالاً؛ لأنَّ مُنكِرَ الحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه منكرٌ في الحقيقة لعقله، مُهْلِكٌ لروحه، جالبٌ للهلاك على نفسه وغيره.

ثم قابل حالَ الكافرين ومصيرَهم بحال المؤمنين ومصيرهم، على نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ لأنهم ـ بمتابعة الحقِّ بعد معرفته ـ قد حقَّقوا لأنفسهم معنى الإنسانيَّة التي شرَّفهم الله بها وبالعمل الصالح، قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الإنساني، وهَدَوْا غيرَهم بحُسْنِ الأسوة إلى مثل ما هُدُوا إليه من الخير والسعادة، فمَن يكون أفضَلَ منهم؟!

ثم سجَّل جزاءهم، فقال: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ لأنهم لم يخرجوا عن حدود شريعته، ولم يُهمِلوا العمل بسُنَّته، ورضاءُ الله: تفضُّلُه وإحسانه، وهو أكبر الجزاء، ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ لأنهم يحمدون صنيعَه فيهم وإحسانَه إليهم بسعادة الدارَيْن، فإنهم بحُسْن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به في الدنيا، فهم راضون عنه، ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة وجدوا من فضل الله ما لا محلَّ للسخط معه، فهم راضون عن الله في كل حال. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم ختم الكلام بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ قال الأستاذ الإمام: أراد بهذه الكلمة الرفيعة: الاحتياط لدفع سُوء الفهم الذي وقع ولا يزال يقع فيه العامَّة من الناس، بل الخاصَّة كذلك، وهو أنَّ مجرَّد الاعتقاد الديني بتأثير الوراثة وتقليد الأبوين،

= قلت: الصواب أن يقال: «والباطل بالحق، والعصيان بالطاعة»، لأن الباء تدخل على المتروك بعد الفعل «استبدل»، وقد سلك المؤلفُ الجادةَ في قوله: «حيث استبدلوا الكفر بالإيمان»، لكن لم يُتابع على النَّسق نفسه.

ومعرفة ظواهر بعض الأحكام، وأداء بعض العبادات كحركات الصَّلاة وإمساك الصوم، مُجرَّد هذا يكفي في نَيْل ما أعدَّ الله من الجزاء للَّذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن كانت قلوبُهم حَشْوُها الحسدُ والحقدُ والكبرياء والرياء، وأفواهُهم ملؤُها الكذبُ والنميمة والافتراء، وتهزُّ أعطافَهم رياحُ العُجْب والخُيلاء، وسرائرُهم مسكنُ العبوديَّة والرِّقِّ للأمراء، بل ولمن دون الأمراء، خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لربِّ الأرض والسماء، كلا، فإنَّ خشية ربِّهم لم تحلَّ قلوبهم، ولهذا لم تُهذِّب نفوسَهم، ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشيَ ربَّه، وأشعر خوفه قلبَه، والله أعلم.

* * *



مُختَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة هي أم مدنيَّة

وآيُها ثمان

والغرض منها:

الترغيب بالخير، والترهيب عن الشرِّ، حَذَراً من يوم الحساب.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، ويكون ذلك بخراب العالم واصطدام الأجرام الكونيَّة ببعضها، والله أعلم.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ (١) أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ وهي ما يكون في باطنها من كنوز ودفائن وغيرها، وذلك من جَرَّاء تَشَقُّقها وتَفَسُّخها وتَفَتُّتها بالاصطدام والاضطراب، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣ - ٤].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾؟ وهي عبارة تدلُّ على التَّهوُّل وشدَّة الدهش.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ (٢) رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾(٣) وتحديثُ الأرض

---

(١) أظهر ذكر الأرض ثانياً، ولم يكتفِ بضميرها، فيقول: «وأخرجت أثقالها» للإشعارِ بأنَّ الأرضَ عند إخراج ما فيها تكون على حالةٍ مغايرة لِما كانت عليه عندَ الزلزلة، فكأنَّها أرض أخرى.

(٢) «بأنَّ»: الباء للسببيَّة، أي: بسبب أنَّ ربَّكَ أمَرَها بالتحديثِ بأخبارِها.

(٣) الآيات (١- ٥) تعودُ إلى آية القيامة، والثلاثة الأخيرة (٦- ٨) تعود إلى آية الحشر وبيان الحساب. (المؤلف).

تـمثيل[١]، كما قال الطبري وغيره في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١][٢]، والمعنى: إنه يُفهَمُ من شكل الحادث كونه بأمر إلهيٍّ خاص، أمرها به أن تكون خراباً. أقول: فهو تمثيلٌ لِـمَا لا يمكن معه الإنكار، كما كانوا ينكرون قبل ذلك حدوثه ووقوعه، بمعنى: أنَّ هذه الحقائق تظهر لهم يومئذ مكشوفةً ظاهرةً للعِيان، ويدركون أنَّ هذا الحادث هو ما كان سبحانه قد توعَّد به.

ثم ذكر ما يكون بعد ذلك من الحشر والحساب، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ[٣] ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: مُتفرِّقين بحَسَب طبقاتهم وأصنافهم، كما مرَّ في قوله تعالى في

---

(١) بل حقيقة، فالأرض لها إدراك على وجه يناسبها، كما أن سائر الجمادات كذلك، وإن كنا لا نفهم هذا الإدراك ولا نعلم كيفيته، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ويوم القيامة يُنطِقُ الله الجلود والأسماع والأبصار بأعمال أصحابها، فلا يمتنع أيضاً أن تنطق الأرض حقيقة.

وفي تحديثِ الأرض بأخبارِها دليلٌ على ثبوت شعورها، وإدراكِها لِـما يجري على ظهرها، فهي سوف تشهدُ يومَ القيامة بما عُمل على ظهرها، وهذه الشهادة لا تكون إلا عن علمٍ ومُشاهَدَة، فلولا أنَّ لها إدراكاً وشعوراً لما علمت، ولما تحمَّلت هذه الشهادة حتى أدَّتها يوم القيامة، فإنَّ الشهادة لا تُقبل إلا ممَّن تحمَّل العلمَ المشهودَ به.

(٢) قال الطبريّ في «تفسيره»: «يقول جلَّ ثناؤه: فقال الله للسماء والأرض: جيئا بما خلقتُ فيكما، أما أنت يا سماءُ فأطلعي ما خلقتُ فيك من الشمسِ والقمر والنجوم، وأما أنتِ يا أرضُ فأخرجي ما خلقتُ فيك من الأشجار والثمار والنبات، وتشقَّقي عن الأنهار ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] جئنا بما أحدثتَ فينا من خلقك، مُستجيبينَ لأمرِك لا نعصي أمرك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل». ويُنظر الكلام حول هذه الآية في مقدِّمة التفسير.

(٣) ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾: تقول العرب: صدرَ فلانٌ عن المدينة؛ أي: تركها وانتقل لغيرها. والمراد هنا: يومَ تقعُ هذه الزلزلة وما بعدَها من الأهوال، ينصرف الناسُ عن موقف الحساب بعدَ العرض مُتفرِّقين.

سورة النبأ: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]؛ وذلك ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾ أي: أجْزِيَةَ أعمالهم، خيراً كان أو شراً[١].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[٢] فهذا هو القانونُ الأساسي، لا تغيير فيه ولا مُحاباة.

قال الأستاذ الإمام: وهذا يعمُّ المؤمن والكافر، وقد قال بذلك كثيرٌ من أئمة السَّلَف رضي الله عنهم، كيف لا والله جلَّ شأنه يقول: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أصرَحُ قولٍ في أنَّ الكافر والمؤمن في ذلك سواء، وغاية الأمر: أنَّ حسنات الكفار الجاحدين لا تصل بهم إلى أن تخلِّصهم من عذاب الكفر، فهم به خالدون في الشقاء، إلا أنَّ درجتهم تتفاوت بتفاوت أعمالهم المخفِّفة عنهم، كما قال ﷺ عن أبي طالب: «إنه في ضحضاح من نار»[٣].

والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار وأنها لا تنفعهم، معناها: أن الأعمال

---

(١) بل يرى الإنسان عملَه يوم القيامة، ويترتَّبُ على ذلك أيضاً أن يرى جزاءَه، وانظر ما تقدَّم تعليقاً عند تفسير الآية ١٠ من سورة التكوير.

(٢) أي: فمَنْ يعمل مقدار ذرَّةٍ خيراً ظاهراً أو باطناً من عمل قلبيٍّ أو نفسيٍّ أو جسديٍّ يَكتسبُه بإرادتِه في الحياة الدنيا، يَرَ كتابَ أعمالِه مُسجَّلاً بالصُّورة والصَّوت والخواطر والنيَّات، ويَنالُ ثوابَ عملِه الذي عملَه في الدنيا، خيراً باقياً، وسعادةً خالدة، وثواباً حسناً. ومَنْ يعمل مقدار ذرَّة شراً من عمل قلبيٍّ أو نفسيٍّ أو جسديٍّ يكتسبُه بإرادته في الحياة الدنيا، يَرَ كتاب أعماله مُسجَّلاً بالصُّورة والصَّوت والخواطر والنيَّات، وينال عقابَ عمله الذي عمله في الدنيا.

(٣) سبق تخريجه (٣: ١٨٥)، (٤: ٧١).

التي كانوا يتعبَّدون بها حابطة، لأنها ليست من عند الله، فهم فيها كمن يطلب أمراً ويسلك غير الطريق المؤدية إليه، فسَعْيُه فاشل، أما الأعمال الإنسانيَّة التي يعملونها لوَجْه الله، فإنها تُخفِّف عنهم العذاب، ولكن لا ترفع عنهم عذاب الكفر والخلود في النار، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

* * *

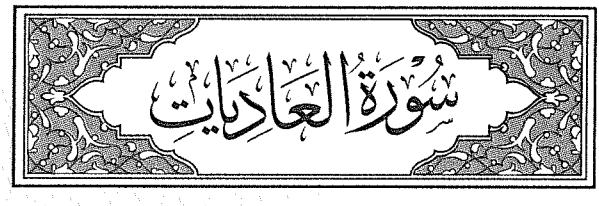

مُخْتلف فيها؛ أمكيَّة هي أم مدنيَّة؟

وآيها إحدى عشرة

ومُلخَّصها:

بيان مَيْل الإنسان إلى الشر بإفساده لطبيعته.

وتحذيره عن ذلك ببيان اطِّلاع الله عليه وحسابه يوم الحشر وعقابه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ جمعُ عاديَة، مِنَ العَدْوِ، وهو الجَرْي. والضَّبْحُ: أنفاسُ الخيل عند جَرْيها. يُقسِمُ سبحانه بالخيل التي تعدو وتجري في الغزو والجهاد في سبيل الله، وهي من شدَّة الجري تَضْبَحُ ويُسمَعُ لها زفير شديد، ينوِّه بشأنه.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾ وهذا وَصْفٌ آخر لـها، وهو ما يكون بحوافرها أثناء الجري من قَدْحِها الأرضَ وحجارتَها، أو هو تمثيلٌ لشدَّة الجري وكنايةٌ عنه.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ في سبيل الله على العَدُوِّ ﴿صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ﴾ أي: بفعل الإغارة ﴿نَقْعًا ﴿٤﴾﴾ أي: غباراً، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أي: بالنَّقْع ﴿جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ أي: أدخَلْنَ الغبار وسط جمع العدو، وهو كنايةٌ عن هجومهنَّ عليهم، واختلاطهنَّ بهم عند غَلَبتهم، وينوِّه بكلِّ ذلك ـ وهو صورة الحرب القديمة ـ بصفتها صورة حرب.

قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: أقسم سبحانه بالخيل مُتَّصفةً بصفاتها التي ذكرها، آتيةً بالأعمال التي سَرَدها، لينوِّه بشأنها، ويُعْلي من قَدْرها في نفوس المؤمنين، أهل العمل

والجد، ليُعْنَوا باقتنائها وتدريبها على الكرِّ والفرّ، وليحملهم على العناية بالفروسية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وكان في هذه الآيات وما على غرارها من الأحاديث ما يحمل كلَّ فرد من رجال المسلمين أن يكون في مقدِّمة فرسان العالم مهارةً وإقداماً[١].

يُقسِمُ سبحانه بالخيل صاحبةِ تلك الصفات التي رفع ذكرها؛ ليؤكِّد أنَّ الجهاد ضروريٌّ للمحافظة على الحق والنصرة له، ودَفْع المعتدي عليه، ولا سيما حق الله[٢].

ثم جعل منشأ العلّةِ والسببَ للجهاد الخبرَ الذي جاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ

---

(١) أقول: وكان على المسلمين أن يغالبوا الكافرين في صنع كل ما جدَّ من آلات الحروب. (المؤلف).

(٢) أقسم سبحانه بالخيل وصفاتها وأعمالها، تنويهاً بشأنها، وإلماعاً إلى المُقسَم عليه، وهو محذوف يُفهَمُ من طبيعة المُقسَم به، على نهج القرآن في مثل ذلك. والتقدير: لتُقاتِلُنّ في سبيل الله وليُزهِقَنَّ الحقُّ الباطلَ. ثم ذكر موجبات هذا القتال، ناظراً إلى الكفار بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: إنه لجحود بربوبيَّة ربه ووحدانيته وكتبه ورسله وقدرته على الحشر والجزاء، رغماً عن أنه يشهد على ذلك بطبيعته ووجدانه، ويشعر به، وإنه سيشهد على نفسه يوم القيامة.

ثم علَّل منشأ الإنكار في الرؤساء الذين هم قدوة الأتباع، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي: فهو يُفضِّل الماديّات على الروحيّات والمعنويّات. فالآية تُؤْذن بأنه يكره هذا في الدين الذي يسلبه مركزَه، ويُسوِّيه بباقي الناس، ويُفوِّت عليه حُظوظَ الدنيا، فتوعَّده بقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ ...﴾ أي: أفلا يعلم بشعوره ووجدانه أنه مبعوثٌ ليوم عظيم ينال به حسابه وجزاءه؟ وحينئذ يندم ولاتَ ساعةَ مندم.

ثم أكد الوعيد وبالغ فيه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه من أمرهم خافية، وسيجازيهم جزاء وفاقاً. (المؤلف).

﴿لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ أي: كفورٌ جَحودٌ لله ولنِعَم الله، ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ أي: وإنَّ الله على كفره وجُحوده هذا لَمُطَّلِعٌ وشهيد، أو الضمير للإنسان، وشهادته على نفسه في ذلك إنما تكون يوم القيامة[١].

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾[٢] فيُضَحِّي في سبيله الحق والصواب. قال الحسن: المعنى: إنَّ الإنسان لَبخيلٌ شحيحٌ لشدَّة حبِّه للمال[٣]. وقال الفرَّاء: بل المعنى: إنه شديدُ الحب للمال[٤].

وأقول: تكون شدّةُ حبِّه للخير ـ كالرياسة وجمع المال ـ هي التي تحمله على معارضة الرسل ومقاومة الإصلاح؛ حفظاً لمركزه الزائف وماله المغصوب. فتكون الآية بياناً لمنشأ الإعراض فيه عن الله، والسبب لمقاومته لرسله.

ثم توعَّده على ذلك فقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾[٥] من الموتى، أي: بُعثوا ونُشروا، وخرجوا من القبور.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ أي: ما حَوَتْه صدورُهم عن أقوالهم وأفعالهم، بمعنى: جُمِعَ ذلك المحصول وأُظهِرَ وبُيِّن، بحيثُ لا يبقىٰ سبيلٌ إلى إخفائه.

---

(١) أو شهادته في الدنيا والمراد: إنَّه على كُفْرِ النعمة وجُحودها لشهيدٌ على نفسه، يُجاهر به، ويُفاخِرُ بفعلِه، إذ يزعم أنَّ الغزوَ للسَّلْبِ والنهب، والاستعلاءِ في الأرض، حقٌّ الأقوى على الأضعف. أو أنَّ أعمالَه تشهدُ بأنَّه كفور لنِعَم ربِّه، فهي شهادة بلسان الحال.

(٢) أي: وإنَّ الإنسانَ لأجلِ حُبِّ المالِ وحرصِه عليه لشديدٌ قويٌّ في البغي والظلم والعدوان.

(٣) «النكت والعيون» للماوردي (٦: ٣٢٦).

(٤) «معاني القرآن» للفراء (٣: ٢٨٥).

(٥) الهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدَّر. أي: أيفعلُ ما يُفعَل من القبائح ولا يلاحظ ما سيحلُّ به إذا بُعثر ما في القبور.

ومفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف، حُذِفَ لِيَجُولَ الفِكرُ في استحضاره وتقديره، وقد دلَّ عليه ببعثرة ما في القبور وتحصيل ما في الصُّدور، أي: أفلا يعلم الكَنُودُ الحريصُ ما يكون حالُه في الحياة الأُخرى يوم تُكشَف السَّرائر، ويُجمع محصولُ الأعمال والضمائر.

ثم أكَّد الوعيد بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾، نعم، إنَّ الله خبيرٌ بهم يومئذٍ وفي هذا اليوم أيضاً، وإنما خصَّ ذلك اليوم بالذِّكر ليكون الكلام وعيداً لهم فيه، أي: وسيُجازيهم يومئذٍ جزاءً وفاقاً.

وإنما أتى هنا بضمير الجمع؛ لأنَّ «الإنسان» اسم جنس جَمْعيّ، لفظه مفرد، ومعناه جمع.

❊ ❊ ❊



مكيَّة، وهي ثمان آيات

والغَرَضُ منها:

بيانُ هَوْل يوم القيامة، وما يتبعُه من حساب مَهيب، وثواب وعقاب رغيب رهيب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾؟ القارعة اسمٌ من أسماء القيامة، كالحاقّة والصَّاخّة والطامّة والغاشية. ووجه تسميتها بالقارعة: أنها تقرع القلوب بهَوْلها، وأنّ الأجرام الكونيَّة يَصدُمُ بعضُها بعضاً ويَقرَعُه.

وقوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ استفهام قُصِدَ به تهويلُ أمرها؛ لشدَّة ما يكون فيها، مما تفزع له النفوس، وتدهش له العقول، يصعب تصورها.

ثم زاد في تهويلها بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾؟ أي: لا شيء يحيط بها ويفيدك برَسْمها، فأخذ يُعرّف بأحوالها وببعض ما يحدث فيها، فقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ والفراش: هي الحشرات التي تراها تَتَرامى على ضوء السِّراج ليلاً؛ يُضرَبُ بها المَثَلُ في الحَيْرة والجهل بالعاقبة، والناس من هَوْل ذلك اليوم يكونون منتشرين حَيَارى هائمين، لا يدرون ماذا يصنعون، ولا ما يُصنَعُ بهم، كما جاءَ في سورة القمر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ والعِهْن: الصُّوف، والمنفوش: المفرَّقةُ شعراتُه بعضها من بعض، فيكون على حالة يطير بها مع أضعف ريح. أي: إنَّ الجبالَ ـ لِتَفَتُّتها وتَفُرُّق أجزائها ـ لم تبقَ لها إلا صورة الصُّوف المنفوش، لا تلبث أن تَتطاير وتذهب، فما أرهَبَ هذا الأمر وأشدَّ شقاه!

وبعد أن ذكر القيامة ذكرَ الحساب والجزاء، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾[1] قال الأستاذ الإمام: يقال: ثَقُلَ ميزانه، أي: صار له قَدْرٌ وقيمة، كأنه إذا وضع في كفَّة ميزان رَجَح[2]. وإنما يكون المقدار والقيمة

---

(١) أي: مرضيَّة له، يُحبُّها صاحبُها ويَسعَد فيها، ولا يملُّ منها ولا يَسأمُها. فـ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بمعنى اسم المفعول للمبالغة في ثبوت الرضا.

(٢) جاء ذكر الميزان في القرآن في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وصيغةُ الجمع فيه تحتملُ أمرَين: إما أن تكون ثمة موازينُ متعددة، تُوزَن فيها الأعمال، وإما أن يكون المراد الموزونات، جمع باعتبار تنوُّع الأعمال.

وجاء ذكر الميزان في السنة، فمن ذلك ما رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة». وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]».

وروى البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤) أيضاً عن النبي ﷺ قوله: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرَّحمٰن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وروى أحمدُ في «مسنده» (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيُخلِصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مدّ البصر، ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب، =

لأهل الأعمال الصَّالحة والفضائل الراجحة، فهؤلاء هم الذين يُجزَونَ بالنعيم الدائم، ولا رَيْب أنَّ معيشتَهم فيه تكون معيشةَ تـمتُّع ولذّة، وهي التي تُسمَّى العيشة الراضية الهنيئة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ يقال: خفَّ ميزانه، إذا سَقَطَت قيمتُه، فكأنه ليس بشيء، حتى لو وُضع في كفَّة ميزان لم تَرجَح به. ومن كان في هذه الحياة كثيرَ الشرِّ قليلَ الخير، لم يبلغ بنفسه منازل الإخلاص لله في القول والعمل، ولم يرتفع بها عن دنايا الأمور وسفاسفها، ولم يُنزِّه عقلَه عن الإشراك، ولم يُطهِّر قلبَه عن رذائل الأخلاق، فماذا يكون في الآخرة؟ لا ريب أنه لا يكون شيئاً، فلا وَزْنَ له، ولا تَرجَحُ به كفَّةُ ميزان لو وُضع فيها. وهذا المعنى قد صرَّح به القرآن في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

ومعنى ﴿فَأُمُّهُۥ﴾: أنها مَرجِعُه الذي يأوي إليه، كما يأوي الوَلَدُ إلى أمِّه.

= فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فيقول: أحضِروه، فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السِّجِلّات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السِّجِلّاتُ في كفّة، والبطاقة في كفّة، قال: فطاشت السِّجِلّات، ولا يثقل شيءٌ باسم الله الرحمن الرحيم».

وأما صفة الميزان فقد دلّتِ الأحاديثُ على أن له كفّتَين حِسِّيّتَين مُشاهَدَتَين، تُوزَنُ فيه الصحائف، وربما وُزِنَ الشخصُ نفسُه أو أعمالُه، وكل ذلك مذكور في الأحاديث.

ووَزنُ الأعمالِ من مواقف يوم القيامة المشهودة، قال القرطبيُّ في «التذكرة» ص٧١٥: «قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها». انتهى. وعليه فالوزن أيضاً لا يكونُ في حق كلِّ أحد، ذلك أن الله يُدخِلُ عباداً الجنةَ من غير حساب، فلا وَزْنَ عليهم إذن. والله أعلم.

ومعنى ﴿هَاوِيَةٌ﴾: أنها مَهْواة سحيقة يهوي فيها، أي: إنَّ أُمَّه التي يأوي إليها: نارٌ حامية يهوي فيها، كما سيُفسِّرها به.

وسُمِّيت «هاوية» مع أنها يُهوى فيها؛ كما سُمِّيت العيشةُ راضيةً مع أنها يُرضى بها، ومثل هذا عند البيانيين يُسمَّى: المجاز العقلي، من إعطاء صفة الفاعل للمفعول به، مبالغةً في الوصف، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

ثم زاد في تهويلها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾، أعاذنا الله. وضمير ﴿هِيَهْ﴾ للسَّكْت.

وفي كلمة ﴿حَامِيَةٌۢ﴾ ما في كلمة ﴿هَاوِيَةٌ﴾ من المجاز العقلي.

ثم قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: ومن عجيب ما قاله بعض المفسِّرين في الميزان: إنَّ له لساناً وكفّتَين كأطباق السماء والأرض[1]، ولا يعلم ماهيَّته إلا

---

(١) ثبت في السُّنّة أنّ للميزان كفّتَين، أما اللِّسانُ ووَصْفُ سَعَةِ الكفّتَين بأنهما تستوعبان السماوات والأرض فلم يأتِ فيه حديثٌ مرفوع فيما أعلم، ولكن وردت فيه آثار، فمن ذلك ما روى اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢٢٠٨) بإسناده عن سلمان رضي الله عنه قال: يوضع في الميزان، وله كفّتان لو وُضِعَ في إحداهما السماواتُ والأرضُ ومَنْ فيهن لوَسِعَه. انتهى.
وأسند أيضاً (٢٢١٠) عن الحسن قال: له لسان وكفتان.
وروى اللالكَّائي أيضاً في «اعتقاد أهل السنة» (٣٢١) عن ابن أبي حاتم قال: سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار ـ حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً ـ فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص... والميزانُ حقٌّ له كفّتان. انتهى.
وقال أبو القاسم الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (١: ٢٥٠): «وأن الميزان حقٌّ له لسان وكفتان»، وقال أبو الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين» (٢: ٣٥٣): «واختلفوا في =

الله[١]! فماذا بقي من ماهيَّته بعد لسانه وكفَّتيه حتى يُفوَّض فيه العِلمُ إلى الله بعد هذا البيان؟ ومِثلُ هذا الكلام جُرأة على غيب الله بغير نصٍّ صريح متواتر[٢] عن المعصوم ﷺ. ولم يرد في الكتاب إلا كلمة «الميزان»، وقد عرفتَ ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بها نعتقد، وما عدا ذلك فعِلمُه إلى الله سبحانه.

= الميزان، فقال أهل الحق: له لسان وكفتان»، وقال الغزالي في «قواعد العقائد» ص٦٥: «وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان، وصفتُه في العِظَم أنه مِثلُ طبقات السماوات والأرض»، وقال ابنُ جزّي في «التسهيل لعلوم التنـزيل» (٢: ٢٣): «مذهبُ أهل السنة أن الميزان يوم القيامة حقيقة، له كفّتان ولسان وعمود توزن فيه الأعمال».

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣: ٥٣٨): «قال أبو إسحاق الزجّاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفّتان ويميل بالأعمال».

وردَّ القرطبيُّ في «التذكرة» ص٧٢٣ قولَ مَنْ أوّلَ الميزان بالعدل والقضاء، فقال: «وهذا القول مجاز، وليس بشيء، وإن كان شائعاً في اللغة؛ للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي، ووَصْفِه بكفّتين ولسان، وأنّ كل كفّة منهما طباق السماوات والأرض».

فظهر بذلك أن ذِكرَ اللسانِ معَ الكفّتين للميزان مأثور عن بعض الصحابة والتابعين، ومشهور عند أهل العلم سَلَفاً وخَلَفاً، حتى قد نُـقِلَ عليه إجماعُ أهل السنة. وأما وصف كفّتي الميزان بأنهما كأطباق السماء، فيشهد له ما سبق ذِكـرُه عن سلمان: «له كفّتان لو وُضِعَ في إحداهما السماوات والأرض ومَنْ فيهن لوَسِعَه»، ونصَّ عليه الغزاليُّ والقرطبيّ، كما تقدم. والله أعلم.

(١) بل العجيب إنكار ذلك والعدول عنه إلى غيره، مع كونه ظاهرَ اللفظ وحقيقةَ المعنى ـ والأصلُ الحملُ على الحقيقة ـ ودلت عليه عدّة أحاديث صحيحة، كما تقدَّم بيانه آنفاً.

(٢) اشتراط التواتر في مثل هذا المبحث ليس بشيء، فأصل الميزان ثابت بالنص القطعي في كتاب الله، ثم لا مانع من الكلام في التفصيلات بأخبار الآحاد الصحيحة، ألا ترى أن نعيم الجنة غيبٌ ثبت في النصوص القطعيَّة، ثم إننا نُثبت كثيراً من أوصاف هذا النعيم وظلاله وثماره... إلخ، بأخبار الآحاد الصحيحة.

هذا وإنَّ البشر اليوم قد اخترع من الموازين ما هو أتقَنُ وأضبَطُ من ذات الكفتين واللسان، ذلك الميزان الخشن غير المتقن، فكيف بالحكيم الخبير أن يستعمل ذلك الميزان الذي اخترعه البشر قبل أن يبلغ به العلم ما بلغ[١].

على أنَّ الموزون هنا مَعَانٍ ومعقولات[٢]، فما وَجْهُ احتياجها لكفّة بوسع الأرض والسماوات؟ وإنما ذلك قولُ مَنْ لا يعرف قيمة الإيمان بالغيب.

فعليك ـ أيُّها المؤمن المطمئن ـ أنْ تُوقِنَ أنَّ الله تعالى يَزِنُ الأعمال، ويميِّز لكلٍّ

---

(١) هذا كلام فيه نظر، وفيه جرأة غير مستساغة، فمن قال: إن الميزان يستعمله الله استعمالاً؟! ليلزم أن يختار الميزان الدقيق الحديث على الميزان الخشن القديم! كلا، بل هذا الوزن إنما يكون لإقامة الـحُجَّة على الخلق، وإظهار كمال العَدْل وانتفاء الظلم بالكلية، ومثلُ هذا يحصل بأيِّ ميزان. ثم إن ميزان القيامة لا يقاس بميزان الدنيا، فهو وإن كان وافقها في الصورة الظاهرة من كونه له لسان وكفتان، إلا أنه يخالفها في الحقيقة، فلا ميزان أدقَّ من ميزان ذلك اليوم، ولا ميزان أحسَنَ منه.

(٢) اختلف العلماء في الموزون ما هو؟ على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الموزون الأعمال نفسها، وذلك بأن تُجسَّمَ ثم تُوضَعَ في الميزان، وهذا القولُ له أدلة كثيرة من صحيح السنة، منها حديث «كلمتان خفيفتان...»، وقد رواه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤)، وتقدَّم لفظُه في التعليق قريباً.

الثاني: أن الذي يُوزَنُ هو العاملُ نفسه، فيَثقُل الإنسان في الميزان أو يخفّ، بمقدار إيمانه وعمله، لا لضخامة جسمه، ولهذا القول أدلته، منها حديثُ الرجل السمين، وقد رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥)، وتقدَّم لفظُه في التعليق قريباً.

الثالث: أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال، ودليلُ هذا القول: حديثُ البطاقة الذي رواه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وتقدَّم لفظُه في التعليق قريباً.

ومال إلى كُلِّ قول من هذه الأقوال جماعةٌ من أهل العلم، ولا مانعَ من القول بمقتضى الأدلة كلها، فنثبت الوزن للثلاثة كما دلّت عليه النصوص.

وهذه الأقوالُ وأدلتُها تلغي ما ذهب إليه المؤلف أن الموزونَ معانٍ ومعقولاتٌ لا تحتاجُ لوزن.

عمل مقداره، ولا تَسَلْ كيف يزن؟ ولا كيف يقدِّر؟ فهو أعلم بغيبه[١]. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

هذا وقد قال سبحانه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: ١٩]، أي: مُقدَّر معلوم في نِسَب أجزائه، فترى القمح والقطن مثلاً مُركَّبين من عناصرَ مُتَّحدة في الأكثر، ولكنها مختلفة في النِّسَب، وهكذا سائر الأشياء، فهل وُزِنَت تلك الموادُّ بهذا الميزان الذي يقولون؟ كلا، ولكنه سبحانه إنما يقول للشيء: كن فيكون، و﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فالله ﴿يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

* * *

(١) نعم، ونحن ـ معشر أهل السنة والجماعة ـ مع إثباتنا للميزان الحقيقي ذي اللسان والكفتين، لا نسأل: كيف يزن الله فيه الأعمال، ونَكِلُ عِلمَ الغيب إلى الله تعالى.



مُختَلَفٌ فيها: أمكيَّة هي أم مدنيَّة

وآيها ثمان

والغَرَضُ منها:

التنديد عن التفاخر بالأموال والأولاد، وأنه هو الذي ألهى قريشاً عن قبول الدعوة.

وكذلك من أغراضها: تهويلُ ما هُوَ آتٍ من البعث والعقاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾.

﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ أي: شَغَلكم التكالُب في الكَثْرة، يطلب كلُّ واحد أن يكون أكثر من الآخر مالاً أو رجالاً، لينالَ بذلك لذَّة التعالي والتباهي، ولا ينظر إلى الغاية الرفيعة، وهي البذل في سبيل الخير والنفع العام، أو في سبيل النهوض بالقوَّة إلى نُصْرة الحق، وقد استمرَّ بكم ذلك ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أي: هَلَكتُم وصِرْتُم من أهل القبور، وهذا في حقِّ صنف الماديِّين المُتكالبين على الدنيا المُعرِضين عن الآخرة. والله أعلم.

قال الأستاذ الإمام: وأتى بصيغة الماضي على سُنَّة القرآن، حيث يُخاطِبُ الحاضرَ بما كان من الغائب الماضي، متى كان يحتذي حَذْوَه، وكان للجميع جامعة تضمُّهم، كما قال لبني إسرائيل يخاطبُهم في زمن النبيِّ ﷺ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] إلى آخر الآيات، وفيها: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، مع أن الذين وقع لهم ذلك إنما هم أسلافهم. وذلك كما تقول لأعقاب الظالمين: لا زلتُم تظلمون الناس حتى أكلكم الظلم وأهلككم ففنيتُم، وأراح الله الناس منكم. تقول لهم ذلك مع أنَّ الذي هلك واستراحت الناس منه أسلافُهم، وهو

ضَرْبٌ من التعبير، يريد الله به أن يُحمِّل تَبِعةَ الناس بعضهم على بعض، حتى لا يَدَعَ أحدُهم أخاه يأتي منكراً يفشُو فيفسد به أمر اجتماعهم؛ لأن تَرْكَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسادٌ للمجتمع ومِقْراض للأمم.

ثم رَدَعَهم عن ذلك وتوعَّدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ أي: مصيرَكم في الدنيا والآخرة إذا بقيتُم على هذه الحالة؛ إذ لا فوز بالتكاثر، ولكن بالتناصر على الحق.

ولما كانت عواقب اللهو إنما تأتي بعد إمهالٍ من الله تعالى وطولِ مدَّة في الأغلب، عبَّر بـ ﴿سَوْفَ﴾، ولما كانت الغفلة شديدةً، وتمكّن اللَّهْوُ على النفوس، وقد وضع على القلوب حجاباً يحولُ دون البصائر والـمَصائر؛ أعاد الخبر فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾، وأتى بـ﴿ثُمَّ﴾ ليفيد أنه خَبَرٌ جديدٌ، جيء به بعد الخبر الأول.

ثم زاد في الرَّوع والوعيد، فقال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ أي: لو تعلمون العلمَ الحقيقيَّ لَشَغَلَكُم ما تعلمون عن هذا التكاثر. فجوابُ الشرط محذوف، على طريقة القرآن.

وفي قوله: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ إضافةُ الموصوف إلى الصفة، وتُسمَّى هذه القاعدة بقاعدة: (مسجد الجامع)، مثل: صلاة الأُولى، ودار الآخرة.

وقد جاء في القرآن على هذه القاعدة عدَّة كلمات، منها قوله: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وقالوا في تأويل هذه الإضافة: إنَّ التقدير: مسجد المكان الجامع، وصلاة الساعة الأولى، ودار الحياة الآخرة، وجانب المكان الغربي، ودين الملة القيِّمة، وحق الشيء اليقين، إلى أمثال ذلك، فالمضاف إليه ليس هو النعت في الحقيقة، بل المنعوت المحذوف

الذي أُقيم النعتُ مقامَه؛ لأنه يدلُّ عليه، كقولك: مررت بالفقيه، على معنى: بالرجل الفقيه.

ثم استأنف وعيداً آخر، فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ قال مقاتل: وهذا على نيَّة القَسَم. قالوا: ولا يجوز أن يكون هذا جواباً لـ﴿لَوْ﴾، لتحقُّق وقوعه وتأكُّده بالنون، وجوابُ ﴿لَوْ﴾ ممتنعُ الوقوع لامتناع الشرط. وكُنِّي برؤية الجحيم عن ذَوْق العذاب فيها، وهي كناية شائعة.

ثم أعاد الخبر لزيادة التأكيد، فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾[1]، وأتى بـ﴿ثُمَّ﴾ ليفيد أنه خبر جديد جيء به بعد الخبر الأول، وذلك لِـمَا فيه من هذا القيد الزائد، أعني: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾. والمعنى: لتَرُوُنَّها بالعيان والمشاهدة. وهذا التركيب مثل تركيب ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾.

ولقد زاد الأمر تشديداً عليهم بقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾[2]

---

(١) أرى ـ والله أعلم ـ أنَّ المراد بالأُولى: العَرْض عليها غُدُوّاً وعشيّاً، وبالثانية: الدخول التام بعد القيامة والحساب، على حدِّ قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]. (المؤلف).

(٢) معنى الآيات (٦ – ٨) كما رجَّحه شيخنا العلامة الميداني في تفسيره «معارج التدبر»، وتبِعتُه في تفسيري «المعين» باختصار ص٦٠٠: «أُقسم لكم ـ أيها الناس ـ وأؤكِّد، أنَّكم سترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت، ثم أُقسِم لكم وأؤكِّد أنكم ستُشاهدونها في موقف الحشر عياناً دون رَيْب.

ثمَّ أُقسم وأؤكِّد أنكم ستُسألونَ سؤال تحسير وتنديم، وأنتم تُعذَّبون في نار الجحيم، عن النعيم الذي يتنعَّم به أهل الجنة وهم فيها، فتزدادون حسرةً وندامةً وألماً، على ما فاتكم من السعادة الأبديَّة بسبب كفركم وتكذيبكم، وسُلوككم سُبلَ المجرمين.

فالكفار منكرو عذاب النار يتحقَّق لهم العلم بما كانوا له منكرين منذ ملامستهم عَتَبَة الموت، =

أي: الذي تفاخرون به وتكاثرون؛ هل أدَّيتم حقَّ الله فيه، وراعيتُم حدودَ أحكامه في التمتُّع به، قال عليٌّ رضي الله عنه: «الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب»[1].

نسأله سبحانه أن يُوفِّقَنا لرعاية أحكامه فيما أنعَمَ به علينا، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

❊ ❊ ❊

= ويرافقهم طول مدَّة البرزخ، ويُسمَّى هذا العلم: **علمَ اليقين**، ثم يكون العلم عن مشاهدة ومُعَايَنَة، وهذا العلم يكون في موقف الحشر؛ إذ يُحشرون إلى النار فيشاهدونها، ويُسمَّى هذا العلمُ: **عينَ اليقين**، ثم يكون العلم عن طريق الإحساس الجسديِّ حين يذوقونَ عذاب النار في الجحيم، ويُسمَّى هذا العلمُ: **حقَّ اليقين**، لتحقُّقه في الواقع تحقُّقاً تاماً.

والتَّلويم على التكاثر من متاع الحياة الدنيا، يتناول في هذه السورة الكافرين، لأنهم هم المخاطبون بما جاء فيها، وفيه تحذيرٌ للمؤمنين من أن يُلهيَهم التكاثرُ من مَتَاع الحياة الدنيا، وينسيهم كثيراً من واجباتهم، ويَجعلهم يقعون في المعاصي والآثام حتى الكبائر من دون دَرَكة الكفر».

(١) رواه البيهقي (١٠١٣٨).



مكيَّة، وهي ثلاث آيات

والغَـرَضُ منها:

بيان استعداد الإنسان للخير والكمال، بمحافظته على سَلامة فطرته، وللشرِّ والضلال بإفساده لها.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾[1] أقسَمَ سبحانه بالطرف الأخير من النهار؛ لِمَا فيه من إدبار النهار وإقبال الليل، وهي آيةٌ من الآيات الكونيَّة، كما أقسَمَ بالضحى وهو الطرف الأول من النهار؛ لِمَا فيه من إدبار الليل وإقبال النهار.

ويجوز أن يكون في القَسَم بالعصر ـ الذي هو آخر النهار ـ إيذانٌ بقِصَرِ ما بقي من الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منها، وإلماعٌ إلى أنَّ الإنسان ينحدر من مركز كماله إلى أسفل، كما تنحدر الشمس من مكانها في الظهيرة إلى مكانها في العصر، وتلويحٌ بقِصَر العُمُر ودُنوِّ الأجل، وتنبيهٌ للأخذ بالحزم فيما يقدِّمه لآخرته وما يعمله لها، كي لا يكون من الخاسرين لها، الذين أشار إليهم في المُقسَم عليه، حيث قال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾[2] وذلك بإفساده لطبيعته بمفاسد التربية وسُوء القدوة، فيسلك سُبُلَ

---

(١) يجوز أن يراد بالعصر: جنسُه الذي يشمل سائر عصور الدهر التي مرَّت على الإنسان، يُقسِمُ بها بأنه كان فيها في خُسْر، إلا الذين آمنوا بأنبيائهم واقتفَوا آثارَهم، وعملوا الصالحات وتواصَوا بها. وقد يطلق «العصر» على الدهر كلِّه في اللغة. والأنسَبُ أن يكون هذا هو المراد، فهو يُقسِمُ بالدهر، أن الإنسان به في خُسْر إلا مَن استثنى. (المؤلف).

(٢) قال الإمام غلام ثعلب في «ياقوتة الصِّراط» ص ٦٠١: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ الإنسان: بمعنى الناس هاهنا؛ لأن الجماعة لا تُستثنى من واحد.

الضلال، ويبتعد عن طرق الهُدى والرَّشاد، التي هَداه إليها سبحانه بالفطرة، وبإرسال الرسل وإنزال الكتب.

لذلك استثنى من هذا الحكم الأناسيَّ الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم ونور بصائرهم، فاتَّبعوا ما جاءَهم من الحقِّ وآمنوا به وعملوا بمقتضاه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم سالمون من ذلك الخُسران المبين.

قال الأستاذ الإمام: ليس الإيمان مُجَرَّد ما يُسمِّيه الناس اعتقاداً، وإن كان بمَحْض التقليد لا عَمَلَ لعقل ولا لوجدان فيه، فإنَّ مثل هذا الإيمان قد خسرت معه أُممٌ كثيرة ممَّن صدَّقت بمرسلين صادقين وأنبياء هادين. وإنما المراد منه: ذلك التصديق المقرون بطمأنينة النفس وخضوع القُوى لحكم مَنْ آمن به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فذلك الإيمان هو الذي كان الله ولا يزال ينوطُ به النجاةَ من الخسران في الدنيا والآخرة.

فالمعنى من الآية: إنَّ الذين آمنوا إيماناً بالغاً من أنفسهم حدّاً يملك إرادتَهم، فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتِهم، فهم لا يعملون إلا الصالحات التي عُدِّدت بالتفصيل في القرآن العظيم، وجماعها: أن تكون نافعاً لنفسك ولأهلك ولقومك وللناس أجمعين، بعيداً من أن تَضُرَّ أحداً إلا لكفِّ ضَرَر أعظم منه، وهي التي تُعرَفُ عند البشر بالأعمال الخيريَّة الإنسانية النافعة لخاصَّتهم وعامَّتهم، التي لا تُنكِرها الأذواق السليمة، ولا تُجافيها الطباعُ المستقيمة. ولذلك سُمِّيت في الكتاب بالمعروف، وسُمِّيت أضدادُها بالمنكر.

ومن هذه الأعمال الخيريَّة: ما هو من ضروب الشكر لمُفيض الخير والإحسان على الخلائق أجمعين، مع ما فيها من إصلاح الأبدان والأرواح للمتَّقين، وذلك كالعبادات

الصحيحة التي ارتضاها سبحانه لنفسه، من دون أن نَعبَثَ بصُوَرها، ومنها: ما هو من ضروب البِرّ، كبذل الأموال في طُرق الخير، والسَّعي في إغاثة المنكوبين، وإقالة العثار، والعدل في الحكم، وإنقاذ المظلوم من الظلم، ونحو ذلك مما يطول تفصيله.

ومنها: فضائل المَلَكات التي تصدر عن الصالحات، كالأمانة والعفَّة والإنصاف والمحبة والإخلاص وأمثال ذلك. والمَلَكاتُ إنما تحصل بترويض النفس عليها، ومجاهدتِها في سبيل تحصيلها، حتى تملكَها النفسُ وتصبحَ طبيعةً لها.

ومنها: الأعمال التي تُربِّي تلك المَلَكات، كالتربية الصحيحة ومخالطة ذوي الأخلاق العالية، وكالصَّلاة والصوم وتجنُّب المنكرات.

ومن تلك الأعمال الخيريَّة الصالحة العظيمة: الدعوةُ إلى الحق، والوصيَّةُ بالصبر تجاه ما ينال من أذىً في سبيل ذلك. ولعِظَم أهميتهما أفرَدَهما بالذِّكر، فقال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾، ومن الحق: توحيد الله تعالى وطاعته واتِّباع الأعمال الصالحة التي جاءت في كتبه وعلى لسان رسله، ويدخل في التواصي بالحق: سائر أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما الصبر فهو مَلَكةٌ في النفس يَتيسَّر معها احتمالُ ما يشقُّ احتمالُه، والرِّضا بما يكره في سبيل الحق، وهو خُلُقٌ عظيم يَتعلَّق به ـ بل يتوقف عليه ـ كمالُ كلِّ خُلُق. وكلُّ أُمة ضَعُفَ الصبر في نفوس أفرادها ضَعُفَ فيها كلُّ شيء، وذهبت منها كلُّ قوة.

أقول: إن كلَّ أُمَّةٍ آمنت إيماناً صحيحاً، وعملت عملاً صالحاً، وتكاتفت تجاه الحق، وتواصَت بالصبر عليه وعلى محافظته؛ فازت فوزاً عظيماً، وربحت ربحاً كبيراً، وكانت عاقبة أمرها يُسْرى. وكلُّ أمة تَشَوَّه إيمانُها، وساءت أعمالُها، وانخَذلَت تجاه الحق والصبر؛ فشلت فشلاً ذريعاً، وخَسِرَت خسراناً مبيناً، وكانت عاقبةُ أمرها عُسْرى.

فالسورة أروَعُ تعبيرٍ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ذلك، والتكاتف فيه.

وقد صحَّ أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا اجتمع اثنان منهم، لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر هذه السورة إلى آخرها، ثم يُسلِّم أحدهما على الآخر[1]؛ ليذكِّر كلٌّ منهما صاحبَه بما وَرَدَ فيها، ولا سيما التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

❊ ❊ ❊

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤) عن أبي مدينة الدارمي رضي الله عنه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٧٢٣): رجاله رجال الصحيح.



مكيَّة، وهي تسع آيات

والغَرَضُ منها:

التنديد بالمُنكِرين الذين يَستَنقِصُون الناس ويترفَّعون عليهم، مُعْتزِّين بما لهم من مركز مزيَّف ومال مغصوب، وتهديدهم بما سينالهم من جرَّاء ذلك يوم الجزاء.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ وهذه صفة غير المؤمن، قال الأستاذ الإمام: هو الذي يطعن في أعراض الناس، ويغضُّ منهم، ويحقر من أعمالهم وصفاتهم، وينسب إليهم السيِّئات، تَـلَذُّذاً بالحطِّ منهم، وإظهاراً لترفُّعه عليهم. أصلُه من الهَمْز واللَّمْز، بمعنى: الطعن والكسر، ثم صار عُرْفاً لغوياً فيما ذكرنا. ويقال: إنَّ الهمز يكون بالعَيْنِ والشِّدْقِ واليد؛ حركات تُشيرُ إلى التحقير والهزء، واللَّمْز يكون باللسان. وقيل: الهمز: الطعن في الغَيْبة، واللمز: الطعن والعَيْب مواجهة. وبناء الصيغة على (فُعَلة) بضَمٍّ ففتح، يفيد كثرة وقوع الفعل وجَرَيانه مجرى العادة.

وذلك هو حال ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢﴾[1]، والتعديد للمال صفةٌ خاصَّة لجامعي الأموال الطائلة، وكذلك الهمز واللمز خاصَّة لأكثر هؤلاء، فإنهم يحتقرون غيرَهم ممَّن لا يكونون مِثلَهم أو يكونون فقراء، ويكون عند هؤلاء غرورٌ بأموالهم، حتى ينسى أحدُهم الموتَ، وكأنه على غيره كُتِب، والذي يحمله على ذلك هو جَمْعُه المال

(١) يجوز أن يكون معنى (عدَّده): نوَّعه، أو كثَّره، أو هما معاً. ويجوز أن يكون هذا الفعل للإشارة إلى شدَّة وَلَعِهِ به وقَصْرِ حُبِّه عليه. (المؤلف).

وتعديده، أي: تنويعُه وعَدُّه مرّةً بعد أُخرى شَغَفاً به وتَلذُّذاً بإحصائه، لأنه لا يرى عِزّاً ولا شرفاً ولا مَجْداً في سواه، فكلما نظر إلى كَثْرة ما عنده منه، انتفخ وظنَّ أنه من رِفْعة المكان، بحيث يكون كلُّ ذي فَضْل ومزيَّـة دونه، فهو يهزأُ به ويَهمِزُه ويَلمِزه، ثم لا يخشى أن تصيبَه عقوبةٌ على الهمز واللمز وتمزيق العِرض؛ لأنَّ غروره بالمال أنساه الموت، وصَرَفَ عنه ذكرى المآل، فهو ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ أي: يظنُّ أن ما عنده من المال قد حفظ له حياته التي هو فيها وأرصَدَها عليه، فهو لا يفارقها إلى حياةٍ أُخرى يُعاقَبُ فيها على ما كَسَبَ من سيِّئ الأعمال[1].

فالله سبحانه وتعالى يتوعَّد مَنْ هذه صفاته بالوَيْل والهلاك والنَّكال، في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، ويجهِّله في وَهْمِه أنَّ المال يُغْني عنه من الله شيئاً، وأنه يحفظ ما هو فيه أبداً، ثم يُردِفُ ذلك بصيغة الرَّدْع وتقرير الوعيد، فيقول: ﴿كَلَّا﴾ أي: فَلْيرتدع عن هذ الظنّ، وأُقسِمُ ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾ أي: لَـيُلقَيَنَّ فيها مُحتَقَراً مُصَغَّراً؛ لأن النَّبْذَ يفيد التحقير والتصغير.

ثم أردَفَها بما يدلُّ على تهويلها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ أي: هي مما لا يحيط بها العِرفان، ثم بيَّنها سبحانه بصُورة مُجمَلة، فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ قال الأستاذ الإمام: أي: النار التي لا تُـنسَبُ إلا إليه تعالى؛ لأنه هو مُنشِئُها في عالمٍ لا يَعلَمُ كُنْهَه علماً جلياً سواه، وهي ملتهبة التهاباً لا يُدرِك كنهَه غيرُه سبحانه، ولا يمكننا الوقوف على حقيقة تلك النار[2]، وإنمـا الذي نعرفه أنَّ للعذاب بها ألـماً شديداً لا

---

(١) الراجح في معنى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾: يظنُّ ظناً ضعيفاً توهُّمياً مع كلِّ زمن يتجدَّد له في الحياة أنَّ مالَه هو الذي أبقاه عزيزاً في قومه، ذا مكانة اجتماعيَّة رفيعة.

(٢) نعم، لا يمكننا ذلك إلا أنا نعلمُ أنها نار مُحرِقة، ترمي بشَـرَرٍ كالقصر، فيها شراب من حميم، =

يتناسب مع الإحراق بنار الدنيا، ولذلك وصفها بوصفٍ ليس من أوصاف نيران الدنيا، فقال: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾، ولا يخفى عليك أنَّ الفؤاد إنما يُطلَقُ على القلب إذا لوحظ أنه موضع الوجدان والشعور، فكأنه قال: التي تعلو مشاعرُهم ومداركُهم ومواطنُ الوجدان من نفوسهم، أي: إنَّ سلطان هذه النار على قوى الوجدان والشعور التي هي مواطن النيَّات والمقاصد، ومساكن الفضائل والرذائل.

وقد قيل: إن معنى الاطِّلاع هنا: المعرفة والعلم، أي: إن هذه النار تعرف ما في الأفئدة، فتأخذ مَنْ تعرفهم أهلاً لها من أهل الوجدان الخبيث، وبقَدْر ما يستحقون. والنار التي تعرف مَنْ يستحق العذاب بها وما يستحقه منها: لا تكون من النيران المعروفة لنا في الدنيا بالضرورة.

وعلى كلٍّ، لا يخلو الكلام على هذا التأويل من التَّجوُّز والتمثيل[1].

ثم بالغ في التهويل بشدَّتها، فقال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ أي: مُطبَقة ومُقفَلة، لا مَـخْلَص لهم منها. يقال: أوصَدَ الباب؛ إذا أقفله، فهي مُؤصَدة عليهم ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ والعَمَد: جمع عمود، وهو معروف، والمُمدَّدة: أي: المطوَّلة، أي: إنَّ إطباقها عليهم وإغلاقها في عَمَد طويلة تُـمَدُّ على أبوابها بعد أن تُـؤصَد. وهذا تصويرٌ لشدَّة الإطباق وإحكامه، وتأكيدٌ لليأس من الخلاص.

أما صورة تلك العَمَد ومَدِّها، فذلك مما لا يُمكِنُ معرفتُه، لأنَّ شأن الآخرة غير

= وعذاب أليم، تحترق منها الجلود فتنضج وتذوب، ثم تُبدَّل جلوداً غيرها... إلى سائر أوصاف النار المذكورة في القرآن الكريم.

(١) كلا، لا تجوُّز ولا تمثيل، بل هي نار حقيقية، لكن بينها وبين نيران الدنيا مغايرة في الصفات، ومُباينةٌ في الأحوال، بحيث لا تصح المقارنة بينهما.

شأن الدنيا، والراجح أنَّ هذه السورة نزلت بمناسبةٍ مُماثلةٍ بَدَت من زعماء المشركين الأغنياء؛ إذ كانوا يَلمِزون النبيَّ ﷺ والمسلمين الأوَّلين الذين كانت أكثريتهم من الفقراء، معتدِّين بثرواتهم وقوَّاتهم.

ويدلُّ النظمُ على أنَّ المواقف كانت شديدةَ الأثر، فاستحقَّ أصحابُها هذه الحملة بالمقابلة والتأنيب، ولا يَحُدُّ سبب النزول من عموم المعنى في الآيات، وكونها أحكاماً عامة مستمرة المدى، تشمل كلَّ مَن تَصْدُق عليه.

* * *



مكيَّة، وهي خمس آيات

والغَرَضُ منها:

تهديدُ كفار قريش وصناديدُهم المغْترّين بمـالهم وقوَّتهم تجاه المؤمنين.

ووعيدُهم بمثل ما جرى على أصحاب الفيل.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ تواترت الرواياتُ في وقعة أصحاب الفيل: أنَّ قائداً حَبَشياً ممَّن كانوا قد غَلَبوا على اليمن، أراد أن يعتديَ على الكعبة المشرَّفة ويهدمَها ليمنعَ العرب من الحج إليها، أو ليقهرَهم ويُذلَّهم، فسَلَّط الله عليه ما ذكره سبحانه فيما يأتي، فأهلكه وأهلك جيشَه قبل أن يدخل مكة، وحَفِظَ البيت من اعتدائه.

والغَرَضُ من ذِكرِ هذه القصة والتنبيه إليها: تسليةُ للنبيِّ ﷺ، وتهديدُ قومه المشركين المعارضين له والمعاندين، بأن يفعل بهم مِثلَ ما فعل بأصحاب الفيل.

قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: هذه السورة الكريمة تُعلِّمنا أنَّ الله سبحانه يريد أن يذكّر نبيَّه ﷺ ومَنْ تبلُغه رسالتُه بعملٍ عظيم من أعماله تعالى الدالَّة على عِظَم قدرته، وأنَّ كل قدرة دونها فهي خاضعةٌ لسلطانها، وذلك أنَّ قوماً أرادوا أن يَتَعزَّوا بجندهم وقوَّتهم وعُدَدِهم وفيلهم أو فيلتهم؛ ليغلبوا قريشاً على أمرهم، ويصلوا إليهم بشرٍّ وأذى، فأهلكهم الله وردَّ كَيدَهم في نَحْرهم، وأبطل تدبيرهم.

وقد فصَّل ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾ والكيد: تدبير السُّوء

للغير[١]. والاستفهام للتقرير[٢]، والمعنى: إنَّ الله سبحانه جعل كيدَهم فاشلاً خائباً، ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾[٣].

والأبابيل: جمع إبالة، وهي الحزمة الكبيرة، استُعيرت للجماعة الكثيرة من الطير، وقيل: هو اسمٌ لا واحد له، يُراد به الفِرَق والجماعات يَتبَعُ بعضُها بعضاً من طير أو خيل مثلاً.

والطير: ما يطير في الهواء، سواء كان صغيراً أم كبيراً، وسواء كان مرئياً أو غير مرئي.

والسِّجِّيل: الطين المتحَجِّر، وأصل الكلمة فارسية دخلت في العربية.

والعَصْف المأكول: هو ورقُ الزرع الذي أكله الدُّود أو السُّوس، أو أكل الدوابُّ بعضَه وتناثر من بين أسنانها بعضه.

---

(١) الكيد: التدبير الخفيّ أو الظاهر بحقٍّ أو بباطل، وفيه مكروه لمن كان ضدَّه.

(٢) في الآيتين الأولى والثانية؛ بحَمْل المخاطب على الإقرار بأنه رأىٰ رأيَ علم. والمعنى: قد رأيتَ أيها الرائي ـ عن طريق الشهود البصري، أو عن طريق العلم اليقينيّ الخبريّ، المماثل للرؤية البصريَّة ـ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل من تعذيب وإهلاك، وجعل كل ما دبَّروه وأعدُّوه ـ من خطط ووسائل، بغيةَ هدم الكعبة، وتحويل العرب عن الحج إليه ـ في محيط من الضياع والهلاك والتبديد والتشتيت.

(٣) وفي قصة أصحاب الفيل دلالةٌ عظيمة على قدرة الله تعالى وعلمِه وحكمته، وفيها دلالة عظيمة على شرف محمد ﷺ، ومعجزة ظاهرة له، وذلك أنَّ الله تعالى إنما فعل ذلك لنصر مَن ارتضاه، وهو محمد ﷺ الداعي إلى توحيده، وإهلاك مَن سخِطَ عليه، فكأنه قال: أنا الذي فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيل تعظيماً لك، وتشريفاً لقدومك، وإذ قد نصرتُك قبل قدومك، فكيف أتركُك بعد ظهورك.

قال الأستاذ الإمام: فَشَا في أصحاب الفيل داءُ الجدري والحصبة، قال عكرمة: وهو أول جدريّ يظهر في بلاد العرب. وقال يعقوب بن عتبة[١]: إنَّ أول ما رُئِيَتِ الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام[٢]. وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يَندُرُ وقوعُ مثله، فكان لحمُهم يَتَناثر ويَتَساقط، فذُعِرَ الجيش ووَلَّوْا هاربين، وأُصيب القائد الحبشي، ولم يزل يسقط لحمُه قطعةً قطعةً، وأُنملةً أُنملة حتى انصَدَعَ صدرُه، ومات في صنعاء.

وقد بيَّنت لنا هذه السورةُ الكريمة أنَّ ذلك الجدري وتلك الحصبة نشأت من حجارةٍ يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فِرَقٍ عظيمة من الطير، مما يُرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أنَّ هذا الطير من جنس البعوض، أو الذباب الذي

---

(١) هو يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس الثقفي، (....-١٢٨هـ)، أحد العلماء بالسيرة، ذا علم وورع «سير أعلام النبلاء» (٦: ١٢٤).

(٢) قال الأستاذ سيد قطب «في ظلال القرآن» (٦: ٢٩٧٨): «ورواية عكرمة، وما حدَّث به يعقوب بن عتبة ليس نصاً في أنَّ الجيش أصيب بالجدري فهي لا تزيد عن أن تقول: إنَّ الجدري ظهر في الجزيرة في هذا العام لأول مرة، ولم ترد في أقوالها أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصَّة بالإصابة بهذا المرض... ثم إنَّ إصابة الجيش على هذا النَّحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل. وما دامت المسألة خارقة فعَلام العناء في حَصْرها في صورة معيَّنة لمجرَّد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر! وجَرَيان الأمر على غير المألوف أنسب لجوِّ الحادث كله؟!».

وينظر تتمة كلامه النفيس في دوافع المدرسة العقليَّة ـ التي كان الأستاذ محمد عبده رحمه الله على رأسها في تلك الحقبة ـ إلى تضييق الخوارق والغيبيَّات في تفسير القرآن، ومحاولة ردِّها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونيَّة.

يحمل جراثيم بعض الأمراض[١]؛ لأنَّ الطير هو ما يطير في الهواء، سواء كان صغيراً أو كبيراً، وسواء كان مرئياً أو غير مرئيّ.

ويجوز أن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح، فيَعلَقُ بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتَّصل بجسد دخل في مَسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقُط لحمه. وإنَّ كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعدُّ من أعظم جنود الله تعالى في إهلاك من يريد إهلاكَه من البشر، وإنَّ هذا الحيوان الصغير ـ الذي يُسمُّونه المكروب ـ لا يخرج عنها، وهو فِرَقٌ وجماعات لا يُحصي عَدَدَها إلا بارئُها[٢].

---

(١) ستأتي مناقشة هذه الدعوى.

(٢) هذا رأي الشيخ محمد عبده غفر الله له، وتابعه المؤلف رحمه الله تعالى، وجماعة من رجال المدرسة العقلية الحديثة، كالمراغي في «تفسيره» (٣٠: ٢٤٣)، وأرادوا بهذا التفسير المتكلَّف أن تكون الحادثة أمراً مألوفاً قريباً من أذهان الذين لا يؤمنون بالخوارق.

قال العلامة الشيخ محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» (٣: ٢٣٥) راداً على تأويل الطير بالبعوض أو الذباب، وما تحمله من حجارة بالميكروبات: «إن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب عِلمٌ بها وقتَ نزول القرآن، والعربيُّ إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحالٍ من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون». انتهى.

بل الآية صرَّحت بإرسال الطير ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، وبين المخاطبين كثيرٌ ممَّن عاصر الحادث، بل ممن شاهده، وفيهم كثير من أعداء الرسول ﷺ. ولو لم يَرَوْا هذا الطير الأبابيل رأيَ العين لبادروا إلى تكذيب القرآن، وإنكارهم لرمي الطير لجيش أبرهة. ولا يقبل أن يقال: أنهم رأوا المكروب أو الجراثيم، لأنهم لا يستطيعون رؤيتها، ولا يقال: إنَّهم رأوا الذباب أو البعوض، لأنهم لا يَرَوْن الحجارة التي تحملها، فكان لا بد أن يكونوا رأوا طيراً ورأوا الحجارة التي تحملها، ورأوا الرمي.

ويرى بعض أهل الرأي ما مُحصَّلُه: إنَّ المراد من الطير: السحابة المكوَّنة من تلك الحجارة[١]؛ لأنها تشبه أسراب الطير ورفوفه في التجمُّع في الجوِّ، والانتقال في الهواء، فيسوغُ استعارةُ اسم الطير لها. ووَصْفُه بالأبابيل يلائم ذلك، فيكون ترشيحاً. وإنَّ تلك الحجارة هي من نوع الحجارة التي أُمطِرَت على قوم لوط؛ لأنَّ القرآن ذكرَ في الموضعين أنها من سِجِّيل. والله أعلم.

ويجوز أن تكون هذه الحجارة من مَصدر النيازك السماويَّة، ولكنها جاءت بصورة سِرْب كبير. والله أعلم.

ولا يمنع هذا من ظهور الوباء بالجدري وأشباهه؛ لأنَّ ما أصابهم من الرضوض والجروح البالغة، يُمهِّد لوفود الأمراض، ويزيدها فتكاً، ويزيدها تأثيراً بالأجسام، ولا سيما إذا لم تقترن بالإسعاف، كما هو الحال في مثل تلك الأحوال. هذه كلها آراء رجال. والله أعلم بحقيقة الحال[٢].

---

(١) لا يعلم في استعمالات العرب إطلاق لفظ (الطير) على (السَّحاب).

(٢) يقول الأستاذ سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن» (٦: ٣٩٧٧): «وإنَّ تسليط طير ـ كائناً ما كان ـ يحمل حجارة مسحوقة ملوَّثة بميكروبات الجدري والحصبة وإلقائها في هذه الأرض، في هذا الأوان، وإحداث هذا الوباء في الجيش، في اللحظة التي يهمُّ فيها باقتحام البيت.. إنَّ جريانَ قَدَرِ الله على هذا النحو خارقة، بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير، وليست بأقلَّ دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيراً خاصّاً يحمل حجارة خاصَّة تفعل بالأجسام فعلاً خاصّاً في اللحظة المقررة.. هذه من تلك... هذه خارقة وتلك خارقة على السواء...

فأما في هذا الحادث بالذات، فنحن أمْيَل إلى اعتبار أنَّ الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة، وأنَّ الله قد أرسل طيراً أبابيل غير معهودة، تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود.. نحن أمْيَل إلى هذا الاعتبار، لا لأنه أعظم دلالةً ولا أكبر حقيقة، ولكن لأنَّ جوَّ السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب. فقد كان الله ـ سبحانه ـ يريد =

= بهذا البيت أمراً، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابةً للناس وأمناً، وليكون نقطة تجمُّع للعقيدة الجديدة، تزحف منه حرَّة طليقة.. ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال، حتى يمتـنَّ بها على قريش بعد البعثة في هذه السورة، ويضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها... فمما يتناسق مع جوِّ هذه الملابسات كلِّها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود، بكل مقوِّماته وبكل أجزائه، ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذّ...». انتهى.

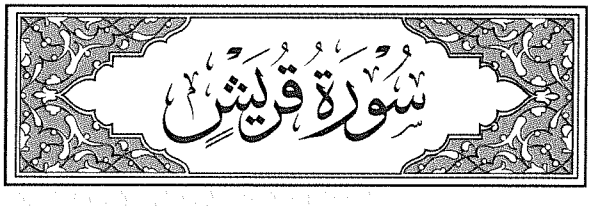

مكِّيَّة، وهي أربع آيات

والغَرَضُ منها:

الامتنان على قريش بما كان لهم من مركز بين الناس، حرمةً لهذه البلدة التي يسكنونها، وبما لهم من استفادة من جرَّاء ذلك في تجارتهم العظيمة، فكيف لا يعبدون ربَّ هذا البيت؟!

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ قريش: اسمٌ للقبائل العربية من وَلَدِ النَّضْر بن كنانة، أو من ولد فِهْرِ بن مالك بن النضر بن كِنانة، على خلاف في ذلك.

واختلفوا كذلك في وَجْه تسميتهم بهذا الاسم؛ فقيل: سُمُّوا قريشاً لِمَا كانوا عليه من حِرفة التجارة وطلب المال وجَمْعه، من القَرْش، وهو المكسب، يقال: هو يَقرِشُ لعياله، أي: يكسب لهم. وقيل: إنما سمُّوا باسم دابّة تكون في البحر من أعظم دوابِّه، يقال لها: القريش، لا تمرُّ بشيء إلا أكلَتْه، كما قال العجمي:

وقريشٌ هي التي تسكنُ البَحْـ ـر بها سُمِّيت قريشٌ قريشاً

والإيلاف: نقيض الإيحاش، ونظيره: الإيناس.

قال الأخفش: اللام متعلِّقة بقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]، أي: فعلنا بأصحاب الفيل ذلك لتأتلفَ قريشٌ رحلتَها. ويؤيِّد هذا أن السورتين في مصحف أُبيٍّ سورةً واحدة بلا فَصْل.

والمعنى: إنَّ الله سبحانه أهلك مَنْ قَصَدهم بسُوء من الحبشة؛ لِيَتَسامَعَ الناس

بذلك، فيتهيَّبوا منهم زيادةَ تهيُّب، ويحترمونهم أفضل احترام، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتَيْهم، فلا يجترئ أحدٌ عليهم.

وتوضيح المعنى: أنَّ قريشاً كانت آمنةً بفضل الحرم من الاعتداء عليها، فلا يتعرّض أحدٌ لها بسُوء إذا خرجت لتجارتها حُرْمة لها، لأنها صاحبةُ هذا الحرم، والقائمة بأمره.

وهذا الحرم وادٍ مُجدِبٌ غيرُ ذي زرع، فكانت تعيش فيه بالتجارة، وكانت لها رحلتان في كلِّ سنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن، لأنها بلاد حارة، ورحلة في الصيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكنهم المقام فيه، ولولا الأمن بواسطته، لن تقدر على القيام بهاتين التجارتين في هاتين الرحلتين اللتين هما مَدار معيشتهما.

فلما قَصَد أصحابُ الفيل مكة أهلكهم الله؛ لتألف قريش هاتين الرحلتين اللتين بهما معيشتُها ومقامُها بمكة.

وبعد التَّحسيس بهذه المنَّة، أمَرَهم بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾[1] أي: فلْيُوجِّهوا عبادتَهم إلى ربِّ هذه الكعبة التي هي مَصدَرُ عزِّهم ومَنَعتهم، وليُوحِّدوه.

وقال الخليل وسيبويه: اللام من قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلِّقة بقوله:

---

(١) أي: لِيُخْلِصُوا العبادةَ لربِّ الكعبة المشرَّفة المُطهَّرة، بيتِ اللهَّ الحرام، وليشكروه على دفع الضُّرِّ عنهم، وَجَلْب النفع لهم. الذي أطعمَهم حامياً لهم من جوع شديد، بما هيَّأ لهم من أسباب الرزق ووسائله، وآمنهم حامياً لهم من خوف وفزع عظيم، بما هيَّأ لهم من أسباب الأمن ووسائله.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ﴾، أي: فَلْيعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلافهم ببركتِه رحلةَ الشتاء والصيف، آمنين مطمئنين.

وتوضيح المعنى على هذا التوجيه: أنَّ قوافل قريش ـ كما علمتَ ـ معروفةٌ عند العرب محترمةٌ في نفوسهم؛ لأنهم سكان مكة وجيران بيت الله، فكانوا يذهبون آمنين، ويعودون سالمين رابحين، لا يمسُّهم السُّوء، على كَثْرة ما كان بين العرب من النَّهْب والسَّلب، وهذا الأمر كان لهم ضرباً من القوة المعنوية يحميهم في أسفارهم، فلا تَتَطاول الأيدي إلى أموالهم وأرواحهم، فكان من الحقِّ أن يخصُّوا ربَّ هذا البيت بالعبادة، ويُفرِدوه بالإجلال والتعظيم.

❊ ❊ ❊



مُختَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة أم مدنيَّة

وآيها سبع

والغَرَضُ منها:

تهديدُ المكذِّبين بالدين.

وبيان بعض صفاتهم وأخلاقهم تنديداً بهم.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ أي: هل علمتَ أو عرفتَ من هو على التحقيق مَنْ يكذِّب بالدِّين. وهذا أُسلوبٌ بديع في تعريف المصدِّق والمكذِّب على الحقيقة، فقد عرَّفه بظهور الأعمال في النفس، للإيذان بأن لا عِبرةَ بالدعاوى الفارغة، والقشور من الأعمال، وذلك ليُنبِّه السامع إلى أنَّ الأمر قد خَفِيَ على المحجوب عن نفسه، المغرور بأوهامه.

قال الأستاذ الإمام: كان كثيرٌ من الناس يعتقدون أنَّهم مُصدِّقون بالدين، ويظنُّون أنهم المُصْطَفَون، ويكتفون في الدلالة على هذه الدعوى ببعض أعمال رَسَمَها الدِّين، وإن لم يكن لها أثر في قلوبهم، كالصلاة الصُّوريَّة وما يُشابهُها مما لا يُنقِص مالاً ولا يُجشِّمُ مشقة. والجمهور الأعظم من النصارى واليهود والمشركين ممن كان في زمانه ﷺ كانوا يظنُّون أنهم يُصدِّقون بالدين، ولا يعلمون أنهم في أبعد طريق عن حقيقة الدين. فأراد الله جلَّ شأنه أن يُعلِمَنا مَنْ هو المكذِّب بالدين، ـ ومِنْ تعريف المكذِّب يُعرَفُ المُصَدِّق ـ ليُنبِّه هذا المغرور بأوهامه، فقال: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾[1]؛ إذ لا قيمة للدعوى إذا كذَّبها العمل.

---

(١) مؤدَّى الآيات: أنَّ المكذِّب بالدين لا يتمسَّك بمكارم الأخلاق وخصائص الإنسانيَّة، إذ =

فجعل سبحانه وتعالى تَرْكَ بعضِ أعمال الدين علامةً على خُلوِّ النفس من العقيدة الصالحة، وخرابِ القلب من الإيمان؛ لأنَّ ضلال السلوك هو المظهر لضلال القلوب، وبحسن السلوك تُقاس درجة الإيمان.

فجَعَلَتِ الآيةُ أبرزَ صفاتِ المكذِّبين بالدين: القَسْوةَ على اليتيم، وتَـرْكَ الحضِّ على طعام المسكين، وجعلت ذلك علامةً على تكذيبه أو عدم اعتقاده بيقين. واليتيم: مظهرُ الضعف ومُمثِّل الحاجة، فالمستهينُ به مُستهينٌ بكلِّ ضعيف، مُحتَقِرٌ لكلِّ محتاج[1].

فالمعنى: إنَّ المكذِّب بالدين هو الذي يَغمِطُ حقَّ غيره تَعَزُّزاً بقوَّته، فكلُّ ظالم منتهك لحُرمات الحقوق مُكذِّبٌ بالدين، لأنَّ ذلك مظهرٌ من مظاهره، وأثرٌ من آثاره، وكذلك عدم الحضِّ على طعام المسكين، فهو أثرٌ من آثار التكذيب أيضاً.

ومعنى الحضِّ على طعام المسكين: الحثُّ عليه، ودعوةُ الناس إليه، بمعنى: إذا عَرَضت حاجةُ المسكين ولم تجد ما تعطيه، فعليك أن تطلب من الناس أن يُعطوه ويُعينوه على حاجته. وإكرام اليتيم والحضُّ على طعام المسكين: هما ذروة الإحساس الإنساني.

ثم قال: وفي الآية حثٌّ للمُصَدِّقين بالدين على إغاثة المحتاجين الذين لا يسألون

= لا يؤمِّـل من وراء ذلك الجزاءَ الذي جاء به الدين، ولا يصدِّق به، وخصَّ من بينها هذيـن الوصفين لأنهما أبرزها. وعبَّر بدعِّ اليتيم عن سُوء معاملته وقُبح مخالطته، تعبيراً بالجزء الخاص عن الكل، وتغليظاً في ذلك، على نهج القرآن في مثله. ثم فـرَّع على مساوئ الأخلاق أسوأ مظاهر النـفاق وهدَّد عليه، جمعاً بين حال المشركين والمنافقين، ومن نَـهَجَ منهجهم وسَـلَكَ مَسلَـكَهم، أعاذنا الله. (المؤلف).

(١) قرَّرت هذه السورة العظيمة البَـوْنَ العظيم بين المكذِّب بالدِّين والمصدِّق به؛ إظهاراً لفوائد الدين، فبيَّنت أنَّ المكذِّب بالدين تَضْمحل إنسانيتُه، ومثَّلت لذلك بالفقرة الأولى، ثم فرَّعت عليها من النتائج ما هو أبشع وأشنع، وقرنتها بالتهديد، وهي فساد علاقته بالله وعلاقته بالجار. (المؤلف).

الناسَ إلحافاً، ولو بجَمْع المال من غيرهم، وهي طريقة الجمعيات الخيريَّـة، فأصلها ثابتٌ في الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧ - ١٨]، فالمكذِّب بالدين يحتقر حقوق الضعفاء كِبْراً وعُتواً، ويبخل بماله على الفقراء، ويبخل بسَعْيه عند الأغنياء لإغاثة أهل الحاجة ممَّن تحقَّق عَجْزُهم عن كَسْب ما يُنقِذُهم من الضرورة، ويقوم لهم بالإكفاف من العيش.

ثم قال: فتَرْكُ إغاثة الأيتام والمحتاجين هو من أظهر آثار التكذيب بالدين، سواءٌ كان صاحبه مُصَلِّياً أم غير مُصَلٍّ، فصلاتُه لا تنفعه ولا تُخرجه من صفِّ المكذِّبين بالدين؛ لأنَّ المُصَدِّق بشيءٍ لا تُطاوعه نفسُه بالخروج عن حدِّ ما صدَّق به، وقد فرض الدينُ على الأقوياء الرحمةَ والعدلَ في الضعفاء، فمن لم تُصلحه صلاتُه وتُذكِّره بمثل هذا الأثر العظيم فهو كاذبٌ في قوله، مُراءٍ في ظاهر عمله.

ولهذا جاء سبحانه بالتفريع على تعريف المكذِّب بالدين بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[1]

---

(١) يجوز أن يكون التفريع بالفاء على ما قبله جارياً بطريقة التَّرقِّي والزيادة، أي: إذا كان مَنْ يَدُعُّ اليتيم ولا يحضُّ على طعام المسكين هو مكذِّباً بيوم الدين، فويل لمن كان فوقه في التكذيب، وهو الذي يكون ساهياً في صلاته غير مواظب عليها أو مرائياً فيها، وغير مُساعد للجيران والمعوزين؛ إذ قد جمع هذا ـ فوق تجرُّده عن الإنسانية ـ معاطاتِه لصلاة صُورية لا روح فيها ولا يقين، فالويل له ثم الويل.

ويجوز أن يكون التفريع بالفاء لأن الوصفَيْن جاريان على موصوف واحد، فوَصَفَه بما بعد الفاء بعد أن وَصَفَه بما قبل الفاء تأنيباً بهما، وإيماءً إلى ربط أحدهما بالآخر، فأتى به مكان «فويلٌ له» إقامةً للمُظهَر مقام المُضْمَر، على نهج القرآن، لإفادة اتصافه به أيضاً، فيكون الأول مظهراً للثاني، والثاني منشأ للأول؛ إذ الصلاة المقامة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وأتى بصيغة الجمع لأن المراد بـ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ﴾ الصنف لا الفَرْد، والله أعلم. والسَّهْو عن الشيء: تَرْكُه أو تَرْكُ حقيقة أمره. (المؤلف).

﴿٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾[١] أي: يفعلون ما يُسمَّى صلاةً في عُرْفهم من الأقوال والأفعال، ولا يستشعرون فيها خشيةَ الكبير المتعال، لتتغذَّى نفوسُهم بالإيمان الصحيح، وتَعمُرَ بالرحمة للضعيف، والحضّ على التعاون في سبيل ذلك، فويلٌ لهذا الصنف من المصلِّين الذين لم تُربِّهم صلاتُهم هذه على الإنسانية والاهتمام بأمر الأيتام والمحتاجين، والاشتراك بجَمْع الأموال ـ ولو من غيرهم ـ لسدِّ عَوَزِ المُعوِزين، كالجمعيات الخيرية. فنِعمَتِ الطريقة هي لإعانة الفقراء، وسدِّ شيءٍ من حاجات المساكين.

ثم وصف سبحانه أصحابَ هذه الصلاة التي لا أثر لها في النفوس فيما أمر الله به من مراعاة حقوق عبادة الضعفاء، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: يفعلون ما يرى منهم الناس فقط.

ثم أعاد ذِكرَ الوَصْف الذي يظهر ويتحقَّق به التكذيب بالدين، بعبارةٍ أعمَّ من الأولى، فقال: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾[٢] والماعون: كلُّ ما يُسْتَعانُ به[٣]، أي: يمنعون الناس معونتَهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سدِّ حاجتهم، وتوفير ما يكفُل راحتَهم وأمنهم وطمأنينتهم.

---

(١) من المفسِّرين من أعاد الآية إلى آية التوبة: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، وجعل السورة في المنافقين؛ لأنَّ السَّهْوَ عن الشيء تَرْكُه مع العلم به، وأكثر ما يَصدُقُ هذا عليهم (المؤلف).

(٢) الصلاة الحقيقية تكفُّ صاحبها عن منع الماعون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢١ - ٢٢]. (المؤلف).

(٣) قال الإمام غلام ثعلب في «ياقوتة الصِّراط» ص٦٠٢، بتحقيقي: «﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ قال ثعلب: اختلف الناس فيه، فقالت طائفة: هو الماء، وقالت طائفة: هو ما يُستعار من شفرة وقدوم وجَفنة، وقالت طائفة: هو الزكاة، وهو قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. قال ثعلب: وعليه العمل».

فخاصَّةُ المصدِّقين بالدين: هي العدل والمَرْحَمة وبَذْل المعروف للناس، وخاصَّةُ المكذِّبين به: هي احتقار حقوق الضعفاء، وقلَّة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة، وحبُّ الأَثَرة بالمال، والتَّعزُّز بالقوَّة، ومَنْع المعروف عمَّن يستحقه من الناس. وبالجملة، فهم فاقدون لأبسط مزايا الإنسانيَّة والتعاون.

ثم قال: فمِنْ هذه السورة يُعرَفُ درجة التصديق بالدين، فما بالُ المسلمين؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؟!

أقول: ولا يَبعُدُ أنَّ هذا المعنى كان مُتمثِّلاً في صنف أو شخص من قريش عند مبدأ الدعوة، فجاء تعريضاً به، وتقريراً لحكمٍ مُستمرِّ المَدَى، على نهج القرآن في مثل ذلك؛ لأنَّ القرآن يذكر زعماء قريش، فتارةً بصفة الغنى، وتارةً بصفة الزعامة، وتارةً بهما جميعاً.

وقال في «مجمع البيان»: سُئل أبو عبد الله عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فقال: هو التَّركُ لها والتواني عنها. وعن الحسن: إنه التضييع لها.

وسُئل أبو عبد الله عن الماعون؟ قال: هو القَـرْضُ تُقرِضُه، والمعروف، ومتاعُ البيت تُعيره[1].

* * *

(١) «مجمع البيان» لأبي علي الطبرسي (١٠: ٣٥١).



مكيَّة، وهي ثلاث آيات

ومُلخَّصها:

وَعْدُ النَّبيِّ ﷺ بعظيم من الخير والسعادة في الدارَيْن، وأمرُه بالسَّعي في الطريق الموصِلة لهما، حسب سنن الله عزَّ وجلّ.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ وهو الخير الكثير المُفرِط بالكثرة، والشرف العظيم، المُتناهي في العِظَم، فقد قال ابن عباس: هو الخير الذي أعطاه الله إيَّاه. وقال أبو بشر: قلت لسعيد: إنَّ ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ قال: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إيَّاه[1].

وقال الأستاذ الإمام: الكوثر: صيغةُ مبالغةٍ من الكَثْرة، والمراد به: سعادةُ الدارَيْن، وفيها النبوَّة والدين والهدى. والكلام ردٌّ على المستهزئين من قريش، كالعاص بن وائل، وعُقْبةَ بن أبي معيط، وأبي لهب، وأمثالهم. فإنهم كانوا إذا رأوا النَّبيَّ ﷺ تموت أولادُه يقولون: بُتِرَ محمَّد، أي: لم يَبْقَ له ذِكرٌ في أولاده من بعده، ويعدُّون ذلك عيباً وانتقاماً يَلمِزونه به، ويُنفِّرون به الناس من اتِّباعه، وكانوا إذا رأوا ضَعْفَ المسلمين وفقرهم وقلَّتهم، يستخفُّون بهم ويعدُّون ذلك مَغْمَزاً في الدين، ويجعلون القلّة والضعف دليلاً على أنَّ هذا الدين ليس بحق، شأنَ السفهاء مع الحق في كلِّ زمان أو مكان غلب فيه الجهل.

وكان الضعفاء من حديثي العهد بالإسلام من المؤمنين تمرُّ بنفوسهم خواطر

---

(١) رواه ابنُ المبارك في «الزهد» (١٦١٤).

السوء عندما تشتدُّ عليهم حلقات الضيق، فأراد الله سبحانه أن يُمَحِّص من نفوس هؤلاء ويَكْبت أُولئك، فأكَّد الخبر لنبيِّه ﷺ، مبيِّناً أنَّ ما يخيِّله النظر القصير قليلاً هو الكثير البالغ الغاية في الكثرة، ليؤكِّد له الوعد بأنه هو الفائز، وأن مُتَّبعَه هو الظافر، وأنَّ عدوَّه هو الخائب الأبتر الذي يُمحى ذِكرُه ويُعفى أثرُه.

فيكون المعنى من قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾: إنَّ هؤلاء المُبْغِضين المُشاغبين يظنُّون أنك في قُلٍّ وضَعْف، وأنَّ أغنياءهم وأقوياءهم في عزٍّ ونعمة، ولا يعلمون أننا قد أعطيناك من الخير الذي يَعظُم في نفوسهم مما يعرفون، ومن الخير المُدَّخَر لك في الغَيْب، ممَّا لا يُدركون شيئاً كثيراً، ولا تُحَدُّ كَثْرتُه.

ثم طالبه بالشكر عن ذلك بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: فاجعَل صلاتَك لربِّك وحدَه، وانحَر ذبيحَتَك مما هو نُسُكٌ لك لله وحده، فإنه مُربِّيك ومُسْبغُ نِعَمِهِ عليك. فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

وفي الآية تعريضٌ بالمشركين، يَنْحرون لأصنامهم ومعبوديهم من دون الله.

وقيل أيضاً: إنَّ الآية في صلاة العيد ونحر الأُضحية، كما جاء عنه ﷺ: «إنَّ أول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلِّي، ثم نرجع فننحَر، مَن فعلَه فقد أصاب سُنَّتنا، ومَن ذبح قبلُ فإنما هو لحم قدَّمه لأهله، وليس من النُّسُك في شيء»[1].

والذي أراه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ استشهد بها لهذا الغرض، لِمَا في عموم «الصَّلاة» و«النَّحْر» من شموله لذلك.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (١٩٦١)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

وبعد أن ردَّ عليهم تَـقَوُّلَـهم هذا وأنكره، ردَّ عليهم الوَصْفَ وتوعَّدهم بأنَّ ما يقولونـه سيكون حالاً لـهم وأمراً واقعاً عليهم، فـقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[1] قال فريد وجدي: أي: إنَّ مُبغِضَك ـ هذا الذي يقول عنك: بُتِرَ محمدٌ بموت أولاده ـ هو نفسُه الأبتر الذي لا عَقِبَ له من عمل صالح ولا ذِكرٍ جميل؛ إذ سيهلك ويَتَلاشى، ولا يبقى له أثر يُذكَر به، أما أنت فقد منَّ الله عليك بالنبوَّة والكمالات العُليا، وجَعَلك سبباً لإنهاض الأمم والـحَدَث الجلل في تاريخ البشر الذي قامت به ممالك، وسقطت ممالك، وتغيَّر وَجْهُ الأرض من حالٍ إلى حال، فلستَ أنت بأبتر، ولكنه هو الأبتر. يردُّ الوَصْفَ عليه.

❊ ❊ ❊

(١) أي: إنَّ عدوَّك ومُبْغِضَك ـ يا رسول الله ـ هو الأقلُّ الأذلُّ المنقطعُ عن كلِّ خير، وأنت الأعزُّ الأشرفُ الأعظم. فليس محمدٌ ﷺ أبْتَرَ ـ كما زعم المشركونَ ـ إذ لم يُبْقِ الله له ولداً ذَكَراً يبلغُ مَبْلغ الرجال، إنما الأبتر من لا عَقِبَ له من الخير، الخالد في الشقاء الأبدي.

وهذه الآية الكريمة تدلُّ بنصِّها على أن مُبْغِضَ رسول الله ﷺ وما جاء به من الهُدى ودين الحق منقطعٌ عن كلِّ خير، وتدلُّ بمفهومها ولازمها على أن مُحِبَّه ﷺ هو متَّصل بكلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة.



مكيَّة، وهي ستُّ آيات

والغَرَضُ منها:

بيانُ البَوْن العظيم بين معبود المؤمنين ومعبودي الكافرين، وعبادة كلٍّ منهما.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ[1] ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ...﴾ قال الأستاذ الإمام في تفسير السورة: إنَّ هؤلاء المعاندين الجاحدين كانوا يقولون ـ أو يُحدِّثون أنفسهم ليُلهوها ـ: إلامَ يدعونا؟ إلى الله؟ نحن نعتقد به. إلى توحيده؟ نحن نُوحِّده، غاية ما في الأمر نـتَّخذ شفعاء إليه، نسأله بحقِّهم عنده أو بمكانتهم لديه، إلى عبادته؟ نحن نركع ونسجد له، وغاية ما عندنا زيادة على ذلك أننا نعظِّم أولياءه وأهل الشفاعة عنده، ونتوسَّل إليهم ليتوسَّلوا إليه. هذه وساوسُهم وهذه أمانيُّهم.

فأراد الله سبحانه أن يقطع العلاقة بينهم وبين ما عليه الداعي إلى الحقِّ ﷺ، بأصرح ما يُمكِن أن يصرّح به، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ أي: إنَّ الإله الذي تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبدُه، لأنكم إنَّما تعبدون ذلك الذي يتَّخذ الشفعاءَ أو الولدَ أو الذي يظهر في شخص أو يتجلَّى في صورة معيَّنة أو نحو ذلك مما تزعمون، وإنما أعبد إلهاً مُنزَّهاً عن جميع ما تصفون به إلهكم.

---

(١) قال الإمام غلام ثعلب في «ياقوتة الصِّراط» ص ٦٠٣، بتحقيقي: «عدَّد هذه الحالات للأزمنة أي: لليوم والأمس والغد، فأيَّسهُم ممَّا طلبوا».

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي: إنكم لستُم بعابدين إلهي الذي أدعو إليه كما تزعمون، فإن زعمتُم أنَّ الذي تعبدونه يُتقرَّب إليه بتعظيم الوسائط لديه، فتوسَّلتُم بها إليه، وتعتقدون أنه يقبل توسُّطها عنده، فإنما أنتم تعبدون إلهاً تتخيَّلونه بخيالكم الخاطئ، ويُصَوِّره لكم وَهْمُكم المخدوع، فهذا الذي تعبدونه ليس الذي أعبُدُه، فلهذا لا تعبدون الذي أعبد، بل تعصُونه وتُخالفون أمرَه[1].

وبعد أن نفى المشاركةَ في المعبود، نفى المشاركةَ في شكل العبادة أيضاً، تقريراً لِـمَا بيَّنا، فقال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ أي: لا أنا بعابدٍ عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي.

فـ﴿مَآ﴾ هذه مصدرية، وليست بالموصولة مثل التي تقدَّمت، فمَفادُ الجملتَيْن الأُولَيين: الاختلاف التامُّ في المعبود، ومفادُ الجملتَيْن الأُخرَيين: تمام الاختلاف في شكل العبادة. أي: فلا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة؛ لأنَّ معبودي ذلك الإلهُ المنزَّه عن النِّدِّ والشفيع، المتعالي عن الظهور في شخص مُعيَّن، أو المُحاباة لشعب أو واحد بعينه، الباسطُ فَضْلَه لكلِّ من أخلَصَ له، الآخذُ قهرُه بناصيةِ كلِّ من نابذ المبلِّغين الصَّادقين عنه، والذي تعبدونه خلاف ذلك. وعبادتي مُخلَصةٌ لله وحده، وعبادتكم مَشُوبةٌ بالشِّرك، مصحوبةٌ بالغفلة عن الله تعالى، فلا تُسمَّى على الحقيقة عبادة، فأين هي من عبادتي؟

ثم ختم ما تقدَّم وقرَّره بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ أي: دينكم مختصٌّ

---

(١) كانت العرب تُطلِقُ على كلِّ ما تعتقد أنَّ له سلطة في الكون صفة (إله)، ولكن لا تسمِّيه: (الله)؛ لأنه عندهم الخالق وحده، وكلُّ دعاء وتعظيمُ يوجِّهونه إلى ما يعتقدون فيه تلك السلطة: عبادة. (المؤلف).

بكم لا يتعداكم إليَّ، فلا تظنُّوا أني عليه أو على شيءٍ منه، وديني الذي أدعو إليه لا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه.

ثم قال الأستاذ الإمام: وما دلَّت عليه هذه السورة هو ما دلَّت عليه آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، أي: لا علاقة بينك وبينهم، لا في المعبود ولا في العبادة. انتهى.

وقد قيل في تفسير هذه السورة أيضاً: إنَّ أُميَّة بن خَلَف في رَهْط من قريش قال لرسول الله ﷺ: يا محمد، هَلُمَّ فَلْنعبد ما تعبد، وتَعبُد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبدُ خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبدُ خيراً مما تعبد كنتَ أنت قد أخذت بحظِّك منه، فأعرَضَ رسول الله ﷺ عن مُجاوبتهم في هذه المُساوَمة الهازلة الخاطلة، فنزلت هذه السورة. والله أعلم.

❊ ❊ ❊



مدنيَّة، وهي ثلاث آيات

والغَرَضُ منها:

إعلانُ انتهاء وظيفته ﷺ بعد استِتباب هذا الدِّين، واستِكمال نزول هذا القرآن المبين.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ قال الأستاذ الإمام: الخطاب الذي يرد في كتاب الله مفرداً؛ تارةً يكون للنبيِّ ﷺ خاصَّة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: ١].

وقد يكون لكلِّ مَنْ يفهم الخطاب، كقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق: ٩ – ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ [الماعون: ١].

وقد يكون خطاباً له عليه السلام، مقصوداً به نفسُه مع مَنْ معه من أصحابه المُخلِصين من أُمته.

ومن هذا الأخير: ما جاء من الخطاب في هذه السورة.

كان المؤمنون أيامَ قلَّتهم وفَقْرهم وكثرة عَدَدِ عدوِّهم وقوَّته واشتداده عليهم ومضايقته لهم، يمرُّ الضَّجَر بنفوسهم، ويأخذ الحزنُ مأخذَه منها، وكان ﷺ يحزن ويضيقُ صدره لـمَّا يكذِّبه قومه، والحقُّ يَسطَعُ نورُه وهم يعمون عنه، حتى قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى

لـه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال بعد ذلك: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب ما يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا يَضْجَرون ويقلقون، وكان سبحانه يُثبِّتهم ويُسَلِّيهم بما كان يقصُّ عليهم من قَصَص الأنبياء مع أُممهم، وليس ذلك من النقص الذي يُعابُ عليه ﷺ، ولا على أصحابه رضي الله عنهم، فإنَّ كلَّ مخلوق ـ لا يعلم من غيب الله ما يعلم الله ـ لا بدَّ أن يمسَّه مثلُ هذا الضَّجَر، ويُصيبَه مِثلُ هذا القلق، من استبطاء نَصْر الله للحقِّ الذي بَعث به نبيَّه ﷺ، حتى يكون الكمال لله وحده، فقد قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]؟ ولكن الله سبحانه قد يعدُّ مِثلَ هذا على الكُمَّل ويعاتبهم عليه، كما قالوا: «حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين»، ورسول الله ﷺ من أقرب المقرَّبين إليه، وقد يراه النبيُّ ﷺ ـ إذا رجع إلى نفسه وخرج من غمرة الشدة ـ ذنباً[1] يتوب إلى الله منه ويستغفره، ولهذا وَرَدَ له الأمر الإلهي بالاستغفار مما كان منه، من حُزن وضَجَر في أوقات الشدَّة، ولكن وَرَدَ في صُورة البشارة بقُرْب الفتح والنصر، حيث قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، فعبَّر بـ﴿إِذَا﴾ المفيدة لتحقيق وقوع ما تُضاف إليه، أي: عندما ترى نَصْرَ الله لدينه الحقِّ على الباطل، ويفتح الله بينك وبين قومك، فيجعل لك الغَلَبة عليهم ويُضْعِف أمرهم في التمسُّك بعقائدهم الباطلة.

---

(١) ليس في الآية ما يدلُّ على صدور الذنب من ﷺ ـ حتى على معنى الذنب السائغ إضافته إلى الأنبياء ـ، وليست صيغتها صيغة عتاب، ولفظ الاستغفار وحده لا يدلُّ على ذلك.

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ ﴾ عند ذلك ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ وهو دينُك الذي جئتَهم به؛ لزوال ذلك الغطاء الذي كان يحولُ بينهم وبينه، وهو غطاء قوة الباطل، فيُقبلون عليه ﴿أَفْوَاجًا ۝٢﴾[1] أي: طوائفَ وجماعات، لا آحاداً كما كان ذلك في بدء الأمر أيام الشدَّة.

فإذا حَصَل ذلك كلُّه ـ وهو لا رَيْبَ حاصل ـ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: فنَزِّه ربَّك عن أن يُهمِلَ الحق ويَدَعَه للباطل يأكله، وعن أن يُخلِفَ وَعْدَه في تأييده، وليكن هذا التنزيه بواسطة حَمْده والثناء عليه بأنه القادر الذي لا يغلبه غالب، والحكيم الذي أمهَلَ الكافرين ليمتحنَ قلوب المؤمنين، فلن يُضيعَ أجر العاملين، ولا يُصلِحَ عمل المفسدين. والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين، فلا يذهب عليه رياء المرائين.

---

(١) لم يسلم في الثلاث عشرة السنين الأولى من مبعث النَّبيِّ ﷺ إلا زهاء ثلاثمئة رجل، بينما أسلمت في العشر السنين التالية من حياته جزيرةُ العرب كلُّها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وذلك أمر طبيعيّ من طبائع الاجتماع في الانقلابات الإصلاحية؛ لأنها لا تتمُّ إلا بالتدرُّج حيث يتدرَّج ببطء تكون أوضاع حياتية ونظم اجتماعية وَفْقَ التفكير الجديد، وعندما يقوى ذلك ويألفه المجتمع وينتشر بينهم يدخلون في الأمر دخولاً مُطَّرداً.

وهكذا كان حال الإسلام في زمانه ﷺ، فقد كان في أول دعوته تَعْتَوِرُ الناسَ أوهامٌ وظنون، فمِنْ قائل: إنه شاعر، أو ساحر، أو كاهن، أو به جنَّة، ومنهم من يزعم أنَّ له أوهاماً وأحلاماً خدعته عن نفسه وزيَّنت له الأقوال وأفانين الأخيلة، فما آمن بادئ بدء إلّا من وهبهم الله من الذَّكاء وتوقُّد البصيرة ما جعلهم قادرين على استجلاء وجه السعادة البشرية من وراء هذه الدعوة، ولكنه لما تكوَّن نظام لهذه الحياة شامل، وكمل بناؤه على أساس هذا التفكير، وشاهدوا بأمِّ أعينهم ثمراته العمليَّة، ولمسوها بأيديهم؛ علموا أنَّ هذا هو الشيء الذي كان يقاسي في سبيله ذلك العبدُ القانت لله أنواعاً من الأهوال والشدائد، فتزلزل بنيان المكابَرة واللجاج، ودَخل الناس في دين الله أفواجاً بعد أفواج. (المؤلف).

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ أي: اسأله أن يغفرَ لك ولأصحابك ما كان من القلق والضَّجَر والحزن لتأخُّر زمن النصر والفتح، والاستغفار إنما يكون التوبة الخالصة، والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التي تُحدِثُها الشدائد. وهذا وإن كان يشقُّ على نفوس البشر، ولكنَّ الله سبحانه عَلِمَ أنَّ نفس نبيِّه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال، فلذلك أمَرَه به، وكذلك تقارُبه قلوب الكُمَّل من أصحابه وأتباعه، والله يتقبَّل ذلك منهم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ أي: إنه سبحانه لا يزال يُوصَف بأنه كثيرُ القَبول للتوبة؛ لأنَّه ربٌّ يُربِّي النفوس بالمِحَن، فإذا وَجَدَت الضعف أنهَضَها إلى طَلَب القوّة وشَدَّ همَّها بحُسْن الوعد، ولا يزال بها حتى تبلغَ الكمال، وهي في كلِّ منزلة تتوبُ عن التي قبلها، وهو سبحانه يقبل توبتها، فهو التوَّاب الرحيم.

وكأنَّ الله سبحانه يقول: إذا حَصَل الفَتْح، وتَحقَّق النصر، وأقبَلَ الناس على الدين الحق، فقد ارتفع الخوف، وزال مُوجِب الحزن، فلم يَبْقَ إلا تسبيحُ الله وشكرُه والنزوعُ إليه عمَّا كان من خواطر النفس، فلن تعود الشدَّة تأخذ نفوس المُخلِصين ما داموا على تلك الكثرة في ذلك الإخلاص، ومن هذا أخذ النبي ﷺ أن الأمر قد تمَّ ولم يبقَ له إلا أن يسير إلى ربِّه، فقال فيما رُوي عنه: «إنه نُعِيَت إليه نفسه»[1].

وقد رُوي أيضاً: أنها لـمّا نزلت خطب رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ عبداً خيَّره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله تعالى»، فعلم أبو بكر رضي الله عنه، فقال: «فَدَيْناك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا»[2]، ولم يلبث النبيُّ ﷺ أن تُوفي قريرَ العين بالنجاح

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الباهر الذي يسَّره الله له فيما نَدَبه إليه من رسالته الربَّانيَّة، وانتشار الإسلام في مختلف أنحاء الجزيرة، وانفتاح الآفاق الأخرى أمامه، وتوطيد سلطانه، وفي اجتماع العرب على هذا الكيان، بعد أن كانوا متفرِّقين شيعاً.

وقال البيضاوي: عبَّر سبحانه بالمجيء إشعاراً بأنَّ المقدَّرات مُوجَّهة من الأزل إلى أوقاتها المعيَّنة لها، فهي تَقرُبُ منها شيئاً فشيئاً، وقد قَرُبَ النصرُ من وقته، فكن مُتَرقِّباً لوروده، مُسْتَعدّاً لشكره بالتسبيح والتحميد والاستغفار[1].

وقال أبو مُسلم: المراد: النصر على الكفار، وفَتْح بلاد الشرك على الإطلاق، لا فَتْح مكة فقط.

هذا، وأقول: إنَّ ملخَّص السورة من ناحية تاريخ الدعوة النبويَّة: أنَّ الإسلام استمرَّ في مكة ثلاث عشرة سنة لم يُسلم فيها إلا ثلاثمئة رجل تقريباً، ولكنه في عشر السنين الأخيرة من حياة النبيِّ ﷺ أسلمت بلادُ العرب كُلُّها، ودخلت في طاعة الله، وذلك لأنَّ الناس في أوَّل الأمر ما كانوا يُدركون إدراكاً صحيحاً لِـمَا يدعو إليه رسول الله ﷺ؛ لأنَّ نفوسهم المشوَّهة بالشرك وسُوء الأخلاق بعيدةٌ عن فهم ذلك فهماً جلياً، فما آمن له بادئ بَدْء إلا الذين قد بقيت في نفوسهم بقيَّة من نور الفطرة وجلاء البصيرة، لم يستوعبها الشِّرك وسوءُ الأخلاق بالمَحْق والإفناء، وهم أفذاذٌ قلائل، فكانوا بهذه البقية من نور الفطرة وجلاء البصيرة قادرين على استِجلاء وَجْهِ الحقيقة ممَّا قام يدعو إليه هذا الرسول العظيم.

ولكنه لـمّا ظهر أثر هذا الدين بعد نضوجه في هؤلاء الرجال، وشاهدَ الناس ما أصبحوا عليه من القواعد الإنسانية، والأخلاق الكريمة، والنفوس العالية، والنوايا

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٤٤).

المُخْلصة، والصفات الممتازة في سائر نواحي الكمال؛ كان من المستحيل على مَنْ يرى ذلك بأُمِّ عينه أن يُنكِر الحقَّ الذي جاء به هذا الرجل العظيم والرسول الكريم، إذ قد أصبح أثره في أتباعه لامعاً باهراً، حتى كانوا مُثُلاً عُليا في كمال الإنسانية أخلاقاً وأعمالاً. لذلك انحَدَرَ الناس مُسْرعينَ في دين الله أفواجاً، ومُستَبشِرين بهذا الدين المبين.

❊ ❊ ❊

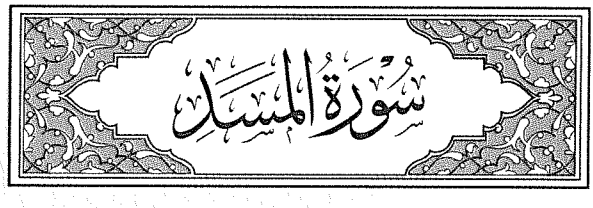

مكيَّة، وهي خمس آيات

والغَـرَضُ منها:

الوعيدُ الشديد لأبي لـهب وامرأته على ما كانا عليه من شدَّة المُشاغَبات ضدّ الرسول ﷺ، وصَدِّهما للناس عن الدخول في دعوته وقَبول دينه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ قال الأستاذ الإمام: أبو لهب: هو عبد العُزَّى بن عبد المطلب، عمُّ رسول الله ﷺ، كان من أشدِّ الناس عداوةً له. وصحَّ في الخبر: أنه لـمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ على الصَّفا، ونادى بطون قريش، فاجتمع من جميع القبائل خلق كثير، حتى جعل الرجل إذا لم يذهب يُرسِل رسولاً لينظر ما الخبر، وكان في المجتمعين أبو لهب، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقي؟» قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتَنا[1]؟ وكان أبو لهب يَتَّبع النَّبيَّ ﷺ في بعض غَدَواته إلى القبائل يدعوها إلى الله، فإذا قال رسول الله ﷺ: «إني رسول الله إليكم»، يُكذِّبه وينهى الناس عن تصديقه. وكانت امرأته أُم جميل بنت حرب تسعى عند القوم بالنميمة على رسول الله ﷺ، وتُذيعُ الأكاذيب في مجامع النِّساء؛ لتُفسِدَ عليه قلوبَ القوم والعشيرة، وتُشعِلَ نار العداوة.

والساعي بالنميمة وتكوين العداوة يُلقَّب بحامل الحطب، كما قال الراجز:

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨)، عن ابن عباس رضي الله عنه.

إنَّ بنـــي الأدْرَمِ حَمّـــالو الحَـــطَبْ هـمُ الوشاةُ في الرِّضـاءِ والغَضَـبْ[1]

وفي كلام العرب كثيرٌ من الشواهد على ذلك.

ولقِّب عبدُ العُزَّى بأبي لهب، لتلهُّب وَجْنَتَيه وإشراقهما، كما زعموا.

أقول: وعلى هذا، يكون كلام القرآن توجيهاً لهذا اللقب إلى معنى آخر، وهو لهب النار، والله أعلم. والتوجيه نوعٌ من أنواع البديع، وقد ذكرت الروايات أنَّ الصِّلاتِ بين النَّبيِّ ﷺ وعمِّه قبل البعثة كانت حسنة، وأن بيتَيْهما كانا مُتَجاورَيْن، وأنَّ ابنتَي النَّبي ﷺ كانتا مخطوبتَيْن لابنَي عمِّه هذا، ولكنه هو وامرأته قد حملا ولديهما على فسخ الخِطبة بعد قيام النَّبيِّ بدعوته.

وقد قيل: إنَّ الذي يَرِدُ على البال أنَّ النبيَّ ﷺ اتَّصَلَ بعمِّه في أول من اتَّصَلَ بهم، ودعاه وأهله في أوَّل مَنْ دَعا، فهو عمُّه وجارُ بيته وصِهرُه، وبينهما مودَّة وعدم كلفة، ومن المعقول أنْ يفاتحَه قبل كلِّ إنسان، وأن يُفْضي إليه بأمره، وهو واثق أن يقابله بالحُسْنى، وبأنه واجدٌ فيه العَضُدَ القوي والسند المتين، لا سيما وأنه كان طائل الثروة كما تصفه السورة، ولكنَّ النبيَّ ﷺ لم يلبث أن خابَ أملُه فيه، إذ قابله أسوأ مقابلة، وكان منه ومن امرأته أشدُّ موقف من الأذى والعِناد، ولا يبعد أن يكون تأثير هذه المرأة عاملاً في شذوذ هذا العمِّ، ولا يبعد أن يكون موقفها هذا متأثِّراً بموقف أخيها أبي سفيان، الذي كان من أبرز الزعماء المعارضين لدعوة محمد ﷺ.

وقد أنزل الله في أبي لهب وفي زوجته هذه السورة؛ ليكون مَثَلاً يَعتبرُ به مَنْ يعادي ما أنزل الله على نبيِّه، مطاوعةً لهواه، وإيثاراً لِـمَا أَلِفَه من العقائد والعوائد والأعمال،

---

(١) أورده الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٠: ٣٢٨)، والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠: ٢٣٩)، والسمين في «الدر المصون» (١١: ١٤٥)، وغيرهم.

واغتراراً بما عنده من الأموال، وبما له من الصَّولة أو من المنزلة في قلوب الرجال، فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، يقال: تبَّت يدا فلان، أي: خسر أو هلك، فهي جملة دعائيَّة، وذلك لأنَّ اليد هي آلة العمل والبطش، إذا هلكت كان الشخص معدُوماً هالكاً.

وبعد هذه الجملة الدعائية أتى بالجملة الخبريَّة الدالَّة على الوقوع، تحقيقاً لذلك، فقال: ﴿وَتَبَّ ۝١﴾ أي: هَلَك وخَسِر. وإنما أتى بهذه الجملة الخبريَّة للإيذان بأنَّ الجملة الدعائيَّة لم تكن لمجرَّد إظهار مَقْتِهِ وشدَّة الغضب عليه، كما جَرَت به سُنَّة العرب في كلامهم، بل هو أمرٌ واقع. والواو في قوله ﴿وَتَبَّ﴾ للاستئناف.

ثم استأنف الكلام بغير حرفٍ لبيان أنَّ ما كان يعتزُّ به من المال والجاه لم يكن مما يَفْديه ويُخلِّصه من الخسران، فقال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾. ويجوز أن يراد بالمال: القديم الموروث، وبما كَسَب: الحديث المكتسب. وتعبِّر العرب عن النوع الأول بالتالد، وعن النوع الثاني بالطارف، فتقول للمُعدَم: ليس له تالد ولا طارف. ويجوز أن يُراد بما كَسَب: ما كان يعمله في معاكسة الرسول عليه السلام، أي: لم يُفِدْه مالُه ولا عمله الذي كان يعمله في معاداة النبيِّ ﷺ، طلباً للعلوِّ والظهور.

ثم سَجَّل بقوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ ولهبُ النار: هو ما يَسطَعُ منها عند اشتعالها وتوقُّدها، فأراد بوصفها هذا أنها نار شديدةُ الحرارة. والمراد من هذه النار: نار الآخرة التي لا يعلم حقيقتَها إلا الله، وسيُعذَّبُ فيها أبو لهب جزاءَ ما كان يأتيه من العناد والمجاحدة، ﴿وَ﴾ ستَصْلاها معه ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أُمُّ جميل، ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ وقد نَصَبها على التخصيص بالذمّ، أي: تلك النّمامة الواشية التي تؤجِّج النار بين الناس بنميمتها.

ثم رشَّحَ هذا المجاز باستعارةٍ تخيُّليَّة تناسبها، لزيادة التقرير والمبالغة في التشنيع،

فقال: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ أي: في عُنقها حبلٌ قويّ من ليف تجمع به حطباً كثيراً، لوقود نار الفساد والفتنة والمشاغبات. يُكنِّي بذلك عن شدَّة سعيها بالمُشاغَبة ضدَّ رسول الله ﷺ، وقد استعار هذا المعنى من المرأة المُجِدَّة في جَمْع الحطب لإيقاد النار؛ يُبالغ في البيان عن شدَّة سَعْيها في الفساد والمعارَضة لنشر الدعوة وظهور الدين وكَبْت المسلمين.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ تتميماً للوعيد وتشديداً للعذاب، يتناسق مع لفظ ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ الذي كنَّى به عن شدَّة وشايتها بمحمد وأصحابه، أي: إنها ستَصْلى جزاءَ ذلك ناراً ذاتَ لهب مغلولةً بحَبْل من نار شبيهٍ بحبل المَسَد، جزاءً وفاقاً. والله أعلم.

* * *



مُختَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة أم مدنيَّة؟ وآيها أربع

والغَرَضُ منها:

بيان صورة الدعوة إلى التوحيد.

وقد وَرَد في الأثر: أنَّ سورة الإخلاص تُعَدُّ ثلث القرآن[1]، وذلك لأنَّ أُسَسَ مقاصد القرآن ثلاثة:

١ـ إصلاح العقائد لتطهير عقول الناس من دَنَس الوثنيَّة وأوهام الخرافات.

٢ـ وتقويم الأخلاق لتهذيب النفوس من شرِّ الرذائل ومنكرات العادات.

٣ـ وتشريع الأحكام لإقامة العدل بين الناس، وإحقاق الحقِّ فيهم، وتنظيم علاقاتهم بربِّهم وعلاقات بعضهم ببعض.

وسورة الإخلاص قرَّرت بالإجمال أُسُسَ القسم الأول، فلذلك كانت تعدل ثلثَ القرآن.

---

(١) إشارة إلى الحديث: قال النبي ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟» فشق ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن». رواه البخاري (٥٠١٥)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ هذا الضمير هو الذي يُعبِّر عنه النَّحْويون بضمير الشأن أو القصَّة أو الخبر المهم، أي: إنَّ الخبر الحقَّ المؤيَّد بالبرهان الذي لا يُرتابُ فيه: أنه تعالى واحدٌ لا شريك له، ولا كثرة في ذاته، إذ ليس بماديّ، ولا هو من أُصول مُتعدِّدة غير ماديَّة، كما يزعم بعضُ أرباب الأديان من أنه أصلان فاعلان، كما يعتقد ذلك المجوس، أو أنه ثلاثة أصول كما يعتقد القائلون بالتثليث من أنه ثلاثة أُصول تُعتَبرُ واحداً، وهي مُتعدِّدة، سواء عُقِلَ ذلك أم لم يُعقَل، فإنَّ الله سبحانه بريءٌ من ذلك، كيف وقد أجمعت العقلاء على أنَّ مُوجدَ العالم ـ وهو الله ـ واجب الوجود، ووجوبُ الوجود يستلزم وَحْدةَ الذات، لأنَّ التَّعدُّد في الذات يستلزم الافتقار إلى المجموع، فلا يكون واجبَ الوجود لذاته[1].

---

(١) إنما وقعوا في هذا الخبط والخلط؛ لأنهم جعلوا ذات الله سبحانه موضوع بحث علمي، والله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فلا يمكن للعقل أن يعرفه بهذه الطريقة؛ لأنَّ العقل لا يعرف المغيَّبات إلا بواسطة معرفة أشباهها في الجملة، والله سبحانه لا شبيه له ولا مثال، فلا يُعرَفُ إلا بآثاره العظيمة في سائر مخلوقاته في هذا الكون العظيم، وأقوى الأدلة وضوحاً وإثباتاً للمطلوب: دلالة الأثر على المؤثِّر. ولا يَعرِف كُنهَ ذاته سبحانه إلا ذاتُه الجليلة، وقد عرفنا عنها بهذه الطريقة في آية النور من سورة النور. (المؤلف).

ثم ذكر صفةً أُخرى من صفات عظمته وانفراده، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ والصَّمَدُ: هو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج، وهذه الجملة من الكلمات الجامعة التي تملأ النفس مما قُصِدَ بها، وهو حَصْرُ الصَّمَديَّة به تعالى؛ إذ لا يُقضى بدونه أمر.

قال الأستاذ الإمام: فهذه الآية تقول لك: إنَّ حاجةً ما في الوجود لا تَتَوجَّه إلى غيره، وأنَّ محتاجاً لا يجوز أن يَتَوجَّه في طلب حاجته إلى سواه، إذ قد أفادتنا أنَّ جميعَ المُسبَّبات تنتهي إليه، وجميعَ ما يَسْري فيها من الوجود فهو مِن إيجادِه، وأنَّ صاحب الاختيار كالإنسان إذا أراد أن يحصِّل مُسبَّباً من سبب، فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به، على حسب ما أمره الله، بالبحث والنظر والتدبُّر في مخلوقاته؛ ليعلم كيف يَسْري الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب إلى المسبَّبات، ثم يذهب بها حتى يُسنِدَها إلى مُبدِئها، وهو الأمر الإلهي، هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبَّب، ويظهر فيه أثرُ الكسب وعملُ الإرادة والقُوى الممنوحة البشريَّة، أما ما هو وراء ذلك مما لا دَخْلَ للإرادة فيه، فعلى صاحب الحاجة أن لا يَتَوجَّه في المعونة عليها ـ بعد الأخذ بالأسباب ـ إلا إلى الله وحده، فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جَعَل لك فيه عملاً.

وقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يُشعِرُ بأنه ينتهي إليه الطلبُ مباشرةً بدون واسطة ولا شفيع، وهو في ذلك يدعو إلى ما يخالف عقيدةَ مشركي العرب، وكثير من أرباب الأديان الذين يعتقدون بأنَّ لرؤسائهم منزلةً عند الله ينالون بها التوسُّط لغيرهم في نَيْل مُبتَغَياتهم، فيلجؤون إليهم أحياءً وأمواتاً، ويقومون بين أيديهم أو عند قبورهم خاشعين خاضعين.

ثم هو الصَّمَدُ في تحديد الحدود العامَّة للأعمال، ووَضْع أُصول الشرائع، فلا بدَّ أن يُرَدَّ إلى ما أنزَلَ جميعُ ما يقع الاختلاف فيه، وليس من المباح أن يُرجَعَ إلى قول غيره

متى نطق صريحُ كتابه بخلافه، لئلا يكونوا مُستَمسِكين بما لم يُنزِل به الله سلطاناً، فيسقطوا في مهاوي الشقاء الدنيويّ والأخرويّ.

ثم ردَّ على القائلين بأنَّ له ابناً أو بناتٍ، مشيراً إلى فساد رأيهم، فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ لأنَّ الابنيَّة تستلزم الولادة[1]، والتعبير بالانبثاق لا يغيِّر المعنى، والولادة إنما تكون فيما يَحتاجُ إلى بقاء النَّسْل بعد فناء الأصل، وما ليس كذلك فلا يحتاج إلى الولادة، كما في النجوم والشمس والقمر والأرض والجبال، وما أشبَهَ ذلك من الموجودات الثابتة المستقيمة، فكيف بالأزليِّ الأبديِّ العليِّ العظيم، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون عُلواً كبيراً.

قال الأستاذ الإمام: ثم ردَّ على مَنْ يعتقد من المُبْطِلين أنَّ له نِدّاً في أفعاله يُعاكِسُه في أعماله على نَحْو ما يعتقد بعض الوثنيِّين في الشيطان مثلاً، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ والكفو: معناه: الكافي والمماثل في العمل، أي: لم يكن مُكافئٌ ولا مُماثل، ولا صاحبة ولا وَلَد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فنفى بهذه السورة جميعَ أنواع الشِّرك، وقرَّر جميع أُصول التوحيد، وبيَّن حاجة العالم الإنساني كافَّة إلى الله سبحانه، بأوجز عبارة وأجزلها، لذلك لا يُستَغرَبُ ما ورد في الخبر من أنها تَعدِلُ ثُلُثَ القرآن[2].

---

(١) التوالد من خصائص المُحْدَثات؛ ليبقى ويدوم بها الجنسُ في الوجود، والله سبحانه منزَّه عن ذلك، أزليٌّ أبديٌّ لا مبدأ له ولا نهاية، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، مُنزَّه عن الشبيه والنظير والمثال. (المؤلف).

(٢) تقدَّم تخريجه في أول السورة ص٤٠٣.



مُختَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة أم مدنيَّة

وآيُها خمس

والغَرَضُ منها:

بيانُ الاستعانة بالله سبحانه على عوارض هذه الحياة الماديّة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

﴿قُلْ(١) أَعُوذُ﴾ أي: أعتصِمُ ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ قال الأستاذ الإمام: قيل هو الصُّبح، وربُّه: هو الذي وضع نظام الكواكب ـ أي: النظام الشمسي ـ على أن يكون في الأرض ليلٌ يغمرها بظلمته، ثم يكون صُبْحٌ يَفلُقُ الظلام ويَفرِجُ كربَه عن الأنام.

وقال جَمْعٌ من المفسِّرين: إنَّ الفَلَقَ: هو الموجود المُمكِن كلُّه، وربُّه: هو خالقه الذي شقَّ ظلمة العدم عنه، ومن كان ربَّ الوجود كلِّه ـ أو ربَّ الصبح ولا يمكن أن يأتي بالصبح سواه ـ فهو جديرٌ أن يُتَعوَّذَ به، ويُلجأ إليه وحده، ويُعتَصَمَ به دون سواه ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي: من كلِّ شرٍّ وأذى يُصيبُك من أيِّ شيء خلقه.

أقول: ويشمل ذلك السُّنن الكونيَّة، ولا سيما ما يتعلَّق منها بالإنسان وأحواله الصِّحِّيَّة والاجتماعية، فإنَّ معاكستَها قَصْداً أو جهلاً تؤدِّي به إلى شرٍّ ووَبال، فعليه أن يستعيذ بالله من ذلك ويتَّقيه.

---

(١) قال العلامة عبد الحميد بن باديس في «مجالس التذكير» (٢: ٣٤٩): «﴿قُلْ﴾: الأمر المفرد للنبي ﷺ، ومن حُسْن الأدب في مُقدَّرات القرآن أن تُقدِّرَ في مثل هذا الأمر: أيّها الرسول أو أيها النبي، لأنهما الوصفان اللذان نطقَ بهما القرآن في نداء النبي، وألا تقدِّر: يا محمد كما هو جارٍ على الألسنة وفي التصانيف، فإنَّ القرآن لم يخاطبه باسمه. والأمر لنبيِّنا أمر لنا؛ لأننا المقصودون بالتكليف، ولا دليل على الخصوصيَّة، فهو في قوة: قل أنت، وقل لأمَّتِك يقولون.

وقال الأستاذ الإمام في تفسير الآية: إنَّ الله خلق الخلق لِـمَا لا نعلمُه من الحكمة، وقد يُوقِفُنا على حكمته في بعض خَلْقه، وقد خَلَقَ كلَّ مخلوق ليصيبَ من الوجود الحظَّ الذي قدَّره له، ووَهَبه كلَّ ما يتمُّ به ذلك الحظ المقدَّر، فكلُّ مخلوق فهو خيرٌ في نفسه؛ لأنه أخذ مكانه من الوجود، وهو الحقُّ الذي لا يمكن أن يُزَحزَحَ عنه، والشرور التي تَعْرِضُ أُمورٌ نسبيَّة فما هو شرٌّ بالنسبة إليك، خيرٌ لكائنٍ آخر، يأكل السَّبُعُ إنساناً فيألم ويموت، ويحزن له الأقارب والأصدقاء، ويُحرَمُ سعيَه الأولادُ والفقراء، فكلُّ ذلك أذى وشرٌّ بالنسبة إليه وإليهم، ولكنه خيرٌ بالنسبة إلى السَّبُع وتكميلٌ لحظِّه من الوجود. ولهذا أضاف الشرَّ إلى ما خلق؛ لأنَّ الشرَّ إنَّما يأتي بمُراعاة تلك الإضافة. أما أفعالُ الله في نفسها فكلٌّ منها خيرٌ في نفسه.

فالاستعاذة بالله من شرِّ ما خلق: هي الالتجاء إليه أن يُخلِّصَكَ من أذاه، كأن لا يُخلِّيَ بينك وبينه، أو لا يَدَعَه ينتبه إليك، أو يُقدِرَك على دفعه.

ثم خصَّ بعضَ ما خلق؛ لكثرة ما يقع الشر فيه، مع غلبة الضعف عن دفعه، فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ قال الحسن وابن عباس ومجاهد: المراد به: الليل المظلم[1]، فإنه موضع الخوف مما يَدهَمُك وأنت لا تدري كيف تخلص منه، ولذلك قيل: الليل أخفى للويل، والظلام أخفى للإجرام. ويقال: وقب الظلام، أي: انتشر[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٧٠٢).

(٢) والأولى تعميم قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: من شرِّ كلِّ شيء يدخُلُ مظلماً، فينصبُّ في ثَقْبٍ، ويحمل بدخوله شرّاً للمدخول فيه. كالجراثيم الضارَّة المظلمة التي تدخل في مسامِّ الأجساد، وتتولَّد منها الأمراض والأسقام.

وفي التعوُّذ برب الفلق من شرِّ الليل مناسبةٌ جليلةٌ عليها بُنِيَ نَظْمُ الكلام، والله أعلم؛ لأن الفلق ـ وهو الصبح ـ يُنهى به الليل.

ثم خصَّ مخلوقاتٍ أُخَرَ لظهور ضَرَرِها وعُسْرِ الاحتياط منها، فلا بدَّ من الفَزَع إلى الله، والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرِّها، فقال: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ قال البيضاوي: قيل: المراد بالنفث في العقد: إبطال عَزَائم الرجال بالحِيَل، مُستَعارٌ من تليين العُقَد بنفث الريق ليسهل حلُّها[1].

وقال الأستاذ الإمام ما مُلَخَّصه: النَّفْث: النفخُ الخفيف أو النفخ مع شيء من الرِّيق، والنفَّاثات من صِيَغ المبالغة، مُفرَدُه: نفَّاثة، كالعلَّامة والفهَّامة، ويُستَعمَلُ للذكر والأنثى، والمراد منهم هنا: النَّمَّامون المقطِّعون لروابط الإلفة، المُحرِّقون لها، بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم[2].

أقول: ويجوز أن يُلحَقَ بهم المُشاغبون ودعاةُ الشر، وهؤلاء الأصناف يُضَلِّلون كما يُضلِّل الليلُ صاحبَه عن العدوِّ والطريق، ويخدعون بطرق مُشاغباتهم كما يخدع الساحرُ بالعُقَد. والله أعلم.

ثم قال: وإنما جاءت العبارة كما في الآية؛ لأنَّ الله جلَّ شأنه أرادَ أنْ يُشبِّههم بأُولئك السَّحَرة المُشَعوِذين الذين يَعقِدون الخيوط، وينفثون على العُقَد؛ إيهاماً لعَقْد شيء، ويحلُّونها إيهاماً لحلِّ شيء، يخادعون بذلك، فشبَّه النَّمَّامين بهم، لأنهم يذكرون

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٤٨).

(٢) التفسير الصحيح للنفاثات في العقد هو ما فسَّرها به أهل التفسير المعتمدون قالوا: النفاثات في العقد ـ السواحر والسَّحَرة الذين يعقدون الخيط وينفثون عليه كلام السحر. وينظر «تفسير الطبري» و«القرطبي» وغيرهما.

لك ما يذكرون لصاحبك، وأنت لا تعلم، وربما دخلوا عليك بما يشبه الصدق، حتى لا يكاد يُمكِنُك تكذيبُهم، فلا يَسهُلُ التَّحفُّظ منهم، ولا بدَّ من الاستعانة عليهم بقوة عظيمة، وهي قوة الله تعالى.

ثم تعرَّض الأستاذ الإمام لِـمَا يقولون من أنَّ النبي ﷺ سُحِرَ[1]، وأنَّ السورة نزلت لرقيته[2]، وردَّ ذلك.

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «سحر النبي ﷺ، حتى كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: «أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبَّه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: فيما ذا، قال: في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر، قال فأين هو؟ قال: في بئر ذروان»، فخرج إليها النبي ﷺ، ثم رجع، فقال لعائشة حين رجع: «نخلها كأنه رؤوس الشياطين» فقلت: استخرجته؟ فقال: «لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً» ثم دفنت البئر». رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) إنَّ رقية النبيِّ ﷺ بالمعوذتين ثابتة، ففي صحيح البخاري (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢) عن عائشة «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده، رجاء بركتها».

وأما كون سبب نزولها رقية النبي ﷺ فإنه قد ذكر بعضُ المفسرين هذا الأمر.

ففي «أسباب النزول» للواحدي: قال المفسرون: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ، فأتَتْ إليه اليهود ولم يزالوا به حتى أخذَ مشاطة النبي ﷺ وعدة أسنانٍ من مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وكان الذي تولّى ذلك لَبيدُ بن أعصم اليهوديّ، ثم دسَّها في بئرٍ لبني زُرَيق يقال لها: ذروان، فمرضَ رسول الله ﷺ، وانتثر شعرُ رأسه، ويرى أنه يأتي نساءه ولا يأتيهنَّ، وجعل يدور ولا يدري ما عراه، فبينما هو نائم ذات يوم أتاه ملكان، فقعدَ أحدهما عند رأسه، والآخر عند رِجلَيه، فقال الذي عند رأسه: ما بال الرجل؟ قال: طبّ قال: وما طبّ؟ قال: =

= سحر. قال: ومَن سحرَه؟ قال: لبيدُ بنُ أعصم اليهوديّ، قال: وبمَ طبَّه؟ قال: بمشط ومشاطة قال: وأين هو؟ قال: في جف طلعة تحت راعوفة في بئر ذروان.

والجفّ: قشر الطلع، والراعوفة: حجر في أسفلِ البئر يقومُ عليه المائح. فانتبه رسول الله ﷺ، فقال: يا عائشة ما شعرت أن الله أخبرني بدائي، ثمَّ بعثَ علياً والزبير وعمار بن ياسر فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجفّ، فإذا هو مشاطة رأسه وأسنان مشطه، وإذا وترٌ مُعقَدٌ فيه أحدَ عشر عقدة مغروزة بالإبر، فأنزل الله تعالى سورتي المعوذتَين، فجعل كلّما قرأ آية انحلَّت عقدة، ووجدَ رسول الله ﷺ خِفّة حتى انحلَّت العقدة الأخيرة، فقام كأنّما نشطَ من عقال، وجعل جبريل عليه السلام يقول: بسم الله أرقيك، من كل شيء يُؤذيك، ومن حاسدٍ وعينٍ اللهُ يشفيك. فقالوا: يا رسول الله أو لا نأخذُ الخبيث فنقتله؟ فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وأكرَهُ أن أُثيرَ على الناس شراً».

وفي «لباب النقول» للسيوطي: وأخرج أبو نُعيم في «الدلائل» من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أنس بن مالك قال: صنعت اليهود لرسول الله ﷺ شيئاً فأصابَه من ذلك وجعٌ شديد، فدخلَ عليه أصحابُه فظنّوا أنه لما به، فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوَّذه بهما فخرج إلى أصحابه صحيحاً. انتهى.

وقد قال بهذا البغوي والقرطبي وابن الجوزي، وعزاه ابنُ الملقِّن للرافعي.

وقال ابن حجر في «الفتح»: وفي حديث زيد بن أرقم عندَ عبدِ بن حُميد وغيره: فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين، وفيه: فأمره أن يحلَّ العقدَ ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحلّ، حتى قام كأنما نشط من عقال. انتهى.

قال الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة»: زيادة نزول جبريل بـ(المعوذتين) سندُها صحيح أيضاً. ولها شاهد من حديث عمرة عن عائشة قالت: كان لرسول الله ﷺ غلامٌ يهوديٌّ يخدمه يقال له: لبيد بن أعصم، وكانت تُعجبُه خدمته، فلم تَزل به يهود حتى سحر النبي ﷺ، فكان ﷺ يذوب ولا يدري ما وجعه، فبينما رسول الله ﷺ ذات ليلة نائم إذ أتاه ملكان، فجلس أحدُهما عندَ رأسه، والآخر عندَ رِجلَيه، فقال الذي عندَ رأسه للذي عند رجليه: ما وجعه؟ قال: مطبوب. فقال: مَن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم. قال: بمَ طبّه؟ قال: بمشط ومشاطة وجفّ طلعة ذكر =

وقد ردَّ على ذلك أيضاً أبو بكر الرازي المعروف بالجصَّاص[١]، إلى أن قال[٢]:

= بـ(ذي أروى)، و هي تحت راعوفة البئر. فاستيقظ رسول الله ﷺ، فدعا عائشة، فقال: يا عائشة! أشعرت أن الله قد أفتاني بوجعي، فلما أصبح غدا رسولُ الله ﷺ، وغدا أصحابه معه إلى البئر، وإذا ماؤها كأنه نقيع الحناء، وإذا نخلُها الذي يَشربُ من مائها قد التوى سيفُه كأنه رؤوس الشياطين، قال: فنزل رجل فاستخرج جف طلعة من تحت الراعوفة، فإذا فيها مشط رسول الله ﷺ ومن مشاطة رأسه، وإذا تمثالٌ من شمع تمثال رسول الله ﷺ، وإذا فيها إبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فأتاه جبريل بـ (المعوذتين) فقال: يا محمد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وحلّ عقدة، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وحلَّ عقدة حتى فرغ منها، وحل العُقَدَ كلّها، وجعل لا يَنزِعُ إبرةً إلا وجدَ لها ألـما، ثمَّ يَجدُ بعدَ ذلك راحة. فقيل: يا رسول الله! لو قتلت اليهودي؟ فقال رسولُ الله ﷺ: قد عافاني الله عز وجل، وما وراءه من عذاب الله أشد.... اهـ، ثم أفاضَ في الكلام على تخريجه.

وهناكَ خلافُ أهل العلم في سورتَي (الفلق) و(الناس) هل هما مَكيَّتان أو مدنيّتان. وقد صحَّح مكيّتَهُما جمعٌ من أهل العلم ـ منهم أبو السعود وابن عاشور ـ وقد ذكرَ ابنُ عاشور أنَّ الرواية المرويةَ عن ابنِ عباس في مكيَّتِهما أصحّ من الرواية المرويَّة في مدنيَّتهما.

كما صحَّح مدنيّتها جمعٌ آخرون ـ منهم ابن الجوزيّ والسيوطي وأبو حيان والبغوي والألوسيّ ـ واستدلوا بقصة لبيد بن الأعصم في الصحيحَين، ومهما يكن من أمر: فإن النبيَّ ﷺ كان يواظب على التعوذ ـ كما في الحديث: كان يتعوَّذ من الجانِّ وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذَ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي.

وعلى القول بمكيّتهما فإنهما تكونان نزلتا قبل السحر الذي عمِلَه اليهود للنبي ﷺ.

(١) هو أحمد بن علي الرازي (٣٠٥-٣٠٧هـ) فاضل من أهل الري، انتهت إليه رئاسة الحنفية، له: «أحكام القرآن»، و «أصول الفقه». «الأعلام» للزركلي (١: ١٧١). وأما ردّ الجصَّاص بأن السورة نزلت لرقيته فلم أطلع عليه، وإنما ذكر في «أحكام القرآن» أنه جاء جبريل إلى النبيِّ ﷺ فرقاه بالمعوذتين. نعم ردَّ الجصاص سحر النبي ﷺ.

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

وجائز أن تكون المرأة اليهوديَّة بجهلها فعلت ذلك، ظناً منها بأنه يَعمَلُ في النبيِّ ﷺ، فأطلَعَه الله على مَوْضع سرِّها، وأظهَرَ جهلَها فيما ارتكبت وظنَّت؛ ليكون ذلك من دلائل نبوَّته؛ لا أنَّ ذلك ضرَّه وخلط عليه أمره. ولم يقل كلُّ الرواة: إنه اختلط عليه أمرُه، وإنما زيد هذا في الحديث، ولا أصل له[١].

أقول: ولكن القاضي عياض[٢] يقول: السِّحرُ مرضٌ كسائر الأمراض، والأمراض تلحق الأنبياء، وكان ﷺ لم يعتقد صحَّة ما يُخيَّل إليه، بل يعلم أنه خَيالٌ لا صحَّة له، فلا يَقْدَحُ ذلك في أمر النبوة والعصمة فيها. والظاهر أن القاضي يرى أنَّ للسحر أثراً في الجسم كتأثير العين[٣]، والله أعلم.

وقال بعضهم: إنَّ الشيء الذي كان يُخيَّل إليه أنه يفعله وهو لا يفعله: إنما هو مقصور على إتيان النساء.

---

(١) جاء في بعض الروايات: «حتى كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله»، وفي بعضها: «حتى كان يُخيَّل إليه أنه يأتي أهله»، وبقليل من التأمل يظهر أن «الشيء» في الرواية الأولى كنايةٌ عن إتيان الأهل المصرَّح به في الرواية الثانية، ومثل هذه الكناية شائعةٌ في كلام العرب.
أما لو فُرض الأمر فيها بالعكس، فلا يستطيع؛ لأنه ليس من عادة الرواة أن يُعبِّروا عن لفظٍ مطلق ـ وهو هنا: «الشيء» ـ بصورة جزئيَّة، وهي هنا إتيان الأهل.
فظهر بهذا أنَّ الحديث وقع فيه تصرُّفٌ من بعض الرواة وروايةٌ بالمعنى.
أما عبارة المؤلف ـ وأصلها للشيخ محمد عبده ـ فتوهمُ أن كلَّ ما زاده راوٍ وأسقطه آخر؛ يعدُّ مما زِيدَ في الحديث ولا أصل له، وليس كذلك.

(٢) هو أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦-٥٤٤هـ) عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، له: «الغنية»، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، و«مشارق الأنوار». «الأعلام» للزركلي (٥: ٩٩).

(٣) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (٢: ١٨١).

ثم خصَّ سبحانه التَّعوُّذ من شرِّ الحاسد؛ لِعِظَم ضَرَر الحسد أيضاً، وشدَّة أذيَّته، وكثرة وقوعه، فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾[1]، والحاسد: هو الذي يَتَمنَّى زوال نعمة محسودِه، ولا يرضى أن يَتجدَّد له نعمة.

قال الأستاذ الإمام: وهو إذا حَسَد ـ أي: أنفذ حَسَدَه وحقَّقه بالسَّعي والجدِّ في إزالة نعمة مَنْ يحسدُه ـ يكون من أشدِّ خَلْق الله أذى، ومن أخفاهم حيلة، وأدقِّهم وسيلة، وليس في طاقة محسودِه إرضاؤه بوجهٍ من الوجوه، ولا في استطاعتِهِ الوقوف على ما يُدبِّره من المكائد، فلا ملجأ منه إلا إلى الله وحده. وَقانا الله شرَّ الحاسدين، وكَيْدَ الكائدين[2].

❊ ❊ ❊

(١) الجامع بين الثلاثة: «الغاسق إذا وقب»، و«النفاثات في العقد»، و«الحاسد إذا حسد» هو اشتراكها في الخفاء؛ فإن «الغاسق» ظلام تخفى فيه الشرور، و«النفاثات» مبنيٌّ أمرهنّ على الإخفاء تخييلاً وإيهاماً، والحسد داء دفين. «مجالس التذكير»: (٢: ٣٥٣).

(٢) الحسد خُلُقٌ نفسيٌّ ذميم، ليس فيه حرص وقدرة على الخير، فلعَجْزه ومهانته يحسد من يكتسب الخير، ويتمنَّى أن لو فاته كَسْبُه حتى يساويَه في العدم. فالحسودُ يحبُّ انحطاط غيره حتى يساويه أو ينزل عنه في النقص والتَّسفُّل والانحطاط، وربما يكون لِعَيْنِ بعضهم أثرٌ فوق ما له من سَعْي في أنواع الضرر. والله أعلم. (المؤلف).



مُختَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة أم مدنيَّة؟ وآيها ست

والغَرَضُ منها:

بيان الاستعانة بالله على عَوارض هذه الحياة الروحيَّـة، فأمرنا سبحانه أن نستعيذَ بربِّ الناس.

ثم أردَفَ هذه الصفة بصفاتٍ كلُّها تدل على أنه سبحانه آخِذٌ بناصيتهم.

ثم ذكر المُستَعاذَ منه ـ وهم أشرارُ الإنس وأشرارُ الجانّ ـ ووساوسَهم وما تُحدث من بلاءٍ وحدثان.

* * *

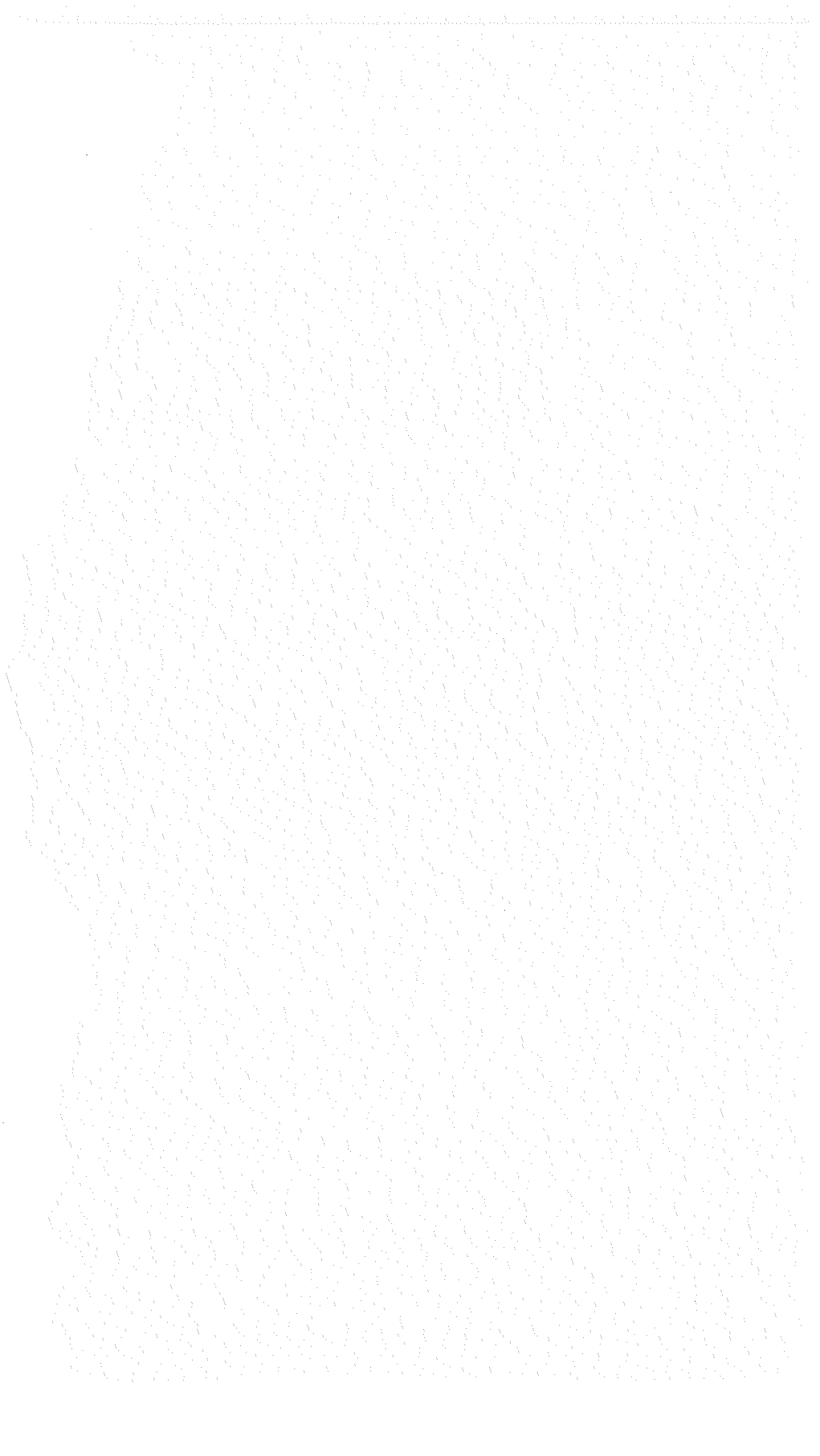

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي: أعتَصِمُ ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، كانت الاستعاذة في السورة السابقة من الأضرار البدنيَّة والنفسيَّة معاً، أما في هذه السورة فمن الأضرار التي تُعرِضُ للنفوس البشريَّة.

قال الأستاذ الإمام: هذه السورة أمرٌ إلهيٌّ بالاستعاذة بالله والالتجاء إليه والاستعانة به على دفع شرٍّ عظيم يُشبِهُ الشرورَ التي ذُكرت في السورة المتقدمة، ولكنه شرٌّ قد يسهو عنه الناس فلا يبالون به، لأنه قد يأتيهم من ناحية شهواتهم، وتلتبس له قُواهُم من حيث لا يشعرون، فيقعون به في سيِّئات الأعمال، وهم يحسبون أنهم يُحسِنون صُنعاً. ولما كان من الخفاء بحيث تضعف قوة الإنسان عن دفعه بسهولة، احتاج إلى الاستعانة عليه بالله، وذلك الشرُّ هو شرُّ الوسواس. فأمر الله سبحانه بالاستعاذة به عليه، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ألجأُ إليه وأستعين به وأعتصم. وربُّ الناس: الذي يُربِّيهم بالنِّعم، ويؤدِّبهم بالنِّقم.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ أي: الذي يحكمُهم ويضبط أعمالهم ويُدبِّر قواهم، ويَضَعُ لهم الشرائع، ويُحدِّدُ لهم الحدود العامة التي لا يباح لهم الخروج عنها. والمالك للشيء عالم بوجوه التصرُّف فيه.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ أي: المُستولي على قلوبهم بعَظَمتِهِ، فلا يُحيطون بكُنْهِ سلطانه، وإنما يخشعون لها، فهو معبودُهم الحقّ، ومَلَاذُهم إذا ضاقَ بهم الأمر.

ثم قال الأستاذ الإمام: وإنَّما خصَّ هذه الصفات من بين سائر صفات الألوهيَّة بالإضافة إلى الناس مع أنه الله سبحانه ربُّ كلِّ شيء، ومَلِكُ كلِّ شيء، وإلهُ كلِّ شيء؛ لأن الناس هم الذين وهموا في صفاته وضلُّوا فيها عن حقيقة معانيها، فجَعلوا لهم أرباباً ينسبون إليهم بعضَ النِّعَم أو كلَّها ولقَّبُوهُم بالشفعاء، وهم الذين تخيَّلوا لهم ملوكاً روحانيين، يظنُّون أنهم هم الذين يُدبِّرون حَرَكاتهم، وهم الذين يرسمون لهم حدود أعمالهم بما يُؤْثرون عنهم من أقوالهم، فيُعرِضون عن كتاب الله إلى كتبهم، وربما ضيَّعوا الكتب الإلهيَّة، فمُحِيَ أثرُها، اكتفاءً بما يبقى في أيديهم من مبتدعات أولئك الرؤساء.

ثم إنهم لذلك يجدون خشيةً لرؤسائهم هؤلاء، ويُخيِّلون لهم منها سُلطةً رُوحيَّة، فيَخْنَعون لهم خُنُوعَهُم للسلطان الإلهيّ، ولذلك عُدُّوا آلهةً لهم، لقَّبوهم بهذا اللقب أم لم يُلقِّبوهم به، فالناسُ هم الذين اخترعوا بأوهامهم هؤلاء الأرباب والملوك والآلهة، فلذلك خصَّهم بالذِّكر.

وإنما كرَّر ﴿ٱلنَّاسِ﴾ باللفظ الظاهر دون الضمير؛ لتقرير الأمر فَضْلَ تقرير، لشدَّة تعلُّق الجمهور الأعظم من الناس بخيالاتهم وتمسُّكهم بأوهامهم.

فإذا لم يكن للناس ربٌّ ولا مَلِكٌ ولا إلهٌ إلا الله، فاستَعِذْ به وحدَه ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ والشرُّ نوعان: شرُّ المصائب، وشرُّ المعائب. فكانت سورة الفلق للأول، وسورة الناس للثاني.

والربوبيّة تتضمَّن التوجيه والتدريب، فلذلك أدَّبَنا سبحانه بهذا التأديب، وخطابُ

الرسول ﷺ خطابٌ للأمة أجمعين، وقد جاء في الأثر: «ما من أحد يصبح إلا ومَلَكٌ يناديه: يا عبدَ الله، هَلُمَّ إلى الخير، وشيطان يناديه: بل هَلُمَّ إلى الشَّر»(١).

قال الأستاذ الإمام: وأصلُ الوسوسة: الصَّوْت الخفيّ. وقد قيل لأصوات الحُلِيِّ عند الحركة: وَسْوَسة. والوَسْواسُ هنا صفةٌ كالثَّرْثار، أو اسم مصدر استُعمِلَ استعمالَ الصفة، والمراد منه: الذي يُلقي الحديثَ في النفس، حديثَ السوء.

ثم وصفه بهذا الوصف فقال: ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾، وهو مأخوذ من: خَنَسَ؛ بمعنى: رجع، وذلك لأنَّ الأحاديث النفسيَّة إذا سُلِّط عليها نَظَرُ العقل في العواقب خَفِيَت واضمَحَلّت، وسكن المُوسوِسُ عن إلقائها، وهكذا حديث النفس بالفواحش وضروب الأذى بالناس، إذا ذُكِرَ دين الله وعقابه ذهب ذلك الحديث هباءً وخَنَس الموسوس، وكذلك إذا وَسْوَس لك أحدٌ من الناس وبعثك على فعل سُوء وذكرتَ ذلك وذكّرتَه به، رأيتَه يخنس ويُمسِك عن القول إلى أن يجد فرصة أُخرى.

فالموسوس بالشرِّ كثير الخنوس؛ لأنه من ناحية الباطل لا مُكْنَةَ له على مقاومة الحق إذا صَدَمه، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ المصائر إذا انجرَّت مع الوسوسة، وانساقت بها إلى تحقيق الخاطر بالفعل.

وإنما ذكر الله لنا هذا الوصف؛ ليُنبِّه إلى مكان الموسوس من الضعف، لنتلمَّس السبيل إلى دَفعِه مع الاستعانة بالله عليه، وليدلَّنا على أنَّ ما أصاب الناس من قبله إنما كان من ضَعْف عزائمهم وعشا بصائرهم، ولو استعملوا بصائرهم وقواهم فيما جعلها الله له، ما نجع الوسواس في نفوسهم، ولا جرَّهم إلى سُوء مصيرهم.

وقد وصف الله سبحانه الوسواسَ الخنَّاسَ بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ

---

(١) سبق تخريجه (٢: ٧٥).

ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾[١]، ثم بيّنه بقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ[٢] وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ فهذا البيان إما بيانٌ لـ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾، أو بيان لـ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾[٣].

---

(١) ﴿يُوَسْوِسُ﴾: بالمضارع؛ للإشعار بتجدُّدِ الوسوسة منه وعدم انقطاعها. والصدر: مجمع القوى النفسية المستودعة فيه. أي: الذي يُلقي في خُفْيةٍ الشرَّ والشكوك في صدور الناس، ويُحدِّثهم بالشهوات والشرّ ليغريَ بهم، ويدعوهم إلى طاعتِه وترك الخير والصلاح إذا غفلوا وشُغلوا عن ذكر الله.

(٢) ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾: الجنّ، اسم جنس جمعي؛ واحدُه جِنّي، والتاء لتأنيث الجمع.

(٣) أي إنّ ﴿مِنَ﴾ بيانٌ من اسم الموصول ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾، ومعنى ذلك: أن الموسوسين من الجنسين: من الجِنَّة والنَّاس معاً، فكلاهما يقوم بنصيبه من الوسوسة، حتى الإنس منهم لهم دور في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون أن يوسوسوا للجنِّ؛ لأنهم لا يرونهم، وإنما مجالهم في الوسوسة لإخوانهم من الإنس.

أو هي بيان من ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الذي يوسوس لهم، فبيَّنت أنَّ الناس الذين يوسوس الشيطان في صدورهم ليسوا مقصورين على جنس الإنس وحدهم، وإن كانت عداوته في الأصل موجَّهة إليهم، نتيجة حسدِه وحِقدِه القديم على جنس الإنسان، ولكن طبيعته الشريرة التي تكره الإيمان والخير، تأبى إلا أن تمتدَّ إلى قومه من الجِنَّة.

قال الإمام القرطبي: «قيل: إنَّ إبليس يوسوسُ في صدور الجنِّ، كما يوسوسُ في صدور الناس، فعلى هذا تكون ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، عامّاً في الجميع، و﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان لما يوسوس في صدره».

قال العلامة القرضاوي في «تفسير جزء عمَّ» تعليقاً على كلام القرطبي: «ولكن يعكِّر على هذا الفَهم: أن ينقسم الناس ـ الموسوَس لهم في الآية ـ وهم جنس البشر إلى الجنسين: جنَّة وناس؟!

والأَوْلى عندي: أن يُراد بالناس الذين يوسوس في صدورهم: النَّاسي بحذف الياء، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٣٦].

والمعنى: أن هذا الوسواس الخنَّاس، من شأنه أن يوسوس في صدور الناسي والغافل عن ذكر الله من الجنسين: الجِنَّة والناس، أما مَن يذكر الله ولا ينساه، فهو لا يُقبل عليه، ولا ينفذ إليه، كما =

قال الأستاذ الإمام: فالموسوس قسمان: قسم الجِنّة، وهم الخَلق المُسْتَتِرون الذين لا نعرفُهم، وإنما نجد في أنفسنا أثراً يُنسَبُ إليهم، ولكلٍّ من الناس شيطان، وهو قوَّة نازعة إلى الشرّ[١]، يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السُّوء[٢].

= قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ومعناها: أنهم إذا مسَّهم الشيطان بوسوستِه وفتنتِه، انتبهوا وتذكَّروا ربَّهم ولقاءه وحسابه وجزاءه، فإذا تذكَّروا ذلك أبصروا الغاية، وأبصروا الطريق، وأبصروا المصير، فرجعوا إلى الله وإلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم» انتهى.

وهذا المعنى وإن لم يكن مشهوراً عندَ المفسِّرين هوحسن، فـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الأخيرة يقصد بها الناسي، والمعنى: أن الشيطانَ يوسوس في صدرِ الذي ينسى ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة: ١٩] وهذا ما يُسميه البلاغيون بالجِناس التامّ بين «الناس» الذين هم البشر، وبين «الناس» الذي هو الشخص الذي يَنسى. وهنا تكون الاستعاذةُ للجنِّ والإنس؛ لأنَّ النسيانَ يكون منهما معاً، والشيطانُ يوسوس في صدور كلِّ من ينسى من الجنِّ والإنس.

(١) تقدَّم مراراً التنبيه إلى أن الشيطان ليس قوة، وإنما هو مخلوق من نار، أقدَرَه الله تعالى على إلقاء الوسوسة في نفوس الناس، وتقوية ما فيها من قوَّةٍ نزّاعة إلى الشر، فالقوَّةُ النزاعةُ إلى الشر مغايرة للشيطان.

(٢) الشَيطانُ: كل عاتٍ متمرِّدٍ سواء من الإنس أو الجن، وإبليس هو أبو الجن، كما أن آدم هو أبو الإنس. ومن تمرَّد على طاعة ربِّه سُمي شيطاناً، سواء كان جنياً أو إنسياً.

وقد اقتضت حكمتُه تعالى أن يستخلف بني آدم في الأرض لينظر كيف يعملون، وقد سلَّط عليهم الشيطان ليُزيِّن لهم ويغويَهم، وأخبرهم سبحانه بأنَّ الشيطان لهم عدوّ، وأمرهم بمعاداته وأخْذ الحذرِ منه، ومكَّن الشيطانُ من التزيين لهم والوسوسة في الوقت الذي عرَّفهم فيه طريق الخير والشر، وأعطاهم القوة التي يدفعون بها كيد الشيطان، ويتخلّصون من وسوسته، وإنما ابتلاهم الله تعالى وامتحنَهم بتسليط الشيطان عليهم ليميز الخبيث من الطيِّب، وليظهر من يُحبّه =

وإنما جعل الوسوسة في الصدر على ما عُهد في كلام العرب من أنَّ الخواطر في القلب، والقلب عندهم مما حواه الصدر، وكثيراً ما يقال: إنَّ الشكَّ يجول في صدره، وما الشكُّ إلا في نفسه وعقله، وأفاعيل العقل في المخّ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه.

والقسم الثاني من المُوسوِسين: قسمُ الناس، وهم المُضلِّلون والباعثون على فعل السُّوء.



= تعالى ويُؤْثر مرضاته على كلِّ شيء فيجاهد نفسه وهواه وشيطانه ابتغاء مرضاته سبحانه، ومن يستجيب لكيد الشيطان ووسوسته فيستحق خزي الله وعقوبته، والشيطان إنما يتسلط على مَن كان خبيثاً موالياً للشيطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]. وأما من أخلص لله تعالى واعتصم به فإنه سبحانه يعصمه من الشيطان ومكره، كما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

وقد ذكر ابن قيم الجوزيَّة وجوهاً كثيرة في الحكمة من خلق إبليس وما فيه من الحِكَم والمصالح التي ترتَّبت على وجوده في «شفاء العليل» فلينظر هناك. والله تعالى أعلم.

خاتمـة

وبهذا ينتهي ما وفَّقني الله لجمعه وترتيبه واختياره واقتباسه واقتضابه واستنباطه وابتكاره في تفسير آيِ الذِّكر الحكيم. وقد بذلتُ الجهدَ فيما اعتمدتُه فيه من انتقاء أحسن ما قيل في آيات التنزيل، وذلك عدا ما استنبطتُه بفهمي الخاص لبعض الآيات، واستلهمتُه منها من المعاني التي لم يسبقني إليها أحد، وإنما رأيتُ النظم يساعد على ذلك المعنى بحسب مفاهيم اللغة وعُرْف التخاطب وسياق الكلام على نهج القرآن.

والحمد لله الذي قدَّرني على إتمامه، والحمدُ أولاً وآخراً لله ربِّ العالمين.

واللهَ سبحانه واهبَ المِنَنِ أسأل أن يجعلَه لي ذُخْراً ليوم المآب، ووسيلةً لنيل الثواب، وأن يجعله من صالح عملي الذي لا ينقطع بانقطاع أجلي، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.

اللهمَّ لك الحمدُ حمداً كثيراً خالداً مع خلودك[1]، ولك الحمد حَمْداً لا منتهى له دون علمك، ولك الحمد حَمْداً لا مُنتهى له دون مشيئتك، ولك الحَمْدُ حَمْداً لا آخرَ لقائله إلا رضاك.

وقد وافق تمامُه يومَ الخميس المُصادِف لليوم التاسع عشر من شهر ربيع الثاني لسنة ألف وثلاثمئة وخمس وستين هجرية قمرية، الموافق لليوم الواحد والعشرين من شهر آذار لسنة ألف وتسعمئة وست وأربعين ميلادية.

---

(١) لفظ «الخلود» مما لم يرد إطلاقُه في حقِّ الله تعالى، فينبغي أن يُقال: باقياً مع بقائك.

ثم طبعت هذه النسخة بالطابعة، وكان الفراغ منها ٨ من ربيع الآخر ١٣٨٨هـ الموافق أربعة من تموز ١٩٦٨م.

وصلَّى الله على محمد وآله أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الراجي عَفْوَ ربِّه والمُؤمِّل رضاه
رشيد الخطيب الموصلي

* * *

الحمد لله الذي وفَّقني لكتابة هذه النسخة الثانية بكثير من الإصلاح والتنقيح والتهذيب للنسخة التي قبلها، وكان ابتدائي بها في اليوم التاسع من شهر جمادى الآخرة من شهور سنة ألف وثلاثمئة وثلاث وستين هجرية، الموافق لليوم التاسع والعشرين من شهر أيار لسنة ألف وتسعمئة وأربع وأربعين ميلادية، وأكملتُها ـ والحمد لله ـ يوم الخميس المصادف لليوم التاسع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة ألف وثلاثمئة وخمس وستين هجرية قمرية، الموافق لليوم الواحد والعشرين من شهر آذار لسنة ألف وتسعمئة وست وأربعين ميلادية. وعلى هذه النسخة المعوَّل؛ لأنها منقَّحةٌ ومُهذَّبةٌ أكبَرَ تنقيح وأحسَنَ تهذيب بالنسبة للتي قبلها.

٧ جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ
إلى ١٩ ربيع الآخر ١٣٦٥هـ رشيد الخطيب
٢٩ أيار ١٩٤٤م إلى ٢١ آذار ١٩٤٦م

فكانت مدّة كتابتها واحداً وعشرين شهراً وواحداً وعشرين يوماً بالتقريب.

ثم نسخ لي هذه النسخة على النسخة المخطوطة بيدي الحافظ توفيق الصمدي، وكان ابتداؤه بها في ١٤ رجب ١٣٦٧ الموافق ٢٢ أيار ١٩٤٨م، وانتهاؤه منها ١٢ شوال ١٣٦٩ هـ الموافق ٢٩ تموز ١٩٥٠م، فكانت مدَّة كتابتها سنتين وشهرين وستة عشر يوماً، ولكنه تخلَّلها فرصة تعطيل من الزمن، وقد أدخلتُ عليها من الإصلاح والإضافات الشيءَ الكثير على أصلها، وتحسَّنت تحسُّناً كبيراً، لذلك جاءَ فيها من الشطب والزيادات ما له قيمةٌ بالغة في الإصلاح، والحمد لله رب العالمين.

١٥ شوال ١٣٦٩هـ
٣٠ تموز ١٩٥٠ م

رشيد الخطيب

* * *

ثم إني راجعتُ هذه النسخة التي بخط توفيق الصمدي مراراً عديدة وصحَّحتُها ونقَّحتُها وشطبتُ ما رأيتُه غيرَ سديد، حتى أصبحت مُسوَّدة من كثرة ما فيها من ذلك، وأصبحتُ لا أقدر على تبييضها إذ بلغتُ من الكبر عتياً، ولم أجد مَنْ يساعدني على تبييضها مرةً ثانية لفَقْد مثل ذلك في البلد، وقد علَّقتُ عليها تعليقاتٍ عديدة، مستعيناً بالله سبحانه أن يُساعدني ويُسَدِّدَني، وأرجو أن أكون وفِّقتُ لذلك بعون الله، فعلى هذه النّسخة المعوَّل في الطبع والنشر، لا على غيرها من بقيَّة النسخ التي عندي، وأسأل الله سبحانه أن ينفع بها، وأن يأجُرَني عليها، وأن يتقبَّلها مني خالصةً لوجهه الكريم، وهو حَسْبي ونِعْمَ الوكيل، وأن يُعينَ على طبعها في أحسن الصُّور بعونه وتوفيقه.

٥ صفر ١٣٨٦هـ
الموافق ٢٥ أيار ١٩٦٦م

رشيد الخطيب الموصلي

ثم طبعت هذه النسخة بالطابعة، طبعها لي يونس خليل الدباغ، وكان الفراغ منها ٨ ربيع الآخر يوم الجمعة الموافق أربعة من تموز ١٩٦٨م، ثم صحَّحتُ هذه النسخة أيضاً المطبوعة بالطابعة، فكانت هي وحدها الجاهزة للطبع والنشر، وأسأل الله سبحانه أن يُسهِّل ذلك.

وتمَّ طبع الجزء التاسع والأخير بعونه تعالى في مطبعة مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر في جامعة الموصل، في يوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ١٣٩٤هـ، والموافق ٥ تشرين الأول ١٩٧٤م، والحمد لله رب العالمين[١].

* * *

يقول المعتني بهذا التفسير **مَجْد بن أحمد مكي** وفَّقه الله لِـمَا يحبُّه ويرضاه: انتهيتُ من قراءة هذا التفسير وترقيمه وضبطه والتعليق عليه في بعض المواضع وتهيئته للطبعة الجديدة المتقنة في مساء يوم الاثنين ٢٥ من ذي القعدة ١٤٢٩هـ.

ثم أعدتُ النظر فيه ومراجعتَه والتعليق عليه بعد فجر يوم الاثنين ٣ رجب ١٤٣٤

---

(١) تنبيه: طُبع تفسيري هذا بعد أن جاوزت التسعين من العمر، فما كان يُمكِنُني أن أقوم على التصحيح بنفسي، فما جاء فيه من بعض جُمل أو كلمات غير واضحة فهو من سقوط كلمة، أو تحريف كلمة، أو تقديم كلمة على كلمة، أو زيادة كلمة، وقد يكون الساقط حرفَ عطف أو حرف نفي أو حرف استثناء أو حرف ابتداء، وهكذا. والتحريف مثل: (يخاف) بدل (يختلف)، و(يعلمون) بدل (يعملون)، و(حساب) بدل (سحاب)، و(النبوة) بدل (البنوة)، و(يهتم) بدل (يتهم)، و(الأمور) بدل (الأوامر)، و(تعلوا) بدل (تعلموا)، و(يجزرهم) بدل (يزجرهم)، و(يدد) بدل (يندد)، و(ضميرهم) بدل (ضميركم)، و(الضوء) بدل (الوضوء)، و(ما) بدل (من)، و(أما) بدل (ما)، وهكذا (رشيد الخطيب).

الموافق ١٣ أيار ٢٠١٣م في مدينة الدوحة بقطر، وأرسلته إلى مؤسسة أَرْوِقة للدراسات والنشر بعمَّان؛ لتقوم بمراجعته وتنسيقه وإعداده للطباعة بعون الله وتيسيره.

وأسأل الله سبحانه أن يُيسِّر إتمام العناية به، ودقّة مراجعته وتصحيحه وإخراجه ونشره بين يدي طلاب العلم، وأن يرزقنا الإخلاص والصواب في القول والعمل، ويبارك لنا في أوقاتنا وأعمارنا، ونسأله عزَّ وجلَّ العلمَ النافع، والعملَ الصَّالح، والرزقَ الطيِّب، وأن يستعملنا في طاعته ومرضاته، إنه خير مسؤول وأكرم مأمول.

وصلى الله على نبيِّنا وسيِّدنا محمد وآله وسلَّم تسليماً كثيراً.

❊ ❊ ❊

الفهارس العامة

- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
- فهرس الآثار عن الصحابة
- فهرس الأشعار
- فهرس البلاغة
- فهرس الأعلام
- فهرس الفرق والمذاهب العقائدية
- فهرس الكتب
- فهرس الأماكن
- فهرس قواعد التفسير التي ذكرها المصنف
- الفهرس الإجمالي للسور

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	الجزء والصفحة
أبغض الحلال إلى الله الطلاق	٢/ ٣٣١
أتاني آتٍ من عند ربّي عزّ وجلّ	٣/ ١٢٧، ٦/ ٨٤
أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية	١/ ٧١٦
أتردين عليه حديقته	٢/ ٣٣٢
أتى ابن أم مكتوم النبيّ ﷺ أول إسلامه، وهو بمكة	٨/ ١٣٤
احبسوا عليّ هؤلاء الركب	٤/ ١٠٤، ١٠٥
أحياناً يأتيني مثل صلصلة	١/ ٦٤٠
الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه	٣/ ٢٥٧، ٤٣٩، ٤/ ٩، ٥/ ٢٦٢
ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة	٢/ ٢٧٢، ٤٣٦، ٣/ ٤٣٨
إذا أحبّ الله عبداً يقول لجبريل: أحببت فلانا فأحبّه	٥/ ٩٥
إذا أرسلت كلابك المعلَّمة وذكرتَ اسم الله	٣/ ١٨٢
إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها	٢/ ٣٢٥، ٣/ ٢٥٢
إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها	٤/ ٣٦٦
إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر	٧/ ٣٢٤
إذا مات ابن آدم انقطع عمله	٤/ ١٢٣

طرف الحديث	الجزء والصفحة
اذهبوا، أنتم الطلقاء	٤/ ٣٣٦
أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي	٨/ ٣٩٩
أرحنا يا بلال	٧/ ٢٧٠
أرسله، اقرأ يا هشام	١/ ٧٣٢
اعملي يا فاطمة، فإني لا أغني عنك	١/ ٧٧٩
اقرأ عليّ القرآن	٣/ ٦١
أقرأني جبريل على حرف	١/ ٧٣٢، ٧٤١
اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو	٧/ ١٠٣
ألا إن العربية اللسان	٢/ ١٩٥
إلا التبعات فيما بينكم	١/ ٥٨٢
اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون	٤/ ١١٥
اللهمّ أنجزْ لي ما وعدتني	٤/ ١٣
اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها	٤/ ٣٧
إما أن يعجل له دعوته	٢/ ٢٧٢
أمر برجم ماعز الأسلمي والغامدية	٥/ ٣٠٠
أمر عامله على مكة أن يؤذن المرابين بحرب	٢/ ٤١٧
أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهمَّ أيّنا كان أقطع للرّحم	٤/ ١٧
إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي	٦/ ٣٣٠
إنّ أطيب ما يأكل الرجل من كسبه	٥/ ٣٤٥
إنّ أكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله ﷺ	٥/ ٢٥
إن روح القدس نفثَ في روعي	١/ ٦٤١

طرف الحديث	الجزء والصفحة
إن الله اختار بني آدم فاختار منهم العرب	٤/ ٢٧٤
إن الله يحاسب جميع الخلائق في مقدار نصف يوم	١/ ٢٦٣، ٦٠٩، ٦/ ٣١٨
إن الله خلق آدم على صورته	١/ ٦٩٦، ٢/ ٦٨، ٧٠، ٤/ ٢٦٦
إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها	٣/ ٢٦٤
إن الله كتب يوم الجمعة على مَن كان قبلنا	٤/ ٥٠٩، ٧/ ٣٨٧
إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل لاه	٢/ ٢٧٢، ٧/ ١٤٩
إنّ الله ليقتص من الشاة القرناء للشاة الجلحاء	٨/ ١٤٦
إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	٥/ ٥١١، ٥١٥، ٥٢٧
إن الله يأمر الملك أن يكتب	٢/ ٤٣٧
إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر	٣/ ٣١
إنّ أميّة بن خلف في رهط من قريش قال لرسول الله ﷺ	٨/ ٣٨٧
إنّ أول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلّي	٨/ ٣٨٠
أنّ أولياء الله: المصلّون	٤/ ١٨٦
أن بين النفختين مدّة يتكوّن فيها الجسم ويُعاد	٦/ ٣٠٤
إن تسعمئة وتسعة وتسعين من كل ألف يكونون من أهل النار	٥/ ١٩٦
أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ	٧/ ٩٨
إن جبريل قال له: أرجِع حفصة فإنها صوّامة قوّامة	٧/ ٤٣٢
إن الخيمة درة مجوفة	٧/ ٢٤٧
أنّ رسول الله ﷺ أقام في غزوة تبوك	٤/ ١١١

طرف الحديث	الجزء والصفحة
أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يُخيِّر أزواجه	٦/ ٦٢
إن روح المؤمن في طيور تسرح في الجنة	٥/ ٢١٦
إنّ الزمان قد استدار كهيئته	٤/ ٨٧
إنّ الشرط بيننا في الرجال لا في النساء	٧/ ٣٦١
إن العبد كلما أذنب ذنبًا حصل في قلبه	٨/ ١٦٩
إن الكبائر: الإشراك بالله	٣/ ٤٩
إن لكل رجل في الجنة زوجين اثنين	٢/ ٤٨
إن للشيطان لـمّة بابن آدم	٣/ ٣١٠، ٥١٥
إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة	٢/ ٤٨
إنّ المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يرى منها	٥/ ٣١٤
أن مسطح بن أُثاثة هو ابن خالة أبي بكر الصدّيق	٥/ ٣١٠
أن المشركين سألوا النبيّ ﷺ اختباراً له	٥/ ٤٧
أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ آية بإشقاق القمر	٧/ ٢١٠
إن المؤمن ليؤجر في كل شيء	١/ ٧٧٠
إن الميت المؤمن يعرض عليه مقعده من الجنة	٥/ ٢١٦
أن النبي ﷺ أول ما تمثل له الملك	٨/ ٢٩٥
أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً شديداً	٨/ ٢٦٩
أنّ النبي ﷺ دخل عليها وعندها مخنّث	٥/ ٣١٧
أنّ النبيّ ﷺ سأله مشركو مكة	٥/ ٢٠
أنّ النبي ﷺ سُحر	٨/ ٤١٤
إن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام	٢/ ٤٠٨

طرف الحديث	الجزء والصفحة
أنّ النبيّ ﷺ كان يصحب بعض زوجاته	٥/ ٣٠٤
أن النبي ﷺ كانت له أمة يطؤها	٧/ ٤٢٩
أن النبي ﷺ لاقى من الوحي شدّة في أول الأمر	٨/ ٢٧٠
إن هذه الأمة لا تغلب من قلة	٢/ ٤٣٦
إنّ هذه الآية هي آية العز	٤/ ٥٨١
أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى	٢/ ١٨١
أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره	٧/ ٩٣
انبعث لهم رجل عزيز عارم منيع في رهطه فعقرها	٨/ ٢٥٧
أنتِ على خير	٦/ ٦٥
انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة	٧/ ٣٥٣
إنما أنا بشر مثلكم، وأنتم تختصمون إليّ	٢/ ٢٧٧
إنما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين	٢/ ١٩٦
إنما الماء من الماء	٣/ ٦٣
أنه أتى فاطمة بعبد وهبه لها وعليها ثوب	٥/ ٣١٦
أنه ﷺ حكم برجم اليهودي واليهودية	٥/ ٣٠١
إنه في ضحضاح من نار	١/ ٦٠٥، ٤/ ٧١، ٨/ ٣١٩
أنه قال: لـما نزلت هذه الآية في بيت أمِّ سلمة	٦/ ٦٤
أنه ﷺ كان يكبّر بمنى تلك الأيام	٢/ ٢٩٩
إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك	٥/ ٣١٦
إنه نعيت إليه نفسه	٨/ ٣٩٤
إنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصّالحين فيهم	٥/ ٧٤

طرف الحديث	الجزء والصفحة
أنهم ينبتون كما تنبت الحبّة في حميل السّيل	٦/ ٣٠٤
إني لا آمركم إلا بما أمرني الله به	٣/ ٢٦٤، ٧/ ١٩٠
إني لأعلم أنك على الحق	٤/ ١٧٤
أُوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت	٥/ ٢٥
أولئك قوم عجّلت لهم طيّباتهم	٥/ ٩٠، ٦/ ٣٧٧
أيّكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله	٦/ ٤٠٤
أيما امرأة سألت زوجها الطلاق	٢/ ٣٣٣
أيها الناس إن ربكم واحد	٢/ ٢٩٤، ٧/ ١٢٦
بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت	٤/ ١١٤
بخ بخ، ذلك مال رابح	٢/ ٥٠٩
بعثت أنا والساعتين كهاتين	٧/ ٦٩، ٢٠٩
بالعدل قامت السماوات والأرض	٥/ ١٦٧، ٧/ ٢٣١
بلغنا أنك تعطي البنت والأخت النصف	٣/ ١٣٦
بمقدار لمح البصر	٦/ ٣١٨
بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح	٧/ ٩٣
البينة على من ادعى	٢/ ٤٢١
بينما النبي ﷺ جالساً في نفر من أصحابه	٤/ ٤٢٢
بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل	٢/ ٣١٩
تبرّع رجل بوفاء دينارين عن ميّت	٤/ ١٢٤
تخرج الدابة ومعها عصا موسى عليه السلام	٥/ ٤٦٨
الثلث، والثلث كثير	٣/ ١٩، ٢٦

طرف الحديث	الجزء والصفحة
ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل	٦/ ٣٠٤، ٧/ ٢٦٦
جاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر	٤/ ١١٤
جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفًا	٨/ ٥١
حبل الله هو القرآن	٢/ ٥١٩
حتى أتيا الصخرة، فرأى رجلاً مُسجّى	٥/ ٤٠
حديث جبريل في مواقيت الصّلاة	٤/ ٥٦٥
حَرُمت عليه	٧/ ٣١٨
خذوا القرآن عن أربعة	١/ ٧١٨
خذوا عني مناسككم	٢/ ٢٩٣، ٢٩٩
خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك	٤/ ١٣٨
خير الصدقة ما أبقت غنى	٢/ ٣١٩
الدعاء هو العبادة	٦/ ٣٣٧
ذروني ما تركتكم	٢/ ١١٥، ٣/ ٢٦٤
رجع نبينا ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها يرجف فؤاده	٥/ ١١٨
رجم ماعزاً ولم يجلده	٣/ ٢٨
زمّلوني زمّلوني	٥/ ٤٨٩
زوجي لحم جمل غث (حديث أم زرع)	١/ ٦٩٥
سألت ابن أبي أوفى: هل رجم رسول الله ﷺ	٥/ ٣٠٠
سبحان الله لقد قفّ شعري لما قلت	٧/ ١٩٣
شغلونا عن الصلاة الوسطى	٢/ ٣٤٥
صالح رسول الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة	٧/ ٣٦٠

طرف الحديث	الجزء والصفحة
صلوا كما رأيتموني أصلي	٢/ ٢٩٩
صوموا تصحوا	٢/ ٢٦٤
الصيام نصف الصبر	٢/ ٢٥٩
طوبى لمن أنفق الفضل من ماله	٢/ ٣١٩
عجب الذنب	٤/ ٤٢٨، ٤٤٤، ٥/ ١١٤، ٦/ ٤٢٨
فاطمةُ بضعةٌ منِّي	٦/ ٤٣٠
فإن تولّيت فإنّ عليك إثم كلّ القبط	٤/ ٥٢٦
فقال: «ما هذا؟» قالوا: نذر أن يمشي إلى بيت الله	٢/ ٤٠٦
في قدر فواق ناقة	٦/ ٣١٨
قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت	٢/ ٥٥٤، ٦/ ٣٦، ٧/ ٤٩٩
قال: من يمنعك؟ قال: «الله»	٣/ ١٩١
قد جعل الله لهنّ سبيلا	٣/ ٢٨
قد حللت فتزوجي	٧/ ٤١٩
قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم	٧/ ٩٤
قدم ركبٌ من تميم إلى النبي ﷺ	٧/ ١٠٧
قم يا أبا تراب	٨/ ٣٧
قولوا: اللهمّ صلّ على محمد وآله	٦/ ٨٤
كالشعرة البيضاء في الثور الأسود	٨/ ٩٣
كان إذا حدّث النبي ﷺ بحديث حدّثه كأخي السرار	٧/ ١١١
كان خلقه القرآن	٧/ ٤٦٠

طرف الحديث	الجزء والصفحة
كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد	١/ ٧١٧
كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه	١/ ٦١٥
كان رسول الله ﷺ يقطّع قراءَته آية آية	٨/ ٣٩
كان ﷺ إذا غمّه أمرٌ فزع إلى الصلاة	٤/ ٥٦٥
كان ﷺ يصلي الفجر، فاستمع له الجنّ كيف يقرأ	٨/ ٢١
كان النبي ﷺ حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ	٧/ ٣٤٠
كذلك أُنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف	١/ ٧٣٢
كل بدعة ضلالة	٢/ ١٧
كلّ الذنوب يؤخّر الله منها ما شاء	٤/ ٥٣١
كل مولود يولد على الفطرة	٥/ ١٤٤
كل مؤمن وليّ الله	١/ ٧٧٦
كلا، إنّ عماراً مُلئ إيماناً من قرنه إلى قدمه	٤/ ٥٠٢
كم من عذق رداح لأبي الدحداح	٢/ ٣٥٩، ٧/ ٢٩٢
كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع	٧/ ٤٤٠
كنا عند النبي ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع	١/ ٧١٧
الكيّس من دان نفسه	٢/ ٤٣٠، ٣/ ١٣١
كيف بك إذا لبست تاج كسرى وسواريه	٦/ ١٥٤
لا أطلقها حتى أؤمر	٤/ ١٢٦
لا، إلا نكاح رغبة، لا دلسة ولا استهزاء	٢/ ٣٣٤
لا، بل شربت عسلًا عند زينب	٧/ ٤٣١
لا تنذروا، فإن النذر لا يُغني من القدَر شيئًا	٢/ ٤٠٦

طرف الحديث	الجزء والصفحة
لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود	٤/ ٥٦٢
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	١/ ٦٨٧
لا يتْم بعد بلوغ	٣/ ٣٩١، ٤/ ٥٣٧
لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث	٤/ ٥٣٦
لا يدخلنّ عليكم هذا	٥/ ٣١٧
لبيك وسعديك، والخير في يديك	١/ ٥٥٤، ٣/ ٥٧٦، ٤/ ٩٤، ٦/ ١١٥، ٨/ ٢٦
لتلبسنّ تاج كسرى وسواريه	٦/ ٤١٦
لتموتن كما تنامون	٣/ ٣٢٠، ٥/ ٢٦٥، ٤٧١، ٨/ ٧٦
لقد رأيتُنا يوم بدر وما فينا إلا نائم	٤/ ١٤
لله أفرحُ بتوبة عبده من العقيم الوالد	٣/ ٣١، ٤/ ٦٦، ٦/ ٢٩٨، ٤٠٣، ٨/ ١٩٦
لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة	٤/ ٩٣
لـم يكن النبيّ ﷺ يفسر شيئاً	١/ ٤٩٢
لـمّا قسم النبي ﷺ حنين، قال رجل من الأنصار	٦/ ٨٨
لن يدخلَ أحدٌ الجنةَ بعمله	٢/ ١٦، ٣/ ٤٢٩، ٥/ ٥٧٥
لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنّى لهما ثالثاً	٦/ ٣٧٦
لو كان موسى حيًّا بين أظهركم	٢/ ٥٠١، ٥٠٤
لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة	٤/ ٣٥٣، ٤٣٦

طرف الحديث	الجزء والصفحة
ليس الإيمان بالتمني	٣/ ١٣٢
ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته	٣/ ٢٥١
ليس الشديد بالصرعة	١/ ٦٨٧
ليس للرجل من صلاته إلا ما عقل منها	٥/ ٥٤٢
ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها	٤/ ٥٦٥، ٥/ ٢٦٢
ليست العربية بأحدكم من أم ولا أب	٧/ ٣٨٢
ما أراك إلا قد حَرُمت عليه	٧/ ٣١٨
ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني ...	٨/ ٢٩٥
ما أنتم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود	٥/ ١٩٧
ما أنزل الله من الفتن	٦/ ٤١٦
ما بعد الموت من مستعتب	٨/ ١٠٤
ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية	٧/ ٣٤٣
ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا حدث مثل هذا؟	٤/ ٤٢٢
ما لك يا عائشة، أغرتِ؟	١/ ٥٥٩
ما من أحد يصبح إلا ومعه ملك يناديه	١/ ٥٦٠، ٢/ ٧٥، ٨/ ٤٢٣
ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدّي منها حقها	٤/ ٨٤
ما من عبدٍ مؤمن يدخل الجنة إلا أُري مقعده	٧/ ٤٠٦
ما من مسلم دعا الله تعالى إلا وأجابه	٥/ ٤٦٠
ما من مولود إلا ويولد على الفطرة	٤/ ١٦٤
ما من نبيّ من الأنبياء إلا أُعطي ما مثله	٤/ ١٦٦
ما من يوم يصبح فيه العباد	٢/ ٤٠٤

طرف الحديث	الجزء والصفحة
ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكّل الله به قرينه	١/ ٥٦٠
مثل حبة خردل منه تنسلون	٥/ ١١٤
مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارًا	٢/ ٥٠٤
مرّ الملأ من قريش على النبي ﷺ	٣/ ٣١٣
مر الوليد بن المغيرة بالنبي ﷺ وهو يقرأ «حم السجدة»	٨/ ٥٢
من أنظر معسراً أو وضع له	٢/ ٤١٧
من بدّل دينه فاقتلوه	٤/ ٥٠٢
من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب	٢/ ٤١٥
من حلف على يمين، فرأى غيرها خيرًا منها	٧/ ٤٣٠
من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية	٢/ ٣٢٧
من قام رمضان إيماناً واحتساباً	٢/ ٣٤٥
من لم تنهه صلاته عن الفحشاء	٥/ ٥٤٢
مئة وأربعة كتب؛ على آدم عشر صحف	٨/ ٢١٥
الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا	٧/ ١٤٤
نساء الدنيا أفضل من الحور العين	٢/ ٤٩، ٧/ ٢٤٥
نعم يا أبا الدحداح	٢/ ٣٥٩، ٧/ ٢٩٢
النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع	٣/ ١٨١، ١٨٢
هل ترى ربك؟ فقال: كيف أرى ربي؟	٢/ ١٢٣
واعظ الله في قلب كل مؤمن	٣/ ٣١٠
واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك	٧/ ٣٠٤، ٤٠٨
والذي نفسي بيده، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة	٥/ ١٩٦

طرف الحديث	الجزء والصفحة
والذي نفسي بيده، ما بعد الموت من مستعتب	٦/ ٣٨٦
ولا تزنين	٧/ ٣٦٣
ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء	٦/ ٤٠٥
ويحك، ماذا يؤمِّنك أن أقول: نعم	٣/ ٢٦٣
يا أبا جندل، اصبر واحتسب	٧/ ٩٢
يا رسول الله، أقرئني وعلمني مما علمك الله	٨/ ١٣٤
يا رسول الله، إن عماراً قد كفر	٤/ ٥٠٢
يا عبادي، لو أن أوّلكم وآخركم كانوا على أفجر قلب	٧/ ٤٠٥
يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار	٣/ ٣٢٠
يرحم الله المحلقين	٧/ ٩٣
يكون النّسم طائراً يعلق بأشجار الجنة	٥/ ٢١٨
ينشأن في الآخرة على أبدع الصور وأجملها	٧/ ٢٦٠

❊ ❊ ❊

فهرس الآثار عن الصحابة

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
استشهد ثابت بن قيس في معركة الردّة	ثابت بن قيس	٥/ ٢١٦
أربعة كلهم من الأنصار (من جمع القرآن)	أنس	١/ ٧١٨
أنّ أرواحهم في أجواف طيور سود	ابن مسعود	٦/ ٣٣٠
إن الرجل ليشيب عارضاه	عمر	١/ ٦١٥
إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها	عمر	٤/ ٣١٦
إنّ راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم	ابن مسعود	٥/ ١٨٤
إنّ رسول الله ﷺ معصوم	ابن عباس	٤/ ٥٦٣
أنّ سورة الإخلاص تعدّ ثلث القرآن	.....	٨/ ٤٠٣
أنّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فأعتبهم	ابن عباس	٧/ ٢٩٧
أن الله تعالى افترض قيام الليل	عائشة	٨/ ٣٨
إنّ الله يبعث الأصنام ومعها شياطينها للحساب	ابن عباس	٤/ ٤٦١
إنّ إلياس هو من أنبياء بني إسرائيل	ابن عباس	٦/ ٢١٣
أن الشيطان ألقى في قلوب المشركين	ابن عباس	٤/ ٣٨
أن الشيطان تمثَّل في صورة سراقة بن مالك	ابن عباس	٤/ ٣٨
إن الضرار في الوصية من الكبائر	ابن عباس	٣/ ٢٦
أن علياً رضي الله عنه حين رجم المرأة، ضربها	علي بن أبي طالب	٥/ ٣٠١
إن كل ما عصي الله به، فهو كبيرة	ابن عباس	٣/ ٤٩

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
أن مشركاً جاء يلتمس من عمر مالاً فلم يعطه	عمر بن الخطاب	٤/ ١٠١
أن اليهود أتوا النبيّ ﷺ فقالوا: أتزعم أنه أوحي إليك بكتاب	ابن عباس	٢/ ٥٨٦
أن اليهود كانوا يقولون: إنما نريد الإصلاح بين المؤمنين وأهل الكتاب	ابن عباس	٢/ ٣٤
إن هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطلهم	علي بن أبي طالب	٢/ ٥٤٤
أنه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار	عمر بن الخطاب	٨/ ١٠
أنها نزلت في أهل الصفة الذين هاجروا بدينهم	ابن عباس	٢/ ٤٠٩
بقية السيف هي الباقية	علي بن أبي طالب	٢/ ٣٥٧
جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنّة رسول الله ﷺ	علي بن أبي طالب	٥/ ٣٠١
جهاد الكفار بالسيف والسّنان	ابن عباس	٤/ ١١٠
الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب	علي بن أبي طالب	٨/ ٣٤٢
الرجم في كتاب الله	ابن عباس	٥/ ٣٠١
الروح مرسلة في برزخ من الأرض	سلمان الفارسي	٥/ ٢١٤
صدقة السر في التطوع تفضل على علانيتها	ابن عباس	٢/ ٤٠٧
الضعيف عندي قوي حتى آخذ الحق له	أبو بكر، وعمر	٧/ ١٢٠
في بني آدم نفسٌ وروحٌ بينهما مثل شعاع الشمس	ابن عباس	٦/ ٢٩٢
قوارير كل أرض من تربتها	ابن عباس	٨/ ٨٤
كان أناس من الأنصار لهم أنسباء وقرابة	ابن عباس	٢/ ٤٠٨
كان ذلك ببطن نخلة عامدًا إلى عكاظ	ابن عباس	٧/ ٥٤
كان عبد الله بن أبيّ جسيمًا فصيحًا ذلق اللسان	ابن عباس	٧/ ٣٩٢

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
كان الوليد يسمى (الوحيد) في قومه	ابن عباس	٨/ ٥٠
كانت رسالته هذه بعدما نبذه الحوت	ابن عباس	٦/ ٢١٦
كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية	ابن عباس	٢/ ٢٩١
كانت قريش تطوف بالبيت عُراة	ابن عباس	٤/ ٢٨
كذب النّسابون	ابن مسعود	٤/ ٣٩١
كل ما كان في القرآن من قوله: ﴿مَآ أَدۡرَىٰكَ﴾	ابن عباس	١/ ٦٤٥، ٨/ ١٦٤
كل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟	عمر بن الخطاب	٨/ ١٣٩
كنا نقرأ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾	الزبير	٤/ ٢١
كنت أسمع كلام خولة، فيختفي عليّ بعضه	عائشة	٧/ ٣١٧
لا أجد في كتاب الله ثلث الباقي	ابن عباس	٣/ ٢٢
لا أُوتَى بمُحلِّل ولا مُحلَّل له إلا رجمتهما	عمر	٢/ ٣٣٤
لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة	علي بن أبي طالب	١/ ٤٩١
لا يشغله تعالى شأن عن شأن	ابن عباس	٦/ ٣١٧
لأرى من آياتك وأعلم أنك قد أحببتني	ابن عباس	٢/ ٣٩٠
لقد رأيتني يوماً وقد أوقد لي نار	خباب	٢/ ٣١٥
لقد شهدت مئة زحف أو زهاءه	خالد بن الوليد	٢/ ٥٧٤
لكل جنة أرض وسماء	ابن عباس	٤/ ٢٦١
لم أسمع «السلسبيل» إلا في القرآن	ابن عباس	٨/ ٨٥

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	ابن عباس	٢/ ٣٢٠
لو ذبحوا أيّ بقرة أرادوا لأجزأتهم	ابن عباس	٢/ ١١٤
ليس شيء مما في الآخرة يشبه ما في الدنيا	ابن عباس	٢/ ٤٩، ٥٧٦، ٥/ ٢٦، ٧/ ٦٨، ١٧٩، ١٩٢، ٢٤٨
ليس لي حاجة بين قوم عرف كل واحد	عمر	٢/ ٩
ليس المتواني بالمتوكل	عمر	١/ ٥٨٤
ما رأيت خيراً من نساء الأنصار	عائشة	٥/ ٣١٥
ما فيّ موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف	خالد بن الوليد	٢/ ٥٦٤
ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية	أبو بكر	٧/ ١٠١
ما لكم ولهذه، إنما دعا النبي ﷺ يهود	ابن عباس	٢/ ٥٩٠
متشابهة في الشكل متفاوتة في الجودة	ابن عباس	٢/ ٤٧
من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص	علي	٦/ ٢٤٢
من حلف بغير الله فقد كفر	ابن عمر	٣/ ٢٥٣
نتركها لا نبدلها	ابن عباس	٢/ ١٥٨
هؤلاء هم الثلاثة الذين خُلِّفوا	ابن عباس	٤/ ١٢٨
والله لا تبرح من مكانك حتى تقر أنك الذليل	عبد الله بن عبد الله ابن أبيّ	٧/ ٣٩٦
وحِّدوني واعبدوني أُثبكم	ابن عباس	٦/ ٣٣٧
وضعَ جبينَه على الأرض لئلا يرى وجهه	ابن عباس	٦/ ٢٠٩

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
ولد الولد لا يحجب	ابن عباس	٣/ ٢٤
يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون شريكة	عائشة	٣/ ١١
يا قوم، إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل	أنس بن النضر	٢/ ٥٤٨
يا معشر الناس، اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان	علي بن أبي طالب	١/ ٧٢٩

❊ ❊ ❊

فهرس الأشعار

بيت الشعر		الجزء والصفحة
ألستم خير من ركب المطايا	.....	٢/ ٣٩٠
تطاولت ليلك بالإثمد	.....	١/ ٦٩٧
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه	.....	١/ ٦٩٧
وإذا المنية أنشبت أظفارها	.....	١/ ٦٩٨
إنّ بني الأدرم حمّالوا الحطب	هم الوشاة في الرّضاء والغضب	٨/ ٤٠٠
كالبدر من حيثُ التفتَّ رأيته	يهدي إلى عينيكِ نورًا ثاقبًا	١/ ٦٦٧
كالشمس في كبدِ السماء وضوؤها	يغشى البلادَ مشارقاً ومغارباً	١/ ٦٦٧
تقوم إذا تعهدها المربي	على ساق الفضيلة مثمرات	١/ ٦٩٩
تُصلِّي بلا قلبٍ صلاةً بمِثلِها	يصيرُ الفتى مُستَوجِباً للعقوبةِ	٥/ ٥٦٩
تُخاطبُه: إيَّاك نعبدُ مُقبِلاً	على غيره فيها لغيرِ ضرورةِ	
ولو رَدَّ مَن ناجاك للغيرِ طَرفَهُ	تميَّزتَ مِن غَيْظٍ عليه وغيرةِ	
فلا هطلت علي ولا بأرضي	سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا	١/ ٦٥٠
وفي كلِّ شيءٍ له آية	تدلُّ على أنه واحد	٢/ ٤٣، ٤٥٢، ٥/ ٥٦٤
ولقد غَنَوا فيها بأنعَمِ عيشةٍ	في ظلِّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ	٦/ ٢٣١

بيت الشعر		الجزء والصفحة
.....	والجود بالنفس أقصى غاية الجود	٢/ ٢٤٧
أما ترى الحبلَ بتكراره	في الحجرِ الصماءِ قد أثرا	١/ ٥١٠
.....	إذا مت ظمآناً فلا نزل المقطرُ	١/ ٦٤٩
يكاد الذي يتلو غريب حديثها	يظن خيالًا أو أحاديث مفتري	٢/ ٢٣٢
يغتلي فيهم ارتيابي حتى	تتقراهم يداي بلمس	١/ ٦٩٨
وقريشٌ هي التي تسكنُ البَحْر	بها سُمِّيت قريشٌ قريشا	٨/ ٣٦٥
وربما أكسَبَ ثانٍ أوَّلا	تأنيثاً إن كان لحدفٍ مُوهَلا	٥/ ١٧٥
.....	ومسنونةٍ زُرقٍ كأنيابِ أغوالِ	٦/ ٢٠٢
تمنّى كتاب الله أول ليلةٍ	تمنّي داودَ الزبورَ على رِسلِ	٢/ ١٢٥
..... من رجالٍ أعزّةٍ	علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما	٢/ ٣١٤
صُوَرُ العَمَى شتى وأقبحُها إذا	نَظَرَتْ بغيرِ عيونهنّ الهامُ	٦/ ١٩
على نفسه فليبكِ من ضاع عمره	وليس له فيه نصيب ولا سهم	١/ ٧١٢، ٧١٤، ٢/ ٨
إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عَجَبَ	قد تُجزِئُ الحُرّةُ المِذكارَ أحيانا	٦/ ٤٣٢
وكم لله مِن لُطفٍ خفيّ	يدقُّ خفاهُ عن فَهْم الذكيّ	٤/ ٣٣٧

* * *

فهرس البلاغة

الاحتباك: ١/ ٥٢٦، ٥٢٨، ٢/ ٦٥، ٢٤٦، ٣٨٣، ٣/ ٢١، ٦٤، ٤/ ٣٦٥، ٥/ ١١٧، ٤٧١، ٥١٣، ٥٦٤، ٧/ ٢١٥، ٣٠٢.

الاحتراس ١/ ٥١١.

الإدماج: ١/ ٥٤١، ٢/ ٤٧١، ٣/ ٦٤، ١٠١، ١٨٦، ٣٠٣، ٣٨٠، ٤١٠، ٤/ ٢١٢، ٢٨٨، ٥٧٦، ٥/ ٩، ٤١٣، ٥٧٣، ٥٧٧، ٥٧٨، ٦/ ٢٣، ٢٦، ٣٨، ٥١، ١١٦، ١١٧، ١٣٠، ١٧٣، ١٨٨، ٤٠٢، ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٥، ٧/ ٣٧٩، ٨/ ٣١، ٤٣، ١٤٨.

الاستتباع: ٢/ ٣١٤، ٥٨٢، ٣/ ٧٤، ٣٤٠، ٣٦١، ٧/ ١٧٩.

الاستطراد: ٢/ ٦٧، ٢٤١، ٥٠٩، ٥٤٣.

الاستعارة: ١/ ٦٢٢، ٦٩٢، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٩٤، ٢/ ٩٧، ١٠٦، ١١٩، ١٣٩، ٣٧٧، ٤٥٦، ٣/ ١٣، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٣، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٦، ٤٧٦، ٤٧٩، ٤/ ١٣٢، ٢١٤، ٣٨٦، ٥٠٤، ٥٣١، ٥/ ٢٥، ٨٥، ١٣٤، ١٦٠، ١٩٨، ٣٦٣، ٣٩٤، ٤٩٣، ٥٣٢، ٦/ ١٠، ١٧١، ٣٠٣، ٣٢٤، ٣٧٢، ٤٤٥، ٧/ ٢٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٧٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٨/ ١٠، ٥١، ١٨٧، ٢٤٥، ٣٦١، ٤٠١، ٤٠٢.

الاستفهام: ١/ ٥٣٧، ٥٤١، ٦٦٠، ٢/ ١٣٤، ١٨٧، ٣٦٠، ٣٨٠، ٣٨٢، ٤٥٢، ٤٥٧، ٥٤٩، ٣/ ٧٣، ٧٤، ٩١، ١٤٧، ٢٣٠، ٢٩٧، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٤٠، ٤٤٩، ٤٥٧، ٤٨١، ٤٩٠، ٤/ ١٢٧، ١٣٢، ١٧٣، ١٨٠، ٢١٧، ٢١٩، ٢٥٥، ٣٣٥، ٣٧٢، ٤٣٧، ٤٦٤، ٥/ ١١، ١٠٥، ١٢٣، ١٤٧، ١٧٢، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٦، ٣٩٨، ٥٣٥، ٥٥٨، ٦/ ١٢٨، ٢١٨، ٢١٩، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠١، ٣١٣، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٧٣، ٣٨١، ٤٠١، ٧/ ٦٨، ١٢٤، ١٤٠، ١٩٤، ٢٦٢، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٨/ ٦٥، ٧٩، ١٣٠، ١٦٨، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٦٤، ٢٧١، ٣٢٩، ٣٥٨.

أسلوب الحكيم: ٤/ ١٠٢.

أسلوب فرض الشك: ٤/ ٢٠٠.

الإضراب: ٤/ ١٧٦.

الإطناب: ١/ ٤٦٩، ٢/ ٢٦، ٦٧، ٩٦، ١٤١، ١٩١، ٣٠٩، ٣٧٠، ٤٢٧، ٣/ ٤٠٦، ٤٧٨، ٤٩٢، ٥/ ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٢٨، ٥٠٥، ٦/ ١٩٥، ٧/ ٢٧١، ٢٣٤، ٨/ ٥٢، ١٦٣، ٢٥٢، ٣٤٠.

اقتباس: ٥/ ٩٣.

الاكتفاء: ٢/ ٦٥، ٧١، ٧٩، ٩٠، ٢٦٦، ٣١٢، ٣١٦، ٣٦٣، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٣، ٤٢٧، ٤٧٨، ٥٤١، ٥٥١، ٥٩٤، ٣/ ٨، ٢١، ٤٤، ٤٥، ١٥٣، ١٦٨، ٢٦٠، ٢٩٢، ٤١٩، ٤٣٧، ٤٧٩، ٤/ ٦٧، ١٨٨، ١٩٨، ٢٤٠، ٣١١، ٣١٢، ٤٨٨، ٥/ ٣٢، ٤٩، ٥٠، ٧٥، ٢٧١، ٣٠٩، ٣١٩، ٣٦٨، ٥٠٥، ٥١٣، ٦/ ٢٠١، ٢٣٨، ٢٧٥، ٢٧٩، ٣٣٩، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٧٤، ٤٠٠، ٧/ ١٤٥، ٢٣٣، ٢٧٨، ٣٠٢، ٣٢٠، ٨/ ١٢، ١٣، ٢٤٥.

الالتفات: ١/ ٥٢٣، ٢/ ٨٩، ٩٦، ١٢٩، ٤٤٦، ٣/ ٨٩، ٢١١، ٢٣٧، ٣٣٨، ٤/ ٦١، ١٤٥، ١٦٧، ١٨٥، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٨٢، ٥٠٨، ٥/ ٨، ١٢١، ١٢٥، ١٢٧، ١٦٨، ٢٥٥، ٢٨٢، ٢٨٥، ٣٤٩، ٣٦٠، ٣٧٢، ٤٧٣، ٥٠٣، ٥٢٢، ٥٤١، ٥٤٦، ٥٧٥، ٦/ ٣٥٥، ٤٣٣، ٤٥٦، ٧/ ١٢، ١١٦، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٥، ٢٢٢، ٤٢٢، ٤٧١، ٤٩٩، ٨/ ٣٠، ١٣٣، ٢١٤.

الأمر ١/ ٥٤٤، ٦٥٥، ٦٩١، ٧٤٠، ٢/ ٩٥، ١٠٣، ١١، ١٦٢، ١٧٨، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٢، ٢٧٥، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٣٥٣، ٣/ ٢٩، ٧٧، ١١٢، ١٦٣، ١٨٩، ٢٥٢، ٤٥٢، ٤/ ٤٨، ٩٢، ١١٥، ١٥٥، ١٩٧،

٢٠١، ٢٠٦، ٢٥٥، ٣١٠، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٨٢، ٥٠٨، ٥/ ٢٢، ٢٣، ٦٠، ٩٠، ١٠٨، ١١٠، ١١٣، ١١٨، ٢٢٢، ٢٥٣، ٢٧١، ٢٧٧، ٣١٠، ٣١٨، ٣٧٨، ٤١١، ٤٢٨، ٤٨٩، ٥٢٥، ٥٦٩، ٦/ ٣٥٦، ٧/ ٤٥٠.

الإنشاء: ٤/ ٤٨، ٣٣٦.

الإنكار: ١/ ٥٢٠، ٥٣٩، ٤/ ٩٢.

الإيجاز: ١/ ٤٩٧، ٥٠٦، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٤١، ٥٥٥، ٢/ ٦٠، ٧١، ٢٤٦، ٢٧٧، ٢٨٢، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٦، ٣٨٦، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٧٨، ٥٥١، ٣/ ٤٤، ٢٤٧، ٢٦٠، ٢٩٢، ٣١٢، ٣١٥، ٣٢٩، ٣٤٦، ٤٧٩، ٤٨٩، ٤/ ٦٧، ٨٨، ١٣٢، ١٥٨، ١٨٨، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٧، ٣٠٢، ٣١٢، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٦٥، ٣٧١، ٣٧٣، ٤٣٨، ٤٨٨، ٥٢٠، ٥٣٥، ٥/ ١١، ٥٣، ٦٨، ٧٥، ١٠١، ١١٧، ١٦٢، ١٧٠، ٢٤٢، ٣٠٩، ٣١٩، ٣٩٤، ٥٠٥، ٥٧٩، ٦/ ١١٦، ١٤٥، ٢٢٧،

٢٣٨، ٢٧٥، ٢٨٣، ٢٩٣، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٦٦، ٣٨٩، ٧/ ١٩، ٥٠، ٦٨، ٧١، ٩٩، ١٣٥، ٢١٧، ٢٤٢، ٢٥٥، ٤٧٨، ٨/ ٨٦، ١٨٢، ٢٣٧، ٢٩٩.

إيجاز حذف: ٢/ ٢٩٦، ٣/ ٢٩٩، ٥/ ٣٣٦، ٦/ ٢٢٧، ٧/ ٤٣٣.

إيجاز القصر: ٢/ ١٧٩، ٣/ ٤٨٩، ٤/ ٣٠٢، ٣١٠، ٥/ ٥٢.

الإيماء: ١/ ٤٩٦، ٥١٢، ٥٨٠، ٦٥٠، ٦٥٨، ٦٧١، ٦٧٢، ٤/ ٤٧.

براعة الاستهلال: ٣/ ١٧٤، ٦/ ٤٦، ٨/ ٢٩٦.

التجريد: ٦/ ٣٠٧، ٧/ ٤٢٤.

التحذير: ١/ ٥٢١، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٦٢٧، ٦٧٦، ٧١٤.

التحذير والإغراء: ٢/ ١٤٩، ١٨٨، ١٨٩، ٢٧٥، ٤/ ٢٠، ٢١، ١١٧، ١٣٧، ١٩٠، ٢١٦، ٢٢٥، ٢٣٩، ٢٦٣، ٤٦٥، ٤٩٣، ٥٣٢، ٥/ ٣٢، ٨٤، ١١٥، ١١٧، ١٤٢، ١٨١، ٢٥٦، ٢٦٩، ٢٨٤، ٣١٣، ٣٤٠، ٣٥٨، ٣٧٦، ٣٩٨، ٥٤٧، ٦/ ٤٦، ١٢٦، ١٣٨، ٧/ ٧٠، ١٢٤، ٢١٦، ٣٥٤، ٤٣٦، ٣٨٩، ٤٥٣، ٨/ ٨، ٨٢، ١١٧، ١٦٧، ١٦٨، ١٨٢، ١٩٣، ٢٥٧.

الترجي: ٥/ ٨٠.

الترشيح: ١/ ٦٩٤، ٤/ ١٣٢.

التشبيه: ١/ ٦٣٦، ٦٧٤، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٧، ٢/ ٧٠، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٣، ٣٣٩، ٤١٢، ٤١٣، ٤٧٠، ٤٨٢، ٣/ ٣٢٦، ٣٦٩، ٤٣٩، ٤٤٠، ٥٠١، ٤/ ١٦٨، ٣٥١، ٣٦٢، ٤٩٣، ٥/ ٤٤، ٦٦، ١١٩، ١٨١، ٢٣٢، ٢٤٤، ٣٠٠، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٥٨، ٤٦٧، ٥٧٨، ٦/ ١٤٧، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٣٦، ٧/ ١٢٤، ٢٦٦، ٣٧٣، ٤٣٣، ٤٧٩، ٨/ ١٠٣، ١٥٢، ١٩٢، ٢٢٠، ٢٣١، ٤١٣.

التعجب: ٤/ ٨٠.

التعجيب: ١/ ٥٣٩، ٦٥٧

التعريض: ١/ ٥١٨، ٢/ ٩٢، ١٦٣، ١٨٦، ٢٤٣، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٤٧، ٣٦٧، ٤٠٠، ٤١٦، ٤٥٧، ٤٩٠، ٤٩٦، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥٨٤، ٣/ ٥٩، ٨١، ٩٩، ١٧٥، ١٧٦، ٢٠٧، ٢٧٧، ٢٩٣، ٣٣٠، ٣٤٢، ٤٠٠، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٦٥، ٤٩٣، ٤/ ١١، ١٤٢، ١٦٥، ١٨٧، ٢٩٠، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٦، ٥٠٧، ٥/ ١٢، ٨٠، ٨٤، ١٠٥، ١٥٨، ١٦٥، ١٧٧، ١٨٠، ٢٢٣، ٢٥٦، ٢٧٤، ٢٧٩، ٣١١، ٣٤١، ٣٧٨، ٣٨٣، ٤٠٩، ٤٣٨، ٤٤٧، ٤٦٢، ٤٩١، ٤٩٤، ٥٣٦، ٦/ ٥٧، ٧١، ٨٨، ١٠١، ١٥٨،

٣٢٨، ٤١٥، ٤٥٢، ٢٥٧، ٧/ ١٢٩، ١٨٥، ٢٠١، ٢٦٩، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٦٨، ٣٩٧، ٤٣٣، ٤٣٧، ٤٣٨، ٨/ ٣٠، ١٩٥، ٣٠٩، ٣٧٥، ٣٨٠.

تعقيب المدح بما يشبه الذم: ٤/ ١١٢.

التعليل: ١/ ٦١٧، ٦٢٧، ٢/ ٩٦، ١٠٧، ١٣٥، ١٣٨، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ٢١٢، ٢٥٥، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٠، ٤٤٦، ٤٦٥، ٥٢٦، ٥٣٠، ٣/ ٣٤، ٦٢، ٩٩، ١٠٥، ١٠٨، ١١٩، ١٣٧، ١٨٩، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٣٨، ٣٦٨، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٧٢، ٤/ ٤٩، ٥٦، ٨٢، ٩٨، ١٠٢، ١٠٩، ١٢٤، ١٤١، ١٨١، ١٩٨، ٢٠٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٩٠، ٣٣٦، ٤١٢، ٤٢٤، ٥١٨، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٩، ٥٦٨، ٥٧٩، ٥/ ١٦، ٣٢، ٦٧، ٧١، ٨٧، ١٠٤، ١٠٥، ١١٧، ١٢٨، ١٦٤، ١٨٨، ١٩٢، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٥٦، ٣٠٣، ٣١٣، ٣٣٥، ٣٤٨، ٣٦٧، ٣٩٠، ٤٢٩، ٤٨٦، ٤٧٤، ٦/ ١٧، ٣٦، ٣٧، ٩١، ٩٩، ١٠٠، ١٥٢، ١٥٥، ١٦٩، ١٩٤، ٢١١، ٢٢٤، ٢٦٩، ٢٨١، ٣١٩، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٩٢، ٤١٣، ٧/ ١٠، ٥٢، ٦٧، ٧٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ١٦٩، ٢٤٦، ٢٦٢، ٣٤١، ٣٦٠، ٣٩٤، ٤٠٤، ٤٦١، ٤٧٨، ٨٠٠، ٨/ ١١٤.

التعويض: ٤/ ٣٧٣.

التغليب: ٣/ ٢١، ٣٣٦، ٥/ ٣١٨، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٧٥.

التقديم والتأخير: ١/ ٥١٦، ٦٧٣، ٢/ ٨٥، ١٤١، ٤٨٥، ٣/ ١٩٦، ٢٤٠، ٤/ ١٨٥، ٥/ ٤٤، ٢٩٩، ٣٦١، ٥٢٨، ٥٥١، ٦/ ١٠١، ١٩٥، ٢٣٤، ٧/ ٣٢٠، ٨/ ٣١.

التقرير: ١/ ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٨١، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٩٣، ٦٣٤، ٦٣٦، ٦٣٨، ٦٤٥، ٦٤٨، ٦٥٥، ٦٧١، ٤/ ١٢٧.

التقليب: ٦/ ٢٨٤، ٧/ ١٨٢.

التقييد: ٣/ ٤٥٣، ٤/ ٤٦٢، ٥/ ٢٥٢، ٢٩٥، ٣٠٥، ٣٢٠، ٣٤٦، ٣٥٥، ٤٥٦، ٤٦٧، ٤٨٩، ٥٢٣، ٥٥٦، ٥٧٨.

التمثيل: ١/ ٥٠٣، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٥٦، ٥٥٨، ٥٦٢، ٥٦٣، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٣٢، ٦٥٤، ٦٧٥، ٦٩٢، ٦٩٥، ٧٩٤، ٤/ ١١، ٣٨، ٣٤٣، ٤١١، ٤٣٤، ٤٩٣، ٦/ ١٠، ١٥، ١٣٠، ١٣١، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٨٨، ٢٠٢، ٢٤١، ٢٧١، ٣٠٢، ٣٠٧، ٣١٨، ٣٣٦، ٣٥٢، ٣٥٦،

٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨٦، ٤٠٠، ٨/ ٨، ٣٢، ٥٠، ٧٤، ٨٤، ١٤٦، ١٧١، ١٨١، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤٧، ٢٧٩، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٥٣.

التمني: ٥/ ٤٠٧، ٥٠٥، ٧/ ٣٧٩.

التمهيد: ١/ ٥١٤، ٤/ ٨٦.

التناسب: ٢/ ١٧٧، ١٧٨، ٥/ ١٩٢، ٦/ ٥٠.

التنكير والتعريف: ٢/ ١٠٧، ١٤١، ٢٥٣، ٣/ ١٠٩، ٥/ ٤٥١، ٤٦٠، ٧/ ٢٩، ٦٣، ٢٣٢، ٨/ ٢٢٧، ٢٤٢.

التوجيه: ٦/ ٤٢٩، ٨/ ٤٠٠.

التورية: ٣/ ٣٠٣، ٤/ ٢٩٠، ٣٢٨، ٣٣٠، ٧/ ٣٢٤.

التوفيق: ٥/ ١٨٦.

الحذف: ١/ ٤٩٧، ٢/ ٥٩، ٦٠، ٦٥، ٧١، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣٨٣، ٣/ ١٦٨، ١٨٩، ٤٧٩، ٤/ ٣٧٣، ٧/ ٦٨، ٧١، ٢١٥، ٥/ ٢٢٩، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣٩٤، ٤٧١، ٨/ ١٢، ٢٥، ١٦٧، ٢٤٥.

حسن التعليل: ١/ ٦٢٨، ٤/ ٤٦٨، ٦/ ١٣٨، ٧/ ٣١٢، ٣١٣.

الحصر: ٢/ ٢٤١، ٣/ ٣٨١، ٤٨٥، ٥/ ١١٨، ٣٣٩، ٤٣٤، ٧/ ٣٠، ٣٢٩.

الحض: ٤/ ٢٠١.

الحقيقة: ١/ ٥٠٣، ٥٤٣، ٥٦٢، ٥٩٢، ٥٩٣، ٦٢٣، ٦٤٦، ٦٩٣، ٦٩٩، ٧٠٠، ٤/ ١٤، ٢٩٠، ٣١٢، ٣٤٤، ٣٥١، ٣٩١، ٤٠٠.

الخبر: ١/ ٦٣٣، ٦٥٢، ٦٩١، ٢/ ٣٢٩، ٣٦١، ٣٩٢، ٤٠٨، ٣/ ٤٠٢، ٤/ ٤٨، ١١٥، ١٤٤، ٣١٠، ٣٣٦، ٥/ ١٨٠، ٢٤٥، ٧/ ٣٣٠.

الدعاء: ١/ ٤٥٤، ٦٠٤، ٦٥٤، ٦٧٢، ٧٨٤، ٢/ ١٨٠، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٥، ٥٩٣، ٥٩٤، ٤/ ١٢٣، ١٩٧، ١٤٤، ٥/ ١٢، ٦٦، ١٩١، ٢٧١، ٢٧٤، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٩، ٤٨٥.

الطباق (التضاد): ٢/ ٣١٨، ٤١١.

العكس المعنوي: ٣/ ١٠٧، ١٩٣.

الفصل: ١/ ٦٦١، ٢/ ٥٤٣، ٣/ ٣٤٦، ٤/ ١٥٠، ٥/ ١٤٧، ٢٤٦.

القصر: ٢/ ١٢٨، ٣/ ٥٠٨، ٤/ ٩٥، ١٨٣، ٥/ ٩٣، ٩٤، ١٣٠، ١٦٢، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٦٢.

القول بالموجب: ٤/ ١٠٢.

الكناية: ١/ ٦٥٨، ٦٩٢، ٢/ ١٣١، ١٤١، ١٥١، ٢٧٣، ٥٢٣، ٥٥٤، ٣/ ٦٠، ٧٤، ١٤٧، ١٨٧، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٥٤، ٣٢٥، ٣٨٠، ٤٠٨، ٤/ ١٢، ٣٧، ٢١٢، ٢١٤، ٢٣٣، ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٩٨، ٣٧٧، ٣٩١، ٤٣٩، ٤٦٨، ٥٢٧، ٥٦٧، ٥٧٣، ٥/ ٦٦، ٦٩، ٨٥،

٨٦، ٨٨، ٩٣، ١٠٠، ١٠٦، ٣٠٠، ٤٢٨،
٥١١، ٦/ ١٤، ٣٠، ٥٢، ٧٥، ١٣٥، ١٤١،
١٨٠، ٢٤٢، ٢٩١، ٣٥٩، ٣٩٨، ٧/ ٦٣،
٨٢، ١٢٤، ٢٥٩، ٢٩٥، ٣٦٣، ٨/ ١٠٣،
١٣٦، ١٤٦، ١٥١، ١٩٣، ٢٧٦، ٣٢٣، ٣٤١.
اللف والنشر: ٣/ ٥٠٥، ٥/ ٥٦٤.
المبالغة: ١/ ٥٣٣، ٥٤٣، ٥٥٤، ٥٥٩، ٥٨٧،
٥٩٣، ٦٠٤، ٦٤٢، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٥٢، ٦٥٤،
٦٥٧، ٦٩٢، ٦٩٤، ٢/ ٣٦٦، ٣٩٠، ٣٩٧،
٤١٠، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٤،
٤٤٢، ٤٥٦، ٤٦٦، ٤٩٩، ٥١٨، ٥٦٩،
٤/ ١٧، ٤٨، ٦١، ٨٤، ١٠٧، ١١١، ١١٢،
١٣١، ١٣٤، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٧، ٢١٧،
٢١٩، ٢٢٥، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٢٤،
٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢٢،
٣٢٨، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٦٩، ٣٧٧، ٣٨٩، ٤٠٨،
٤١٠، ٤١٧، ٤٤٤، ٤٤٧، ٤٦٢، ٤٧٥، ٤٧٦،
٤٧٧، ٤٩٠، ٤٩١، ٥٠٣، ٥٠٥، ٥٠٧، ٥٠٨،
٥٣٦، ٥٤٢، ٥٤٧، ٥/ ٢٤، ٣٠، ٤٢، ٤٥،
٥٢، ٧٢، ٧٥، ٨٧، ٩٦، ١٠٠، ١٠٥، ١١٥،
١٢٥، ١٢٦، ١٣٣، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٩، ١٦٠،
١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٩٩، ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٢،
٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٥،
٣٠٢، ٣٠٧، ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٣٥، ٣٤٣، ٣٦٣،
٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٩٤،
٤٣٥، ٤٣٩، ٤٥٤، ٤٥٩، ٤٦٧، ٤٧٠، ٤٩٦،
٥٠٢، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١٣، ٥١٨، ٥٢٣، ٥٢٥،
٥٣٩، ٥٤٤، ٥٥٧، ٦/ ١٠، ١٤، ٤٧، ١١٦،
١٧٠، ١٧٣، ١٩٤، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٥٧، ٣٢٤،
٣٧٤، ٤٠٤، ٤٢٩، ٤٤٦، ٤٥٦، ٧/ ٩، ١٤،
١٩، ٢٠، ٢٧، ٣٤٨، ٤٣٦، ٤٨٤، ٣٠، ٥٢،
٥٤، ٦٧، ١٢٤، ١٣٠، ١٣٥، ١٤٨، ١٦٨،
١٧١، ١٧٨، ١٨٦، ١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٠،
٢١٧، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٧١، ٢٨٦، ٣٠١،
٣١٢، ٨/ ٢٢، ٢٧، ٣١، ٥٢، ٦٧، ٩١،
١٠٠، ١١٧، ١٩٥، ٢٠٥، ٢١٣، ٢٧٥، ٣٣٢،
٣٨٠، ٤٠١، ٤١٣.
المجاز: ١/ ٥٠٣، ٥٠٦، ٦٢٣، ٦٤٦، ٦٨٦،
٦٨٨، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦،
٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠٢، ٢/ ١٥٠، ٢٣٣، ٢٩٧،
٣٢٥، ٣٣٤، ٤٤٢، ٤٤٨، ٤٩٧، ٤٩٨، ٣/
٤٠، ٦٩، ١٧٦، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٥، ٣١٩،
٣٢٦، ٤١١، ٤٧٦، ٤/ ١٤، ١٥، ١٣٢،
٢٥٠، ٢٩٠، ٣٥١، ٣١٢، ٣٣٠، ٣٤٨، ٤٠٠،
٤٤٢، ٤٧٢، ٥٤٢، ٥٥٢، ٥٦٥، ٥/ ٣٣، ٥١،
١٢٦، ٣٣٦، ٣٧٧، ٣٩٠، ٤٥٢، ٥١١، ٥٣٢،

٥٦٢، ٦/ ٤٠، ٩٢، ١٠٧، ٢١٦، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٧٧، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٤٦، ٢٥٥، ٣٧٨، ٧/ ١٤، ٣٥، ٧٥، ٢٣٩، ٢٥٧، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٩٩، ٣٣٨، ٣٤٣، ٣٦٨، ٤٣٦، ٤٨٠، ٤٨٤، ٨/ ٢٩، ٣٧، ٥٠، ٦٩، ١١١، ١١٦، ١٢٣، ١٢٤، ١٧٤، ١٨٧، ٣٣٢، ٤٠١.

مراعاة النظير: ٢/ ٣٨٣، ٣٩٩، ٤٤٢، ٤٤٧، ٤٥٥، ٧/ ١٢٤، ١٣٨.

المشاكلة: ١/ ٦٩٢، ٢/ ١٤٤، ١٨٩، ٢٨٣، ٤٠٤، ٤٧٩، ٣/ ١٤٥، ١٦٣، ٤٢٠، ٤٦٦، ٤/ ٢٥، ١٠٦، ١١٤، ١٦٧، ٢٣٢، ٢٩٣، ٥١٠، ٥٦١، ٥/ ٢٥، ١٤٤، ٢٤٦، ٢٨٣، ٤٤٣، ٤٥٥، ٦/ ٣٥، ٤٣٤، ٧/ ٧٦، ٨/ ٢٠٤.

المطابقة: ٥/ ٢٥.

الموازنة: ٣/ ٤٢٨.

النداء: ١/ ٧٤٠، ٢/ ٢٥٦، ٤٧٢، ٣/ ٤٢٠، ٤٣٠، ٢٠٥، ٤/ ٢٣٥، ٢٤٥، ٥/ ١١١، ٤٣٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٧/ ٣٥٧، ٤١٥، ٨/ ٣٧، ٢٣٨.

النهي: ١/ ٥١٩، ٥٢٠، ٦٩١، ٢/ ١٠٤، ١٣٠، ١٥٣، ٢١٠، ٢٧٥، ٢٨٦، ٤/ ١٣٥، ١٣٦، ٢٠٦، ٢٥٥، ٤٤٧، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥/ ٢٤، ٣١٠، ٣١٧، ٤١٩، ٥١٨، ٥٦٩، ٨/ ١٣٠.

هزل يراد به الجد: ٢/ ١٢٦.

الوصل (الإيصال): ٢/ ١١٠، ٢٢٧، ٤٧٠، ٥٧٩، ٣/ ٤٩، ٢٢٢، ٤٣٣، ٤٨٠، ٤/ ١٥٠، ٥/ ٢٥٣، ٢٦٥، ٥٣١، ٨/ ١٦٧.

❊ ❊ ❊

فهرس الأعلام

إبراهيم بن النبي ﷺ: ٦/ ٨٠، ٧/ ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١.

إبراهيم الخليل عليه السلام: ١/ ٦٢٣، ٦٥٤، ٧٤٨، ٧٧٥، ٢/ ٩٧، ١٧١، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٣، ١٩٥، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٧، ٢٩٤، ٣٠٨، ٣٦٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٦٤، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٥١١، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٣/ ١٦٦، ٢٤٠، ٢٧٩، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٤/ ٨٥، ١٠٨، ١٣٥، ١٣٦، ١٩١، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٧٧، ٣٠١، ٣٢٨، ٣٧٧، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٣، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥/ ٧٩، ٨١، ٨٢، ١٣١، ١٨١، ٢٠٣، ٢٥٦، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٩٨، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٥، ٦/ ١٨٩، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١١، ٣٩٣، ٤٤٠، ٤٤١، ٧/ ١٦٤، ٢٠١، ٣٠٩، ٣٥٦، ٨/ ٢١٥، ٢٣٣.

ابن أبي الحديد (أبو حامد عز الدين بن هبة الله): ٨/ ١٣.

ابن أبي الصلت (أبو الحكم أمية بن أبي الصلت): ٢/ ٤١.

ابن أبي أوفى: ٥/ ٣٠٠.

أبو بكر الأنباري: ١/ ٧٢٨.

ابن أبي بكر: ٢/ ٤٨٦.

ابن إسحاق: ٥/ ١٢٣، ٧/ ٥١، ٣٣٨.

ابن الأنباري: ٢/ ١٢٣، ٥٠٧، ٤/ ٣٥٧، ٦/ ٢٧٨.

ابن الجوزي: ٤/ ٢١٣، ٥/ ١٠١، ٨/ ١٩٨.

ابن الزِّبعرى: ٦/ ٤٥٢.

ابن شهاب: ١/ ٧٣١.

ابن القيم: ٢/ ٤٨، ٤٢١، ٥٣٩، ٥٥٠.

ابن المنذر: ٣/ ٢٧٣.

ابن أم مكتوم: ٦/ ٢٤١، ٨/ ١٣٣، ١٣٤.

ابن تيمية (شيخ الإسلام): ١/ ٦٢١، ٢/ ٣٧٥.
ابن جريج: ٢/ ٣٥٧، ٥/ ٣٢٠.
ابن جرير الطبري: ١/ ٧٤٢، ٢/ ١٢٢، ١٣٥، ٤٢٣، ٤٦٧، ٥٣٣، ٥٣٥، ٣/ ١٩، ٢٣، ١١٧، ٢٢٦، ٢٦١، ٢٧٣، ٥١٧، ٤/ ٣٨، ٥/ ١٥٠، ٨/ ٢٤٢.
ابن جنّي: ٧/ ١١٠.
ابن حزم: ٤/ ٢٩٣، ٥/ ٢١٦، ٦/ ٢٤٦، ٢٤٧.
ابن رشد: ١/ ٤٩٤.
ابن رشيق القيرواني: ٧/ ٢٣٤، ٨/ ١٠٠.
ابن زيد: ٥/ ٢٧٥، ٧/ ١٥٠، ٢٦١، ٢٧٢، ٨/ ٢٨٥.
ابن عباس: ١/ ٥٦٥، ٦١٦، ٦٤٢، ٦٤٥، ٦٥٥، ٦٨٢، ٧١٦، ٧٢٤، ٧٣٢، ٧٤١، ٢/ ٣٤، ٤٧، ٤٩، ٦٥، ١١٤، ١٢٢، ١٥٨، ١٧٨، ٢٦١، ٢٧٤، ٢٨٦، ٢٩١، ٣٢٠، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٩٠، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٥٠١، ٥٧٦، ٥٨٦، ٥٩٠، ٣/ ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٩، ٤٩، ٥٥، ١١٥، ٢١٦، ٢٣٣، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٧٣، ٢٩٧، ٣٥٤، ٣٨٤، ٣٩٠، ٤١٤، ٤١٦، ٤٩٠، ٤/ ٢٨، ٣٨، ٩٣، ١١٠، ١٢٨، ١٣٨، ٢٤٨، ٢٦١، ٣١٧، ٣٢٨، ٣٣٥، ٣٤٨، ٣٥٦، ٣٦٥، ٤٢٢، ٤٣٢، ٤٤١، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٦١، ٤٦٩، ٤٧٩، ٥١٩، ٥٥٦، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥/ ٢٦، ٢٧، ٤١، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٥، ٨٨، ١٠٣، ١٠٩، ١٢٩، ١٣٦، ١٤١، ١٤٨، ١٦٦، ١٧٧، ١٨٢، ٢٠١، ٣٠٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢١، ٣٤٦، ٣٧٣، ٣٨٥، ٤٢٤، ٤٧٢، ٤٩٨، ٥٠٢، ٦/ ٥٣، ١٥٤، ١٨١، ١٩٦، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٦، ٢٤٦، ٢٩٢، ٣١٧، ٣٣٧، ٣٥٦، ٣٩٨، ٤٠٢، ٤٥١، ٧/ ٥١، ٥٤، ٦٨، ١٤٥، ١٤٨، ١٦٧، ١٧٩، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٣٩، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣٤٠، ٣٦٠، ٣٨١، ٣٩٢، ٤١٠، ٤١٦، ٤١٩، ٤٣٣، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٧٢، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٩٦، ٨/ ١١، ١٤، ٢١، ٢٩، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٤، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٩، ٦٧، ٦٩، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ١٣٩، ١٤٥، ١٦٤، ١٧٢، ١٨٠، ١٩٦، ٣٧٩، ٤١٢.
ابن عبد البر: ١/ ٧٣٦، ٥/ ٢١٧.
ابن عثمان (أبان بن عثمان بن عفان): ٢/ ٤٨٦
ابن عساكر: ٢/ ٤٨٦.
ابن عمر: ٢/ ٢٩٩، ٤٨٦، ٣/ ٣١، ٢٥٣، ٣٨٤، ٥/ ٢١٤، ٦/ ٣٣٠، ٧/ ٤١٦.

ابن عون: ٢/ ٢٨٧.
ابن قتيبة: ١/ ٧٤١، ٤/ ١٠٠، ٥/ ٣٤٥.
ابن كثير: ١/ ٥٥٨، ٣/ ٤١٣، ٤١٤، ٤/ ٥٥٦.
ابن كيسان: ٦/ ٢٤٦.
ابن مسعود: ١/ ٥٦٠، ٥٦٥، ٧١٧، ٧١٨، ٧٢٦، ٨٢٨، ٧٣٥، ٢/ ٦٥، ٣٥٩، ٣/ ٦١، ٢١٦، ٣١٣، ٤/ ٣٩١، ٥/ ٢٢، ٨٩، ١٨٣، ٣١٤، ٦/ ٨٩، ١٦٩، ٣٣٠، ٧/ ١١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٤١٩، ٤٧٩، ٨/ ١٠٣.
ابن نوح: ٤/ ٢٣٤، ٢٣٥، ٥/ ٢٧١.
ابنتا أبي لهب: ٨/ ٤٠٠.
ابنتا النبي ﷺ: ٨/ ٤٠٠.
أبو إبراهيم عليه السلام = آزر
أبو إسحاق الشيباني: ٥/ ٣٠٠.
أبو الدحداح: ٢/ ٣٥٩، ٧/ ٢٩٢.
أبو السعود (العمادي): ٢/ ٤٧٠، ٥٥٠، ٤/ ٢١٨، ٤٣٩، ٥١٨، ٥/ ١١٩، ١٢٢، ١٢٩، ٣٣٤، ٣٧٤، ٣٩٠، ٤٦٩، ٥٠٥، ٦/ ٢١٥، ٢٧٨، ٣٢٣، ٣٣٣، ٣٦٩، ٤٥٢، ٧/ ١٣٨، ١٣٩، ٣٨٢، ٥٠٠، ٨/ ٥٥، ٨٧.
أبو العالية: ٥/ ٢٠١، ٢٧٥، ٦/ ٨٣، ٧/ ٢٧٢.
أبو العباس ثعلب: ٧/ ١٠٢.
أبو بشر: ٨/ ٣٧٩.
أبو بصير: ٧/ ٩٥.
أبو بكر الصديق: ١/ ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٢/ ٩، ٤٦٥، ٤٨٦، ٣/ ١٩٠، ٤/ ٢٥، ٥٧، ١٣٨، ١٤٣، ٥/ ٢١٦، ٣٠٩، ٣١٠، ٧/ ٩٦، ١٠١، ١٠٧، ١٢٠، ٤٣٠، ٤٣٣، ٨/ ٣٩٤.
أبو بكر بن العربي: ٣/ ٥١٣، ٥/ ٣٢٤، ٦/ ٧٧.
أبو جعفر (محمد الباقر): ٤/ ٢٨١.
أبو جندل بن سهيل: ٧/ ٩٢، ٩٣، ٩٥.
أبو جهل: ٢/ ٤١، ٤/ ١٧، ١٧٤، ٦/ ١٥٩، ٣٣٥، ٧/ ٤٩٣، ٨/ ١٣٤، ١٨٦.
أبو حامد الغزالي: ٢/ ٧٥، ١٨٥، ٤/ ٤٢٦، ٤٢٧، ٥/ ١٤٥، ٨/ ٢٥٥.
أبو حنيفة: ٢/ ٧٨، ١٩٥، ٢٨٧، ٥٤٠، ٤/ ١٠١، ٧/ ٣١٩.
أبو داود: ٣/ ١٠٩، ٧/ ٩٨.
أبو ذر الغفاري: ٨/ ٢١٥.
أبو زمعة الأسود ابن عبد المطلب: ٤/ ٤٤٩.
أبو سعيد الخدري: ٥/ ١٩٦.
أبو سفيان: ٢ / ٥٤٨، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٧٧، ٥٧٩، ٧/ ٣٣٦، ٨/ ٤٠٠.
أبو طالب: ٢/ ٤١، ٣/ ١٨٥، ٤/ ٧١، ١٣٥، ١٧٤، ٦/ ١٥٩، ٣٣٥، ٨/ ١٨٦، ٢٧١، ٣١٩.

أبو طلحة: ٢/ ٥٠٩، ٥١٠.
أبو عامر الراهب (عبد عمرو ابن صيفي): ٢/ ٤١، ٦/ ١٥٩، ٣٣٤، ٨/ ١٨٦.
أبو عبد الله: ٨/ ٣٧٥.
أبو عبيدة: ٦/ ٢٥٧، ٧/ ١٠٩، ٢٤٨.
أبو عقيل الأنصاري: ٤/ ١١٤.
أبو علي (الفارسي): ٧/ ٤٣٤.
أبو علي الجبائي: ٢/ ٥٠١.
أبو عمرو: ٥/ ٢٨٨.
أبو عمرو بن العلاء: ١/ ٧٣١.
الغزالي: ١/ ٤٩٢، ٧٩١.
أبو قلابة: ١/ ٧٢٧، ٨/ ٧٤.
أبو لبابة: ٤/ ١٢٨.
أبو لهب: ٨/ ٣٧٩، ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١.
أبو مالك: ٧/ ٢٠٥.
أبو مرثد: ٧/ ٣٥٣.
أبو مسعود الثقفي: ٥/ ٥٠٦.
أبو مسلم (الأصفهاني): ٢/ ٤٧، ٨٨، ٩٤، ١٤١، ٣٣٩، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٧٣، ٥٠١، ٥٢٦، ٥٤٧، ٥٧٧، ٣/ ٨، ٢١، ٢٨، ٧٠، ٨٣، ١٧٦، ٢٩٢، ٣٤٧، ٤١٩، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٦، ٤٧١، ٤/ ١٠٤، ١٢٧، ١٥١، ٢١٢، ٣٢٦، ٣٤٣، ٣٤٨، ٣٦٥، ٣٨٠، ٣٨٨، ٤١٧، ٤٢١، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٧٩، ٥٠٨، ٥/ ٧٧، ٨٠، ٨٥، ٨٩، ٩٣، ٩٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٩، ١٤٨، ١٥٠، ١٨٢، ٢١٩، ٢٤٠، ٢٥١، ٢٨٠، ٢٨٤، ٣٢٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٨، ٤٩٣، ٥١٣، ٥٤٣، ٥٦٤، ٦/ ٩، ٤٦، ٦٧، ١٩١، ٢٠٦، ٢١٠، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥٢، ٣١٦، ٣٤٣، ٤٠٣، ٧/ ٧٣، ٢٩٩، ٣٩٢، ٣٩٦، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٧٨، ٥٠١، ٨/ ١٦، ٢٤، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ١٠٣، ١١٤، ١٤٧، ١٧٠، ١٨٤، ٢٠٣، ٢٤١، ٣٩٥.
أبو هريرة: ٢/ ٥٠، ٤١٥، ٤/ ٥٠٩، ٥/ ٢٧٥، ٤٦٨، ٦/ ٣٦، ٣٠٤، ٧/ ٣٨٧،
أُبيّ بن كعب: ١/ ٧١٨، ٧٢٦، ٧٢٨، ٨/ ٣٦٥.
أحمد بن حنبل: ٢/ ٥٣٩، ٣/ ٣١، ٤/ ٢١، ٧/ ٩٨.
أحمد مختار باشا المصري: ١/ ٧٠٤،
أحيمر عاد: ٧/ ٢١٩.
أخت موسى عليه السلام (مريم): ٥/ ١٠٩، ٤٨١.
الأخفش: ٧/ ٣٢٠، ٨/ ٦٧، ٣٦٥.
الأخنس بن شريق: ٧/ ٤٦٣.
أخو يوسف (بنيامين): ٢/ ٣٦٢، ٤/ ٢٨١، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥.

إدريس عليه السلام (جد أبي نوح): ٣/ ١٥٩، ٥/ ٨٢، ١٩٠، ٢٠٣.
آدم عليه السلام: ١/ ٥٣٩، ٥٥٦، ٥٥٧، ٦٧٧، ٢/ ٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٤٤٥، ٤٦٤، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤/ ٣٠٠، ٣٩١، ٤٢٦، ٤٣٠، ٤٣١، ٥٤٥، ٥٥٣، ٥/ ٣٢، ٨٧، ٩٧، ١١٤، ١٤٠، ١٤٢، ١٦٥، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٦٤، ٥٦٢، ٦/ ٣١، ١٤٢، ٢٢٥، ٢٥٩، ٢٦٤، ٣٤١، ٤٥١، ٤٥٣، ٧/ ١٢٤، ١٩٩، ٢٣٤، ٢٦٥، ٤٣٩، ٨/ ١٢، ٢٨٦.
أرميا عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
أرمينيوس فامباري: ٦/ ٤١٢.
آزر (والد إبراهيم عليه السلام): ٤/ ٤٠٧، ٥/ ٧٩، ٨٠، ٤٠٣.
الأزهري: ٨/ ١٩٦.
أسامة بن زيد: ٢/ ٥١٠.
الأستاذ الإمام = (الشيخ محمد عبده)
آسيا بنت مزاحم: ٧/ ٤٣٨، ٤٤٠.
إسحاق عليه السلام: ٢/ ٨٤، ٩٧، ١٨٤، ١٨٧، ٥١٣، ٤/ ٣٧٧، ٥/ ٨١، ٢٠٣، ٥٣٤، ٦/ ٢١٢.
إسرائيل = يعقوب عليه السلام
أسماء بنت أبي بكر: ٥/ ٢١٤.
إسماعيل عليه السلام: ١/ ٦٥٤، ٢/ ٨٦، ١٨٠، ١٨١، ١٨٧، ١٩١، ١٩٥، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٢، ٢٢٦، ٤٦٤، ٥١٣، ٣/ ٧٥، ١٥٩، ١٩٨، ٣٣٦، ٤/ ٨٥، ٤٠٧، ٥/ ٨٢، ١٩٠، ٢٠٣، ٥٣٤، ٦/ ١٨٩، ٢١٢.
الأسود بن عبد يغوث: ٤/ ٤٤٩، ٧/ ٤٦٣.
الأسود بن يعفر: ٦/ ٢٣١.
ابن أبي الإصبع المصري: ١/ ٦٦٨، ٦٧٤.
الأقرع بن حابس: ٧/ ١٠٧.
الآلوسي: ٢/ ٧٨.
إلياس عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٥/ ٢٠٣، ٦/ ٢١٣، ٢١٤، ٢٥٣.
أم إسماعيل عليه السلام: ٤/ ٤٠٧.
أم الدحداح: ٢/ ٣٥٩، ٧/ ٢٩٢.
أم جميل بنت حرب: ٨/ ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١.
أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان: ٦/ ٨٠.
أم سلمة زوج النبي ﷺ: ٢/ ٤٩، ٦/ ٦٤، ٦٥، ٨٠، ٧/ ٢٤٥، ٢٤٧، ٨/ ٣٩.
أم عيسى عليه السلام = مريم عليها السلام
أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط: ٧/ ٣٦١.
أم مكتوم: ٨/ ١٣٣.
أم موسى عليه السلام: ٢/ ٣٨٩، ٥/ ١٠٩، ١١٩، ٦/ ٤١٧.

أم هانئ الأنصارية: ٥/ ٢١٨.
أم يحيى عليه السلام (زوج زكريا عليه السلام): ٥/ ١٩٢.
أم يوسف: ٤/ ٢٧٦.
الإمام مالك: ٢/ ٢٥٤، ٢٨٧، ٥١٥.
امرأة العزيز: ٤/ ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٨.
امرأة فرعون: ٤/ ٢٨٧، ٥/ ١٠٨.
امرأة لوط عليه السلام: ٥/ ٤١٧، ٧/ ٤٣٨.
امرأة نوح: ٧/ ٤٣٨.
امرؤ القيس: ١/ ٦٩٧، ٦/ ٢٠٢.
آمنة بنت وهب: ٨/ ٢٧١.
أمية بن أبي الصلت: ٤/ ١٧٤، ٦/ ١٥٨، ١٥٩، ٣٣٤، ٨/ ١٨٦.
أمية بن خلف: ٨/ ١٣٤، ٣٨٧.
أميمة بنت عبد المطلب: ٦/ ٦٧.
أنس بن النضر: ٢/ ٥٤٨، ٥٥٢.
أنس بن مالك: ١/ ٧١٨، ٢/ ٢٦١، ٤٠٦، ٣/ ١٩٠، ٧/ ٩٨، ٢٧٢، ٤٢٩.
أنوشروان: ١/ ٦٩٨.
أوريا بن حيان: ٦/ ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢.
أوس بن الصامت: ٧/ ٣١٧.
أيوب (يروي عنه ابن عون): ٢/ ٢٨٧.
أيوب عليه السلام: ٣/ ٣٣٦، ٥/ ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٣، ٦/ ٢٥٠، ٢٥٢.
البحتري: ١/ ٦٩٨.
البخاري: ١/ ٧١٥، ٧٢٥، ٧٤١، ٢/ ١٩٥، ٢٧٣، ٢٨٦، ٢٩٠، ٥٩٠، ٣/ ١١٥، ٢٥٣، ٤/ ٣٦٠، ٥/ ١٩٦، ٣٠١، ٦/ ٨٣، ٢٨٣، ٣٣٠، ٧/ ١٠٧، ٢٤٠، ٨/ ٧٩.
بختنصّر: ٤/ ٤٤٨، ٥/ ١٨٩.
بديل بن أبي مارية: ٣/ ٢٧٣.
بديل بن أبي مريم: ٣/ ٢٧٤.
برهان الدين البقاعي: ٣/ ٤٨، ٥/ ٢١٥، ٧/ ٢٧٩.
البغوي: ٣/ ٤٦٩، ٤/ ٣٧، ٥٩.
بلال بن رباح: ٢/ ١٩٥، ٤/ ٤٥٠، ٥٦٥، ٧/ ٢٧٠، ٨/ ١٣٣.
البلخي: ٤/ ٢٨٠، ٥/ ١١، ١٨٥، ٦/ ٢٣٥، ٧/ ١٩٩، ٢١٠، ٤٠٨، ٨/ ٦٨.
بلقيس: ١/ ٧٧٥، ٥/ ٤٨، ١٨٦، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥١، ٦/ ١٠٤.
بنت غيلان: ٥/ ٣١٧.
بنيامين = أخو يوسف
الأستاذ بورد الألماني: ٦/ ٢٨٥.

البيضاوي (القاضي): ٢/ ٧١، ١٢٤، ٢٦٩، ٣٣٧، ٤٥٥، ٤٧٨، ٥٠٧، ٥٣٦، ٣/ ١٩٦، ٢٤٢، ٥/ ٣٥٦، ٣٩٤، ٦/ ١٢٤، ٣٣٠، ٣٤٠، ٧/ ٢٠، ٤٨٢، ٨/ ١٦، ٢٢، ١٠٩، ١٧١، ٣٩٥، ٤١٣.

الترمذي: ٧/ ٩٨.

تميم الداري: ٢/ ٢٠٩، ٣/ ٢٧١، ٢٧٣.

توبة: ٧/ ٢٣٤.

ثابت بن قيس بن شماس: ٢/ ٣٣٢، ٥/ ٢١٦، ٢١٧.

الثعالبي: ٥/ ٣٥٦.

الثوري: ١/ ٦٤٥، ٧/ ٤٧٧.

جابر بن عبد الله: ٢/ ١٧٨، ٢٩٣، ٣١٩، ٤/ ١٣٨، ٥/ ٨٨، ٣٤٧، ٨/ ٢٨٥.

الجاحظ: ٢/ ٤٨٤.

جالوت: ٢/ ٣٦١.

الجبائي: ٤/ ٢٨٠، ٣٢٦، ٣٤٨، ٣٦٥، ٣٨٠، ٤١٨، ٤٢١، ٤٣٢، ٤٤٣، ٥/ ١١، ١٨٣، ١٨٥، ٢٨٤، ٤٤٩، ٦/ ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٥٢، ٣٤٣، ٤٠٣، ٤٤٩، ٤٥٧، ٧/ ١٥٠، ١٩٤، ٢٠٥، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٩، ٣٦١، ٤٥٥، ٤٧٨، ٥٠٢، ٨/ ٢٤، ٤٣، ٦٥.

جبريل عليه السلام (الروح الأمين): ٢/ ١٣، ١٢٣، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ٢٠٣، ٤٦٧، ٤٧٢، ٤/ ٢٥، ١١١، ٤٩٩، ٥٦٥، ٥/ ٧٠، ٧٣، ٨١، ١٠٣، ١٠٤، ٤٢٤، ٦/ ٢١١، ٧/ ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٧٩، ٣٣٦، ٣٥٣، ٤٣٢، ٨/ ٣٨، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ٣٠٥.

الجرجاني: ١/ ٦٣٦، ٧/ ٣٧١، ٣٨٢.

الجصاص: ٨/ ٤١٦.

جعفر بن أبي طالب: ٣/ ٢٤٩، ٥/ ٥٠٠.

جعفر بن محمد الصادق: ٢/ ٤٨٦، ٥٠١، ٤/ ٤٢٩، ٥/ ٢١٥.

جلال الدين السيوطي: ١/ ٦٦٨، ٢/ ٢٠١، ٢٠٣، ٤٠٢.

جلال الدين المحلي: ٦/ ٢٣٥.

جميلة بنت عبد الله بن سلول: ٢/ ٣٣٢.

جوستاف لوبون: ٢/ ٢٨٤، ٥/ ٢٣٩.

جويرية بنت الحارث: ٦/ ٨٠.

ابن أبي حاتم: ١/ ٦٨٢.

الحارث الأعور: ٤/ ٤٣٥.

الحارث بن قيس: ٤/ ٤٤٩.

الحارث بن كلدة: ٧/ ٤٩٣.

حاطب بن أبي بلتعة: ٧/ ٣٥٣.

توفيق الصمدي: ٨/ ٤٢٩.

حبيب النجار: ٦/ ١٦٨.

الحجّاج: ٥/ ٢١٤.
حزقيل عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
الحسن البصري: ١/ ٦٤١، ٢/ ٩١، ١٤٩، ٥٠٥، ٣/ ١٢٧، ٢٥٢، ٤/ ٢٥١، ٢٦١، ٢٨٠، ٣٣٧، ٣٤٨، ٣٦٠، ٤١٨، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٥٠، ٤٩٧، ٥/ ٨٩، ١٦٦، ٢١٠، ٣١٤، ٣٢٢، ٣٤٦، ٣٨٠، ٤٣٨، ٦/ ٣٨، ١٠٤، ٤٠٣، ٤١٤، ٧/ ١٥، ٣٠، ٤٤، ١٥٧، ١٩٨، ٢٠٢، ٢١٠، ٢٤٦، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٣، ٣٦١، ٤١٥، ٤٧٩، ٤٨٢، ٨/ ١٠، ٣٩، ٥٩، ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٨٧، ١٠٤، ١١٤، ١٢٤، ١٥١، ١٧٢، ٢٣٨، ٣٢٥، ٣٧٥، ٤١٢.
الحسن بن علي: ٦/ ٦٤.
حصن بن عيينة: ٣/ ١٣٦.
حفص: ٦/ ١٩٢.
حفصة بنت عمر: ١/ ٧٢٢، ٧٢٧، ٧٢٨، ٦/ ٨٠، ٧/ ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٨.
حليمة السعدية: ٨/ ٢٧١.
حمزة الزيات: ١/ ٧٣١.
حمزة بن عبد المطلب: ٢/ ٥٤١، ٥٧٠.
حوّاء: ٢/ ٧٩، ٣/ ٨، ٣٤٧، ٤١٧، ٤١٨، ٤/ ٥٤٥، ٥/ ١٤٢، ٧/ ١٢٤، ٨/ ٢٨٦.
حيي بن أخطب: ٧/ ٣٣٧.
خالة يوسف: ٤/ ٣٣٨.
خالد بن الوليد: ٢/ ٥٦٤، ٥٧٤، ٥/ ٢١٦، ٧/ ٩٦، ٨/ ٥٠، ٥١.
خباب: ٢/ ٣١٥.
خديجة: ٥/ ١١٨، ٦/ ٨٠، ٧/ ٤٤٠، ٨/ ١٣٣، ٢٧٠، ٢٧٥.
أبو خزيمة: ١/ ٧٢٥،
الخضر: ١/ ٧٧٥، ٥/ ٥، ٣٧، ٤٠.
ابن خلدون: ١/ ٧٢٤.
خولة بنت ثعلبة: ٧/ ٣١٧.
ابن أبي داود: ١/ ٧٢٧.
داود عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٣/ ٧٥، ١٥٩، ٣٣٦، ٤/ ٨٢، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥/ ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٩، ٢٠٣، ٤٤١، ٦/ ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠.
أبو الدرداء: ١/ ٧١٩.
أبو الدحداح: ١/ ٧٨٥.
دوزي الهولندي (مستشرق): ١/ ٧٧١.
ذو القرنين: ٥/ ٥، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٦٠، ٦/ ٢١.
ذو الكفل: ٥/ ١٩٠، ٢٠٣.
ذو النون = يونس عليه السلام
الرازي: ١/ ٥٠٤، ٥١٣، ٦٤٦، ٢/ ٣٥٠،

٣٥١، ٥١٥، ٥٣٨، ٣/ ٣٧، ٩٨، ١٠٢، ١٩٦،
٢١٠، ٢٤٢، ٤/ ٢٤١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٤٣،
٤١٧، ٥٦١، ٥٧٠، ٥/ ١٠٢، ١٣٠، ١٣٥،
١٤٧، ٣٣٥، ٣٤٦، ٣٨٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٩٣،
٦/ ٨٩، ١٩٤، ٢٣٢، ٢٥١، ٤٠٤، ٧/ ٧١،
١٨١، ٢٤١، ٣٤٤، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٨٢، ٤٨٤،
٨/ ٩، ٢٤، ٢٧، ٥٢، ٥٣، ٢٢٩، ٤١٦.

الراغب: ١/ ٤٩٦، ٢/ ٧٩، ٣/ ٧٦، ١٠٠،
٢٥٢، ٢٥٤، ٣٥٤، ٣٩٨، ٤٥٩، ٤٦٢، ٥٠٤،
٤/ ٨، ٤٨، ٢٥١، ٥/ ٣٧٢، ٨/ ١٢٤.

رسول ملك مصر: ٤/ ٣١٥.

رشيد رضا (صاحب المنار): ١/ ٤٩٣، ٢ / ٧٥،
٩٠، ١٩٩، ٢٤٠، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٩١،
٤٢١، ٥١٢، ٥٢١، ٥٢٣، ٣/ ٣٤٧، ٤/ ١١،
٢١، ١٢٣.

الروح الأمين = جبريل عليه السلام

رينان الفرنسي: ٤/ ٥٧١.

الزبير: ٤/ ٢١، ٧/ ٣٥٣.

الزجاج: ١/ ٦٢٤، ٢/ ٥٧٧، ٣/ ١٥٧، ٤/
٤٩٣، ٥/ ٢٤١، ٤٨١، ٦/ ٨٧، ٢٠٨، ٢١٧،
٢٧٩، ٧/ ١١، ٢٠، ١٩١، ١٩٨، ٤٢٣،
٨/ ٤٤، ٦٥، ٨١، ٨٤، ٨٥، ١٦٧، ١٨٤،
١٨٥، ١٩٣، ٢٠٣.

زكريا بن طلحة: ٤/ ٤٣٥.

زكريا عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٤٦٧، ٤٦٨،
٤٦٩، ٤٧٢، ٣/ ٣٣٦، ٥/ ٦٧، ٦٩، ٧٠،
٨٣، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٣.

الزمخشري (صاحب الكشاف): ١/ ٦٧٠،
٢/ ٣٠، ١٢٧، ٢٧٣، ٣٣٦، ٣٧٦، ٤٣٣،
٤٩٢، ٥٠٧، ٣/ ٢٨، ١١٤، ١١٥، ٤٩٠، ٤/
١١، ١٣٢، ١٣٥، ٢٩٨، ٣٠٠، ٥٥٢، ٥/
١٣٥، ٢٨٠، ٤٩٧، ٥٢٤، ٧/ ١٢٢.

الزهري: ٢/ ٣٣٩، ٣/ ٢٧، ٥/ ٣٤٤، ٣٤٧،
٦/ ٢٤٦، ٧/ ٨١، ٩٣، ٣٤١، ٣٦١، ٣٦٢،
٨/ ٢٤، ٤٩، ٥٩.

زهير بن أبي سلمى: ٧/ ٢١٩.

زوجة أبي لهب = أم جميل بنت حرب

زوجة أيوب عليه السلام: ٦/ ٢٥١.

زياد أمير العراقين: ٥/ ٢١٠.

زيد بن ثابت: ١/ ٧١٧، ٧١٨، ٧٢٣، ٧٢٥،
٧٢٧.

زيد بن حارثة: ٢/ ٥١٠، ٦/ ٦٧، ٦٨، ٦٩.

زيد بن علي بن الحسين: ٣/ ٤١٩.

أبو زيد: ١/ ٧١٨.

زينب بنت أبي سلمة: ٥/ ٣١٧.

زينب بنت جحش: ٦/ ٦١، ٦٦، ٦٧، ٦٩،
٨٠، ٨٨، ٩٠، ٧/ ٤٣١.

زينب بنت خزيمة: ٦/ ٨٠.
سارة: ٥/ ٨١، ٥٣٤.
سارة مولاة بني المطلب: ٧/ ٣٥٣.
ساقي الملك (الشرابيّ): ٤/ ٢٧٩، ٣٠٩، ٣١٠.
سالم مولى أبي حذيفة: ١/ ٧١٨، ٧٢٨.
السامري: ٥/ ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١.
السبكي: ٣/ ٣٨٤.
سبيعة بنت الحارث الأسلمية: ٧/ ٣٦٠، ٤١٩.
السدي: ٢/ ١٥٨، ٣/ ٢٩، ٤/ ٢٦١، ٤٣٩، ٤٩٧، ٥/ ٢٠١، ٦/ ٤٩، ٥٥، ٨٥، ٢٧٧، ٣١٥، ٣٥٨، ٧/ ١٩٨، ٨/ ٣٧، ٤٩، ٦٥.
سراقة بن مالك: ٤/ ٣٨، ٦/ ١٥٤، ٤١٨.
سعد بن أبي وقاص: ٣/ ١٩.
سعيد بن المسيب: ٢/ ٣٤٥، ٥/ ٣٤٤.
سعيد بن جبير: ١/ ٦٤٢، ٢/ ٤٠٩، ٣/ ١٨، ٤/ ٢٨، ٢٤٨، ٤٤٩، ٤٩٧، ٥/ ١٦٦، ٢٠١، ٢١٥، ٣٧٣، ٧/ ٥٤، ٢٧٢، ٣٠١، ٨/ ٢٩، ٣٧٩.
سعيد بن العاص: ١/ ٧٢٢، ٧٢٧.
سفيان بن عيينة: ٤/ ٣٢٩.
السكاكي: ١/ ٥٠٣.
سلمان الفارسي: ٢/ ١٩٥، ٥/ ٢١٤، ٥٠٠.
سليمان بن حيّان: ٥/ ١٨٥.
سليمان عليه السلام: ١/ ٧٧٥، ٢/ ١٣٢، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٩، ١٦٦، ١٩٢، ٥١٣، ٣/ ٧٥، ٣٣٦، ٥/ ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٣، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٦/ ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ٢٣٦، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠.
سليمان القانوني: ١/ ٦٣٠.
سنحاريب: ٤/ ٤٤٨.
سهيل بن عمرو: ٧/ ٩٢، ٩٦، ١٠٣.
سودة بنت زمعة: ٦/ ٨٠.
سويد بن غفلة: ١/ ٧٢٨.
سيبويه: ٢/ ١٩٥، ٢٨٤، ٧/ ٣٧١، ٣٨٢، ٨/ ٣٦٦.
السيد = العزيز
سيديو (مستشرق): ١/ ٧٦٩
شاس اليهودي: ٢/ ٥١٨.
الشاطبي: ١/ ٧٢٢.
الشافعي (إمام المذهب): ١/ ٧٥٢، ٢/ ٢٤٨، ٢٥٤، ٣٣٦، ٣/ ١٨٦، ٢١٠، ٣٨٤، ٥/ ٢٦٣.
شريح: ٥/ ١٨٣.
الشعبيّ: ٥/ ٣٠١، ٨/ ١٠١، ٣٠٣.

الشعراني: ٧/ ٢٧٦.
شعيا عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
شعيب عليه السلام: ٣/ ١٦٠، ٤٥٠، ٤٥٤، ٤/ ١٩١، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٨، ٤٤١، ٤٤١، ٥/ ٢٠٣، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢١، ٤٨٦، ٤٨٧، ٥٣٧، ٦/ ٢٣١.
شمعون عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
شمويل عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
شيبة بن ربيعة: ٨/ ١٣٤.
شيت: ٥/ ٨٢.
صاحب «المنار» = رشيد رضا
صاحب الكشاف = الزمخشري
صالح عليه السلام: ٣/ ١٥٩، ١٦٠، ٣٥٥، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٥٢، ٤/ ١٩١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٥، ٤٤٣، ٥/ ٢٠٣، ٤١٣، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٦/ ٤٠، ٧/ ٢١٨، ٢١٩، ٨/ ٢٥٦، ٢٥٧.
صفوان بن المعطّل: ٥/ ٣٠٥.
صفية بنت حُيي: ٦/ ٨٠.
صموئيل: ٢/ ٣٦٣.
صهيب الرومي: ٢/ ١٩٥.
الضحّاك: ٢/ ٤٩٤، ٤/ ١٢٨، ٢٧٥، ٥/ ٢٧٥، ٣١٤، ٣٤٧، ٣٧٣، ٦/ ١٧٦، ٧/ ٢٦١، ٤٨٣، ٨/ ٧٤، ١٨٤، ٢٨٥.
ضيف لوط عليه السلام: ٤/ ٤٤٠.
طالوت: ٢/ ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦.
الطبري: ٢/ ٣٥٩، ٥/ ٣٢٢، ٧/ ٢٩٢، ٨/ ٢٨٥، ٣١٨.
الطحاوي: ١/ ٧٣٦.
طلحة: ٤/ ٤٣٥، ٧/ ٣٥٣.
عاتكة المخزومية: ٨/ ١٣٣.
العاص بن وائل: ٤/ ٤٤٩، ٥/ ٩٢، ٨/ ٣٧٩.
عاصم: ١/ ٧٣١.
عاصم بن عدي: ٤/ ١١٤.
عائشة: ١/ ٤٩٢، ٥٥٩، ٦١٥، ٧١٥، ٧٢٤، ٢/ ٢٢٥، ٣/ ٢٥٢، ٣٨٤، ٤/ ٣٤٣، ٥١٨، ٥٥١، ٥/ ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٥، ٣٢٣، ٣٤٤، ٦/ ٦٢، ٨٠، ٧/ ١٩٣، ٣١٧، ٣٤٣، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٦٠، ٨/ ٣٨.
عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: ١/ ٧٢٣، ٧٢٧.
عبادة بن الصامت: ٧/ ٣١٧.
العباس بن عبد المطلب: ٨/ ١٣٤.
عبد الرحمن بن عوف: ٤/ ١١٤، ٥/ ٥٤٧.
عبد العزى بن عبد المطلب = أبو لهب
عبد الله (غيرُ معيَّن): ٨/ ٢٤١.

عبد الله أخو أم سلمة: ٥/ ٣١٧.
عبد الله بن أُبيّ: ٢/ ٥٣٣، ٥٤٨، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٦٣، ٥٧٢، ٥٨٠، ٤/ ١١١، ٧/ ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٦.
عبد الله بن الزبير: ١/ ٧٢٢، ٧٢٧، ٥/ ٢١٤، ٧/ ١١١، ١٠٧.
عبد الله بن جبير: ٢/ ٥٥٧.
عبد الله بن حجش: ٦/ ٦٧.
عبد الله بن سلام: ٢/ ٢٠٩، ٣/ ١٥٣، ٥/ ٤٢٤، ٥٠٠، ٥٤٤، ٧/ ٤٤.
عبد الله بن عامر: ١/ ٧٣١.
عبد الله بن عمر = ابن عمر
عبد الله بن عمرو بن العاص: ١/ ٧١٨، ٨/ ١٠٤.
عبد الله بن كثير: ١/ ٧٣١.
عبد الله بن مسعود = ابن مسعود
عبد الله والد النبي ﷺ: ٨/ ٢٧١، ٢٧٥.
عبيد الله بن عبد الله: ٥/ ٣٤٤.
عتبة بن ربيعة: ٨/ ١٣٤
العتبي: ٧/ ٤٦٣.
عثمان بن عفان: ١/ ٧١٧، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٤٤، ٢/ ٤٨٦، ٤/ ٢١، ١٠١، ٦/ ٤١٨.
عدي بن بداء: ٣/ ٢٧٣، ٢٧٤.
عدي بن حاتم: ٣/ ١٨٢، ٤/ ٨١.
عروة بن الزبير: ٣/ ١١، ٧/ ٩٣.
عروة بن مسعود الثقفي: ٦/ ٤٤١، ٧/ ١١١.
عزّ الدين بن عبد السلام: ٧/ ٢٥٠.
عزرة الكاهن: ٥/ ٥٤٣.
عزير عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ١٦٨، ٤/ ٨٠، ٥/ ٢٥٥.
العزيز (السيد = الوزير): ٤/ ٢٧٩، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٥.
عطاء: ٢/ ١٧٨، ٢٨٦، ٣٥٧، ٣/ ٢٥٣، ٤٧٧، ٥/ ٣١٤، ٣٢٠، ٦/ ٢٨٣، ٧/ ٤٦٣، ٨/ ٤٣، ٥٦، ٢٨٥.
عقبة بن أبي معيط: ٨/ ٣٧٩.
عكرمة: ٢/ ٤٧، ٢٨٦، ٣/ ٢٥٣، ٢٧٣، ٤٩٠، ٤/ ١٢٨، ٥/ ١٩٠، ٢٠١، ٧/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٨/ ٣٧، ٦٥، ٦٧، ١٠٤، ١٨٤، ٣٥٩
علقمة بن أبي وقاص: ٢/ ٥٩٠.
علي بن أبي طالب: ١/ ٤٩١، ٧٢٦، ٧٢٨، ٧٢٩، ٢/ ٣٤٥، ٣٥٧، ٤٦٥، ٤٨٥، ٤٨٦، ٥٠١، ٥٤٤، ٣/ ١٩٠، ٤/ ١٤، ١٠١، ٣٥٦،

٤٣٥، ٥/ ١٤٤، ٣٠١، ٤٦٨، ٦/ ٢٤٢، ٤٠٢، ٧/ ١٠٣، ٣٥٣، ٤١٩، ٨/ ٣٧، ٣٩، ٣٤٢.
عمار بن ياسر: ٢/ ٣١٥، ٤/ ٥٠٢، ٧/ ٣٥٣.
عمارة: ٨/ ٥١.
عمر بن الخطاب: ١/ ٥٨٤، ٦١٥، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٢/ ٩، ٢٠٩، ٣٣٤، ٤٨٦، ٣/ ١٠٩، ١٩٠، ٣١٠، ٤/ ١٠١، ١٣٨، ٣١٦، ٥٦٣، ٦/ ٤١٨، ٧/ ٩٦، ١٠٧، ١١١، ١٢٠، ٣٣٧، ٣٦٠، ٣٦١، ٤٣٠، ٤٣٤، ٨/ ١٠، ١٣٩.
عمر بن سعيد: ١/ ٧٢٩.
عمر بن أم سلمة: ٦/ ٦٤.
عمران: ٢/ ٤٦٤، ٤٦٥.
عمران بن حصين: ٢/ ٥٠.
عمرو بن العاص: ٣/ ٢٧٣، ٢٧٤، ٧/ ٩٦،
عمرو بن قيس: ٨/ ١٣٣.
عيسى عليه السلام (المسيح): ١/ ٦٢٣، ٦٩٣، ٧٣٩، ٧٤٨، ٧٧٥، ٢/ ١٣٢، ١٦٤، ١٦٩، ١٨٧، ٢٠٧، ٣٦٩، ٤٣٩، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٧، ٥٠٢، ٥٩٠، ٣/ ١٤٢، ١٥٠، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٠٤، ٣٥٠، ٤/ ٨٢، ٣٠٣، ٥٤٨، ٥/ ٤٨، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٨٣، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٣، ٢١٠، ٢٥٥، ٢٧٥، ٢٩١، ٥٤٣، ٦/ ٢١، ١٦٦، ١٨٨، ٣٩٣، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٧/ ٣٠٩، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٣٩.
عيص بن إسحاق: ٥/ ١٩٠، ٦/ ٢٥٢.
الغامدية: ٥/ ٣٠٠.
فاختة: ٥/ ٣١٦.
فاطمة الزهراء رضي الله عنها: ٢/ ٤٨٦، ٥/ ٣١٦، ٦/ ٦٤، ٤٠٢، ٧/ ٤٤٠.
فامباري (مستشرق): ١/ ٧٧٤.
فتى موسى = صاحب موسى = يوشع
الفرّاء: ٤/ ٢٢٤، ٥٤٤، ٥/ ٣٤٥، ٦/ ١٤٩، ٢٥٨، ٧/ ١١، ٤٣٣، ٨/ ١٠٤، ١٨٤، ٣٢٥.
فرعون: ٣/ ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٩، ٤٨١، ٤/ ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٣٠، ٢٥٨، ٥٦٤، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥/ ٩٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٥،

١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٧٧، ١٩٨، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٣٩، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٥، ٤٩٦، ٥١٥، ٥٣٨، ٦/ ٢١٢، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٣٢، ٤٤٩، ٧/ ١٤، ١٥، ١٦، ١٦٥، ٤٣٨، ٤٧٩، ٨/ ١٠٠، ١٢٥، ٢٣٠.

أبو فراس الحمداني: ١/ ٦٤٩.

فريد وجدي (صاحب صفوة العرفان) = محمد فريد وجدي

فهر بن مالك بن النضر: ٨/ ٣٦٥.

الفيروزآبادي: ٢/ ٢٨٤، ٥/ ١٣١، ٧/ ٣٧١، ٣٨٢.

قارون: ٥/ ٥١١، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥٣٨، ٦/ ٨٨، ٨٩.

القاضي الباقلاني: ١/ ٧٣٦.

القاضي عياض: ٨/ ٤١٧.

القبطي: ٥/ ١٠٩.

قتادة: ١/ ٥٠٧، ٦٤١، ٧١٨، ٢/ ٩١، ١٧٨، ٣٣٩، ٥٠١، ٣/ ٢٩، ٢٦١، ٣٤١، ٤/ ١٠٤، ٣٣٧، ٣٤٨، ٣٦٣، ٣٦٥، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٧٩، ٥/ ٢٢، ٨٩، ١٣٩، ١٦٦، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٧، ٢٧٥، ٣١٤، ٣٤٧، ٣٨٠، ٦/ ٦٤، ١٠٤، ١٧٦، ٢١٦، ٣١٥، ٣٥٨، ٣٩٨، ٤٠٢، ٧/ ١٥، ٣٠، ٥١، ٩٧، ١٤٥، ١٤٨، ٢٠٢، ٢١١، ٢٤٦، ٢٦٣، ٢٧٢، ٣٢٥، ٣٢٦، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨٢، ٨/ ٨، ١٤، ١٧، ١٨، ٣٧، ٣٩، ٤٩، ٥١، ٥٨، ٥٩، ٧٤، ٧٥، ٨١، ١٠٤، ١١١، ١١٤، ١٢٤، ١٤٥، ١٥١، ٢٨٥.

قدار بن سالف أحيمر ثمود: ٧/ ٢١٩.

القرطبي: ٨/ ١٤٦.

القسطلاني: ٦/ ٤٠٢.

القعقاع بن معبد بن زرارة: ٧/ ١٠٧.

القفال (أبو بكر الشاشي): ٢/ ٩٧، ٣١٩، ٣٧٦، ٤٩٦، ٥٠٧، ٥٣٨.

القفال: ٤/ ٢١٤، ٥/ ١٥٠، ٣٤٨، ٦/ ٣٩٦، ٨/ ٦٨.

قيصر: ٧/ ١١١.

كبير أخوة يوسف (روبيل): ٤/ ٣٣٢.

الكسائي: ٢/ ٥٧٧، ٨/ ٤٩، ١١٥.

كسرى: ٧/ ١١١.

كعب بن الأشرف: ٧/ ٣٣٦، ٣٣٩.

كعب بن مالك: ٢/ ٢٨٦، ٤/ ١٢٨، ١٤٠.

الكلبي: ٥/ ١٨٥، ١٨٧، ٢٧٥، ٧/ ٤٠٩.

كليب: ٧/ ٢٣٤.

لاوي بن يعقوب (ثالث إخوة يوسف): ٢/ ٣٦٢.

لقمان: ١/ ٥٢١، ٤/ ٢٣٠، ٦/ ٥، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨.
لوط عليه السلام: ٣/ ٣٣٥، ٣٣٦، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤/ ١٩١، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٣، ٥/ ١٨١، ١٨٢، ٢٠٣، ٤١٥، ٤٥٦، ٥٣٣، ٥٣٥، ٧/ ٢٢٠.
الليث بن سعد: ٥/ ١٩٠.
ليلى الأخيلية: ٧/ ٢٣٤.
ماروت: ٢/ ١٥٠.
مارية القبطية: ٦/ ٨٠، ٧/ ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٢.
ماعز الأسلمي: ٥/ ٣٠٠.
مالك بن أنس: ٤/ ٤٢٩، ٥/ ٢١٤، ٦/ ٤٥٧.
مالك بن جعشم: ٤/ ٣٩.
المبرّد: ٥/ ٣٤٨، ٧/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٨/ ١٧.
مجاهد ١/ ٥٦٥، ٦٤١، ٦٤٢، ٢/ ٤٧، ٩١، ١١١، ١١٢، ١٧٨، ٣٥٠، ٣/ ٢٩، ٦٩، ٢٠٩، ٢٣٣، ٢٤٧، ٣٤١، ٤/ ٩٣، ١٢٨، ٢٤٨، ٣١٦، ٣٢٩، ٣٤٨، ٤١٨، ٤٥٠، ٥/ ٢٧، ١٣٩، ١٧٦، ١٩٠، ١٩٦، ٢٠١، ٢٣٤، ٣٨٠، ٦/ ٦٤، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٨٣، ٣١٥، ٣٩٨، ٤٠٢، ٧/ ١١، ١٥، ٣٠، ١٤٥، ٢٠٢، ٤٦٣، ٤٧٩، ٤٨٥، ٤٩٣، ٨/ ١١، ٤٠، ٤٩، ٦٥، ٦٩، ٨٤، ١٠٣، ١١١، ١٢٤، ١٤٥، ١٩٦، ٢٨٥، ٤١٢.
محمد بن إسحاق: ٢/ ١٣٤، ٥٥٣، ٦/ ٢١٣.
محمد فريد وجدي: ١/ ٤٩٧، ٦٣٩، ٧٥٧، ٧٧٦، ٢/ ٥٥٢، ٨/ ٣٨١.
محمد عبده: ١/ ٤٩٢، ٦٢٧، ٦٣٣، ٧٤٨، ٢/ ٤٩، ٦١، ٦٦، ٦٨، ٧١، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٨، ١٢٦، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٦١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٨، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٣١٢، ٣٢٠، ٣٣٠، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤٠٨، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٤٤، ٤٤٩، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٦٥، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧٥، ٤٧٧، ٤٨٣، ٤٨٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠١، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٨، ٥٣٨، ٥٤٤، ٥٤٨، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٤، ٥٧١، ٥٧٣، ٥٧٦، ٥٨١، ٥٨٦،

٥٨٧، ٥٩٧، ٣/ ٨، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٤، ٤٦، ٥٤، ٥٥، ٥٩، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٤، ٧٥، ٨٥، ٩٠، ٩٨، ١٠١، ١٠٣، ١١٠، ١١٥، ١١٧، ١٢١، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ٤٠٧، ٤/ ٢٤، ٢١٧، ٥/ ١٧٣، ٦/ ٦٧، ٢٦٢، ٤٥٨، ٧/ ١٣٠، ٢٧٦، ٨/ ١٠٧، ١٠٩، ١١٤، ١١٨، ١٣٠، ١٣٩، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٦٣، ١٧٢، ١٧٩، ١٨١، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣١٢، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٤٦، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٧١، ٣٧٩، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٩١، ٣٩٩، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٥.

محمد بن كعب: ٧/ ٣٦٧، ٨/ ٢٨٥.

محمد بن مسلمة: ٧/ ٣٣٦.

محمد حسين هيكل: ٨/ ٢٧٣.

المدائني: ٥/ ٣١٦.

مرارة بن الربيع: ٤/ ١٢٨، ١٤٠.

المرتضى: ٤/ ٢٨١.

مرقس: ٣/ ١٥٥.

مروان بن الحكم: ٢/ ٥٩٠.

مريم = أخت موسى

مريم بنت عمران عليها السلام: ٢/ ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٠، ٤٧٤، ٤٧٥، ٣/ ١٦٥، ٢٤٣، ٤/ ٨٠، ٥/ ٧٠، ١٩٢، ١٩٣، ٢٧٥، ٣٢٣، ٦/ ٤١٩، ٧/ ٤٣٩، ٤٤٠.

مسروق: ١/ ٧١٨، ٤/ ٥١٤.

مسطح بن أثاثة: ٥/ ٣٠٩، ٣١٠.

مسلم (صاحب الصحيح): ١/ ٥٥٩، ٥٦٠، ٧٤١، ٢/ ٢٩٣، ٤/ ٣٥٣، ٦/ ٣٣٠، ٧/ ٩٨.

أبو مسلم: ١/ ٦٠٣، ٦٤٥، ٦٤٨.

المسيح = عيسى عليه السلام

مُطرِّف: ٤/ ٢١.

معاذ بن جبل: ١/ ٧١٨، ٤/ ٣٦٦، ٨/ ١١٢.

معاوية: ٥/ ٣١٦.

معمر: ٨/ ٢٤.

المعري: ١/ ٦٥٠.

المغيرة بن شعبة: ٥/ ٧٤.

ابن المقفع: ١/ ٤٩٤.

مقاتل: ٢/ ٥٦٨، ٥/ ١٨٤، ١٨٥، ٢٧٥، ٦/ ٦٤، ٢٥٠، ٣٣٠، ٤٥١، ٧/ ١١، ٢٨٣، ٢٩٢، ٣٢٧، ٣٨٢، ٣٩٢، ٤٣٦، ٤٩٦، ٨/ ١٦، ٣٩، ٤٣، ٦٧، ١٨٤، ٢٨٥، ٣٤١.

المقداد: ٧/ ٣٥٣.
المقوقس: ٢/ ٤٨٨.
ملك مصر: ٤/ ٢٧٩، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٣، ٣٣٣.
الملكة بلقيس = بلقيس
المهلهل: ٧/ ٢٣٤.
موسى عليه السلام: ١/ ٥٤٤، ٥٧٨، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٦٣١، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٣، ٦٧٧، ٦٨١، ٦٩٣، ٧٣٩، ٧٤٨، ٧٩١، ٢/ ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٣٥، ١٦٠، ١٦٥، ١٨٧، ٢٠٧، ٣٦٣، ٣٦٨، ٤٦٥، ٤٩٠، ٤٩٩، ٥٠٢، ٣/ ٧٥، ١٤٢، ١٥٠، ١٥٢، ١٦٠، ١٦١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٨، ٢٠١، ٢٤٧، ٣٠٤، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٥٥، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٣٥، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨١، ٤٨٣، ٤٨٦، ٤/ ٣١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٢٢، ٢٣٠، ٢٥٨، ٢٦٢، ٢٨٧، ٣٢٩، ٣٧٩، ٣٨٨، ٣٩٠، ٥٠٨، ٥١٨، ٥٦٤، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥/ ٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٧٤، ٧٥، ٨١، ٨٣، ٩٧، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١١٢، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٣١، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٣، ٣٦٨، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٧٥، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٦/ ٣٨، ٣٩، ٨٨، ٨٩، ١٦٨، ٢٠٩، ٢١٢، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٩٣، ٤١٩، ٧/ ١٤، ١٦، ١٦٥، ١٧٥، ٣١٠، ٣١٣، ٣٦٨، ٤٣٨، ٤٤٠، ٨/ ٣٨، ٧١، ١٢٥، ٢١٥، ٢٣٠.
أبو موسى الأشعري: ١/ ٧٢٦،
مؤمن آل فرعون: ٥/ ٤٨٣.
ميمونة بنت الحارث: ٦/ ٨٠.
نافع: ٦/ ٣٣٠.
نافع بن نعيم: ١/ ٧٣١.
النجاشي: ٣/ ٢٤٩، ٥/ ٥٠٠، ٧/ ١١١.
النخعي: ٢/ ١٧٨، ٨/ ٢٨٥، ٢٨٩.
النسفي: ٦/ ٤٥٢.
النضر بن الحارث: ٤/ ٢٦، ٦/ ٩.
النضر بن كنانة: ٨/ ٣٦٥.
النمرود: ٤/ ١٠٨.
نوح عليه السلام: ٣/ ١٥٩، ٣٣٥، ٤٤٤،

٤٥٨، ٤/ ٣١، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٣٩١، ٥١٩، ٥/ ٨٣، ١٦٦، ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٣، ٢٦٩، ٣٦٨، ٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٣، ٤١٥، ٥٢٧، ٦/ ١٧٦، ٢٠٤، ٢٠٥، ٣٩٣، ٧/ ٢١٤، ٢١٥، ٣٠٩، ٤٨٠، ٨/ ٨، ٩، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٨٦.

هاجر: ٥/ ٥٣٤.

هاروت: ٢/ ١٥٠.

هارون (أخو موسى) عليه السلام: ١/ ٦٨١، ٢/ ٩٧، ٣٦٣، ٣/ ٣٣٦، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤/ ١٩٢، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٥/ ٧٥، ٨٣، ١٠٧، ١٢٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٣، ٣٩٤، ٤٩٠، ٤٩٧، ٤٩٨، ٦/ ٢١٢، ٧/ ٤٤٠.

هرقل: ٢/ ٤٨٨، ٤/ ٥٠، ٥٢٦.

هشام بن حكيم: ١/ ٧٣١، ٧٣٢.

هشام (ابن الوليد بن المغيرة): ٨/ ٥١.

هشام بن عروة: ٢/ ٢٢٥، ٥/ ٣١٧.

هلال ابن أمية: ٤/ ١٢٨، ١٤٠.

هند بنت عتبة: ٣/ ٤١، ٧/ ٣٦٣.

هود عليه السلام: ٢/ ٤٦٤، ٣/ ١٥٩، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤/ ١٩٠، ٢٣٨، ٢٤٢، ٥/ ٢٠٣، ٤١٠، ٧/ ٥١، ٥٢، ٢١٧.

الواحدي: ٢/ ٣١٩، ٤/ ٤٩٣.

الوزير = العزيز

الوليد بن المغيرة: ٤/ ٤٤٩، ٥/ ٥٠٦، ٦/ ٤٤١، ٧/ ٤٦٣، ٨/ ٥٠، ٥١، ٥٣، ١٣٤.

وهب بن منبِّه: ٥/ ٢١٥، ٧/ ٤٧٩.

يحيى عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٤٦٨، ٣/ ٢٤٠، ٥/ ٧٠، ٨٣، ١٩٢، ٢٠٣.

اليسع عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٥/ ٢٠٣، ٦/ ٢٥٣.

يعقوب (القارئ): ٥/ ٢٨٨.

يعقوب بن عتبة: ٨/ ٣٥٩.

يعقوب عليه السلام (إسرائيل = ابن إسحاق): ٢/ ٨٤، ١٨٤، ١٨٧، ٣٦٢، ٤٩٧، ٥١٢، ٣/ ٣٣٥، ٤/ ٨٠، ٨٢، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠٣، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٤، ٣٧٧، ٥/ ٨١، ٨٣، ١٨٢، ٢٠٣، ٥٣٤.

يهوذا: ٢/ ٣٦٢، ٣/ ١٥٥.

يوسف النجار: ٥/ ٢٧٥.

يوسف عليه السلام: ١/ ٧٠٠، ٢/ ٧٠، ٣/ ٣٣٦، ٤/ ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١،

٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٤٣١، ٥/ ٢٠٣، ٣٢٣، ٦/ ٢١٠، ٣٢٤، ٣٢٥.

يوشع عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٥/ ٣٨.

يونس خليل الدباغ: ٨/ ٤٣٠.

يونس عليه السلام (ذو النون): ٣/ ٣٣٦، ٥/ ١٩٠، ٢٠٣، ٦/ ٢١٥، ٧/ ٤٧١.

* * *

فهرس الفرق والمذاهب

أتباع إبراهيم: ٤/ ٤٠٩.
الآريسيّون: ٤/ ٥٢٦.
الأقباط: ٣/ ٤٦٧، ٤/ ٥٢٦، ٧/ ٤٣٨.
أهل الإنجيل = النصارى
أهل الكتاب: ٢/ ٤٣، ٥٢، ١٥٤، ١٦٧، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٣٦٧، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٥، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠٢، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥١٠، ٥١١، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٩٠، ٥٩٥، ٣/ ٦١، ٧٣، ١٥١، ١٥٦، ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٠، ٢١١، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٦، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٧٥، ٣٦٠، ٤/ ٥٧، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٨، ٢٠٠، ٣٧٧، ٣٨١، ٤٤٩، ٤٧٠، ٥٧٢، ٥٧٩، ٥/ ٨، ٢٢، ٤٧، ٧٩، ١٥٨، ٤٢٥، ٤٧٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٤٣، ٥٥٦، ٧/ ٤٤، ٧٣، ١٨٣، ١٩٩، ٢٩٧، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٨/ ٥٥، ١٠٩، ٣١١.
البراهمة: ٤/ ٨٠، ٥/ ٤٣٤.
البوذيون: ٤/ ٨٠.
الجبريّة: ٦/ ٤٣٥.
الدهرية: ٥/ ٢٧٣، ٧/ ٣٣.
الزنادقة: ١/ ٧٥٥، ٦/ ٢٢٠.
الشيعة: ٦/ ٤٠٢.
الصابئون: ١/ ٥٣٣، ٧٥٥، ٣/ ٢٤٠.
عبّاد الأوثان = الوثنيون
الفلاسفة: ٥/ ٢١٦.
متنصرة العرب (نصارى العرب): ٤/ ٧٨، ٧٩، ١٤٣، ٥٧٦.
المجوس: ٥/ ١٧.
المرتدون: ٤/ ٥٠٢، ٥٠٣.
المسيحيون = النصارى
مشركو الأمم الماضية: ٧/ ٣٢١.
مشركو العرب: ٣/ ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦٠، ٣٦٢، ٥/ ٤٢٥، ٧/ ٤٤، ٨/ ٢٧١، ٤٠٦.
مشركو قريش = مشركو مكة

مشركو مكة: ٣/ ٢٨٩، ٣٩٧، ٥/ ٢٠٣، ٤٢٢، ٤٩٧، ٥٤٤، ٧/ ١٦، ١٨١، ٣٥٨، ٣٦٠، ٨/ ٢٣٣.

المشركون: ١/ ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦١٥، ٦١٧، ٦٥٦، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٧٢، ٦٨١، ٢/ ٢٧، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٥٢، ٥٤، ٥٩، ٩٤، ١٤١، ١٤٥، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٧، ١٨٢، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٦، ٢١٢، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٥١، ٢٧٠، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٣٠٩، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٧٤، ٤٠١، ٤٠٦، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٩٠، ٥٣٣، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٦٢، ٥٧٠، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٩٥، ٣/ ٦١، ٧٣، ١٠٣، ١١٥، ١١٩، ١٢٧، ١٤٣، ١٥٣، ١٦٧، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٠، ١٨٤، ٢٢٦، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٨، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٤، ٣٤٣، ٣٥٧، ٣٨٨، ٤٠٣، ٤٢١، ٤٤٤، ٤٩٤، ٥٠٩، ٤/ ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٦، ٢٩، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ٥٠، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٥، ٧٦، ٨٤، ٨٦، ٩١، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٥، ١٥٠، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٩، ١٨٧، ١٨٩، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢١٠، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٩، ٣٠٥، ٣٤٠، ٣٦٦، ٣٧١، ٣٧٤، ٣٨١، ٣٨٦، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٠٩، ٤١٩، ٤٢٥، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٦٠، ٤٦٤، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٤، ٤٧٩، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٥، ٤٩٨، ٥٠٥، ٥٠٧، ٥٠٩، ٥١٠، ٥٣٠، ٥٤٠، ٥٤٢، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٧٧، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥/ ١٢٨، ١٣٤، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٩، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧٨، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣١١، ٣٤١، ٣٦٤، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٤١٥، ٤١٨، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٦١، ٤٦٣، ٥٠١، ٥١٦، ٥٢٩، ٥٣٣، ٥٣٩، ٥٤٣، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٧٤، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٦/ ٥، ١١، ١٤، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ٣٧، ٣٨، ٤٦، ٥١، ٦١، ٧١، ٧٥، ٨٨، ٩٤، ١٠٠، ١١٧، ١١٨، ١٢٤، ١٢٥، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٦، ١٦٧، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٢، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٨، ٣٤٤، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١١، ٤١٥، ٤١٧، ٤٣٢، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٦٠، ٧/ ٥، ٢١،

٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٩، ٥٤، ٥٥، ٧٠، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٨، ٩٣، ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١١٤، ١٣٣، ١٥٣، ١٦٧، ١٦٨، ١٧١، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٦، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٠، ٢١٤، ٢٢٤، ٢٧٠، ٢٧٩، ٣١٥، ٣٣٦، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٧٣، ٣٧٥، ٤٤٧، ٤٥٧، ٤٥٩، ٤٧٠، ٤٨١، ٤٨٦، ٤٨٩، ٤٩٣، ٤٩٥، ٤٩٩، ٨/ ١٩، ٢٢، ٢٣، ٣١، ٤٥، ٤٩، ٨٨، ١٠٧، ١٢٩، ١٣٤، ١٥٣، ٢٢٢، ٣٠٩، ٣١١، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٧١، ٣٨٠.

المصريون القدماء: ١/ ٧٥٥، ٤/ ٣٠٥، ٥/ ٤٣٤، ٤٩١.

الملحدون: ٦/ ٣٧٤، ٧/ ٣٦٤.

منافقو اليهود: ٥/ ٣٣٩.

المنافقون: ١/ ٥٠٢، ٥٤٣، ٥٤٥، ٢/ ١٩، ٣٢، ٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٥٩، ٧٧، ٨٣، ٨٦، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٥، ٥١٥، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٤٤، ٥٤٨، ٥٥٤، ٥٦٣، ٥٧٠، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٨٠، ٣/ ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ١٠٣، ١٠٨، ١١٥، ١٢٠، ١٢١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٦٧، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٧، ٢٤٧، ٤/ ١٨، ٣٩، ٥٧، ٥٩، ٦٤، ٦٨، ٧٤، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٨، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ٢١٠، ٥٤٣، ٥٥٠، ٥٥٢، ٥/ ٢٤٣، ٣٠٨، ٣٤٠، ٣٤٩، ٦/ ٤٣، ٤٦، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٧، ٦٨، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٤، ٧/ ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٤، ١٠١، ١١٤، ٢٨١، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٧٧، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٣٧، ٤٩٩، ٨/ ٥٥، ٣٩٣.

منكرو البعث: ٨/ ١٢٦.

مؤمنو أهل الكتاب: ٥/ ٤٩٩، ٧/ ٦١.

النصارى: ١/ ٧٥٥، ٢/ ١٦٢، ١٦٨، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ٤٤٨، ٤٦٥، ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٨، ٥٠٥، ٥٨٩، ٣/ ١٥٠، ١٥٨، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٠، ٣٥٩، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٨٣، ٤/ ٨٠، ٨١، ١٤٣، ٥٠٨، ٥/

٧٨، ١٢٨، ٢٣٧، ٥٠٠، ٦/ ٤٥١، ٨/ ٢٧١، ٣٧١.
نصارى الحبشة: ٣/ ٢٤٨، ٢٤٩.
نصارى مكة والمدينة: ٤/ ٥٨٠.
نصارى نجران: ٨/ ١٩٤.
الهندوس: ١/ ٧٥٥.
الوثنيون: ٢/ ١٣٤، ٢١٤، ٦/ ١٩٦، ٨/ ١٥.
اليهود: ١/ ٥٠٢، ٥٤٤، ٥٨٦، ٦٥١، ٦٧٢، ٦٨٧، ٦٨٨، ٧٥٥، ٧٨٤، ٢/ ٣١، ٣٧، ٨٨، ٩٤، ١٠٨، ١٢٤، ١٣٠، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١، ١٤٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٣، ٢٥٢، ٣٠٩، ٣٢٣، ٤٤٨، ٤٥٦، ٤٦٢، ٤٦٥، ٤٨١، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥١٤، ٥١٥، ٥٢٠، ٥٢٧، ٥٣٨، ٥٨٠، ٥٨٤، ٥٨٦، ٥٨٩، ٥٩٠، ٣/ ٥٩، ٧١، ٨٢، ٨٣، ٩٢، ٩٣، ١٢٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٧، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٣٤٠، ٣٥٩، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤١٧، ٤٨٣، ٤٩١، ٤/ ٤٢، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٧، ٤٤٨، ٥٠٨، ٥٢١، ٥٨٠، ٥/ ٧٨، ٢١٠، ٢٣٧، ٤٢٥، ٤٩٨، ٦/ ٩، ١٣٧، ٧/ ٩٤، ١٥٠، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٧٧، ٣٨٣، ٣٨٦، ٨/ ١٩٤، ٢٧١، ٣٧١.
يهود المدينة: ٥/ ٤٩٧، ٦/ ٨٧، ٧/ ٣٣٣.
يهود خيبر: ٧/ ٩٦، ٣٣٧.

فهرس الكتب

الإتقان: ١/ ٦٦٨، ٢/ ٤٠٢.
الأدب الصغير: ١/ ٤٩٤.
أحكام القرآن: ٣/ ٥١٣.
الاستيعاب: ٥/ ٢١٧.
الإشارة إلى الإيجاز: ٧/ ٢٥٠.
الاعتصام: ١/ ٧٢٢.
الإنجيل: ١/ ٥٧٧، ٦٧٢، ٢/ ١٦٤، ١٨٧، ٢٤٣، ٤٣٩، ٤٨٩، ٣/ ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٤٩، ٣٦٠، ٣٩٦، ٤٨٩، ٤/ ٧٧، ٢٢٢، ٥/ ٧٥، ٤٢٤، ٥٠٠، ٦/ ٧٢، ١٢٠، ٢٢٢، ٧/ ٥٥، ٢٠٠، ٣١٠، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٨/ ٢١٥، ٣١٠، ٣١١.
إنجيل لوقا: ٢/ ٤٦٥.
إنجيل متى: ٢/ ٤٦٥.
إنجيل يوحنا: ٧/ ٣٧٠.
بديع القرآن (بدائع القرآن): ١/ ٦٦٨، ٦٧٤
تاريخ الفرق الإسلامية: ١/ ٧٧١
تفسير الجلال السيوطي: ٢/ ٤٣٥.
تفسير الرازي: ٢/ ٢١، ٣٥٠، ٣٩٣، ٣/ ٢٦٦، ٤/ ٤٣٠، ٥٧٠.
التوراة: ١/ ٥٨٧، ٦٧٢، ٧١٥، ٧٤٨، ٢/ ٥٢، ٨٥، ٨٨، ٩٤، ٩٥، ١١٠، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٢، ١٦٤، ١٧٤، ١٨٧، ٢٤٣، ٣٠٥، ٣٦١، ٣٦٣، ٤٥٧، ٤٧٧، ٤٨٩، ٤٩٤، ٤٩٥، ٥١١، ٥١٢، ٥٨٦، ٥٨٩، ٣/ ٩٦، ١٥٢، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٩، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٦٠، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٧١، ٤٩١، ٤/ ٧٧، ٢٢٢، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨٧، ٤٤٨، ٤٩٨، ٥١٩، ٥٢٢، ٥٨٠، ٥/ ٦٨، ١٢٤، ١٧٧، ٣٠١، ٤٧٨، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٤٣، ٦/ ١٢٠، ١٤٩، ٢١٢، ٢٢٢، ٧/ ٤٤، ٤٥، ٥٥، ١٠٤، ١٧٥، ٢٠٠، ٣٣٦، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٧، ٣٨٣، ٣٨٤، ٨/ ٢١٥.
حضارة العرب: ٥/ ٢٣٩.
دلائل الإعجاز: ٢/ ٢٨٩، ٣/ ٤٣٦، ٤/ ٥٥٤، ٥/ ٤٣.
رسالة «الرد على النصارى»: ٢/ ٤٨٤.

رسالة الشافعي: ٦/ ٤٤٧.
الزبور: ٢/ ٣٦٦، ٣/ ٢٤٦، ٣٩٦، ٤/ ٧٧، ٥/ ١٨٥، ٨/ ٢١٥.
الصحف: ٢/ ١٨٧.
صحف إبراهيم: ٥/ ١٧٨، ٦/ ١٤٩، ٧/ ٢٠١، ٢٠٥، ٨/ ٢١٤، ٢١٥، ٣١٠.
صحف موسى: ٧/ ٢٠١، ٢٠٥.
صحيح البخاري: ٢/ ٣٩١، ٤٠٤، ٥/ ٣٠٠، ٣٠١، ٣٢٢، ٦/ ٣٣٠، ٨/ ٢٦٩، ٢٧٠.
صحيح مسلم: ٢/ ٣٩١، ٤٠٤، ٤/ ١٢، ٥/ ٣٠٠، ٣٠١، ٦/ ٣٣٠، ٨/ ٢٧٠.
صفوة العرفان في تفسير القرآن: ١/ ٤٩٧، ٦٣٩، ٧٥٧، ٧٧٧، ٧٨٢.
طبقات ابن سعد: ٤/ ٤٣.
عجائب الكون: ٢/ ٢٢٨.
العمدة: ٧/ ٢٣٤، ٨/ ١٠١.
القاموس المحيط: ٥/ ٣١٧، ٦/ ٩٢.
الكشاف: ١/ ٦٧٠، ٢/ ٢٧٣، ٣٣٦، ٥٠٨، ٥٥٩، ٣/ ٣٤٦، ٤٠٠، ٥/ ١٣٥.
مجمع البيان: ٢/ ١٠٢، ٤/ ٢٨١، ٥٦٢، ٥/ ١٨٠، ١٨٨، ٢٤١، ٣١٤، ٣١٥، ٥٢٤، ٥٦٣، ٦/ ١٧٦، ٢١٣، ٢٣٥، ٢٤٦، ٣٢٥، ٣٣٨، ٨/ ١٦، ٢٧، ٩٢، ٣٧٥.
مسلم الثبوت: ١/ ٧٢٩.
المصباح المنير: ٥/ ٧٣.
الملل والنحل: ٤/ ٢٩٣، ٦/ ٢٤٦.
المنار: ١/ ٤٩٣، ٤٩٥، ٥٠٨، ٢/ ٤٨، ٧٠، ٨٠، ٨٦، ٩٩، ١٠٥، ١٠٨، ١١٥، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٣٦، ١٤٥، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٩، ١٨٤، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٩٢، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣١٢، ٣٤١، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٥٦، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٨، ٤٠٥، ٤٢٣، ٤٣١، ٤٣٥، ٤٦٥، ٤٧١، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٨٠، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٩٥، ٥٠٢، ٥١٠، ٥١٤، ٥٢٢، ٥٣٥، ٥٣٩، ٥٤٩، ٥٦٣، ٥٨١، ٥٨٦، ٣/ ٣٤، ٥٤، ٦٣، ٨٤، ٨٧، ٩٧، ٩٩، ١٠٦، ١١٣، ١١٧، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٦، ١٩٨، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٤٤، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٨، ٣٠٩، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣٣٦، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦١، ٤٠٠، ٤١٨، ٤٤٤، ٤٤٨، ٤٦٩، ٥٠٠، ٥١٧، ٤/ ١٠، ١١، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٧٠، ٨١، ٨٤، ١٠٥، ١١٧، ١٤٢، ١٥١، ١٥٤، ١٧٤، ١٨٤، ١٩٣، ١٩٤، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٥٠، ٢٦٦، ٢٩٢، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣١٠، ٣١٣، ٥/ ١٤١، ١٤٤، ٣٠٠، ٧/ ٢٧٦، ٨/ ٣٣.
النجوم في مسالكها: ٢/ ٢٣٢.
اليواقيت والجواهر: ٧/ ٢٧٦.

فهرس الأماكن

أحد: ٧/ ٣٣٨.
الأحقاف: ٨/ ٢٣٠.
أذرعات: ٧/ ٣٣٧.
أرض الحرم: ٣/ ١٧٤، ٤/ ٨٥.
أرض الروم: ٥/ ٥٥٦.
أرض الشام = الشام
أرض العراق = العراق
أرض القيامة: ٨/ ١٢٤.
أرض الكنعانيين: ٤/ ٢٤٩، ٣١٩.
أرض المقدس: ٥/ ١٨١، ٢٧٥، ١٨٧.
الأرض المقدسة: ٢/ ١١١، ٣/ ٢٠٢.
أرض بابل: ٢/ ١٤٩، ٥/ ١٨١.
أرض سبأ: ٦/ ١١٠.
أريحاء: ٧/ ٣٣٧.
إصطخر: ٥/ ١٨٧.
أقاصي الترك: ٥/ ٣٨٤.
أم القرى = مكة المكرمة
أنطاكية: ١/ ٦٩٨، ٦/ ١٦٦.
الأهرام: ٥/ ٤٣٤، ٨/ ٢٣١.
أوربا: ٧/ ٣٥٨.
الغيضة: ٤/ ٤٤٣.
إيلياء: ٥/ ٢٧٥، ٨/ ٢٨٥.
بحر الروم: ٢/ ٣٦١.
بحيرة لوط: ٤/ ٢٤٩.
بدر: ١/ ٥٠٠، ٣/ ٥، ٤/ ٥٥٠، ٥٦٤، ٧/ ١٨٥، ١٨٦، ٣٣٦، ٣٨٨، ٣٤٦.
البصرة: ١/ ٧٣١.
بطن نخلة: ٧/ ٥٤، ٨/ ٢١.
بعلبك: ٦/ ٢١٣.
بلاد العرب: ٨/ ٣٥٩، ٣٩٥.
البلد الأمين = مكة
البلد الحرام = مكة
البلقاء: ٧/ ٩٥.
البيت العتيق (الكعبة) = بيت الله الحرام
بيت الله الحرام (المسجد الحرام): ١/ ٦٩٣، ٣/ ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ٤/ ٥٧، ٦٩، ٧٥،

٧٦، ٥٥٢، ٥/ ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٣، ٥٠٢، ٥٥١، ٧/ ٩٩، ١٧٥، ٣٣٦، ٨/ ٢٩٩، ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٦٧.

بيت المقدس: ١/ ٧٩٠، ٢/ ١٠٢، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٦٦، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٣، ٢٤٥، ٣٦٤، ٤/ ٤٤٨، ٥١٥، ٥١٨، ٥/ ١٨٩، ٢٧٥، ٥٥٦، ٦/ ١٠٩، ٨/ ٢٨٥.

تبوك: ٤/ ٥٧، ٥٩، ٧٨، ٨٨، ١١١، ١٣٨، ١٤٢، ٧/ ٩٠.

جبال التنعيم: ٣/ ١٩٠، ٧/ ٩٨.

جبل دمشق: ٨/ ٢٨٥.

جبل الجودي: ٤/ ٢٣٤، ٢٣٦، ٥/ ٥٢٧، ٨/ ٢٨٥.

جبل المناجاة = جبل موسى عليه السلام

جبل موسى عليه السلام: ٥/ ٢٦٨، ٤٩٥، ٧/ ١٧٥، ٨/ ٢٨٦، ٢٨٨.

جزيرة العرب: ٣/ ٢٤٨، ٥/ ٥٥٦، ٧/ ١٠٢، ٣٣٧، ٨/ ٣٩٥.

الحبشة: ٥/ ٥٠٠، ٨/ ٣٦٥.

الحجاز: ١/ ٧٢٧، ٤/ ٧٨، ٨٥، ٨/ ٢٢٠، ٢٣٠.

الحجر: ٤/ ٤٤٣، ٥/ ٥٣٨، ٧/ ٥٣، ٨/ ٢٣٠.

الحديبية (قرية): ١/ ٥٠٠، ٣/ ٥، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٨، ١٩٠، ٢٥٨، ٤/ ٢٧، ٦٥، ٦٧، ٧/ ٨١، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩٥، ٩٨، ١٠١، ١١٠، ١١١، ١٢٩، ٣٦٠.

الحرم: ٨/ ٣٦٦.

حضرموت: ٧/ ٥١، ٨/ ٢٣٠.

حمراء الأسد: ٢/ ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠.

الحيرة: ٦/ ٩، ٧/ ٣٣٧.

خيبر: ٧/ ٨٩، ٩٤، ٩٦، ١٠٢، ٣٣٧.

دار الندوة: ٤/ ٤٧٠.

دمشق: ٥/ ٢٧٥.

ديار ثمود: ٥/ ١٤٧.

ديار عاد: ٥/ ١٤٧.

الرّس: ٥/ ٣٦٨، ٧/ ١٤٠.

الرقيم: ٥/ ١١.

الرمال (التي فيها منازل عاد): ٨/ ٢٣٠.

الرملة: ٥/ ٢٧٥.

روضة خاخ: ٧/ ٣٥٣.

ساحل البحر الأحمر: ٨/ ٢٧٤.

سدوم: ٤/ ٢٤٩، ٤٤٠، ٤٤٢، ٥/ ١٨٢، ٣٦٩، ٥٣٤، ٥٣٥، ٦/ ٢١٥.

سواد الكوفة: ٥/ ٥٣٤.

سور نينوى: ٥/ ٥٣.

سورية: ٢/ ١٤٧، ٧/ ٣٣٩.

الشام (أرض الشام): ١/ ٧١٩، ٧٢٦، ٧٣١، ٣/ ٢٧٣، ٢٧٤، ٤٤٧، ٤٦٨، ٤/ ١٠، ٥٠، ٧٨، ١٤٣، ١٩٩، ٣١٩، ٣٣٧، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٤٣، ٥/ ٨١، ١٤٧، ١٨١، ١٨٧، ٣٦٩، ٤٥٥، ٥٣٤، ٥٣٨، ٦/ ٤٠، ١١١، ٢١٣، ٢١٥، ٧/ ٥٣، ٩٤، ٩٦، ٣٣٧، ٨/ ٢٣٠، ٣٦٦.

شبه الجزيرة: ٢/ ٢٩٠، ٥٥٨.

شمال الجزيرة: ١/ ٧٣٠، ٤/ ٥٨٠.

الشميسي: ٧/ ٨١.

الصفا: ٢/ ٢٢٤، ٢٢٥، ٥/ ٢٣١، ٨/ ٣٩٩

صنعاء: ٧/ ٤٦٥، ٨/ ٣٥٩.

الصين: ٥/ ٣٨٤.

الطائف: ٥/ ٥٠٦، ٦/ ٤٣٩، ٨/ ٢١، ٥٠.

طور سيناء، منبت الزيتون = جبل موسى عليه السلام

طور سينين = جبل موسى عليه السلام

طورتينا: ٨/ ٢٨٥.

طورزيتا: ٨/ ٢٨٥.

العراق (أرض العراق): ٤/ ١٤٣، ٢٤٩، ٥/ ١٨١، ١٨٩.

عرفة: ٢/ ٢٩٢، ٥/ ٢٣١، ٨/ ٢٧٣، ٢٩٣،

العقبة: ٤/ ١١١.

عكاظ: ٧/ ٥٤، ٨/ ٢١.

عمان: ٧/ ٥١.

غار ثور: ٤/ ٢٥، ٩١، ٢٤٩.

غار حراء (جبل النور): ٥/ ٤٣٧، ٨/ ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٩٣.

غوطة دمشق: ٥/ ٢٧٥.

فارس: ٥/ ٥٥٦.

فلسطين: ٢/ ١٤٧، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣/ ٢٠٠، ٤٦٨، ٤/ ١٩٩، ٥/ ١٨١، ٣٩٤، ٥٣٤.

قرى قوم صالح: ٤/ ٢٥٩.

قرى قوم لوط: ٤/ ١٠٨، ٢٥١، ٢٥٩، ٥/ ١٤٧، ٣٦٩، ٥٣٥، ٧/ ١٦٤، ٢٠٤، ٤٨٠.

قرى قوم هود: ٤/ ٢٥٩.

قرية شعيب عليه السلام = مدين

قصور الشام: ٤/ ١٠٤.

القلزم: ٥/ ٤٠٢.

الكعبة = بيت الله الحرام

الكوفة: ١/ ٧٢٦، ٧٣٥.

مدن دائرة الأردن: ٤/ ٢٤٩.

مدين: ٥/ ١٠٩، ٣٩٤، ٤٨٤، ٥٣٧.

المدينة المنورة (يثرب): ١/ ٥٠٠، ٧٣١، ٢/ ١٩، ٨٣، ٨٧، ١٤٥، ٢٦٧، ٥٠٩، ٥٧٢، ٣/

٥، ٩٣، ٢٤٨، ٢٧٣، ٤/ ٢٥، ٣٢، ٥٧، ٦١، ٨٧، ١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٢٨، ١٣٠، ١٤٢، ٤٤٣، ٤٤٨، ٥٦٤، ٥٨٠، ٥/ ٥٤٧، ٦/ ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٩٠، ٤٠٠، ٧/ ٨٧، ٩٣، ١٠١، ١٢٨، ٣٣٣، ٣٣٧، ٤١٠، ٨/ ٥٥، ١٣٣، ١٦٧، ٢٧١.

مدينة قوم لوط: ٤/ ٤٣٨، ٤٤٣.

المروة: ٢/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٥/ ٢٣١.

المزدلفة: ٢/ ٢٩٢، ٢٩٣.

المسجد الأقصى: ٣/ ٢٤١، ٤/ ٥١٨، ٦/ ١٠٨.

المسجد الحرام = بيت الله الحرام

مسجد النبيّ ﷺ: ٣/ ٢٧٠، ٤/ ١٣١، ٧/ ٣٨٧.

مسجد قباء: ٤/ ١٣٠، ١٣١.

المشعر الحرام: ٢/ ٢٩٢، ٢٩٣.

مصر: ٢/ ١٠٥، ١٣٩، ٣٦١، ٣/ ٢٠٢، ٤٦٨، ٤٧٤، ٤/ ١٤٣، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ٢٨٧، ٢٩٤، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٣٨، ٥٧٨، ٥/ ١٠٩، ١٢١، ٢٧٥، ٤٠٠، ٤٧٩، ٤٨٤، ٤٨٧، ٦/ ٣٢١، ٣٢٣، ٧/ ١٤، ٨/ ٢٣٠.

مكة المكرمة: ١/ ٥٠٠، ٧٣١، ٢/ ١٦٦، ٢٠٣، ٢١٤، ٢٢٣، ٢٦٧، ٢٨١، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٠، ٤١٧، ٣/ ٥، ٨٩، ٢٤٨، ٢٥٩، ٢٧٣، ٣٤٢، ٤/ ١١، ١٢، ١٤، ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٥٥، ٦٧، ٨٥، ١٣٠، ١٧٦، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٤٩، ٥١٥، ٥٦٤، ٥٧٣، ٥٧٧، ٥/ ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٨١، ٥٠٢، ٥٠٦، ٦/ ٤٠، ٤٤١، ٧/ ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٧، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ٢٩٠، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٨٠، ٤١٠، ٨/ ٢١، ٥٠، ٥٣، ١٣٤، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٩، ٣١١، ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٩٥.

منازل عاد: ٨/ ٢٣٠.

منى: ٢/ ٢٨٧، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٩، ٦/ ٢٠٩.

مهرة: ٧/ ٥١.

المؤتفكة: ٥/ ١٨١، ٧/ ٤٨٠.

الموصل: ٦/ ٢١٦.

نجد: ٧/ ٩٥.

النيل: ٥/ ١٠٩، ٤٠٢، ٤٧٩.

الهند: ٥/ ٣٨٤.

هيكل سليمان عليه السلام: ٤/ ٥٧٤.

الوادي المقفر (وادي مكة): ٤/ ٤٠٧، ٤٠٨.

يثرب = المدينة

اليمن (أودية اليمن): ٦/ ١١٠، ١١١، ٧/ ٥١، ٥٣، ٩٥، ٨/ ٣٥٧، ٣٦٦.

فهرس قواعد التفسير التي ذكرها المصنف

الموضوع	الجزء والصفحة
المقدِّمة الأولى: في الكلام على نزول القرآن، ومكيِّه ومدنيِّه، ومُجْمَلِ هدفِه وأغراضِه، وخصائصِه في مجاميعه	٤٩٩
المقدِّمة الثانية: في تفصيل خصائص القرآن في أساليبه ومفرداته وتراكيبه، من الحذف والإيجاز، وأنواع الإعجاز	٥٠٦
لاحقة للمقدمة الثانية: في التفسير لبعض آيات تتكرر أمثالها في القرآن أو هي من الآيات المهمة للبيان	٥٥٦
المقدمة الثالثة: في معاني القرآن الدقيقة ومدلولات تراكيبه الواسعة البعيدة المرمى	٦٦٣
المقدمة الرابعة: فيما يُوهِمُ ظاهرُه الاختلافَ في آيات القرآن	٦٧٧
المقدمة الخامسة: في أنواع الخطاب في القرآن	٦٨٠
المقدمة السادسة: في أنواع المجازات في القرآن	٦٨٦
المقدمة السابعة: القرآن والعلوم الكونيَّة فيه	٧٠٣
المقدمة الثامنة: القرآن وغرائز الإنسان	٧٠٦
المقدِّمة التاسعة: أثر القرآن في النفوس السليمة من الانحراف	٧١١
المقدمة العاشرة: القرآن والأديان السماوية الصحيحة وأمهات أصولها الثابتة	٧١٣
المقدمة الحادية عشرة: في كيفيَّة نزول القرآن وترتيبه وقراءته بلهجات العرب وتجويده	٧١٥
المقدمة الثانية عشرة: القراءات السبع في القرآن	٧٣٠

الموضوع	الجزء والصفحة
المقدمة الثالثة عشرة: القرآن والنسخ وهي مُلخَّصة ممَّا قالَه محمد عبده وغيره.....	٧٤٨
المقدِّمة الرابعة عشرة: في إجمال بعض مواضيع القرآن المتعلِّقة بالإنسان ومصالحه دنيا وأخرى	٧٥٤

❊ ❊ ❊

الفهرس الإجمالي للسور

الموضوع	الجزء والصفحة
الفاتحة	٢/ ١١
البقرة	٢/ ١٩
آل عمران	٢/ ٤٣٩
النساء	٣/ ٥
المائدة	٣/ ١٧١
الأنعام	٣/ ٢٨٣
الأعراف	٣/ ٤٠٣
الأنفال	٤/ ٥
التوبة	٤/ ٥٧
يونس	٤/ ١٤٧
هود	٤/ ٢٠٧
يوسف	٤/ ٢٧١
الرعد	٤/ ٣٤٥
إبراهيم	٤/ ٣٨٣
الحجر	٤/ ٤١٥
النحل	٤/ ٤٥١

الموضوع	الجزء والصفحة
بني إسرائيل (الإسراء)	٤/ ٥١٣
الكهف	٥/ ٥
مريم	٥/ ٦٣
طه	٥/ ٩٧
الأنبياء	٥/ ١٥٣
الحج	٥/ ٢٠٥
المؤمنون	٥/ ٢٥٩
النور	٥/ ٢٩٧
الفرقان	٥/ ٣٥١
الشعراء	٥/ ٣٨٧
النمل	٥/ ٤٣١
القصص	٥/ ٤٧٥
العنكبوت	٥/ ٥١٩
الروم	٥/ ٥٥٣
لقمان	٦/ ٥
السجدة	٦/ ٢٧
الأحزاب	٦/ ٤٣
سبأ	٦/ ٩٧
فاطر	٦/ ١٣٣
يس	٦/ ١٦١
الصافات	٦/ ١٨٩
ص	٦/ ٢٢٥

الموضوع	الجزء والصفحة
الزمر	٦/ ٢٦٥
غافر	٦/ ٣٠٩
فصِّلت	٦/ ٣٤٩
الشورى	٦/ ٣٨٣
الزخرف	٦/ ٤٢٣
الدخان	٧/ ٥
الجاثية	٧/ ٢٣
الأحقاف	٧/ ٣٩
القتال (محمد ﷺ)	٧/ ٥٩
الفتح	٧/ ٧٩
الحجرات	٧/ ١٠٧
ق	٧/ ١٣٣
الذاريات	٧/ ١٥٣
الطور	٧/ ١٧٣
النجم	٧/ ١٨٧
القمر	٧/ ٢٠٧
الرحمن	٧/ ٢٢٧
الواقعة	٧/ ٢٥٣
الحديد	٧/ ٢٨١
المجادلة	٧/ ٣١٥
الحشر	٧/ ٣٣٣
الممتحنة	٧/ ٣٥١

الموضوع	الجزء والصفحة
الصف	٧/ ٣٦٥
الجمعة	٧/ ٣٧٧
المنافقون	٧/ ٣٨٩
التغابن	٧/ ٣٩٩
الطلاق	٧/ ٤١٣
التحريم	٧/ ٤٢٧
المُلك	٧/ ٤٤١
نّ (القلم)	٧/ ٤٥٧
الحاقة	٧/ ٤٧٥
المعارج	٧/ ٤٩١
نوح	٨/ ٥
الجن	٨/ ١٩
المزمل	٨/ ٣٥
المدثر	٨/ ٤٥
القيامة	٨/ ٦١
الإنسان	٨/ ٧٧
المرسلات	٨/ ٩٥
النبأ	٨/ ١٠٧
النازعات	٨/ ١١٩
عبس	٨/ ١٣١
التكوير	٨/ ١٤٣
الانفطار	٨/ ١٥٧

الموضوع	الجزء والصفحة
التطفيف (المطففين)	٨/ ١٦٥
الانشقاق	٨/ ١٧٥
البروج	٨/ ١٨٩
الطارق	٨/ ١٩٩
الأعلى	٨/ ٢٠٧
الغاشية	٨/ ٢١٧
الفجر	٨/ ٢٢٥
البلد	٨/ ٢٣٩
الشمس	٨/ ٢٤٩
الليل	٨/ ٢٥٩
الضحى	٨/ ٢٦٧
ألم نشرح (الشرح)	٨/ ٢٧٧
التين	٨/ ٢٨٣
العلق	٨/ ٢٩٣
القدر	٨/ ٣٠١
القيّمة (البيِّنة)	٨/ ٣٠٧
الزلزلة	٨/ ٣١٥
العاديات	٨/ ٣٢١
القارعة	٨/ ٣٢٧
التكاثر	٨/ ٣٣٧
العصر	٨/ ٣٤٣
الهمزة	٨/ ٣٤٩

الموضوع	الجزء والصفحة

الفيل ٨/ ٣٥٥
قريش ٨/ ٣٦٣
الماعون ٨/ ٣٦٩
الكوثر ٨/ ٣٧٧
الكافرون ٨/ ٣٨٣
النصر ٨/ ٣٨٩
المسد ٨/ ٣٩٧
الإخلاص ٨/ ٤٠٣
الفلق ٨/ ٤٠٩
الناس ٨/ ٤١٩



فهرس محتويات المجلد الثامن

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة نوح	٥-١٨
تفسير سورة الجن	١٩-٣٣
تفسير سورة المزمل	٣٥-٤٤
تفسير سورة المدثر	٤٥-٦٠
تفسير سورة القيامة	٦١-٧٦
تفسير سورة الإنسان	٧٧-٩٣
تفسير سورة المرسلات	٩٥-١٠٦
تفسير سورة النبأ	١٠٧-١١٨
تفسير سورة النازعات	١١٩-١٣٠
تفسير سورة عبس	١٣١-١٤١
تفسير سورة التكوير	١٤٣-١٥٦
تفسير سورة الانفطار	١٥٧-١٦٤
تفسير سورة المطففين	١٦٥-١٧٤
تفسير سورة الانشقاق	١٧٥-١٨٧
تفسير سورة البروج	١٨٩-١٩٨
تفسير سورة الطارق	١٩٩-٢٠٥

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الأعلى	٢٠٧-٢١٥
تفسير سورة الغاشية	٢١٧-٢٢٤
تفسير سورة الفجر	٢٢٥-٢٣٨
تفسير سورة البلد	٢٣٩-٢٤٧
تفسير سورة الشمس	٢٤٩-٢٥٨
تفسير سورة الليل	٢٥٩-٢٦٦
تفسير سورة الضحى	٢٦٧-٢٧٦
تفسير سورة الشرح	٢٧٧-٢٨١
تفسير سورة التين	٢٨٣-٢٩١
تفسير سورة العلق	٢٩٣-٣٠٠
تفسير سورة القدر	٣٠١-٣٠٦
تفسير سورة البينة	٣٠٧-٣١٣
تفسير سورة الزلزلة	٣١٥-٣٢٠
تفسير سورة العاديات	٣٢١-٣٢٦
تفسير سورة القارعة	٣٢٧-٣٣٥
تفسير سورة التكاثر	٣٣٧-٣٤٢
تفسير سورة العصر	٣٤٣-٣٤٨
تفسير سورة الهمزة	٣٤٩-٣٥٤
تفسير سورة الفيل	٣٥٥-٣٦٢
تفسير سورة قريش	٣٦٣-٣٦٧
تفسير سورة الماعون	٣٦٩-٣٧٥
تفسير سورة الكوثر	٣٧٧-٣٨١

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الكافرون	٣٨٣-٣٨٧
تفسير سورة النصر	٣٨٩-٣٩٦
تفسير سورة المسد	٣٩٧-٤٠٢
تفسير سورة الإخلاص	٤٠٣-٤٠٧
تفسير سورة الفلق	٤٠٩-٤١٨
تفسير سورة الناس	٤١٩-٤٢٦
خاتمة المؤلف والمحقق	٤٢٧-٤٣١
الفهارس العامة لكامل التفسير	٤٣٣-٤٩٨
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة	٤٣٥-٤٤٧
فهرس الآثار عن الصحابة	٤٤٨-٤٥٢
فهرس الأشعار	٤٥٣-٤٥٤
فهرس البلاغة	٤٥٥-٤٦١
فهرس الأعلام	٤٦٢-٤٨٠
فهرس الفرق والمذاهب العقائدية	٤٨١-٤٨٤
فهرس الكتب	٤٨٥-٤٨٦
فهرس الأماكن	٤٨٧-٤٩٠
فهرس قواعد التفسير التي ذكرها المصنف	٤٩١-٤٩٢
الفهرس الإجمالي للسور	٤٩٣-٤٩٨

❊ ❊ ❊